بحث حول

الخلافة والخلفاء

منيب الهاشمي

تحقيق: زينب الوائلي

الإهداء

الى الذين يتمسّكون بالآية الكريمة : الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

الى الذين يبحثون عن الحقيقة فيدركونها قبل فوات الأوان.

الى الذين يعرفون الرجال في الحق ، ولا يعرفون الحق في الرجال ولو كانوا آباءهم او أجدادهم أو أبناء عشيرتهم ، أو علماء بلدهم أو مدينتهم أو قريتهم.

الى الذين لا يقدّسون الرجال مهما كانت منزلتهم ، سوى الله تعالى والأنبياء والكرام ، وفي مقدّمتهم رسولنا الاكرم)عليه افضل الصلاة والسلام.(

الى الذين لا يتّخذون كبراءهم أرباباً من دون الله.

أهدي هذا الكتاب

تمهيد

منذ أن تفتحت عيوننا على الحياة ، ونحن نرى أمّتنا الاسلامية المترامية الأطراف ، وهي مهيضة الجناح ... تتداعى عليها الأمم وهي مشلولة ... مستكينة ... عاجزة عن ردع الغزاة والمحتلين .وكيف تواجه المعتدين وهي جريحة .. مطعونة .. تنزف باستمرار .. لا تقوى على النهوض ، وقد أخذ الإعياء منها كلّ مأخذ ، ومزّقتها الخلافات كلّ ممزّق؟ وليسنا نبالغ إذا قلنا إن أمّتنا الاسلامية تحتضر منذ أمد بعيد .. لكن طال هذا الإحتضار لحكمة إلهية تستدعي إمهال هذه الأمّة المنكوبة ، عسى أن تصحو من سباتها ، وتتحسس مواضع الداء ومواطن الخطأ في مسيرتها ، لتؤوب الى رشدها ، وتعود الى وعيها من جديد ، وتنهض من كبوتها ، وتتلمس الطريق الذي يؤدي إلى قيادة الأمم الأخرى كما أراد الله تعالى لها ، ورسمه القرآن الكريم.

وقبل أن نسترد وعينا من هذه المتاهات المتضاربة ، نسائل أنفسنا : هل بمقدور إنسان .. مهما كان هذا الانسان ، أن يضع يده على موطن الجرح الغائر ، ويكتشف الدواء والعلاج الناجح قبل فوات الأوان؟ أم انّ المسؤولية تتطلب حشداً هائلاً من الرجال ، من مختلف التخصصات الدينية والفقهية ، لتشخيص أسباب الداء ، ومن ثم اكتشاف الدواء لجسد الأمّة المُنهار.

وحين نفكّر برهة من الزمن ، نتوصّل الى نتيجة حاسمة مفادها بأنّ أي مسلم مهما كانت منزلته العلمية أو الدينية أو الثقافية ، إذا جدّ في البحث والتحقيق ، سيتوصّل الى سُبل الخلاص لهذه الأمّة التي جعلها الله خير أمّة أخرجت للناس ، لولا انحرافها عن الخط الذي رسمه الله لها ، فانزلقت في مهاوي الاختلاف والفرقة والشقاق حتى تفتتت إلى مذاهب وطوائف متناحرة ، يأكل بعضها من لحم بعض ، ويعتدي بعضها على أتباع بعض ، وآل بها الحال الى التناحر والتقاتل والإتهام بالمروق من الدين ، وهي كلّها تستظل تحت راية الاسلام ، وتزعم أنها تستوحي نهجها وسلوكها من القرآن الكريم والسُنّة النبوية المطهّرة والسير على هدْي النبوة.

ثم إنّ القرآن الكريم لم يشرْ إلى هذه المذاهب والطوائف والفِرَق من قريب أو بعيد ، وإنّما حصر الدين بعبارة الاسلام فحسب ، حيث قال تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ولم يقل : ان الدين عند الله ، مذهب أهل السُنّة والجماعة ، أو المذهب الشيعي أو المذهب السلفي وما الى ذلك من المذاهب والفرق والنِحَل.!

فمن أين جاءت هذه التسميات لهذه المذاهب والطوائف التي كانت كثيرة جداً وتقلّصت لتصبح خمساً أو ستاً أو سبعاً على أكثر تقدير؟ ومن أوعز لأصحابها ومؤسسيها بفرض تقليدها على الأتْباع والعوام دون غيرها من المذاهب والطوائف؟ وما الدليل على مشروعية هذه ال مذاهب وانّها تمثّل الحق كما يريده الله ورسوله الكريم؟

وقبل الدخول في صلب بحثنا في تفاصيله الدقيقة ، وتنقيب التأريخ ، وتقليب صفحاته المطوية بدقة ، سعياً لكشف الحقيقة المجرّدة والناصعة التي بقيت خافية على الذين نشأوا مقلّدين للآباء والأجداد دون أن يبذلوا جهداً للتحرّي عن الحق من خلال تصفّح المجريات التأريخية وتراكماتها الّتي أوصلتنا الى حيث العجز والضعف والخَوَر الى حد لا يمكننا النهوض من دون الاعتماد على الغير من أتْباع قوى الضلال والاستكبار الحاقدة على ديننا ومُثُلنا ومبادئنا وقيمنا المقدسة.

تنبغي الاشارة ـ ولو بصورة عابرة ـ الى نقاط مهمة تستدعي إلقاء الضوء عليها كي تتضح معالم موضوعنا الذي نخوض فيه ، باعتباره يمثل نوعاً من المجازفة والخطورة ، كالذي يسير على أسلاك شائكة وهو حافي القدمين ، والسبب أن هناك نوعاً من المُحرّمات والخطوط الحُمر التي يحذّرون المسلمين من اختراقها والتوغّل فيها خشية أن تمسّ أو تزيل هالات مصطنعة حول شخصيات ، تحوّلت بفعل تلك الهالات إلى رموز مقدّسة عند البعض من مختلف المذاهب الاسلامية.

لكن الحق أحقّ أن يُتّبع ، ولابد من إزاحة الاقنعة عن الوجوه ، وكشف النقاب عن الحقائق المرّة التي ظلّت غائبة عن العقول والقلوب لآماد طويلة بفعل التردّد والخوف من إزالة أكداس من الشوائب ، وأكوام من الطلاءات المُتحجّرة حول التأريخ الحقيقي الاصيل الذي ينتظر الصقل الدقيق ليخرج ناصعاً من غير بقع وخطوط سود شوهّت وجهه الاصلي.

النقطة الاولى التي نودّ الاشارة إليها ولو لُماماً ، قضية القيام بدراسة التأريخ الاسلامي والوقوف على مجرياته وحوادثه عن كثب ، وفرْز عناصره الايجابية والسلبية على حد سواء ، وتشخيص مُفرداته وجوانبه الخفية ، وتحديد الأيدي التي أثّرت في ملامحه ورسْم خطوطه الرئيسية حتى ندرك الاسباب والعلل التي أدّت بأمّتنا الى هذا المستوى من التدنّي والانحسار عن موقع القوة والتأثير الى حد أصبحت تضحك منّا الأمم التي سبقتنا على الصعيد العلمي والمدني والحضاري.

ويبدو ان هناك فئاتاً من المسلمين لا ترضى بنبش التأريخ ، وإعادة كتابته خوفاً من المسّ بشخصيات حولها هالة وهمية من» القداسة ، «فلا ينبغي ـ في رأي هؤلاء ـ توجيه أي نوع من النقد أو الاتهام لها ، واعتبار هذا الموقف من المُسلّمات الثابتة التي لا يمكن زحزحتها ، وإن القناعات والثوابت التي آمن بها المسلمون منذ قرون مديدة ، يجب أن تبقى كما هي دون تغيير.

ويستشهد هذا النمط من المسلمين ، لتبرير موقفهم السلبي من إعادة قراءة التأريخ ، خصوصاً في مراحله الاولى ، بالآية القرآنية الكريمة : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

وقد غفل هؤلاء عن هذه الآية إنما تشير الى الامم السابقة للاسلام ، حيث إن ما كسبته تلك الامم ، من سيئات لا تدفع ثمنه الأُمّة الاسلامية التي تُحاسب على أعمالها فحسب.

ومع ذلك فإن هناك آيات قرآنية عديدة تحث المسلمين على أهميتها استقراء سِيَر الامم السابقة لأخذ العبرة منها ، في حين نحن بصدد الحديث عن أمّتنا الاسلامية في أوائل ظهورها ، إذ نحن لم نزل جزءا منها ، وما كسبته من أعمال وممارسات وانحرافات ، لم تزل تبعاتها تمسّ حياتنا يومياً ، فكيف نغضّ الطرف عن تلك ونسدل الستار على فترة أساسية من حياة الأمّة الاسلامية الحرجة ، لأن هناك من لا يروق له كشف الأوراق ، وقراءة التأريخ الاسلامي الاول من جديد ، خوفاً من زعزعة معتقداته التي بناها على أساس الواقع التأريخي المنقول بحذافيره من خلال المؤرخين وكتّاب التأريخ المنحازين الى هذا الطرف أو ذاك ، من مذاهب المسلمين ، وإن اعادة استقراء صفحات التأريخ ، ربما تقلب الموازين ، وتزعزع العقائد والقناعات التي سار عليها هذا المذهب أو ذاك ، وهذه الطائفة أو تلك.

فما الخشية من مثل هذه التوقعات ، مادمنا نحن طلّاب الحق الذي ينبغي أن نتبعه

مهما كانت قناعاتنا ومسلّماتنا وثوابتنا التأريخية ، فلعلنا كنّا مخطئين طيلة القرون السابقة؟ وإلا لو كنّا على الحق المبين ، فلِمَ هذا الانحطاط الذي يلفّ حياتنا جميعاً؟

وكيف أصبحنا أمّة متقوقعة على نفسها ، ولم تستطع أن تجاري الأمم المتقدمة الأخرى ، فضلاً عن أن تسبقها في مضمار الرقي والتقدم والنظم الحضارية؟ ثم ألم تكن الشريعة الاسلامية قد جاءت للناس كافة ، وأرسل الله نبيه الاكرم صلىاللهعليهوآله للبشرية جمعاء؟ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

وبشّر الله تعالى أمّته بأنها ستكون خير الأمم ، وان الدين الاسلامي سيستوعب الاديان السابقة كلها .. فلماذا انحسرت الأمّة الاسلامية عن مسرح الحياة ، وأضحت أمّة على هامش الأمم؟ كل تلك الحقائق المرّة تمرّ على أذهاننا ، ونحن نقرّر خوض تجربتنا مع التأريخ ، سواء سررنا أو حزنّا ، وسواء جاءت نتائج البحث والتحليل لتعزّز قناعتنا السابقة ، أو جاءت بقناعة جديدة.

المهم لدينا ، التوصّل للحقيقة فحسب ، وعدم المضي كالعميان المُنقادين ونحن نتبّع الآباء والأجداد على غير هدى ، فقط أنهم آبائنا وأجدادنا ، ولأنهم كذلك ، فهم على حق مؤكّد لا يمكن المساس به ، ولا يجوز نِقاشه بأي حال من الأحوال؟

هذه القناعة ، هي قناعة وخيار كل أتباع المذاهب الاسلامية وطوائفها وفِرَقها .. فكلهم على حق مبين بالرغم من وجود التضارب في العقائد والاحكام الشرعية المُطبّقة .بينما الاسلام واحد ، والقرآن واحد ، والنبي واحد ... فلِمَ هذه الاختلافات العميقة بين المذاهب والفِرَق العديدة التي أفضت الى حروب وصراعات شعواء ، ذهبت ضحيتها ، نفوس

وجهود وطاقات جمّة ، كانت الأئمّة بأمس الحاجة اليها وهي تواجه الأمم الأخرى في سبيل هدايتها وضمّها الى الأمّة الاسلامية؟

ولاشك ان هناك أسباباً وعللاً أفضت الى هذا التشرذم في صفوف الأمّة ، وحدوث الصراعات والشقاقات الحادة فيما بين ابنائها ، والعجز عن نشر الاسلام في أقصى الارض ، تنفيذاً لأهداف الدعوة الاسلامية التي جاءت للناس كافة.

وقبل الخوض في هذا البحث العقائدي الهام ، لابد من التوقف عند محطتين جوهريتين لا يمكن إستيعاب الموضوع بكل جوانبه ، والوصول إلى نتائج حاسمة دون الإحاطة بهما ، لأنهما تعتبران بمثابة الفيصل في نقد مواقف وسِيَر الشخصيات التي عاصرت البعثة المحمدية وما بعدها ، عن عهد النبي الأكرم صلىاللهعليهوآله إلى العهود المتأخرة ، كما انهما ضروريتان جداً لمعرفة المهام المُوكلة من الله تعالى للرسول صلىاللهعليهوآله والولاية الممنوحة له ، وما هي الواجبات المُلقاة على عاتق المسلمين ازا الرسول صلىاللهعليهوآله وأوامره؟ وهل هي ولاية محدودة بحدود تبليغ القرآن والشرع المقدس ولا تتعدّاها الى كل تفاصيل الحياة .. أم انها ولاية عامة ومطلقة وشاملة للدين والدنيا وتستغرق كل شؤون المسلمين وتفاصيل حياتهم؟.

هاتان الخطوتان والمحطتان ضروريتان جداً ، وتمهّدان السبل لفرز النتائج المترتبة على سيرة ومواقف الرجال الذين عاصروا بدايات نزول الرسالة الاسلامية ، والمجريات التي حدثت منذ ذلك المنعطف التأريخي الخطير وحتى هذا اليوم.

ومهما يكن من شيء ، فإن هاتين المحطتين أو الوقفتين ، ليستا ضروريتين فحسب ، بل هما واجبتان كمقدّمتين مُمَهّدتين لبناء الأحكام على الأشخاص ، وتشخيص درجاتهم الايمانية ، ومدى طاعتهم لله ورسوله أو معصيتهما بالفعل.

المحطة الأولى : معنى أولوية الرسول في حياة المؤمنين : الآية القرآنية ٦ من سورة الاحزاب ، تنص على أن النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .فيا ترى ماذا يقصد القرآن الكريم بهذه الأولوية التي هي أهم من المؤمنين أنفسهم؟

سندرج في الأسطر التالية ، آراء كبار علماء الجمهور المسلم بما يعطي صورة جلية عن معنى» أوْلى «التي من المفروض أن يتقيد بها المؤمنون الصالحون والمخلصون ، فهي تندرج في مفهوم الطاعة التي ينبغي لهم أن يمتثلوا لها من خلال تنفيذ كل الاوامر والتعاليم النبوية حرفيا ، وإلا يصبح الانسان المسلم من العاصين مهما كانت مكانة هذا الانسان ، صحابياً كان أو غير صحابي ، لأن المسألة هي مسألة التمسّك والالتزام بالنص وتطبيقه ، وعدم تجاوزه بأي حال من الأحوال.

تُرى ماذا ي قول علماء التفسير الكبار من الجمهور المسلم عن معنى النبي أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم؟ إليك أيها القارئ ، تفاسيرهم لهذه الآية المباركة» : الاولوية «في الأمور كلها ، فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس ، فلذلك أطلق الولاية ، فيجب عليهم أن يكون أحب اليهم من أنفسهم ، وأمره أنفذ عليهم من أمرها.

ويجب على المؤمنين أن يقدّموا حكم النبي محمد صلى الله عليه وآله على حكمهم لأنفسهم ، لوجوب طاعته لأنها مقرونة بطاعة الله تعالى ، ولأن أنفس المؤمنين تدعوهم الى ما فيه هلاكهم ، والرسول يدعوهم الى ما فيه نجاتهم.

وكما ان أولوية النبي هي من بعض المؤمنين ببعض ، في نفوذ حكمه فيهم ، ووجوب طاعته عليهم وقضائه فيهم .وطبق هذه الاولوية للنبي على أنفس المؤمنين ، فينبغي على كل المؤمنين الذين عاصروا الرسول صلىاللهعليهوآله ، والذين جاءوا من بعده أن يطيعوه طاعة مطلقة ، ويتقيدوا بأوامره كلها ، مهما علت منزلة هؤلاء المؤمنين ، ومهما كانوا مقرّبين إليه ، وإلا أصبحوا عُصاة من الهالكين

المحطة الثانية : الفرق بين الاسلام والايمان : إذا أردنا معرفة الفرق بين الاسلام والايمان ، والتمييز بينهما ، فلابد والحال هذه من التدقيق في الآيات القرآنية التي توضّح بما لا يدع مجالاً للشك ، الاختلافات الجوهرية بينهما .فالمؤمن مهما تكن درجة إيمانه فهو مسلم ، ولكن ليس كل مسلم هو مؤمن ، لأن المسلم ربما يكون منافقاً ، وبالتالي فهو غير مؤمن ، لأن صفة الايمان مضادة لصفة النفاق ولا يجتمعان أبداً كما نصّ القرآن الكريم على ذلك.

فالقرآن يؤكد ان هناك أناساً يدّعون الايمان بالله وباليوم الآخر ، ولكنهم ليسوا بمؤمنين وانهم بذلك يحاولون أن يخدعوا الله والمؤمنين ، وان هؤلاء يندرجون في خانة الذين في قلوبهم مرض والمكذّبين لأنهم يزعمون الاصلاح في الارض ولكنهم مفسدون

ويحذّر الله المؤمنين من إطاعة الكفار والارتداد على الاعقاب وبالتالي سيكون مآلهم الى الخسران

ومن المؤمنين من يبتغي عرَض الحياة الدنيا ويلهث وراء المغانم في الحروب

ويميّز القرآن ، المؤمنين الحقيقيين الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ويعتبرهم المهتدين بحق

ويدعو الله المؤمنين للاستجابة لله والرسول إذا دعاهم وأن يتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة . ويوصي الله المؤمنين بعدم خيانة الرسول ويقول الله للنبي بان الله حسبه ، ومن اتّبعه من المؤمنين لا كلّهم

ويفرز الله المؤمنين ، فئتين ، فئة مهاجرة ومجاهدة بأموالها وأنفسها في سبيل الله ، ومنها التي آوت الرسول ونصرته ... وفئة أخرى لم تهاجر ، وان المؤمنين حقاً هم الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أو الذين آووا الرسول ونصروه

وينصح الله المؤمنين ألا يتّبعوا خطوات الشيطان لأنه يأمرهم بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته ، ما زكا منهم أحد

والله لا يترك الذين يدّعون الإيمان دون أن يفتنهم ليعلم الصادقين من الكاذبين

والمؤمنون الذين يعصون الله ورسوله ، يضلون ضلالاً مبيناً

والمؤمنون الذين إن لم يطيعوا الله ورسوله تبطل أعمالهم

وبإمكاننا تلخيص المفهوم القرآني للايمان والفرق بينه وبين الاسلام ، بأن إسلام المرء لا يقتضي سوى إعلان الشهادتين باللسان فقط دون النفوذ الى القلب ، والاقتناع بالرسالة الاسلامية والقرآن والنبوة ، أما الايمان ، فهو الاقتناع بهذه المفردات ، لكن تتفاوت هذه القناعة وثباتها في أفئدة المؤمنين ، بين قناعة متذبذبة سطحية تتقاذفها الرياح يميناً وشمالاً ، وسرعان ما تتلاشى بمجرد حدوث هزّة ولو كانت بسيطة أو مواجهة فتنة معينة أو إمتحان يسير ، وبين قناعة راسخة متجذّرة في الأعماق ، لا تقتلعها الهزّات والشدائد والفتن والصدمات مهما بلغت من القوة والنفوذ.

وعليه فالقرآن الكريم يصف الطبيعة الانسانية على حقيقتها دون محاباة أو مُصانعة لأحد.

وعموماً فإن المؤمنين الذين كانوا ملتفين حول الرسول صلىاللهعليهوآله ، فيهم خصائص ايجابية وأخرى سلبية .والقرآن الكريم لا ينكر أية خصلة يتصف بها الانسان المؤمن ، ويبرزها على علاّتها حتى وإن نفاها ذلك المؤمن ، أو حاول إخفاءها ، ومع صفاته السلبية والسيئة ، يظل المؤمن مؤمناً ، إذا إذا شكّك في معتقداته أو أنكرها في قلبه وأفعاله.

يبقى المؤمنون المخلصون ، وهم الذين يعملون الصالحات ويتواصون بالحق وبالصبر ، لا يزيغون حتى آخر لحظة من حياتهم ، أو يرتدّون على الاعقاب.

معالم المدرسة السُنيّة وقواعدها

حين نزل الوحي على الرسول الكريم صلىاللهعليهوآله إبّان بعثته المباركة ، آمن بنبوته عدد من أهل مكة ثم أهل المدينة ومن حولها ، وان هؤلاء المسلمين الذين كان أكثرهم من المهاجرين والأنصار ، هم من الصحابة لأنهم لازموا الرسول صلىاللهعليهوآله واحتكوا به وصاحبوه وآووه ، والقرآن الكريم امتدحهم فضلاً عنه صلىاللهعليهوآله .وهؤلاء تلقّفوا كل ما تفوّه به نبينا» عليه الصلاة والسلام «وحفظوه لأنهم كانوا يترقّبون نزول الوحي عليه ليستوعبوا الأحاديث النبوية وتجسيدها في حياتهم وسلوكهم خير تجسيد .وهؤلاء الصحابة الكرام ، هم الذين نقلوا الشريعة الاسلامية التي جاء بها الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله ، الى الأجيال اللاحقة من خلال التابعين لهم بإحسان .والصحابة ـ في رأي الجمهور السُنّي ـ كانوا على درجة كبيرة من الايمان والاخلاص لأنهم لازموا الرسول صلىاللهعليهوآله واحتكوا به واقتبسوا من نور النبوة وأشعة الوحي المباركة ، فنشأت في نفوسهم حصانة ضد الكذب على رسول الله صلىاللهعليهوآله ، وعليه فقد ثبتت عدالتهم أجمعين ، وقام القرآن الكريم والنبي صلىاللهعليهوآله بتزكيتهم باستثناء المرتدين والمنافقين ، وعددهم قليل ومحدود ، وعلى رأسهم بالطبع ، رمز النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول.

وكانت العلاقات بين الصحابة على درجة كبيرة من الاحترام والثقة المتبادلة ، اذ كانت تسود سيرتهم ، مثالية عجيبة ، وعميقة ... كيف لا؟ وقد عاش الرسول صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم ، فاستقوا من معينه العذب .وانبثقت نظريتان عند أهل السنّة والجماعة ، حول الصحابة ، نظرية تؤكد هذه العلاقات الرفيعة بين جيل الصحابة وترفض أي خوض فيما جرى بينهم من صراعات ، ومشاحنات ، باعتبار أن هذه الأمور تأتي من باب الاجتهاد والتأويل ، ولا يحق لنا نبش هذه المجريات ، فنأثم بسبب ذلك ، فهم أعلم منّا في هذا المجال.

وهناك نظرية أخرى تقرّ بوجود تلك الصراعات الدموية والاختلافات السياسية والفقهية ، بل والانحرافات بين صفوف بعض الصحابة إلى حد ارتكابهم للمنكرات والموبقات ، لكن هذه الأمور الشائنة كلها لا تؤثر في عدالتهم الثابتة والمفروغ منها في الكتاب والسُنّة ، حيث حذّر الرسول صلىاللهعليهوآله من سبّهم ولعنهم والاساءة اليهم ، وإنّ الله أعدّ للذين ينالون من الصحابة عذاباً أليماً في الآخرة ،وحذّر من المسّ بالصحابة الكبار الملازمين للنبي صلىاللهعليهوآله في حلّه وترحاله ... ولذا لا يجوز الخوض فيما جرى بين الصحابة خاصة بعد رحيله صلىاللهعليهوآله ، لأن ذلك يعتبر مساساً بنزاهتهم وقداستهم ، وهم الذين أعدّهم الله لحمل أمانة نقل الحديث النبوي من بعده الى الأجيال اللاحقة.

وبعد أن أدّى الرسول صلىاللهعليهوآله مهامه الجسيمة في تبليغ الرسالة الاسلامية وإكمال الدين ، رحل الى بارئه الاعلى دون أن يشير الى خليفة من بعده ، أملاً في ان تقوم الأمّة باختيار الخليفة المناسب الذي يقوم مقامه في إكمال وإستمرار المسيرة الاسلامية.

واجتمع الصحابة أو بعضهم في سقيفة بني ساعدة واختاروا الخليفة الأول أبي بكر ، وبايعه جل المهاجرين والأنصار باستثناء علي وبني هاشم الذين كانوا يعتقدون أنه أحق بالخلافة من أبي بكر لسابقته وقربه من الرسول صلىاللهعليهوآله ،لكنه سرعان ما بايع كسائر المسلمين حفظاً لوحدة الأمّة.ولما حانت وفاة الخليفة الأول ، أوصى من بعده الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي بايعته الأمّة خليفة عليها ، وهو الخليفة الراشد الثاني الذي عيّن قبل موته مجلساً للشورى يتكون من ستة من الصحابة الأجلّاء .وانتخب هذا المجلس الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفّان الذي في عهده حدثت فتنة كبرى أثارها بعض المشاغبين في مصر والعراق والمدينة المنوّرة أدّت الى مقتل عثمان ومبايعة المسلمين لعلي رابع الخلفاء الراشدين.

وفي عهد الخلفاء الراشدين الثلاث تم تدوين القرآن بعد إن كان موزّعاً في الصحف والرقاع والصدور.

وكان عهد هؤلاء الخلفاء الراشدين ، عهد عدالة ورفاهية ومساواة بين الرعية ونبذ للظلم والاجحاف والتلاعب بمقدرات المسلمين لأن سيرة هؤلاء الخلفاء ، كانت امتداداً للسيرة النبوية ولم تشهد تعسفاً وإنحرافاً عن المبادئ والتعاليم الاسلامية ، ولذلك فهي تعتبر سيرة مثالية .وأقوال وآراء الخلفاء الراشدين حجة في الدين ، إذ كانوا مجتهدين يراعون المصلحة الاسلامية العليا.

وقد منع الخلفاء الثلاث الأوائل تدوين الحديث لئلا يختلط بالقرآن الكريم ، وتخللت عهودهم فتوحات عديدة في العراق وفارس وسوريا ومصر ، غير ان الاوضاع تغيرت بعد مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب على يد الخوارج فقد أصبح الحكم ورائياً ينتقل من الآباء الى الأبناء.

ولم يكن الحكم الأموين الذي أخلف الحكم الراشد ، صفات الحكم الاسلامي العادل سوى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي يُعدّ خليفة راشد خامس.

ولم تتوقف الفتوحات في العهد الأموي ، بل امتدت الى أقاصي آسيا وافريقيا حتى شملت الاندلس .وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وبإيعاز منه بالذات ، انبثقت فكرة تدوين الحديث النبوي كيلا يضيع ويتلاشى بعد مئة عام على رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وموت أكثر الصحابة.

تقوض الحكم الأموي بعد سبعين عاماً على تبوّء بني أميّة للخلافة ، وتصدى بني العباس للسلطة والحكم حيث بدأ نشوء المذاهب الاسلامية الكبرى ، واتسعت حركة الاجتهاد ليصل عدد الفقهاء والمجتهدين الى أربعمائة مجتهد او اكثر ، اما عدد أصحاب المذاهب ، فبلغ ثلاثة عشر إماماً ، إندثرت مذاهبهم سوى أربعة مذاهب اعتمدها الجمهور وهي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، وكل أصحابها إلتمسوا من الرسول صلىاللهعليهوآله ، والاختلافات بين هذه المذاهب ، اختلافات فقهية فرعية ، جاءت لاغناء الفقه الاسلامي وإثراء جوانبه المتعددة ، مما أدى الى تنويه الأحكام الشرعية وتوسيع نطاقها ، وبالتالي فإن الاختلافات بين المذاهب الاربعة ، اختلافات ايجابية محمودة مادامت إختلافات فقهية لا تقضي الى صراعات ومشاحنات تعصف بالامّة الاسلامية وتذهب ريحها وتفتّ في عضدها.

واليوم طبق الرؤية السُنّية . يعيش أتباع المذاهب السنّية الأربعة في وئام وتآخْ . وليس هناك ما يدعو الى تنازع وشقاق بعد أن اتفقت الامّة على صحة هذه المذاهب وأفضليتها ، وانها تسير على الخط الذي رسمه الله ورسوله الكريم» عليه الصلاة والسلام «ولم تحدّ عنهما أبداً.

وللتأكد من صحة دعاوى الجمهور المسلم الذي تجسّده مذاهب أهل السُنّة والجماعة ، لابد لنا من التوغل في عمق المدرسة السُنّية ورؤيتها للتحوّلات التي طرأت على الدعوة الاسلامية غداة رحيل الرسول الى بارئه الاعلى ، والمجريات التي عاصرتها خلال القرون الثلاثة الاولى وما بعدها من قرون خلت.

النظرة السنية للتوحيد

صفات الله تعالى عند أهل السُنّة

يُجمع أهل السُنّة والجماعة على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسُنّة كلها ، والايمان بها ، وحملها على الحقيقة لا المجاز.

فكل صفة وصف الله بها نفسه ، أو وصف بها رسوله صلى الله عليه وآله ، فهي صفة حقيقية لا مجازية.

ولذلك ينقل صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله ، قوله بأن جهنم لا تزال يُلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الله فيها قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط.

ويروي المؤرخون عن النبي صلى الله عليه وآله ، قوله بأن الله يهبط في ثلث الليل الأخير الى السماء الدنيا ثم تفتح أبواب السماء حيث يبسط يده ، قائلاً : هل من سائل يعطي سؤله فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر) ١ .(وان الله خلق آدم على صورته طوله ستون

وحين جاء رجل من أهل الكتاب الى النبي صلىاللهعليهوآله ، ووصف له كيف يمسك الله السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع وهو يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، ضحك الرسول صلىاللهعليهوآله قائلاً : ما قدروا الله حق قدره) ٣ .(كما إن الله سوّى فوق السماء سريراً) ٤.(

وعن جرير بن عبد الله البجلي ، قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله ، فنظر الى القمر ليلة البدر فقال : »إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته) «٥.(

وتروي كتب الصحاح عن النبي محمد صلى الله عليه وآله بأن الله أتاه في أحسن صورت ، فقال : يا محمد ، قلت : لبيك ربي وسعديك ، فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما بين المشرق والمغرب ... وتجلّى لي كل شيء وعرفت ، وان أهل الجنة بينا هم في نعيمهم ، اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فينظر اليهم ، وينظرون إليه ، ولا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم «

ويقول» عليه الصلاة والسلام «في موقع آخر بأنه رأى ربه في صورة شاب أمرد عليه حلّة حمراء ، ويقرع النبي صلى الله عليه وآله باب الجنة ، فيقال : من أنت ، فيقول : أنا محمد ، فيفتح له فيأتي ربه عز وجل على كرسيه ، فيخرّ له ساجداً) ٢ .(

أما كيف يكون الحال عند رؤية الرب تبارك وتعالى ، فإن رسول الله يتلو هذه الآية : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ٣ ، (ثم يقول» : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل

النار النار ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ... فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النظر ، الى وجهه الأعلى) «٤.(

وملأ إبن خزيمة كتابه من الروايات الدالة على التشبيه والتجسيم ، وقد عقد فصولاً للوجه واليدين ، وكل عضو مما وردت فيه الروايات الصحاح ، إذ يقول : ان الحق والصواب والعدل ، في هذا الجنس مذهب أهل الآثار ، ومبتغين السنن ، واتفقوا على جهل من يسميهم» مشبّهة ، «إذ الجهمية المعطلة ، جاهلون بالتشبيه ، نحن نقول : الله جلّ وعلا له يدان ، كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله.

ونقول : كلتا يدي ربنا يمين ، على ما أخبر النبي» عليه الصلاة والسلام ، «ثم يذكر قوّة يد الله ، وانه قبض الأرض بأحديهما ، مع ان جميع بني آدم عاجزون عن جزء من أخذ قطعة واحدة من أرض واحدة من سبع أرضين .فكيف يكون من وصف يد خالقه بما بيّنا من القوة ، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز ، مشبّها يد الخالق بيد المخلوقين؟ أو كيف يكون مشبّهاً من يثبت لله أصابع على ما بيّنه النبي للخالق الباري) ١.(

ويرى) أبو الحسن الاشعري (زعيم الأشاعرة ، وجوب الأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه ، وإن لله وجهاً لا كوجه العبيد وان لله يداً لا تشبه أيدي المخلوقات .والأشعري يرى وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد.

ويسمّي أهل السُنّة ، الاعضاء والأجزاء والحركات ، صفات ، ويسمّون أنفسهم» صفاتية «و»أهل الاثبات «ويسمّون من ينكرها ، أو يؤولها من المعتزلة والشيعة والاشاعرة» معطّلة «و»نفاة «و»جهمية.«

والاشاعرة في مسألة الصفات» أي إثبات الأعضاء والحركات «هم من أهل التنزيه ، ويخالفون أهل الحديث إلا في مسألة رؤية الله في الآخرة.

وأهل الحديث يكسرون الطاغوت الذي صنعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات ، وهو طاغوت المجاز ، ما حاصله : ان تقسيم الألفاظ والمعاني الى الحقيقة والمجاز باطل ، وجاء ابن تيمية في القرن الثامن ، فجدّد القول بالتشبيه في الناس ، وسمّى دعوته ب»السلفية) «٢.(

فهو يؤكد : ان قول نفاة الرؤية والصفات ، والعلو على العرش ، والقائلين بأن الله لم يتكلم ، بل خلق كلاماً في غيره ، ونفيهم ذلك ، لأن إثبات ذلك تجسيم ، هو الى مخالفة الكتاب والسُنّة والاجماع السلفي والآثار أقرب من قول من أثبت ذلك.

ويستطرد إبن تيمية ، قائلاً : ليس في كلام الله ، ولا سُنّة رسوله ، ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين ، ولا الأكابر من التابعين من ذمّ المشبّهة ، ونفى مذهب التشبيه ، وانما اشتهر هذا من جهة الجهمية.

إن الكتاب والسُنّة والاجماع لم تنطق بأن الاجسام كلها محدثة ، وإن الله ليس بجسم ، ولا قال ذلك إمام من أئمة المسلمين ، فليس في تركي لهذا القول خروج عن الفطرة ، ولا على الشريعة) ١.(

وعموماً إن رؤية الله تبارك وتعالى هي أعلى كرامة يحصل عليها أولياء الله عزّ وجل ، فإن نعيمهم برؤيته يفوق نعيمهم بطيّبات الجنة .وأكرم الخلق على الله تعالى أتقاهم ، ولذا كان المرء ينظر الى ربه مرات تزيد وتنقص على مقدار ما اسلف في دنياه من اعمال صالحة) ٢.(

مكانة النبي الاكرم صلىاللهعليهوآله عند اهل السنة والجماعة

يعتقد الجمهور السُنّي بشكل عام ، ان الاجماع واقع على عصمة الأنبياء بعد النبوة من تعمّد الكذب في الاحكام الشرعية لدلالة المعجزة على صدقهم.

وأن الرسل معصومون فيما يؤدونه عن الله تعالى ، وليس بمعصومين ننفي نغير ذلك من الخطأ والنسيان والصغائر ، وأنهم »عليهم السلام «لم يُعصموا في الأفعال ، بل في الأداء نفسه ، ولا يجوز عليهم الكذب والأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى) ١.(

هذا الموقف السُنّي ينطبق على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله كما ينطبق على الأنبياء السابقين.

ويروي أهل السُنّة والجماعة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، قوله : إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر) ٢.(

وقال» عليه الصلاة والسلام «ذات يوم : إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن) ٣.(

وذات مرة ، قال صلى الله عليه وآله : ، إنما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي ، فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب) ٤.(

والنبي صلى الله عليه وآله ، ـ حسب أهل السُنّة والجماعة ـ لم يكن يفعل المعاصي المحرّمة ، فإن فعل شيئاً من الصغائر سهواً لم يقر عليه) ١.(

فالعصمة إنما تتعلق بتبليغ الرسالة والعمل بها ، فالرسل معصومون من الكذب ومن الخطأ في التبليغ ومن العمل بما ينافي ما جاءوا به من التشريع) ٢.(

أما إجتهاده صلى الله عليه وآله ، فمردّه الى الوحي ، الذي لابد أن يقرّه عليه فيا لنهاية أو يبيّن له ما هو الأوْلى فيه).٣)

الصحابة في منظار مدرسة الخلفاء

من هو الصحابي؟

مَنْ صحب النبي محمد صلى الله عليه وآله ، ومَنْ لقيه مسلماً ثم مات على الاسلام ، أو من رآه من المسلمين ولو من بُعد) ١.(

وهل يشترط فيا لرائي بحيث يُميّز ما رآه أو يكتفي بمجرد حصول الروية؟ فهو موضع نظر) ٢.(

بل إنهم جعلوا من الصحابة من لم ير النبي صلى الله عليه وآله ، وهو مسلّم له ، أو له رؤية قصيرة ، بل ومن صحب النبي صلىاللهعليهوآله أو رآه ساعة من نهار .. فهو من أصحابه صلى الله عليه وآله) ، ٣.(

فإن محمد بن أبي بكر ، وُلد قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ، بثلاثة أشهر وأيام كما ثبت في الصحيح ، ومع ذلك يُعتبر صحابياً) ٤.(

وأيدوا تعريفهم بما رووه عنه» عليه الصلاة والسلام «من انه قال : يغزو قوم،

فيقال : هل فيكم من رأى رسول الله فيفتح لهم .وإن الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وآله ، مؤمناً به ، ومات على الاسلام ، فيدخل فيمن لقيه ، ومن طالت مجالسته أو قصرت) ١.(

ومن روى عنه صلى الله عليه وآله ، ، أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغزُ ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى ، أو ولد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله) ، ٢.(

عدالة الصحابة

يؤمن أهل السُنّة والجماعة بعدالة كل فرد ممن سمع النبي صلى الله عليه وآله ، أو رآه من المسلمين مطلقاً .واحتجوا بحديث» : كل من دبّ ، أو درج منهم أجمعين أكتعين .«واعتبر علماء السُنّة ، الصحابة جميعهم عدولاً ، لا يجوز عليهم النقد ، ولا يُتجه إليهم تجريح» ، إن بساطهم قد طُوي ، «من لابس الفتنة وغيرهم ، وما صدر منهم يحتمل لهم بحجة أنهم مجتهدون) ٣.(

فهم لا يقربهم ما يعتري كل انسان من سهو أو خطأ أو وهم أو نسيان ، لأنهم شاهدوا نور النبوة ، فقد عًصموا من الاقتحام في الذنب ، ولذلك كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة) ٤ .(كما إن جميع الصحابة عدول لا يتطرق إليهم الجرح ، ومن انتقص منهم أحداً فهو من الزنادقة.

والصحابة كلهم في الجنة قطعاً ، ولا يدخل أحد منهم في النار لأنهم المخاطبون

بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) ١.(

ويعتقد الجمهور بوجوب تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم ، كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله ،)٢.(

واثبات العدالة لهم ، والكف عن الطعن فيهم .وينبغي الاعتقاد بجلالة الصحابة وبراءتهم من كل نقص ، لأن عدالتهم ثابتة معلومة لكل مسلم كتاباً وسُنّة وإجماعاً) ٣.(

عدالة الصحابة في القرآن الكريم

وتتجسد في الآيات التالية:

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .آل عمران ١١٠(

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً) .البقرة ١٤٣(

لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) .الفتح ١٨(

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .التوبة ١٠٠(

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) .الانبياء ١٠١(

عدالة الصحابة في السُنّة النبوية

يقول النبي صلى الله عليه وآله» : ، اصحابي كالنجوم بأيهم إقتديتم إهتديتم) «١.(

» :خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) «٢.(

» :لا تسبوا أصحابي) «٣.(

» :ان الله اختارني واختار أصحابي ، فجعلهم أصهاري ، وجعلهم أنصاري وانه سيجيء في آخر الزمان قوم ينتقصونهم ، ألا فلا تنكاحوهم ، ألا فلا تنكحوا إليهم ، ألا فلا تصلّوا معهم ، ألا فلا تصلّوا عليهم ، عليهم حلّت اللعنة) «٤.(

» :من سبّ أحداً من أصحابي ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ومن عابهم أو انتقصهم فلا تؤاكلوه ولا تشاربوا ولا تصلوا عليه) «٥.(

» :إياكم وأصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ، ما بلغ مدى أحدهم ولا نصفيه) «٦.(

» :إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين ، سوى النبيين والمرسلين ، واختار لي منهم أربعة : أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، فجعلهم خير أصحابي وفي

اصحابي كلهم خير) «١.(

» :تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : ومن يا رسول الله؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي) «٢.(

فتاوى الصحابة وآراؤهم واجتهادهم وسُنتّهم

يعتبر مذهب الصحابي ـ لدى أهل السُنّة والجماعة ـ حُجة مطلقاً ، اذ كان الصحابة يجتهدون ، وهم بعيدون عن المدينة أو مقيمون فيها) ٣.(

وسُنّة الصحابة ، سُنّة يعمل بها ويرجع اليها ، والدليل على ذلك ، أمور : ثناء الله عليهم ، ومدحهم بالعدالة وما يرجع اليها كقوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ٤ ، (وقوله : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) ٥ ، (ففي الاولى إثبات الافضلية على سائر الامم ، وذلك يقضي باستقامتهم على كل حال وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة ، وفي الثانية ثبات العدالة مطلقاً.

فالصحابة مُخاطبون على الخصوص ، وهم أول من داخل في شمول الخطاب ، فإنهم أول من تلقّى ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله ، وهم المباشرون للوحي ، وثالثاً انهم أوْلى

بالدخول من غيرهم ، اذ الاوصاف التي وُصفوا بها لم يتصف بها على الكمال إلا هُمْ ، فمطابقة الوصف للاتصاف شاهد على أنهم أحق من غيرهم بالمدح.

أما فتاوى الصحابة فأوْلى أن يُؤخذ بها وإن اختلفوا .وهكذا ان أهل السُنّة والجماعة يعتبرون كل من صحب رسول الله ولو فترة قصيرة جداً ، عادلاً ولا يكذّب ولا يتعمّد الخطأ ، بل يجوز الاقتداء بما قاله أو رواه أو عمله ، ويعتبر حجة على من سواه.

فكل فرد في الأمّة كان يحبّه صلى الله عليه وآله ، أكثر مما يحب نفسه التي بين جنبيه ، وهم الذين كانوا يبتدرون قطرات وضوئه قبل أن تسقط على الأرض ، فلا تكاد تسقط إلا في يد أحدهم ، وما من أمّة على الارض أحبت نبيها وقائدها محبة الصحابة لرسول الله ، فقد كان أحدهم لا يستطيع أن يملأ عينيه من النظر إليه ، من حبّهم له وهيبته التي ملأت قلوبهم وجوانحهم) ١.(

صفوة القول في هذه الشريحة المُصطفاة

ومخلص القول ، فالصحابة عند أهل السُنّة والجماعة ، هم الصفوة ، وهم أعلى مستوى من الأدب والأخلاق والعلم لأنهم تعلّموا ممن يوحي إليه ربّه .وأنهم كانوا يعيشون حلاوة الايمان لأنهم فهموه واستوعبوه ، وهؤلاء الصحابة هم القدوة لنا عمّا تعلّموه من النبي الكريم ، فكانوا على قدر كبير من الفهم والعلم.

والصحابة ـ عند الجمهور ـ حَمَلة الاسلام وأمنته وحفظته بعد رسول الله صلىاللهعليهوآله ، اختارهم الله وإصطفاهم لصحبة نبيه والجهاد معه ، فقاموا بذلك خير قيام ، فأكرمهم الله

فعدلهم وزكاهم ومدحهم في القرآن الكريم.

وقد ذهب جمهور العلماء الى أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل ، فقد اصطفاهم واختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ، وقد رباهم النبي على مائدة القرآن والسُنّة النبوية ، فكانوا خير القرون وأفضل البشر بعد الأنبياء.

هذه هي مجمل نظرية الجمهور المسلم المعروف بأهل السُنّة والجماعة ، في الصحابة ، وموقفه منهم في حياة الرسول وبعد وفاته.

وفاة الرسول وخلافته صلى الله عليه وآله

توفي رسول الله صلى الله عليه وآله ، عند أهل السَنّة والجماعة ولم يوصِ بالخلافة الى أحد ، وانما فسح المجال للمسلمين في اختيار خليفة من بعده) ١.(

فلم يكن رسول الله قد نصّ على إمام أو خليفة ـ أصلاً ولم يستخلف ولم يوصِ الى أحد بعينه .وقد أفرد ابن كثير الحنبلي ، والسيوطي باباً مستقلاً لاثبات ان النبي لم يستخلف) ٢.(

وانتخب المهاجرون والانصار أبا بكر خليفة لرسول الله ثم عمراً ثم عثمان ثم علياً ، وهم الخلفاء الراشدون الاربع.

وهؤلاء الخلفاء الراشدون المهديون ، كانوا أئمة علماء بالله تعالى ، فقهاء في أحكامه ، وكانوا مشتغلين في الأقضية)٣.(

وعليه فإن الامام بالحق بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي .وهؤلاء الخلفاء الاربعة الموسومون بالرشاد ، أوصى النبي صلى الله عليه وآله ، باتّباعهم لقوله صلى الله عليه وآله:

عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ) ١.(

ومنذ ذلك الحين ، بدأت ملامح المدرسة السُنّة بالظهور ، فالسُنّة هي الطريقة المعبّدة والسيرة المتبعة ، وسُنّة النبي هي طريقته التي كان يتحرّاها) ٢.(

واصطلح المحدّثون على تسمية كلام الرسول» حديثاً وسُنة.«

الخلافة الراشدة في الاطروحة السُنيّة

تنقسم الخلافة الاسلامية التي أعقبت رحيل الرسول صلى الله عليه وآله ، الى بارئه الاعلى ، الى خلافة راشدة ابتدأت بالخليفة الأول أبي بكر ، ثم الثاني عمر بن الخطاب ، ثم الثالث عثمان بن عفان ، ثم الرابع علي بن أبي طالب ، ويُضاف اليهم من العهد الأموي عمر بن عبد العزيز ، وهو الخليفة الراشد الخامس.

أما خلفاء الدول الاسلامية الكبرى الثلاث ، الاموية والعباسية والعثمانية ، فهم ليسوا خلفاء راشدين لأن عهودهم تخللّتها فترات ظلم واستبداد بحق الرعية ، ومع ذلك فلم يكن يحق للمسلمين . عند أهل السُنّة والجماعة . القيام ضدها أو محاربتها لأن هؤلاء الخلفاء كانوا يصونون الثغور فضلاً عن قيامهم بالفتوحات الواسعة في أعماق آسيا وإفريقيا وأوروبا.

بَيْد ان عهد الخلافة الراشدة ، يتسم بالعدل والإحسان وحفظ حقوق الرعية ، وهو يعتبر استمراراً للعهد النبوي ، ولا يحق لأي انسان مسلم توجيه النقد والاتهام للخلافة الراشدة أو الطعن في سياستها وممارستها ، وإلا يُحشر في صف الخونة أو ربما الخارجين عن الدين ، خاصة وان الخلفاء الراشدين الاربعة من كبار الصحابة وأجلّائهم.

ويُحتج لذلك بقوله صلى الله عليه وآله : ، عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ) ١ ، (وقال ابن القيم الجوزية في توجيه الحديث : فقرن

سُنّة خلفائه بسُنّته ، وأمر باتّباعها كما أمر باتباع سُنّته ، وهذا يتناول ما أفتوا به وسنّوه للأمّة ، وإن لم يتقدم من نبيهم فيه شيء ، وإلا كان ذلك سُنّته .فيما قال الغزالي : إن الامام بالحق بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي) ١.(

ثم قال» : إعلم ان الخلافة بعد رسول الله تولّاها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى ، فقهاء في أحكامه ، وكانوا مشتغلين في الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يُستغنى فيها عن المشاورة «).٢(

ففقهاء أهل السُنّة والجماعة يعدّون سيرة الشيخين الصديق والفاروق أصلاً تعادل سنن الشارع في إثبات الأحكام الشرعية في حياة الأمّة وإدارة الدولة وان الخلافة الراشدة معصومة عصمة الرسالة) ٣.(

اما موقف أهل السُنّة والجماعة من الحكومات غير الراشدة فقد أوصى رسول الله المسلمين بعدم سب الولاة ، فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعلى المسلمين الشكر ، وإن أساؤا فعليهم الوزر وعلى الرعية الصبر ، وانما هم نقمة ينتقم الله بها مما يشاء ، فلا يستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب وانما يستقبلوها بالاستكانة والتضرّع) ٤.(

ويقول الغزالي في هذا الشأن» : ان أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ... فانهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه.«

فيما يقول عبادة بن الصامت» : دعانا رسول الله فبايعنا ، فقال فيما أخذ علينا أن

بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) «١.(

إن الاسلام لم يجز الخروج على الحاكم لمجرّد إساءة يرتكبها أو مظالم يفعلها في البلاد.

وإن نُصب حاكم المسلمين يتم بالبيعة له ، والبيعة عهد من قبل الحاكم على تطبيق الاسلام .. والبيعة من قبل الأمّة ، طاعة هذا الحاكم في غير معصية ، وتنفيذ أمره فيما لا يُخالف الاسلام ، وأساس ذلك قول الرسول صلى الله عليه وآله » : ،على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة «).٢(

وأخيراً إن موقف أهل السُنّة والجماعة في مسألة الخلافة هو التسليم بالأمر الواقع ، دون تأييد أو خروج عليه) ٣.(

الخليفة الاول عند الجمهور المسلم:

»أول من جمع القرآن«

تولّى أبو بكر ، الخلافة بعد أن بايعه المهاجرون والانصار ، فخطب قائلاً» : يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) «١.(

فأفضل خلق الله على التحقيق بعد النبي صلى الله عليه وآله ، هو أبو بكر . عند اهل السُنّة والجماعة . ، كما ان رسول الله قال لعائشة» : أخبرك ان أباك الخليفة من بعدي فإكتمي ذلك عليّ) «٢.(

ولم يكن القرآن الكريم مجموعاً ، فجمعه أبو بكر في مصحف واحد ، فهو أول من أمر بجمع القرآن في مصحف واحد ، وقد كان قبل ذلك مُفرقاً في الصحف عند بعض الصحابة وفي صدور القراء) ٣.(

وقال أبو بكر لمّا بويع : وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني ، فإذا

رأيتموني ، استقمت فإتبعوني ، وإن رأيتموني زغت فقوموني .واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني ، فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني ... وإن لي شيطاناً يعتريني فإذا أتاني فاجتنبوني) ١.(

وقال أيضاً : إني لست بخيركم فبايعوا خيركم ... أفتضنون أني أعمل فيكم بسُنّة رسول الله صلىاللهعليهوآله إذ لا أقوم بها ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله ، كان يُعصم بالوحي ، وكان معه ملك ، وإن لي شيطاناً يقربني) ٢.(

ولما كان الاسراء في السنة الاولى قبل الهجرة ، صدّق أبو بكر الرسول كلّ ما قاله الرسول فسمّاه الرسول» الصدّيق «)٣.(

ولما اختار المسلمون أبا بكر خليفة لرسول الله بعد وفاته صلى الله عليه وآله ، بدأت في أيامه الفتوح في العراق والشام.

وفي غار ثور ، اتفق أنْ مرّ المشركون بالغار ، فاستشعر أبو بكر شيئاً من الخوف منهم ، وكانت قد نزلت الآية الكريمة : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ٤) (٥.(

وبلغ أبو بكر من الحيطة في الحفاظ على القرآن الكريم ، والتحفّظ في رواية السُنّة ، ان جمع الناس بعد وفاة النبي ، وقال لهم : إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث

تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً ، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً .فمن سألكم فقولوا له : بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه) ١.(

وقال صلىاللهعليهوآله : اقتدوا باللذين بعدي أبي بكر وعمر) ٢.(

ولما حانت وفاة أبي بكر ، استخلف من بعده على الأمّة ، عمر بن الخطاف ، قائلاً لهم : ان رأوه عدلاً فيهم ، فذلك ظنّه به ، ورجاءه فيه وعلمه فيه ، وإن بدّل وغيّر ، فالخير أراد ولكل امرئ ما اكتسب ، ولا يعلم الغيب) ٣.(

الخليفة الثاني عند الجمهور المسلم:

»الشجاع .. المحدّث«

يؤمن أهل السُنّة والجماعة» : بأن عمر بن الخطاب ، كان أول من تسمّى بأمير المؤمنين من الخلفاء في الاسلام الذي كان ذليلاً فعزَّ بإسلام عمر ، فبادر المسلمون الاوائل الى الصلاة في المسجد الحرام جهراً ، إذ ان إسلام عمر كان نصراً عظيماً للمسلمين .ورافق عُمَر الرسول في جميع الغزوات والحروب .وكان الرسول يستظهر برأيه في كثير من القضايا والأمور) «١.(

ولما توفي الرسول واختلف المسلمون فيما بينهم ، حسم عمر الخلاف بتقديم أبي بكر للخلافة ومبايعته) ٢.(

وفي أيام عمر فتح المسلمون العرب ، العراق وفارس والشام ومصر.

وكان عمر حازماً عادلاً حتى سُمّي» الفاروق «الذي يفرّق بين الحق والباطل» .وكان حكيماً في الادارة ، ما أصدر أمراً إلا بعد أن يكون قد إحتاط لجميع المشاكل التي يمكن أن تنشأ من جراء تنفيذه.«

وإن الرسول صلى الله عليه وآله ، حينما قال» : اللهم أعزّ الاسلام بعمر بن الخطاب ، غمرت

الكآبة قريش ، وامتلأت نفوسهم خشية منه ، الى درجة أن صرّح الصحابي ابن مسعود ، قائلاً : ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر) «١.(

ولطالما وافق عمر الوحي في الكثير من الشريعة الاسلامية كمسألة أسرى بدر ، ومسألة تحريم الخمر وقضية حجاب النساء ، ومقام إبراهيم) ٢.(

فعمر بن الخطاب ، الشجاع ، الحازم ، صاحب الفتوحات ، يُضرب بعدْله المثل .وفي أيامه تم فتح الشام والعراق والقدس والمدائن ومصر والجزيرة ، وهو أول من وضع للعرب التأريخ الهجري) ٣.(

وقال عنه النبي محمد» عليه الصلاة والسلام : «عمر سراج أهل الجنة .ولو كان بعده صلى الله عليه وآله ، نبي لكان عمر بن الخطاب .وهو قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم .وهو يُكلّم من غير أن يكون نبياً ، كرجال بني اسرائيل المكلِّمين) ٤.(

والنبي صلى الله عليه وآله ، لا يستغني عن عمر ، فهو من الدين كالسمع والبصر وكان عمر محدَّثاً كما كان المحدَّثون في الأمم السابقة) ٥.(

ومن أحب عمر فقد أحب النبي ، ومن أبغض عمر فقد أبغضه .وان جبرائيل قال للنبي صلى الله عليه وآله ، ان الاسلام يبكي بعد موته على موت عمر ، وان جبرائيل لو جلس مع

النبي صلى الله عليه وآله ، قدر ما لبث نوح لم يستطع أن يخبره بفضائل عمر وما له عند الله تعالى) ١.(

واذا كان عمر في نظر عبد الله بن مسعود قد ذهب بتسعة أعشار العلم ، فإن سعيد بن المسيب وهو التابعي الشهير فقد أكد بأنه ما يعلم أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أعلم من عمر بن الخطاب .ونصح الشعبي المسلمين إذا اختلف الناس في شيء فليأخذوا بما قال عمر) ٢.(

وعندما جُرح عمر ، استأذن عائشة لدفنه مع النبي صلى الله عليه وآله ، فأذنت له) ٣.(

وكيف لا تسمح عائشة بدفن عمر مع النبي وهو الذي وضع التشهد الثاني في الأذان فارتضاه النبي وجعله جزءاً منه ليبقى على مدى التأريخ دليلاً على فراسة الخليفة الثاني وعظمته) ٤ ، (كما هو اعتقاد أهل السُنّة والجماعة.

الخليفة الثالث عند الجمهور المسلم:

»العطوف .. الوصول للرحم«

اختارت هيئة الشورى التي عيّنها الخليفة عمر بن الخطاب ، والتي تشكّلت من ستّة من صحابة النبي صلى الله عليه وآله ، ، عثمنا بن عفّان خليفة للمسلمين ، حيث يُعُدّ أهل السُنّة والجماعة ، عثمان ، الخليفة الراشد الثالث ، وهو »ذو النورين «الذي تستحي منه الملائكة) ١.(

وكان الخليفة عثمان ، عطوفاً ، ليّن الجانب ، كريم النفس ، سخيّ اليد ، يصل رحمه ، مما أثار غيظ الأمصار الاسلامية ، وخاصة مصر والكوفة ، فأقدموا على محاصرة دار الخلافة وقتل الخليفة عثمان بن عفّان وهو يقرأ القرآن ، وبذلك لُقّب بالخليفة المظلوم.

وقال صلى الله عليه وآله ، ايضاً : ان الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله) ٢ .(وقال لي جبريل ان أردت أن تنظر ـ من الارض ـشبيه يوسف الصدّيق فانظر الى عثمان بن عفّان ، لتزوّجه بنتي رسول الله) ٣.(

وقد قال الرسول الاكرم بحضور عائشة : ادعوا لي بعض أصحابي فقالت : أبو بكر؟ قال : لا ، قالت : ابن عمك علي؟ قال : لا ، قالت : عثمان؟ قال : نعم .فلما جاء ، قال لها : تنحي وجعل يساره ولون عثمان يتغير ، فلما كان

يوم الدار ، وحُصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل !قال : قال رسول الله : عهد إلي عهداً وأنا صابر بنفسي عليه) ١.(

بل وقال الرسول لعثمان بأنه يُقتل وهو يقرأ سورة البقرة ، فتقع قطرة من ذلك على : فسيكفيكهم الله) ٢.(

وجمع عثمان القرآن ووزّعه في الأمصار ، ففي عهده ، أرسل عثمان الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف ان يحرق.

وأرسل عثمان الى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف نَسَخه من حفصة وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل له) ٣.(

وعن عائشة إن أبا بكر استأذن على رسول الله وهي معه في مرط أي ثوب واحد ، فأذن له فقضى إليه حاجته وهو معها في الثوب ثم خرج ، ثم فعل ذلك أيضاً مع عمر ، ثم استأذن عليه عثمان ، فأصلح ثيابه وجلس وقال لعائشة : اجمعي عليك ثيابك ، فقضى اليه حاجته ، وقال : إن عثمان رجل حيي ، ولو أذنت له على تلك الحال خشيت أن لا يقضي إلي حاجته ، ألا استحي من رجل والله ان الملائكة تستحي منه) ٤.(

ولقد دام عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان اثني عشر عاماً وانتهت الفتنة بمقتله ، حيث قُتل وهو يتلو القرآن الكريم فجزعت عليه البلاد كلها ، وسرت لوعة الحزن من حضرموت الى جنديسابور .وكان معظم الذين ثاروا عليه غوغاء لا يقدّرون به من فضائل ، ولا يدركون أنّه واحد من مشاهير قلائل نصروا الرسول صلى الله عليه وآله ، في ساعة العسر.

هذه هي نظرة مدرسة الصحابة والخلفاء للخليفة الراشد الثالث» عثمان بن عفان «وقد دوّنتها مختصرة لأنّها تفي بالحاجة في هذه المرحلة من الحديث عن المدرسة السُنّية.

الخليفة الرابع عند الجمهور المسلم:

»صاحب الفضائل الجمّة«

بعد اغتيال الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، تقاطر المسلمون على علي بن أبي طالب وبايعوه بالخلافة ، فقبل على مضض ، وأصبح الخليفة الراشد الرابع حسب اعتقاد أهل السُنّة والجماعة ، إذ أقبل الناس على علي ليبايعوه ، فأبى عليهم ، فقالوا : بايعنا لا نجد غيرك ولا نرضى إلا بك.

ولعلي بن أبي طالب من الفضائل والمناقب ، الشيء الكثير على غرار الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أو الصحابة الكرام.

فقد احتوت كتب الجمهور على عدد لا يُحصى من هذه الفضائل ، وألّف جملة من العلماء والمؤرخين والباحثين ، كتباً ومصنفات خاصة بفضائل ومناقب علي ، وما قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله ، والصحابة والسلف الصالح.

فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وآله ، وربيبه وزوج ابنته فاطمة .تربى في أحضانه منذ اللحظات الاولى ، وهو صغير ناشئ ، وواكب انبثاق الرسالة الاسلامية ونزول الوحي الالهي على محمد صلى الله عليه وآله ، قريبه وحاضنه في أيام يتمه الأولى.

وعلي فدى نفسه في سبيل الرسول صلى الله عليه وآله ، عندما نام في فراشه للتمويه على قريش التي كانت قد صممت على قتل النبي صلى الله عليه وآله الذي هاجر خفية الى المدينة المنورة ، فنزلت في علي الآية الكريمة وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ

رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) ١ ، (حيث سميت تلك الليلة بليلة المبيت.

وكان ابن عباس قد قال بأنه نزلت في علي وحده ثلاثمائة آية قرآنية) ٢.(

ومن أقوال الرسول» عليه الصلاة والسلام «في علي : لا يحب علياً منافق ، ولا يبغضه مؤمن) .. ٣.(

. اللهم اشهد .. اللهم قد بلغت هذا أخي وابن عمي ، وصهري ، وأبو ولدي ، اللهم كبَّ من عاداه في النار) ٤.(

وقال صلى الله عليه وآله ، يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، وأعطاها علياً دون الآخرين من الصحابة الكرام) ٥.(

وقال صلى الله عليه وآله ، أيضاً : أقضاكم علي ، وإن الله جعل لأخي علي فضائل لا تُحصى) ٦.(

وقال صلى الله عليه وآله ، أيضاً : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب) ٧.(

وقال صلى الله عليه وآله : ، عليّ مع الحق والحق مع عليّ ، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض

يوم القيامة) ١ .(ووصف صلى الله عليه وآله ، علياً بأنه سيد المسلمين وإمام المتقين) ٢ .(وفي رأي جمع من الصحابة : ان علياً كان أقدم القوم إيماناً وأولهم إسلاماً) ٣.(

وعن فضائل عليّ ومناقبه ، يقول الامام أحمد بن حنبل : ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما ورد لعليّ) ٤ .(فيما قال الذهبي : ومناقب هذا الامام حجّة أفردتها في مجلد سمّيته» فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب) «٥.(

أما القاضي إسماعيل النسائي ، وأبو علي النيسابوري وغيرهما ، فيقولون : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالاسانيد الحسان ما جاء في علي) ٦.(

وأكد عبد الله بن عباس بأن لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره ، وهو أول من صلّى مع رسول الله ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف ، وهو صبر معه يوم فرّ عنه غيره ، وهو الذي غسّله وأدخله قبره) ٧.(

وهكذا يعتقد جمهور أهل السُنّة والجماعة إن لعليّ بن أبي طالب فضائل ومناقب جمّة ربما تفوق فضائل الصحابة الآخرين بعد أن أفرد علماؤهم مصنّفات عديدة حول عليّ ومناقبه ، ومع ذلك يظل عليّ رابع الخلفاء الراشدين ، له مكانة مرموقة بين المسلمين ، وكان مجتهداً كغيره من الخلفاء والصحابة الكرام.

وقامت في عهده حروب عديدة بينه وبين خصومه ، من أمثال أم المؤمنين عائشة ابنة أبي بكر وطلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان ، وكان الكل مجتهداً يُؤجر إن أخطأ أو أصاب ، ولا يحق لأحد مهما كان مقامه العلمي والديني سامياً أن يمحّص الطرفين ليفرز المحق من المبطل ، والمعتدي من المعتدى عليه ، وانما الجميع مجتهدون متأوّلون أمرهم الى الله تعالى ، يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم قامت حركة الخوارج في عهد علي ، وأدت الى مقتله واعتلاء معاوية لسدّه الخلافة حيث تلقّب بأمير المؤمنين ، وإبتدأ العهد الأموي.

تدوين الحديث النبوي عند أهل السُنّة والجماعة

يعتقد أهل السُنّة والجماعة بأن الصحابة لم يجمعوا سنن رسول الله في مصحف كما جمعوا القرآن الكريم ، لأن السنن انتشرت وخفي محفوظها من مدخولها ، فوكّل أهلها في نقلها الى حفظهم ، ولم يوكلوا من القرآن الى مثل ذلك ، وألفاظ السنن ، غير محروسة من الزيادة والنقصان ، كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذي أعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، فكانوا في الذي جمعوه من القرآن مجتمعين ، وفي حروف السنن ، ونقْل نظْم الكلام نصاً مختلفين ، فلم يصح تدوين ما اختلفوا فيه ولذلك لم يكن الصحابة ولا التابعون يدوّنون الاحاديث ، إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً ، إلا كتّاب الصدقات ، والشيء اليسير الذي يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء ، حتى خيف عليه الدروس ، وأسرع في العلماء الموت ، أمر عمر بن عبد العزيز ، أبا بكر الحزمي ، فيما كتب إليه : انظر ما كان من سنّة أو حديث فاكتبه

وكان الرسول صلى الله عليه وآله ، قد أمر صحابته أن : لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ، فمن كتب غير القرآن فليمحه) ٣.(

وعلى خطاه صلى الله عليه وآله ، ، قال عمر بن الخطاب : لا كتاب مع كتاب الله) ٤.(

وقال عبد الله بن مسعود : إن هذه القلوب أوعية فإشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره) ١.(

ويُنقل عن) أبو سعيد الخدري (قوله : إستأذنا النبي صلى الله عليه وآله في الكتابة فلم يأذنه لنا ، أتريدون أن تجعلوها مصاحف؟ إن نبيكم يحدّثنا فنحفظ) ٢.(

ويعلّل بعضهم عدم تدوين آثار النبي صلى الله عليه وآله ، في عصر الصحابة وكبار التابعين في الجوامع لأمرين : أحدهما : إنّهم كانوا في إبتداء الحال قد نهوا عن ذلك ، وثانياً : لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم) ٣.(

النبي ينهى عن كتابة الحديث

والنبي الكريم صلى الله عليه وآله ، لدى الجمهور ، طالما أمر المسلمين أن لا يكتبوا عنه شيئاً سوى القرآن ، وإن من كتب شيئاً غير القرآن فليمحه) ٤ .(وعندما استأذن أبو سعيد الخدري الرسول صلى الله عليه وآله ، ليكتب الحديث ، أبى أن يأذن له ، قائلاً للمسلمين : أكتاباً غير كتاب الله تريدون؟ ما أضلّ الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله) ٥.(

فإضطر أبو هريرة وغيره من الصحابة الى جمع ما كتبوه في صعيد واحد ، ثم أحرقوه في النار) ٦.(

ثم نصح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، صحابته : نعم تحدّثوا عني ولا حرج ، ومن كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ١.(

وفي إحدى المواقف ، وبّخ الرسول صلى الله عليه وآله ، صحابته قائلاً لهم : ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم ، إنما أنا بشر ، من كان عنده منها شيء فليأت به ، ناهياً ان يكتب أحد شيئاً من حديثه) ٢.(

وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج ، فمنعوا تدوين الحديث النبوي ، منهم الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ قال : لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً) ٣.(

وجاء الحكم الأموي ، فسار على هذا المنوال ، حتى مجيء الخليفة الأموي) عمر بن عبد العزيز ، (فخاف اندراس الحديث بموت الصحابة والتابعين ، فأمر بجمع حديث رسول الله ، وهكذا كان ابتداء تدوين الحديث في نهاية القرن الأول الهجري) ٤.(

إذاً ، كانت الطبقة الاولى من التابعين قد كرهت كتابة الحديث ، وأجاز ذلك من جاء بعدهم ، وما حدث التصنيف إلا بعد موت الحسن البصري) ٥.(

وهكذا كانت الكتب والتصانيف محدثة ، ولم يكن شيء منها زمن الصحابة وصد التابعين ، وانما حدث بعد سنة ١٢٠ ، (وبعد وفاة جميع الصحابة ، وخيار التابعين ، بل

كان الأولون يكرهون كتابة الحديث وتصنيف الكتب) ١.(

وكان السبب الرئيسي في تدوين الحديث في أواخر عهد التابعين ، انتشار العلماء في الأمصار وكثرة الابتداع ، حيث شاعت الرواية ، وقلّت الثقة ببعض الرواة ، وظهور الكذب في الحديث عن رسول الله لاسباب سياسية أو مذهبية ، حيث بدأ التدوين بمعناه الحقيقي بين سنة ١٢٠ وسنة ١٥٠ هـ) ٢.(

عموماً .. في هذا العصر) ١٤٣ هـ (شرع علماء الاسلام في تدوين الحديث ، والفقه والتفسير .. وكثُر تبويب العلم وتدوينه ، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون من حفظهم ، ويروون العلم عن صحف غير مرتبة) ٣.(

وكانت قد دوّنت الآثار ممزوجة بأقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين وغيرهم ، إلى أن رأى بعض الأئمة أن تُفرد أحاديث النبي خاصة ، وذلك على رأس المائتين ، فقلّ إمام من الحفّاظ إلا وصنّف حديثه على المسانيد أو على الأبواب والمسانيد) ٤.(

وكان من أقوى الاسباب في إقبال العلماء على التصنيف في هذا العصر ، حثّ الخليفة أبي جعفر المنصور عليه وتشجيع الأئمة الفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وقد بذل في هذا السبيل أموالاً طائلة ، وهو الذي أشار على مالك بن أنس أن يضع كتاب» الموطأ .«وصنّف مالك الموطأ وتوخّى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم) ٥.(

وقفة مع المذاهب الاربعة المشهورة

المذهب الحنفي) : مدرسة أهل الرأي والقياس(

وُلد أبو حنيفة في الكوفة عام ٨٠ هـ ، وتوفي عام ١٥٠ للهجرة .بلغ في الفقه منزلة لم يصل إليها أحد ممن عاصره ، فهو إمام أهل الرأي وهو الامام الأعظم ، من التابعين أو أتباع التابعين ، أخذ علمه عن التابعين ، من أمثال قتادة وعطاء بن أبي رباح ، ونافع مولى ابن عمر ، وحماد بن أبي سليمان) ١.(

وكان أبو حنيفة متحمساً للقياس ، ويراه من أفضل المصادر بعد كتاب الله ، كان يقدّم رأي الصحابة عليه إذا تعارضا في مورد من الموارد .فهو يقول : ان لم أجد في كتاب الله ، ولا سُنّة رسوله ، أخذت بقول أصحابه ، فإن اختلفت آراؤهم في حكم الواقعة ، آخذ بقول من شئت ، وأدع من شئت ، ولا أخرج من قولهم الى قول غيرهم من التابعين ، فإذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبي وابن المسيب ، فلي أن أجتهد كما إجتهدوا) ٢.(

وقد صحّ عن أبي حنيفة وهو المتّهم دائماً بمخالفة الحديث أو تركه ، قوله : إذا صحّ الحديث فهو مذهبي؟ فأبو حنيفة أذاً ، استاذ مدرسة الرأي ، وهو الذي وضع طريقة

القياس وبدأ فيها ، وجاء بعده تلاميذه فزادوا ووسّعوا) ١.(

ومما اختص به أبو حنيفة في الاجتهاد ، أنه يأخذ بالرأي والقياس ، ويقول بالاستحسان حتى يُسمّى هو وأصحابه بأهل الرأي) ٢.(

تفقّه على أبي حنيفة كثير من الأئمة ، وانتفع باجتهاده وطريقته فيه كثيرون من أهل المذاهب ، فالشافعي انتفع بمحمد بن الحسن تلميذ الامام ، والامام أحمد تلميذ الشافعي) ٣.(

والأحناف منسوب إليهم انهم لا يقولون بالمصالح المرسلة ، ولا يعتبرونها دليلاً ، وهم يردّون الحديث إذا خالف الأقيسة الظاهرة ، إلا أن يكون الراوي معروفاً بالفقه والاجتهاد كالخلفاء الراشدين) ٤.(

وكان من ورع أبي حنيفة ، وزهده في الدنيا ، أن ابن هبيرة ، والي العراق من قبل بني أميّة ، أكرهه على قضاء الكوفة ، فأبى ، وضربه مائة سوط ، وعشرة أسواط ، فأبى وأصرّ ، فخلّى عندئذ سبيله) ٥.(

وقد يعلل رفضه القضاء ، لكيلا يكون موالياً للحاكم ، كما قد يعلل ضرب ابن هبيرة إيّاه بأنه لا يرى شرعية خلافة الحاكم ... وربما كان في نفسه لا يرى شيئاً من

ذلك ، سوى إن البعد عن الحاكم ، أسلم لدينه ، شأن اهل التقى والورع) ١.(

أما أبو جعفر المنصور ، فقد أرسل إلى أبي حنيفة بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية ، فرفضها أبو حنيفة ... كما رفض هدية زوجة المنصور ، قائلاً بأنه ناضل عن دينه ، وقام بذلك المقام لله ، لم يرد بتلك تقرّباً إلى احد ولا إلتمس به دنيا.

فإمتنع عن القضاء ببغداد ، فحبسه الى أن مات سنة ١٥٠ هـ.

المذهب المالكي وحجّية عمل أهل المدينة

يُعدّ المذهب المالكي الذي اسّسه تابع التابعين ، مالك بن أنس الذي ولد عام ٩٥ هـ ومات عام ١٧٩ هـ ، المذهب السُنّي الثاني من المذاهب الاربعة التي يتبعها الجمهور في عموم العالم الاسلامي.

وقد وُلد مالك في المدينة المنوّرة وعاش فيها حتى آخر لحظة من حياته ، والمدينة بنظر مالك وأصحابه ، معْقل الأحكام ، ومهْد الحديث ، ومدرسة العلماء ، ومجمع الفقهاء الذين روى عنهم مالك ، وأخذ عنهم ، من أمثال نافع والزهري).١(

ذاع صيت مالك ، وطبقت شهرته الآفاق ، وشغل به أهل الأمصار ، ورحل إليه الناس ، يروون عنه الحديث ، ويتفقّهون في الدين ، فهو بذلك يصفونه بإمام دار الهجرة ، وفقيه الأمّة) ٢.(

وقد أخذ مالك عن تسعمائة شيخ أو أكثر ، أبرزهم نافع والزهري وربيعة الرأي ، وروى عنه من شيوخه الذين أخذ هو عنهم : الزهي ، ربيعة الرأي ، يحيى بن سعيد الأنصاري ، موسى بن عقبة وهو إمام المغازي) ٣.(

كما روى عن مالك من تلاميذه : الامام الشافعي ، وابن المبارك ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، ويُقال انه روى عنه ما يزيد على ألف وثلاثمائة من أعلام أهل العلم ، فضلاً عن

تلاميذه الذين تفقهوا بمذهبه ، ودوّنوه له والتزموه ، وعكفوا عليه ونشروه) ١.(

وعموماً ، فإن قواعد المذهب المالكي : القرآن ، السُنّة ، الاجماع ، القياس ، عمل أهل المدينة ، الاستحسان ، الحكم بسد الذرائع ، المصالح المرسلة ، قول الصحابي) إن صحّ سنده وكان من الاعلام ، (الاستصحاب ، شرع من قبلنا).٢(

ولا يكاد مالك يقول بالاستحسان الذي يقول به الحنفية ، بل يقول بما يسمّى : المصالح المرسلة ، وهي التي لم يرد عن الشارع نص يوجب اعتبارها أو عدم اعتبارها ، وأما القياس فهو عند مالك ، تسعة أعشار العلم) ٣.(

الامام مالك وأهل المدينة

من أصول مالك المهمة التي خالف فيها أئمة أهل السُنّة الآخرين ، عمل أهل المدينة ، الذين أقام فيهم مالك حياته كلها ، فهو يرى ان عملهم بمنزلة روايتهم الحديث ، ورواية الجماعة اقوى من رواية الفرد ، ولا يظن بالذين توفي الرسول وهو بين ظهرانيهم ، انهم يخالفونه ، أو يتركون سُنّته ، بل عملهم هو استمرار واستمداد سُنّته فيهم ، ولهذا يشترط مالك في العمل بخبر الواحد ، عدم خالفته عمل أهل المدينة ، لأن عمل أهل المدينة بمثابة سُنّة مشهورة ، مأثورة ، وهي مُقدّمة عنده على خبر الآحاد ، ولذلك فإن عمل أهل المدينة عند مالك ، يجب اتباعه والأخذ به مطلقاً) ٤.(

ويقول القاضي عياض عن حجّة مالك في عمل أهل المدينة : ان القرآن المشتمل على الشرائع ، وفقد الاسلام أنزل بها ، وأهلها هم أول من وجّه اليهم التكليف ، ومن خوطبوا بالامر والنهي ، وأجابوا داعي الله فيما أمر ، وأقاموا عمود الدين ، ثم قام فيهم من بعد النبي أتبع الناس له من أمّته : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، فنفذوا سُنّته بعد تحرّيها والبحث عنها مع حداثة العهد ، ثم كان التابعون من بعدهم ، يسلكون تلك السبل ، ويتبعون تلك السُنّة) ١.(

فالمدينة لهذا قد ورثت علم السُنّة ، وفقه الاسلام ، في عهد تابعي التابعين ، وهو العهد الذي رآها فيه مالك ، فاذا كان الأمر بها ظاهراً معمولاً به ، لم يجز لأحد خلافه ، للوراثة التي آلت اليهم ، ولا يجوز لأحد انتحالها لبعده ، ولا ادعاؤها له) ٢.(

مالك وتأليف الموطأ

بتوصية من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ألّف الامام مالك في أواخر عهد المنصور) ١٤٨ هـ (كتاب الموطأ الذي يعدّه أهل السُنّة ، وبالذات أتباع المذهب المالكي بأنه ما عل ظهر الارض كتاب هو أقرب الى القرآن من الموطأ ، وما بعد كتاب الله أنفع منه وأطلق جماعة على الموطأ اسم الصحيح) ٣.(

ويُقال ان أعظم ما خدم به مالك السُنّة والآثار ، كتابه القيم الفريد ، الذائع الصيت : الموطأ ، وقد لبث في تأليفه وتهذيبه نحو أربعين سنة ، جمع فيه الحديث

الصحيح) في نظره ، (وأضاف اليه أقوال الصحابة والتابعين وفتاواهم ورتّبه على أبواب الفقه .ويعتبر الموطأ ثروة فقهية خاصة ، فكانت بمثابة قانون شرعي لا يحيد عنه ، ولهذا اعتبر ـ بحق ـ إمام السُنّة في عهده ـ كما يقول الشاطبي.

وقد توخّى مالك في الموطأ ، ايراد القوي من حديث أهل الحجاز ، كما نقل ما ثبت لديه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وهو أول كتاب في الحديث والفقه ظهر في الاسلام ، وقد وافقه على ما فيه سبعون عالماً من معاصريه من علماء الحجاز.

ولمّا سُئل الامام مالك لِمَ سمّيت كتابك الموطّأ؟ قال : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسميته الموطّأ) ١.(

ويقول ابن خلدون بأن ما ثبت عند مالك هو ما في الموطّأ فقط ، روى مائة ألف حديث ، اختار منها في الموطأ عشرة آلاف ، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسُنّة العملية حتى رجعت الى ٥٠٠ حديث مُسند ، بقدر ما يرى انه أصلح للمسلمين وأمثل في الدين.

الامام مالك عند أقرانه واتباعه

يقول الشافعي بأن مالك بن أنس معلّمي ، وعنه أخذت العلم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد آمن علي من مالك بن أنس ، فاذا جاءك الحديث من مالك فشدّ به يديك ، كان مالك إذا شك في الحديث طرح كله ، فمالك حجّة الله على خلقه ، وما رأينا مثل مالك فكيف نرى مثله) ٢(؟ وأوصى أحمد بن حنبل رجلاً يريد أن يحفظ

حديث رجل واحد بعينه : بأن عليه أن يحفظ حديث مالك) ١.(

مالك بن أنس والسلطة العباسية

المعروف عن الامام مالك بأنه كان يتهرب من حكّام زمانه من العباسيين ، كما انه لم يشهد الجماعة خمساً وعشرين سنة ، مخافة أن يرى منكراً ، فيحتاج أن يغيّره ، وهو متعذّر في عهد الجور هذا ، كما يذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وفي عذر مالك : ان الصلاة خلف الفاسق باطلة عنده ، وأمراء ذلك العهد الذين كانوا يؤمّون الناس في صلواتهم أيضاً ، أكثرهم كانوا فسّاقاً وفجّاراً ، وعزلهم عن الامامة ما لا يقدر عليه الامام مالك ، فلذا كان لا يحضر الصلوات) ٢.(

وقد تأثر قلب الامام مالك بحوادث الزمان ، وشرور سلاطين العهد العباسي الى درجة ان ترك الاختلاط مع الأنام ، قائلاً : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره) ٣.(

وبعض تلامذة مالك ، ساروا على خطاه ، فإن ابن القاسم كان يقول : ليس في قرب الولاة ، ولا في الدنو منهم خير)٤.(

وقد غلب على الحجاز مذهب مالك ، ومنها انتشر في المغرب والاندلس ، فأهل المغرب جميعاً مقلّدون لمالك ، خاصة وان تلميذ الامام مالك) ابن وهب (قد تولّى قضاء القيروان ونشر) المدوّنة (فيها) ٥.(

المذهب الشافعي) ناصر السُنّة(

المذهب الشافعي ، ثالث المذاهب السُنّية الأربعة المعتبرة لدى جمهور المسلمين ومؤسس المذهب هو الامام محمد بن إدريس الشافعي المولود عام ١٥٠ هـ والمتوفى عام ٢٠٤ للهجرة.

كان الشافعي في أول أمره من أصحاب الامام مالك ، كثير الاعتماد على الحديث ، ولا يحكم في القضايا بالرأي ، فلما نزل في بغداد ، ولقي أصحاب الامام أبي حنيفة ، مال الى الرأي ونقّح مذهبه على أساس ذلك ، ثم لما نزل في مصر ، ووجد حال مصر مختلفة عن حال الحجاز وحال العراق ، نقّح مذهبه للمرّة الثانية) ١.(

وكان الشافعي قد ارتحل الى العراق سنة ١٩٥ ، وأخذ عن محمد بن الحسن الشيباني ، تلميذ ابي حنيفة ، وتعلّم منه أسلوب الاجتهاد في الرأي ، وعاد الى مكة ، حيث اشتهر مذهبه ، ورجع الى بغداد وفيها كتب فقهه القديم الذي يمثله كتابه» الحجّة «ثم رحل الى مصر سنة ١٩٩ وفيها صنّف كتبه التي خططت الفقه وأصوله ، كان من أهمها) : الرسالة (في الأصول و)الأم (في الفقه) ٢ .(

جمع الشافعي بين طريقة الحجازيين في الفقه ، وطريقة العراقيين فيه .وقد حدّث عن ابن حنبل ، وأبي ثور ، والمزني ، والربيع بن سليمان وغيرهم ، ووثقة الامام أحمد) ٣ .(

وما عدول الشافعي عن مذهبه القديم في العراق الى مذهبه الجديد في مصر ، إلا بسبب تغيّر البيئة والعرف في هذين القطرين ، في أغلب المسائل المعدول عنها .. وهذا من أسباب مرونة الفقه الاسلامي ومسايرته التطوّر.

الشافعي والحديث النبوي

الامام الشافعي يرى ان القرآن والسُنّة سواء في التشريع ، ولا يشترط شهرة الحديث ، كما اشترط ذلك الامام أبو حنيفة ، ولم يشترط عدم مخالفة الحديث لعمل أهل المدينة كما اشترط ذلك مالك ، بل وأنكر الاحتجاج بعملهم.

ويقول الشافعي : لقد ضلّ من ترك قول رسول الله لقول من بعده .ولا يشترط الشافعي في الحديث ما شرط الحنفية من كونه غير مخالف للأقيسة الظاهرة العامة في الشريعة ، الا أن يكون الراوي معروفاً بالفقه والاجتهاد كالخلفاء الراشدين ، وأطال في كتاب الأم ردّه على الاحتجاج بعمل أهل المدينة ، ودافع في رسالته دفاعاً قوياً مطوّلاً عن العمل بخبر الواحد كلما كان صحيحاً متّصلاً ، وبذلك كسب ثقة المحدّثين ، حتى سمّاه البغداديون) : ناصر السُنّة ، (بل ويعترف الشافعي نفسه بذلك ، حيث يقول : سُمّيت ببغداد) ناصر الحديث .(ويُقال ان أصحاب الحديث كانوا رقوداً ، حتى جاء الشافعي ، فأيقظهم ، فتيقظوا.

وعموماً ان الشافعي ركّز على الحديث الصحيح أو الحسن ، وذهب إلى أن ليس لأحد حجّة مع رسول الله) ١ .(

الشافعي ورأي الصحابة

يخالف الشافعي مالكاً في الأخذ بقول الصحابي ، وذلك لأن الصحابي لمّا لم يرفع قوله الى النبي لا يحمل على السماع ، وهو كسائر المسلمين سواء في الاجتهاد .فهو يقول : كيف أترك الحديث لقول من لو عاصرته لحججته؟ ولكنه مع ذلك يعرف لهم قدرهم) ١ .(

وبالتالي لا يحتج الشافعي بأقوال الصحابة ، لاحتمال كونها عن اجتهاد ، فيجوز عليها الخطأ ، ولم يذهب مذهب أبي حنيفة في التخيّر منها) ٢ .(

وخالف الشافعي أيضاً الصحابي الذي يعمل بخلاف ما رواه ، فهو يعمل بالحديث المروي ، ويترك عمل الراوي بخلاف ما رواه ، إذ قد يكون عن اجتهاد ، او سهو ، أو نحو ذلك) ٣.(

الشافعي والقياس والاستحسان والاجماع ونحوه

يؤكد الشافعي ان الأصل هو القرآن والسُنّة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، ويعمل بالقياس بشرط ان يكون له أصل في الكتاب أو السُنّة ، وبالتالي فقد انكر الاحتجاج بقياس لا يقوم على علّة منضبطة ظاهرة ، أو بأن تكون علته منضبطة ، ولا يعمل

بالاستحسان إذ لا ضابط له ، وكتب كتاباً في إبطال الاستحسان اسماه» : إبطال الاستحسان «وشاع قوله) : من استحسن فقد شرّع ، (وبذلك خالف أبا حنيفة الذي كان من أبطال الاستحسان) ١.(

وعندما انكر الشافعي الاحتجاج بالاستحسان ، فقد خالف المالكية والحنفية معاً ، كما ردّ الشافعي» المصالح المرسلة « وأنكر حجّيتها ، فهو لا يعمل بالمصالح المرسلة التي يتوسّع فيها المالكيون ، كما نفى الشافعي الاستصلاح واستدل بايمانهم بكمال الشريعة واستيفائها لحاجات الناس» : ولو كانت مصالح الناس تحتاج الى أكثر مما شرعه ومما أرشد الى الاهتداء به لبيّنه ولم يتركه ، لانه سبحانه قال على سبيل الاستنكار : أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) ٢.(

أما الاجماع فقد استدل الامام الشافعي على حجيته بقوله تعالى : وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) ٣ ، (وبالتالي فالاجماع عنده أكبر من الخبر المفرد) ٤.(

الشافعي لدى معاصريه

ينقل أهل السُنّة والجماعة عن النبي صلىاللهعليهوآله قوله : أكرموا قريشاً فإن عالمها يملأ

طباق الأرض علماً) ١.(

أما تلميذه أحمد بن حنبل فيقول بأنه إذا سُئل في مسألة لا يعرف فيها خبراً ، قال فيها : يقول الشافعي لانه إمام عالم من قريش) ٢.(

ويقول الجمهور المسلمين عنه بأنه إمام الدنيا ، وعالم الأرض ، شرقاً وغرباً ، جمع الله له من العلوم والمفاخر ما لم يجمع لامام قبله وبعده ، وانتشر له من الذكر ما لم ينشر لأحد سواه) ٣.(

وينفرد الشافعي من بين أصحاب المذاهب السُنّية الأخرى بميزة ليست لسواه من أقرانه ، وهو انه استطاع أن يكتب بنفسه كتبه ، فترك لمن بعده مذهباً مُدوّناً ، قديمه في» الحجّة «وهو الذي أملاه على تلاميذه في العراق ، وحديثه »الأمّ «وهو مطبوع في سبعة مجلدات) ٤.(

المذهب الحنبلي و)التمسك بآثار السلف(

المذهب الرابع والأخير من المذاهب السُنّة لدى جمهور المسلمين ، هو المذهب الحنبلي الذي أسسه وأنشأه الامام أحمد بن حنبل ، حسب رؤية أهل السُنّة والجماعة ، وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة وبداية القرن الثالث.

أحمد بن حنبل ، عالم العراق ، عالم السُنّة ، كان جدّه حنبل والياً للأمويين على سرخس ، تلقى جانباً من العلم عن أبي يوسف ، وكتب أولاً كتب الرأي وحفظها ، ثم لم يلتفت إليها ، بل مال الى طلب الحديث ، فجمعه من الأُقاليم ، وسافر مرّة من بغداد الى الشام ليسمع من محدّث مشهور هناك حديثاً واحداً) ١.(

غلب على ابن حنبل أنه لم يصنّف كتباً في الفقه ، وان تلاميذه وأصحابه قد جمعوا أقواله وقيّدوه.

من أقوال احمد بن حنبل : من لم يجمع علم الحديث وطرقه المختلفة ، لا يحلّ له الحكم على الحديث) ٢.(

مسند أحمد بن حنبل

لم يؤلف أحمد بن حنبل في موضوع غير الحديث والسُنّة ، وأبرز ما كتبه هو

»المُسند «الذي ضمّ أربعين ألف حديث ، وقد تأصّل المذهب الحنبلي في المُسند ، والأحاديث فيه مرويّة عن سبعمائة صحابي ، وقد رُتّب على أسماء الرواة ، لا على أبواب الفقه ، وهو المنهل الأول للفقه الحنبلي .ولم يرو أحمد فيه إلا عمّن ثبت عنده صدقه وديانته ، إذ يقول في المقدمة : ان هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من ٧٥٠ ألف حديث ، فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله فإرجعوا إليه ، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجّة) ١.(

أصول المذهب الحنبلي

١ ـ نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي المرفووع ، فإذا وُجد الحديث الصحيح المرفوع ، أفتى بموجبه ، ولم يلتفت الى ما يخالفه ، ولو كان من كبار الصحابة .ولم يكن يقدّم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ، ولا قول صحابي ، ولا عدم العلم بالمخالف) الاجماع (فيقدمونه على الحديث الصحيح) ٢.(

٢ ـ فتاوى الصحابة عند عدم النص .فإذا وُجد لأحدهم فتوى ، ولا يعرف لها مُخالفاً من الصحابة ، لم يعد الى غيرها ، ثم لا يُقدّم عليها رأياً ولا قياساً ولا عملاً لأهل المدينة) ٣.(

٣ . إذا اختلف الصحابة في المسألة ، اختار أقرب أقوالهم الى الكتاب والسُنّة ، فإن لم يتبيّن له الأقرب ، حكى الأقوال المختلفة ، ولم يخرج عنها ، ولم يجزم بقول) ٤.(

٤ . ويأخذ أحياناً بالقياس والاجماع ان وقع ، والمصالح المرسلة ، واذا لم يجد أثراً في السُنّة يقول بالتحليل أو التحريم ، يبقى الشيء على حلّه ، وكان يأخذ بالحديث المرسل والضعيف بشرط ان لا يتعارض مع قاعدة من قواعد الدين ، ولا أصلٍ من أصوله ، ولا حكم ثابتٍ بسُنّة صحيحة ، او قول الصحابي او إجماعٍ يخالفه ، ويقدّمه على القياس) ١.(

٥ . القياس عنده دليل ضرورة يلجأ إليها حين لا يجد واحداً من الأدلة المتقدمة ، وربما توقف في الفتوى ، وربما قال : لا أدري ، وكان يقول : لا يستغني أحد عن القياس) ٢.(

٦ . يقول أحمد : من ادّعى الاجماع فهو كاذب) ٣.(

٧ . تحفّظ أحمد على الاستحسان ، وقد أنكره فيما لا سند له ، والإستصحاب وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، وكان المتأخرون من أهل الأصول والجدل من أصحاب الامام أحمد لم يجوزوا بناء الأحكام على المصالح المرسلة.

لقد قام المذهب الحنبلي على التمسك بآثار السلف وأقوال الصحابة والتابعين وفتاواهم ، فاصطبغت فتاوى احمد بالحديث.

وكان شديد الكراهة والمنع للافتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف ، كما قال لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام) ٤.(

مناقب أحمد في رأي أقرانه ومعاصريه

كان أحمد بن حنبل كغيره من أصحاب المذاهب الاسلامية الأخرى ، قد حظي باهتمام وتبجيل المعاصرين له من تلاميذه والسائرين على نهجه المذهبي وغيرهم.

فهذا ابن المديني يقول : بأن الله أعزّ الاسلام برجلين ، أبي بكر يوم الردّة ، وابن حنبل يوم المحنة .أما بشر الحافي فاعتبر ان أحمد قام مقام الانبياء) ١.(

وهذا أستاذه الامام الشافعي يقول بأنه خرج من بغداد ، وما خلّف فيها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه ، ولا أعلم من أحمد من حنبل .ومدحه أيضا أبو زرعة الذي قال بأن أحمد كان يحفظ ألف ألف حديث .بينما يعتقد اسحاق بن راهويه بان ابن حنبل حجّة بين الله وبين عبده في أرضه ، فيما قال ابراهيم الخرقى بأنه رأى أحمد بن حنبل كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما يشاء ، ويمسك ما يشاء) ٢.(

ابن حنبل ومحنة خلق القرآن

أُمتحن أحمد بن حنبل ، فأُريد منه القول بخلق القرآن ، بالسجن والتعذيب ، زمن المأمون والمعتصم والواثق ، فما وهن لذلك ، ولا استسلم ، وأصرّ على ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، بل هو قديم ، كما ان كلام الله قديم ... وبذلك ثبّت عقيدة أهل السُنّة والجماعة.

فالقول بخلق القرآن حسب فهم ابن حنبل يعني انه حادث غير قديم ، لأن كل

مخلوق حادث ، وهو أمر غير مقبول أبداً لأنه وحسب قول الامام أحمد» : الرحمن ، علّم القرآن ، خلق الانسان ، علّمه البيان ، «فأخبر تعالى ان القرآن من علمه . فالقرآن من علم الله ، ولذا فالقرآن كلام الله غير مخلوق .ويصرّ الامام ابن حنبل في هذا النطاق على ان من زعم ان القرآن كلام الله ووقف ، ولم يقل ليس بمخلوق ، فهو أخبث من القول الأول ، أي أخبث من القول بخلق القرآن نفسه .وفي رأيه ان طائفة قالت : القرآن كلام الله وسكتت ، وهي الواقفة الملعونة) ١.(

ابن حنبل وصفات الله تعالى

يعتقد الامام أحمد ، بأن النصوص الواردة في القرآن الكريم والحديث النبوي حول الاستواء والفوقية والنزول والعلو ، وفي الوجه والعين واليد والقدم ، غير معلومة الكُنْه والحقيقة ، ومذهبه فيها مذهب السلف ، وهو الايمان بها ، كما ورد في النصوص ، وانها صفات الله ، بلا تأويل ولا تعطيل ، مع كمال التنزيه المولى عن سمات الحدوث ، ومشابهة المخلوقات .وهذا مذهبه واعتقاده ، خلافاً لمن يتّهمه ويتّهم أتْباعه بالحلول والتجسيم والجهة ، حاشاه من ذلك ، وأحمد أرفع ديناً وأرسخ إيماناً ، من اعتقاد التشبيه في ذات المولى سبحانه وتعالى) ٢.(

وفاة الامام ابن حنبل

توفي الامام أحمد ابن حنبل سنة ٢١٤ من الهجرة ، وحرر أبو زرعة كُتُب أحمد يوم مات ، فكانت اثنى عشر حملاً وعدلاً ، وكل ذلك يحفظه عن ظهر قلب.

على انّ تلامذة الامام وتلاميذهم ومن بعدهم ، دوّنوا الفقه الحنبلي في كتب كثيرة مشهورة بالرغم من انّ الامام نفسه كان يكره أن يُكتب شيء من رأيه أو فتواه ، ويقول لمن كتب من فقهه» : لا تكتب شيئاً فإني أكره أن أكتب رأيي.«

صحيح البخاري) : أصح الكتب وأثبتها(

محمد بن إسماعيل البخاري الفارسي) ١٩٤ ـ ت ٢٥٦ (ـ لدى الجمهور ـ ابتدأ في كتابة أبواب كتابه بالحرم الشريف ، ولبث في تصنيفه ١٦ سنة بالبصرة وغيرها ، حتى أتمّه ببخارى .خرّج البخاري صحيحه من ٦٠٠ ألف حديث) ١.(

وهبه الله تعالى قوة في الحفظ ، وضبطاً في النقل ، وقدرة في فهم العلل ، والتمييز بين الصحيح والسقيم ، وكتابه الجامع الصحيح الذي اتفق عليه جمهور علماء المسلمين ، بأنه أصحّ كتاب بعد كتاب رب العالمين ، دلالة صدق على ذلك)٢.(

وكيف لا يكون كذلك ، وهو الحجة الثبت ، والحافظ الاعظم لسُنّة رسول الله ، قولاً وفعلاً وتقريراً ، والذي لا يستطيع أحد أن يجاريه في الضبط والاتقان ، سنداً ومتناً.

لقي البخاري أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر ... ولا يُحصى كم دخل الكوفة وبغداد مع محدّثي خراسان .وخرّج كتابه) الصحيح (من زهاء ستمائة ألف حديث ، وما وضع حديثاً إلا اغتسل وصلى ركعتين ... صنّفه في ست عشرة سنة ، وسمعه منه تسعون ألف رجل.

لما بلغ السادسة عشرة ، كان يحفظ ٧٠٠٠٠ حديث ، من شيوخه : أحمد بن حنبل ، إسحاق بن راهويه) ٣.(

ـ عدد أحاديث) الصحيح (٧٣٩٧ حديثاً.

قال محمد الأزهر السجستاني : كنت في مجلس سليمان بن حرب ، والبخاري معنا يسمع ولا يكتب ، فقيل لبعضهم ، ما له لا يكتب ، فقال : يرجع الى بخارى ، ويكتب من حفظه) ١.(

تميّز البخاري بذكاء وقّاد وذاكرة عجيبة ، وقوة حافظة ، فلم يُذكر لغيره ما ذُكر له ، فكان فرداً في ذلك .وقد كانت مصنفاته من الحديث ، نحو مئتي الف حديث مسنده) ٢.(

ولقد أثنى العلماء على البخاري في حفظه وتبحّره في العلم وتفقد الحديث والرواة وسير الأخبار وكشف العلل.

قال مسلم عنه : يا أستاذ الاستاذين وسيد المحدّثين ، وطبيب الحديث في عِلله ... أشهد أن ليس في الدنيا مثلك) ٣.(

أما أحمد بن حنبل ، فقال عنه : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل) ٤.(

في حين قال شيخه نعيم بن حمّاد : إسماعيل فقيه هذه الأمّة) ٥.(

صحيح مسلم) : مدار أهل الحديث(

هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ولد عام ٢٠٤ هـ ، وتوفي عام ٢٦١ هـ صنّف صحيحه من ٣٠٠ ألف حديث مسموع ، أما عدد أحاديث كتابه فأربعة ألف حديث دون المكرر) ١.(

صنّف صحيحه في بلده بحضور أصوله في حياة كثير من مشايخه ، فكان يتحرّز ي الالفاظ ، ويتحرّى في السياق ، جمع الطرق كلها في مكان واحد ، واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات إلا في بعض المواضيع) ٢.(

فاق مسلم ، البخاري في جمع الطرق وحسن الترتيب ، وجعل لكل حديث ، موضعاً واحداً ، جمع فيه طرقه التي ارتضاها ، وأورد فيه أسانيده المتعدّدة وألفاظه المختلفة ، وكان لا يروي بالمعنى بخلاف البخاري.

يقول مسلم القشيري : صنّفت كتابي هذا من ثلاثمائة ألف حديث مسموع ، ولو اجتمع أهل الحديث وكتبوا فيه مئتي سنة فمدارهم على هذا السند ، وعدد ما فيه أربعة آلاف حديث) ٣.(

ومسلم بالنسبة الى قلّة تكراره ، وحسن وضعه فهو يستوفي الوارد في الموضوع ثم لا يعود له بخلاف البخاري : ولكن جمهور الحفاظ وأهل الإتقان والغوص في أسرار الحديث على إن البخاري أفضل.

يقول الحاكم : ما تحت أديم السماء اصحّ من كتاب مسلم ، ووافقه علماء المغرب) ١.(

الاختلاف عند الجمهور : سائغ ومقبول

الخصومة في الدين . عند اهل السُنّة والجماعة . غير الاختلاف في فروعه التي لم يُنص عليها ، إذ ان الاختلاف ينشأ من الانبعاث الفكري ، والخصومة تنبعث من التعصّب ، فالاختلاف المخلص ينمّي العلم ، والخصومة تضيّعة.

وان الاختلاف الذي وقع في سلف هذه الأمّة . ولا يزال واقعاً . جزء من هذه الظاهرة الطبيعية ، فإن لم يتجاوز الاختلاف حدوده ، وإلتزمت آدابه ، كان ظاهرة إيجابية كثيرة الفوائد.

والآية الكريمة التي يعتمدها الجمهور السُنّي في مشروعية الاختلاف المذهبي ، قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) ٢.(

وبعض فوائد الاختلاف المقبول لدى أهل السُنّة والجماعة : رياضة للأذهان وتلاقح للآراء ، تعدّد الحلول أمام صاحب كل واقعة ليهتدي الى الحل المناسب .التعرّف على

جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل رمى إليها بوجه من وجوه الأدلة ، تلك الفوائد وغيرها يمكن أن تتحقق إذا بقي الاختلاف ضمن الحدود والآداب التي يجب الحرص عليها ومراعاتها ، ولكنه إذا جاوز حدوده ... فيتحول الاختلاف من ظاهرة بناء الى معاول للهدم) ١.(

ان ما يذكره علماء أهل السُنّة والجماعة من اختلافات كان شأن جماهير الأمّة وغالبيتها العظمى ، حيث لا تتعدى الاختلافات ، القضايا الفقهية التي تضمحل وتزول حين يحتكم الى النصوص التي تعلو الشبهات من كتاب وسُنّة ، فيذعن الجميع للحق في ظل أدب نبوي ، كريم ، لأن سبب الخلاف لا يعدو أن يكون ، عدم وصول سُنّة في الأمر لأحدهم ، ووصولها للآخر ، أو اختلافاً في فهم النص أو في لفظه.

ولعل من فضل الله تعالى ـ حسب قول أهل السُنّة ـ أن جعل الجانب الفقهي في دائرة ما يجوز فيه الاختلاف ، وان أهل العلم أهل سعة وما برح المفتون يختلفون ، فيحلّل هذا ، ويحرّم هذا) ٢.(

وعليه فإن هذا يدلّنا على فقه عظيم وهو : ان الخلاف حاصل وواقع لاشك فيه ولا مندوحة عنه ، وقد صنّفت تصانيف لأسباب اختلاف الأئمة في الفروع ، طبق الآية الكريمة السابقة من سورة هود.

والاختلاف بين البشر ، أمر لا مفرّ منه ، وأسبابه متعدّدة ، وهو سُنّة كونية خلقها الباري تعالى لحكمة بالغة ، لذلك فإننا لا نستطيع أن نقضي على الاختلاف بين الناس قضاء كاملاً ، بل غاية ما يمكن أن نبلغه هو أن نضيّق من شقة الخلاف والعمل على

التقارب بقدر المستطاع.

وهذه الاسباب القائمة على الخلاف الفقهي والعقائدي ، لم تكن من أصول الشرع ولا من أركان العقيدة الاسلامية التي يكفّر منكرها أو منكر أصل منها ، كما لم تكن من نصوص الشرع القطعية في ثبوتها أو دلالتها ، التي لا اجتهاد فيها ولا خلاف.

ولا ريب ان اختلاف الفقهاء في مجرّد الفروع والاجتهادات المدنية الفقهية ، لا في الأصول والعقائد .ولم يسجّل في تأريخ السلام اختلاف أدى الى صدام مسلّح هدّد وحدة المسلمين ، لانه اختلاف جزئي لا يضرّ.

لقد اختلف الأئمة في كثير من الأمور الاجتهادية ، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم ، وهم جميعاً على الهدى ، مادام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق ... ولذلك فإن أهل العلم كانوا يقبلون فتاوى المفتين ، فيصوّبون المصيب ، ويستغفرون للمخطئ ، ويحسنون الظن بالجميع.

أسباب الاختلافات الفقهية في عصر الفقهاء:

١ ـ أسباب تعود الى القواعد الأصولية وضوابط الاستنباط : وهذه القواعد والضوابط اختلفت مذاهب المجتهدين فهيا : فنجم عن الاختلاف فيها ، اختلاف في المذاهب الفقهية التي يذهب كل منهم إليها ، فبعض الأئمة يذهب الى ان فتوى الصحابي إذا إشتهرت ولم يكن لها مخالف من الصحابة انفهسم ـ حجّة ، لأن الثقة بعدالة الصحابة تشعر بأن

الصحابي ما أفتى به الا بناءً على دليل ، أو فهم دليل ، أو سماع من رسول الله» صلوات الله عليه «لم يشتهر ولم يصل إلينا.

وبعضهم لا يرى في مذهب الصحابي هذا الرأي ، ويعتبر الحجّة فيما يرويه الصحابي عن رسول الله فيما يراه ، فتختلف مذاهب الفقهاء بناء على ذلك.

وبعض المجتهدين يأخذ ب»المصالح المرسلة ، «باعتبار أن الشارع ما شرع شرح الاحكام الا لتحقيق مصالح العباد . وهناك آخرون لا يأخذون بهذا ولا يعتبرونه أمراً تستفاد منه الأحكام ، فتختلف أقوالهم في الوقائع بناء على ذلك ، وهناك أمور أخرى ، من هذا النوع . اختلف المجتهدون فيها ، وتعرف في كتب أصول الفقه ب»الأدلة المختلف فيها « كالاستحسان والعرف والعادة ووغيرها .كما ان هناك اختلافاً في بعض الأمور المتعلقة بدلالات النصوص ، وطرق تلك الدلالات ، وما يحتج به منها) ١.(

الخلاف المعتبر : هو الخلاف السائغ ، ووجوده بين الأمة ظاهرة طبيعية لابأس فيها ولا توجب فرقة ولا تناقضاً ولا تحزّباً ولا معاداة ، فهو اختلاف النوع كما يعبّر عنه محققو العلماء.

وهو مَعْلم من معالم كمال الشريعة وصلاحها لكل انسان ولكل زمان .وهو الخلاف المبني على موارد الاجتهاد المعتبر ، وهي : ما ترددت بين طرفين واضحين وأصلين شرعيين ، الحق متردد بينهما ، وبه حصل الاشكال والخلاف) الموافقات للشاطبي ٤ / ٥٥ . ١٦٠.(

وشيخ الاسلام» ابن تيمية «حين ذكر اختلاف التنوع ، أورد أنه على وجوه) : ملخصاً من الاقتصاد ومجموع الفتاوى: (

١ . منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة ، فزجرهم رسول الله» صلوات الله عليه «عن الاختلاف وقال) : كلاكما محسن (رواه البخاري ، ومثله الاختلاف في صفة الأذان والإقامة والتشهّد والاستفتاح.

٢ . ومنه ما يكون كل من القولين في معنى القول الآخر ، لكن العبارتين مختلفتان ... ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد المقالتين وذم الأخرى.

٣ . ومنه ما يكون المعنيان غريبين ، لكن لا يتنافيان ، فهذا قول صحيح ، وهذا قول صحيح ، وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر ، وهذا كثير في المنازعات جداً.

٤ . ومنه ما يكون طريقتين مشروعتين ، قوم قد سلكوا هذا الطريق ، وآخرون قد سلكوا الأخرى ، وكلاهما حسن في الدين ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بقصد صالح ، أو بلا علم أو بلا علم ولا نية.

٥ . الكل يستقي من أدب النبوة) ١.(

٦ . الحرص على تجنّب الفتيا خوفاً من الوقوع في الخطأ) ٢.(

٧ . كان الصحابة والتابعون يقولون عن آرائهم : ان كانت حقاً فمن الهام الله وتوفيقه ، وان كانت باطلاً فمنهم ومن الشيطان) ٣ .(يقولون : رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

مناقشة هادئة لمدرسة الجمهور السُنّي

)مدرسة الخلفاء(

قمنا . عن قرب . بتحليل مقتضب حول النظرية السُنّية وموقفها من الوقائع والأحداث التي جرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ، ، وكيف تبلورت مدرسة أهل السُنّة والجماعة ، لتتشكل منها مذاهب متعدّدة ، تقلّصت الى أربعة مذاهب قائمة الى يومنا هذا؟

وقد أقام أصحاب هذه المدرسة رؤيتهم العقائدية والفقهية على أسس ومقدّمات أدرجوها في كتبهم وتصانيفهم الكثيرة ، والتي اعتمدت على روايات وأحاديث مدوّنة في بطون الكتب والآثار التأريخية خلال قرون من الزمان.

وسنناقش الآن هذه المباني والمسلّمات والقناعات لنعرف مدى صدْقها وانطباقها على الواقع التأريخي ، وهل تُمثّل الإمتداد الحقيقي الصادق للرسالة الاسلامية والاهداف النبوية التي بُعث الرسول صلى الله عليه وآله ، من أجلها أم انها بالعكس من ذلك لم تجسّد الطموح المطلوب؟

ومهما يكن من شيء ، سنحاول الاجابة عن الأسئلة التالية:

. ماذا تعني الصحبة؟ وهل الصحابة هم كل أولئك الذين رأوا الرسول واحتكوا به ولازموه وصاحبوه واستمدوا من إشراقاته وفيوضه المقدسة ، ورافقوه فترة ليست بالقصيرة أم ان الصحبة تشمل حتى الرؤية الخاطفة والسريعة ، أو المُعاصَرة للرسول ، دون رؤيته والسماع منه فضلاً عن مرافقته؟

. هل صحيح ان الصحابة تلقّفوا كل ما تفوّه به الرسول ، وحفظوه واستوعبوا جلّ الأحاديث النبوية وجسّدوها في حياتهم وسلوكهم خير تجسيد أم لم يكن ذلك صحيحاً؟

. هل ان الصحابة كانوا على درجة كبيرة من الايمان والاخلاص ، لأنهم لازموا الرسول صلى الله عليه وآله ، وتعايشوا معه واستوحوا من نور النبوة وأشعّة الوحي المباركة؟

. هل امتلك الصحابة ـ جميعاً ـ حصانة ضد الكذب على النبي محمد صلى الله عليه وآله وثبتت عدالتهم أجمعين ، وقام القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وآله ، بتزكيتهم ، باستثناء المرتدين والمنافقين؟

. هل كانت الروابط بين الصحابة على درجة كبيرة من الاحترام المتبادل لكونهم استقوا من معين الرسول العذب؟

. هل حذّر الرسول الأكرم» عليه الصلاة والسلام «من سب الصحابة ولعنهم ونقدهم ، لأن ذلك يمثّل مساساً بنزاهتهم وقداستهم ، وهم الذين أعدّهم الله لحمل الرسالة ونقل الحديث النبوي الى الأجيال اللاحقة؟

. هل الصحابة ـ كما يقول أهل السُنّة والجماعة ـ عًصموا من الاقتحام في الذنب ، ولذا كانوا ـ كلهم ـ أسوة في الدين والزهد والمجاهدة؟

. هل ان جميع الصحابة لا يتطرّق اليهم الجرح ، ومن انتقص أحدهم فهو من الزنادقة؟

. هل ان الصحابة كافة ، أفضل من جميع الذين يجيئون من بعدهم؟

. هل على كل مسلم تزكية جميع الصحابة ، والكفّ عن الطعن فيهم ، ووجوب الثناء عليهم؟

. هل الصحابة بريئون من كل نقص ، وان عدالتهم ثابتة معلومة لكل مسلم كتاباً وسنّة واجماعاً؟

. هل ان الله اختار أصحاب النبي الهادي صلى الله عليه وآله ، على جميع العالمين سوى الانبياء والمرسلين؟

. هل لا يحق لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئ الصحابة وإلا ينبغي تأديبه ومعاقبته؟

. هل كان الصحابة ، متابعين ـ بشدة ـ للرسول صلى الله عليه وآله ، وقد أخذوا أنفسهم بالعمل على سُنّته مع حمايته ونصرته؟

. هل ان آراء الصحابة وفتاويهم ، سُنّة يرجع اليها ويعمل بها؟

. هل أكرمَ الله تعالى الصحابة وزكّاهم ومدحهم في القرآن الكريم؟

. هل كان الصحابة ، خلفاء الرسول في جميع أعماله إلا النبوة والوحي؟ وهل هو مما معلوم من الدين بالضرورة عدالة الصحابة وعلو مكانتهم ، وإن هذه من مسائل العقيدة القطعية التي لا يختلف عليها إثنان؟

. هل فضيلة الصُحبة لا يعدلها عمل ، فقد اصطفاهم واختارهم الله لصحبة نبيه ، وقد ربّاهم النبي صلى الله عليه وآله ، على مائدة القرآن والسنّة النبوية؟

موقف القرآن الكريم من الصحابة : بين المدح والذم

. تحذير إلهي للمؤمنين من اتّباع خطوات الشيطان ، ومن الزلل بعد مجيء البينات) ١.(

. تبشير الله تعالى للرسول والمؤمنين بالنصر القريب) ١.(

. هناك مؤمنون لم يكسبوا في إيمانهم خيراً) ٢.(

. يحذّر الله المؤمنين اذا لقوا الكفّار في الزحف أن يولّوهم الأدبار) ٣.(

. ان الله أيّد الرسول صلى الله عليه وآله ، بنصره وبالمؤمنين) ٤.(

. والمؤمنون الذين جاهدوا مع الرسول بأموالهم وانفسهم هم المفلحون) ٥.(

. وهناك مؤمنون عندما جاءهم الاعداء ، زاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر وظنوا بالله الظنون ، وأُبتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً) ٦.(

. وهناك مؤمنون يعصون الله والرسول ، ولذا فقد ضلوا ضلالاً مبيناً) ٧.(

. والمؤمنون الذين إن ينصروا الله ينصرهم ويثبّت اقدامهم) ٨.(

. وهناك مؤمنون في قلوبهم مرض ، إذا ذُكر القتال ينظرون الى الرسول نظر المغشي عليهم من الموت) ٩.(

. وهناك مؤمنون يرفعون اصواتهم فوق صوت النبي ويجهرون له بالقول كجهر

بعضهم لبعض ، فتحبط أعمالهم وهم لا يشعرون ، أما الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ، فهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، ولهم مغفرة وأجر عظيم ، والمؤمنون الذين ينادون الرسول من وراء الحجرات ، أكثرهم لا يعقلون) ١.(

. ومن المؤمنين من يحاول أن يعلّم الله بدينه ويمنّ على النبي» صلوات الله عليه «بإسلامه ، مع إن الله هو الذي هداهم للايمان إن كانوا صادقين) ٢.(

. وهناك مؤمنون لم تخشع قلوبهم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) ٣.(

. ويحذّر الله المؤمنين من المناجاة بينهم بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، وانما ينبغي أن يتناجوا بالبر والتقوى) ٤ .(

لاشك ان أي انسان مسلم يتوخى الحقيقة ، لابد وان يستنتج من خلال الآيات القرآنية السابقة التي تتمركز حول المؤمنين الذين عاصروا الدعوة الاسلامية في أبرز مراحلها الحساسة ، ولازموا الرسول صلى الله عليه وآله ، في حلّه وترحاله ، بأن المؤمنين ـ حسب مواقفهم من الأوامر الالهية والنبوية ، وسلوكهم العقائدي والاجتماعي والأخلاقي ، وتصرفاتهم الحياتية ـ لم يكونوا بذلك المستوى الايماني العميق والراسخ ، كما يتوهم البعض ، وإنما كان سلوكهم كسلوك الناس العاديين في كل العصور ، لا يفترقون عنهم بحال من الأحوال ، فهم يعصون الأوامر الالهية في أكثر الاحيان ، وتأتي الآيات القرآنية

المتتابعة لتحذيرهم تارة أو لتوبيخهم وتهديدهم تارة أخرى ، من اتّباعهم لخطوات الشيطان ، ومن الشطط وممارسة الاعمال الشائنة كالربا ، وطالما حذّرهم الله من التمادي في إطاعة أهل الكتاب والكفار ، ابتغاء لعَرَض الحياة الدنيا ، أو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين ، أو تولية الأدبار عند لقاء الكفار والمشركين في الحروب ، أو الوقوع في الفتن ... وغير ذلك من ال تصرفات المنحرفة.

وأكثر هؤلاء المؤمنين ـ بالطبع ـ من الصحابة الملازمين للرسول صلى الله عليه وآله ، وبالرغم من أن الآيات القرآنية السابقة وصفتهم بالانحراف والزيغ عن الحق ، فإنها امتدحتهم في مواضع أخرى ، فاذا كان هؤلاء الصحابة ، محصّنين ضد الانحراف واقتراف السيئات ، وإذا كانوا ذوي تربية رفيعة ، فلِمَ كانوا يعصون الرسول ، ولا يحترمون وصاياه وأوامره ، ويتركونه حتى في الصلاة قائماً ، وينصرفون الى اللهو والتجارة؟ أهذه هي الأخلاق السامية التي يتمتعون بها كما تصوّرهم كتب الجمهور دائماً؟

الصحابة بين الايجابيات والسلبيات

صحيح ان بعض الصحابة كانوا مِثالاً يُحتذى به في الأخلاق والسلوك والنزاهة والتصرّف الرزين ، والطاعة لله ورسوله في كل المواقف ، ولكن هؤلاء ليس كل الصحابة بطبيعة الحال ، والقرآن الكريم حينما يصف المؤمنين ، سواء كانوا صحابة أو غير صحابة ، فهو يضع في نظر الاعتبار ، ظروف وأحوال المسلمين حين نزول الوحي على قلبه صلىاللهعليهوآله ، سواء كانوا في موضع مُناصر وايجابي من نبيهم ، أو بالعكس كان موقفهم متخاذلاً وسلبياً من أوامره صلىاللهعليهوآله .وبتعبير آخر ، سواء كانوا في حالة طاعة أو معصية للرسول ، فلا يحق لنا والحال هذه أن ننتقي ما يروق لنا من ممارسات ومواقف المؤمنين أو الصحابة ، فندوّنها في كتبنا ومصنّفاتنا ، ونضع التحليلات والنظريات

والقناعات والمسلّمات على أساسها ، ونتناسى كمّاً هائلاً من المواقف والممارسات السلبية والسيئة لعدد كبير من الصحابة او المؤمنين .والقرآن الكريم خير شاهد على ما نقول ، وليس من حقّنا أن نغضّ الطرف عن الموقف القرآني

الجليّ من هؤلاء ، وندّعي ان الصحابة جميعاً ، كانوا نماذج رائعة ، لم تعص الله ورسوله طرفة عين أبداً ، وهم القدوة المثلى لكل المسلمين على مرّ التأريخ ، بينما يتخلّل مسيرتهم الكثير من الضعف والانكسار والتراجع وحتى الخيانة!!

وما نستشفّه من الآيات القرآنية الكريمة ، ان العديد من الذين يلتفون حول الرسول صلى الله عليه وآله ، من المسلمين ،كانوا منافقين أو في قلوبهم مرض ، وليس شرطاً أن يكمنوا الكفر في أنفسهم ابتداءً ويُعلنوا إيمانهم ، وإنما قد يكونون مؤمنين بالدين ، ولكن لضعف إيمانهم ، تتزعزع العقيدة الدينية في نفوسهم بين آونة وأخرى ، فيعصون الرسول صلى الله عليه وآله ، ويسخرون منه ، وينتقصونه تارة ، ويتخلّفون عن القتال ويولّون الأدبار تارة أخرى ، أو قد يكذّبون على الرسول صلى الله عليه وآله ، ، وينكثون عهودهم معه ، ويرغبون بأنفسهم عن نفسه ، وهؤلاء في الحقيقة ، ليسوا فقط من الأعراب المقيمين حول المدينة ، وإنما هم من أهل المدينة ، وربما من المقرّبين للرسول ، الى حد أن الرسول صلى الله عليه وآله ، قد يسمع لقولهم ويطمئن لهم ، وهؤلاء الذين مردوا على النفاق ، هم من الصحابة حتماً لأنهم من الذين يصحبون الرسول في حلّه وترحاله ، كما هو مفهوم من القرآن الكريم .وفي كل الأحوال تبقى الطاعة أو المعصية للرسول ، هما محوري إيمان الإنسان المسلم أو نفاقه ، سيما وان هناك مئات من الآيات القرآنية التي تؤكد عدم حصانة المؤمنين من الصحابة ضد الانحراف ، هذا فضلاً عن المسلمين الآخرين الذين يُعدّون صحابة بالرغم من نفاقهم أو كونهم ذوي قلوب مريضة.

القرآن الكريم وعدالة الصحابة

بعد هذه الحقائق الغرّاء ، أليس من المفارقات العجيبة ، إدعاء أهل السُنّة والجماعة بوجود آيات قرآنية تثبت عدالة الصحابة جميعاً بالرغم من تعارضها مع الآيات السابقة؟

لنتعرّف على هذه الآيات التي يتشبث بها جمهور السنّة ويتخذونها دليلاً على عدالة الصحابة جميعاً وعصمتهم من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ،

الآية الأولى:

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) ١.(

ولسنا نعلم كيف يُستدل من هذه الآية المباركة على عدالة الصحابة وحصانتهم ضد الكذب على الرسول صلى الله عليه وآله ، ؟ فخيرية الأمّة الاسلامية المُخرجة للناس ، انما هي خيرية ابتداء ، بمعنى ان هذه ال أمة بما تمتلك من مقومات وتعاليم إلهية حقة ، هي خير الأمم بشرط أن تلازمها تلك الأسس والمقومات والمبادئ حتى آخر الشوط ، وأي توانٍ من تنفيذ واجباتها إزاء نفسها وإزاء الآخرين ، سيُفقدها تلك الخيرية بالتدريج ، ولذلك اشترط الله تعالى على

هذه الأمّة ، اداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتُواصل خيريتها «وافضليتها على» الأمم السابقة «التي أُخرجت للناس قبل انحرافها عن تعاليم أنبيائها

ثم ان الله سبحانه وتعالى حين ذكر بأن الأمّة الاسلامية خير الأمم ، لم يتطرق الى عاقبة هذه الأمّة ، وهل ستبقى خيّرة وفاضلة ومتميزة الى النهاية أم انها تؤول الى الضعف والانكسار كالامم السابقة في هذه الآية بالذات والآيات التي أعقبتها ، وإنما

أشار الى انحراف ابنائها في آيات كثيرة أخرى كما سنؤكد ذلك في المستقبل.

ولا ننسى بأن الرسول صلى الله عليه وآله ، أكد مراراً بأن مصير الأمّة الاسلامية سيكون كمصير الأمم السابقة حذو النعل بالنعل) ١.(

ثم لا ندري ما العلاقة بين خيرية الأمّة وعدالة الصحابة كلهم أجمعين؟ ومن أين جاءت هذه الفكرة؟

ومن البديهي إذا امتدح أمّة أو مجتمعاً ما بأنه مجتمع نموذجي صالح ، فهل يعني انه يخلو من اللصوص والمخربين مثلاً؟ اللهم إلا إذا أحصى كل أفراد هذا المجتمع باسمائهم وشخوصهم فرداً فرداً ، ومثل هذه الخطوة تصلح في مجتمع صغير جداً لا يتجاوز العشرات ، ولكن يستحيل وصف مجتمع كبير جداً بأنه مثالي وخالٍ من أي شخص منحرف!!

والقرآن الكريم حين وصف الأمّة الاسلامية بالخيرية ، فانما وصفها بصورة إجمالية لا إستغراقية ، ولذلك فإن الآيات القرآنية جاءت بعد ذلك تترى لتصف حال وأوضاع المؤمنين والصحابة بشتى الأوصاف الايجابية والسلبية حسب المواقع والمجريات والمواقف لتثبت أن في الأمّة الاسلامية خلال البعثة المظفرة ، عصاة وخَوَنة ومتآمرين ، ومولّين للأدبار في الحروب ، الى غير ذلك من الاوصاف والنعوت ، فهل يحل لنا أن نكذّب سائر آيات القرآن الكريم لنتمسك بآية واحدة تصف الأمّة بالخيرية ، وندّعي بأن الصحابة الذين يشكّلون عمود الأمّة ومحورها ، ذوو عدالة مطلقة ولا يكذّبون أبداً؟ وإنّ حياتهم وسيرتهم مع الرسول ، ومع بعضهم البعض ، اتسمت بالصلاح والسداد والصدق

والنزاهة والاستقامة والاحترام المتبادل؟

هذا تكذيب للقرآن الكريم والوحي المقدّس !!ولا يحق لأي مسلم يتصف بالوعي والعقل السليم أن يتجرّأ على تجاوز هذه الحقائق القرآنية إلا إذا فقَدَ المنطق والعقلانية والموضوعية ليخبط خبط عشواء.!!

الآية الثانية:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ٢.(

هذه الآية تعني ان الله تعالى جعل الأمّة الاسلامية أمّة وسطاً بين الأمم الاخرى من خلال القرآن الكريم وتعاليم الاسلام التي حملها الهادي صلى الله عليه وآله ، ، إذ ان الامم السابقة هلكت بين الإفراط والتفريط في القيم الالهية ، وجاءت الأمة الخاتمة لتعيد الأمور الى نصابها الطبيعي ، وتكون شاهدة على كل الأمم السابقة ، ثم يكون الرسول صلى الله عليه وآله ، عليها شهيداً ... واللافت هنا كلمة) جعل (أي ان الله هو الذي جعل الأمّة الاسلامية وسطاً بين الامم ، وليس الأمّة هي التي اختارت الوسطية ، فما هي العلاقة بين هذه ال وسطية وبين الحصانة التي منحها أهل السُنّة والجماعة للصحابة أجمعين؟ ثم ان الله أشفع ذلك بأن جعل القبلة معياراً للدين يتبعون الرسول ويطيعونه ، من الذين ينقلبون على الاعقاب .وهذا دليل قاطع على إن هذه الأمّة الوسط ، لا تواصل ثباتها على الطريق الذي رسمه الله لها ، وانما ستتعرض للامتحان والافتتان في بدايتها ، وهناك من ينقلب على عقبيه بعد رحيل الرسول الى بارئه الاعلى ، لأن الذين يثبتون على هداهم

واستقامتهم ، يجتازون اختباراً صعباً لا يطيقه إلا من أوتي حظاً عظيماً من التقوى والورع والايمان الراسخ وطاعة البشير النذير» صلوات الله عليه.«

الآية الثالثة:

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ١.(

الآية واضحة بأن الذين يطمح الله أن يكونوا دعاة الناس الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، انما هم جزء من الأمّة ، أي من الصحابة الملتفين حول الرسول صلى الله عليه وآله ، ، وليسوا كلهم ، مع ان الآية لم تشر الى أية حصانة في الأمر سوى ن هؤلاء الصحابة من الثقاة الذين عليهم الاعتماد في نقل الحديث النبوي للآخرين ، بالطبع فهؤلاء حتماً. قمّة في طاعة الرسول واتّباع نهجه ، والسير على خطاه ، ولذلك سيكون مصيرهم الفلاح في الآخرة.

الآية الرابعة والخامسة:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)٢.(

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ٣.(

الآية الكريمة تصف المهاجرين والانصار ، وصفاً حميداً ، مشترطة على المهاجرين،

الهجرة والجهاد بالأموال والانفس في سبيل الله ، أي عدم خذلان الرسول» عليه الصلاة والسلام «أو عصيانه خصوصاً في مسألة قتال الكفار والمشركين ، وأما الانصار فهم الذين آووا الرسول صلى الله عليه وآله ، والمهاجرين ، ونصروا نبيهم ، ولذلك ستكون الولاية والنصرة من بعضهم البعض أمراً حتمياً لامناص منه...

وهذا المدح الالهي مشروط بالنُصرة للرسول وطاعته ، وبالتالي يستثني كل العصاة والمتخاذلين من المؤمنين ، وليس هناك أي إشارة الى عدالة الصحابة أو حصانتهم في هذا الخصوص ، اللهم إلا نصرة الرسول صلى الله عليه وآله ، ونصرة المهاجرين والانصار بعضهم البعض .وبالتالي فإن هؤلاء هم المؤمنون حقاً دون سواهم .وهم مع ذلك موضع ثقة الرسول ولا يكذبون عليه» صلوات الله عليه «في نقل الحديث ، لكن هؤلاء ليسوا كل الصحابة والمؤمنين كما هو معلوم.

الآية السادسة:

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ١.(

الآية المباركة من سورة التوبة ، تتحدث عن السابقين الاولين من الصحابة والمؤمنين المهاجرين والانصار ومن اتّبعهم بإحسان ، اي ان الاداة) من (تبعيضية ، تختص ببعض المهاجرين والانصار ، ولم تشملهم جميعاً برضا الله عنهم وراضهم عنه ، والفوز في الآخرة ، ومن ثم ينسحب الرضا والفوز على بعض التابعين وهم التابعين بإحسان دون غيرهم.

ثم من هؤلاء السابقين الاولين الذين امتدحهم الله بهذا المدح ، وضَمَن لهم رضاه

والفوز في الآخرة؟ لابد انهم الصحابة الذين أطاعوا الله ورسوله في حلّه وترحاله ولم يعصوه أبداً ... هؤلاء النمط العظيم الذين أسلموا وجههم لله ، ولم يتخلّفوا عن رسول الله ، وسلّموا له تسليماً .وهؤلاء هم الصادقون الذين سيكونون نَقَلة ثقاة للسُنّة النبوية دون غيرهم من المهاجرين والأنصار ، وهذا يدل على ان الصحابة من المؤمنين ، ليسوا كلهم عدولاً كما يدّعي الجمهور المسلم.

الآية السابعة:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) ١.(

وهذه الآية المباركة ، لا ترمز الى الصحابة كلهم ، من قريب أو بعيد ، وإنما تشير الى فئة من المؤمنين من الصحابة الذين كانوا طوع الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكونوا يكذّبونه طرفة عين أبداً.

الآية الثامنة والتاسعة:

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) ٢.(

لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)٣.(

الآيتان المذكورتان آنفاً تشيران إلى بيعة الرضوان التي جرت بُعيْد صلح الحديبية ، حيث قام المهاجرون والانصار بمبايعة الرسول صلى الله عليه وآله ، تحت الشجرة ، وبالرغم من أن جلّ

المسلمين بايعوا رسول الله وبضمنهم المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، إلا ان القرآن وصف البيعة كما جرت ، مشترطاً عدم نكث البيعة مستقبلاً ، أي الذين يوفون بعهدهم وسيؤتيهم الله الأجر العظيم بعكس الذين ينكثون بيعتهم لرسول الله ، وهؤلاء الناكثون للبيعة ، ليسوا بمؤمنين ابداً ، وعليه فإن الله تعالى رضي عن المؤمنين بالذات ، الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة ، دون الذين بايعوا ثم نكثوا البيعة كما هو معلوم.

فهؤلاء إنما بايعوا بأيديهم ـ ظاهراً ـ دون قلوبهم ، ولم يوفوا بعهودهم منذ اليوم الأول لأنهم كانوا من المُرائين والمتستّرين بالايمان.

الآية العاشرة:

لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ١.(

الآية الشريفة تمتدح فئة من المهاجرين والانصار خاصة ، وهم الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وآله ، وأطاعوه في ساعة الشدة والعسرة حيث ينفضّ أهل الدعة والراحة الذين يخلدون الى الارض دائماً ، ويدعون الرسول ومعه نخبة من الصحابة الأجلاء ، كما يقول أحدنا» : لقد نجح الطلاب الذين درسوا كثيراً.«

وهذه الجملة تعني ان الطلاب الكسالى والمتخلّفين سيرسبون في الامتحان.

وهذا إن دلّ على شيء فانما يدلّ على ان المطيعين لرسول الله من المهاجرين والأنصار ، هم الذين تحيطهم الرعاية الالهية دون غيرهم.

بعد هذه اللمحة السريعة للآيات القرآنية التي يستدل بها جمهور أهل السُنّة

والجماعة على اثبات عدالة الصحابة جميعهم دون استثناء ، ويزعمون أن لديهم» حصانة «ضد الكذب على رسول الله ، تدحض هذا الاستنتاج الذي يُعتبر من المسلّمات عند الجمهور السُنّي ، الآيات القرآنية نفسها ، إذ تثبت أن بعضاً من الصحابة والمؤمنين الذين ينزل الوحي وهم متحلّقون حول رسول الله ، كانوا بمستوى الايمان والتقوى والمسؤولية لحمل ونقل السُنّة النبوية لصدْقهم وأمانتهم ورعايتهم للعهود ، أما الآخرون فليس ما يثبت أو يدلّ على ثقة الرسول بهم ، بدليل ذمّهم من قبل الله ورسوله ، وان فيهم المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين والمشكّكين والضعفاء والعُصاة ، كما اتضح آنفاً ، وليس من حق أحد أن يمنحهم العدالة أو الحصانة ضد الكذب أو حتى العصمة كما يزعم البعض من أهل السُنّة والجماعة.

القرآن الكريم والاعتبار من الامم البائدة

ليس اعتباطاً ان يدعو الله تعالى المسلمين لأخذ العبرة من الأمم السالفة ، والسير في الأرض ، لينظروا كيف كان عاقبة المكذّبين؟) ١ (وكيف أهلك الله تلك الأمم السابقة التي مكّنها في الأرض ، ثم أهلكها بذنوبها ، وأنشأ من بعدها أمماً أُخر) ٢ .(

ولقد أهلك الله الامم المندثرة لمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ، ولكنهم لم يؤمنوا ... ثم جعل المسلمين خلائف لهم لينظر كيف يعملون؟) ٣(

ولولا كان من الامم السالفة ـ قبل مجيء الأمّة الاسلامية ـ قلّة ينهون عن الفساد في

الأرض ، فأنجاهم الله دون الذين أترفوا وكانوا مجرمين) ١ .(

ويقصّ الله على الرسول من أنباء الرُسُل ما يثبّت به فؤاده ، ولقد جاءه في هذه الانباء الحق وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)٢ .(

وهي سُنّة الله في الامم البائدة والسابقة للاسلام ، وليس لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ٣ .(

ان هذا التأكيد القرآني لذكر الأمم البائدة ، وانه سُنّة في كل الأمم ، لا فرق بينها أبداً ، انما جاء ليحذّر الأمّة الاسلامية من مغبة عصيان الرسول صلى الله عليه وآله ، ومخالفة أوامره كيلا يصيب هذه الأمّة ما اصاب قبلها من الأمم الاخرى من عذاب شديد وليعتبر أولو الالباب.

ولو كانت هذه الأمّة مُحصّنة ضد الانحراف وعصيان أوامر النبي صلى الله عليه وآله ، لما اكد الله تعالى ان هذه السنن جارية حتى في الأمّة الاسلامية بعد ايمانها بالله ورسوله ، وليس فقط تنسحب على المشركين والكفار كما يعتقد المرء لأول وهلة ، وإلا لِمَ قال الله تعالى : لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) ٤.(

وسنفصّل هذه ال حقائق فيما يأتي ، ومهما يكن من أمر فإن كل مطّلع من ذوي الالباب والمنطق السليم ، عندما يتصفح القرآن الكريم ويبتعد عن روح التعصّب والأحكام المسبقة ، سيكتشف ان المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله)وأكثرهم . بالطبع . من الصحابة ، (لم يكونوا كلهم من أهل الطاعة والإتّباع المطلق لرسول الله حتى

يُحمّلهم الله تعالى ، مهمة وأمانة حفظ وصيانة السُنّة النبوية ونقلها للأجيال اللاحقة ، اللهم إذا إذا توخّينا مناهضة الحقائق القرآنية الناصعة التي لا تقبل الجدل والمناقشة.

على انّ الصُحبة مع الرسول لو كانت تمتلك مقومات العدالة والنزاهة والحصانة ضد الانحراف ، لكون الصحابة ينهلون من نور النبوة وإشراقات الوحي ، فلِمَ هناك من الصحابة من يؤول مصيره الى الإرتداد عن الدين ، والكفر بالله ورسوله بعد الايمان وإعلان الشهادتين ، كما يشهد بذلك القرآن الكريم؟ إذ يقول تعالى في سوَرٍ عديدة عن ظاهرة الإرتداد : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ١.(

ونحن لو وصفنا الصحابة الكرام بأنهم اولئك الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وآله ، ولو لدقائق معدودة أو نظر اليهم أو نظروا إليه أو عاشوا في حياته ولم يروه ، بل وتنسحب الصُحبة حتى على الاطفال الصغار الذين كانوا في المهد ، بمعنى أنّ الصُحبة تشمل جميع أهل المدينة فضلاً عن المهاجرين والأنصار ، وهؤلاء كلهم على منزلة عظيمة من العدالة والعظمة والنزاهة التامة .. فإن ذلك يوجّه أكبر ضربة إلى القرآن الكريم في آياته المجملة والتفصيلية التي هي واضحة التعابير والمعاني بأن المؤمنين الذين كانوا يعيشون في مكة والمدينة ، وهم من الصحابة حتماً ، كان العديد منهم لا يحترم الرسول من قريب أو بعيد ، ويعصيه دائماً ولا يعير لأوامره أية أهمية.

قضية التشبيه في الوجدان السُنّي

لو تمعنّا قليلاً في الموقف السُنّي من فكرة التشبيه والتجسيم ، لاستنتجنا بأن اهل السُنّة والجماعة ـ باستثناء الحنابلة وأصحاب الحديث ومنهم إبن تيمية ـ يدّعون أنهم من أهل التنزيه ، وليسوا مشبّهة ولا مجسّمة من الذين يشبّهون الخالق بالمخلوق.

فهم يقرّون بأن الصفات التي يذكرها القرآن لله تعالى هي بلا كيف ، أي انها لا تشبه أعضاء الانسان ، ولا نعلم كنهها ولا شكلها لان الله ليس كمثله شيء ، وانما نؤمن بها كما يطرحها القرآن الكريم ، أما الله سبحانه وتعالى فلا يُرى في الحياة الدنيا ، كما يزعم المشبّهة ، وانما يشاهده أهل الجنة في الآخرة.

ولنا ملاحظات عديدة حول الرؤية السُنّية لله تعالى:

١ .إن الخطوة الاشعرية لتعديل المفهوم السُنّي عن الخالق عزّ وجل ، الى درجة إقرار أهل السُنّة والجماعة أنفسهم بأنهم قد نقّحوا أفكارهم من التشبيه واصبحوا من أهل التنزيه ، ما هي إلا خطوة غير موفّقة ، وان المشكلة بقيت تراوح في مكانها ، والتشبيه ظل متأصلاً في المفهوم السُنّي عن الله تعالى ، وإلا لو كان الله من المُحال ان يُرى في الحياة الدنيا ، فكيف سيُرى من قبل المؤمنين في الآخرة؟ والله هو الله !!والانسان هو الإنسان !!ولو كان لله اعضاء وجوارح من يدين ورجلين وكفين وأصابع ووجه وعينين ، وما إلى ذلك إلا إنها ليست كصفات الانسان ، وانما لها كنه لا تدركه أفهامنا وعقولنا؟ اي انها صفات حقيقية وليست مجازية.

تُرى عندما يُقال لنا ، وجه أو عين أو يد او ساق أو كفّ فحسب ، فماذا يتراءى لنا في الحال؟ من المحتّم سوف تنطبع في أذهاننا ، عين أو يد أو ساق أو كفّ ، سواء كانت لإنسان أو حيوان ، لأن هذه ال صفات مشتركة بين الانسان والحيوان بل وحتى مع الجماد أيضاً ، لأن هناك يداً للكرسي أو الباب ، وكذلك ساقاً للمنضدة أو الكرسي أو السرير ، وعليه فسوف تنشأ صورة خيالية لهذه الصفات ، تشترك بين الأحياء والجمادات حتى تُضاف قرينة لتدل على كنه هذه اليد أو العين مثلاً .. وبالتالي فعندما نقول لله يد أو وجه أو ساق حقيقة ، فلابد وانها سوف تشغل حيزاً محدّداً في اذهاننا أو عقولنا ، وهي يد أو وجه أو ساق مماثلة أو مشابهة لليد أو الوجه أو الساق المتعارف عليها ، مما يمحي عنها الصفة المجهولة التي يؤكد عليها علماء السُنّة بقولهم : إن لله يداً ليست كأيدينا أو مجهولة الكيف ... وهكذا بالنسبة للعين أو الساق أو الوجه أو الكف وهكذا.

فهذه الاعضاء الالهية لابد وأن تشغل حيزاً من الوجود ، وبالتالي فهي مُحدثة طارئة ، واذا كانت تشغل حيزاً محدّداً من الفراغ ، فإن الجسم الالهي هذا سيتحدد في مكان معين ، ولا يملأ الوجود كله ، كما يفرضه المنطق والعقل الانساني.

إذ ان الله لا يخلو منه مكان في الارض ولا في السماء ، وهو مع الخلق أينما كانوا» : وهو معكم أينما كنتم «وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو نور السماوات والأرض ، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة جداً ، فكيف نحصره في جهة محدودة أو مكان معين ، كما هو حال المخلوقات والاشياء الحادثة؟

ثم لِمَ لا نتعامل مع التعبير القرآني في صفات الله تعالى من خلال قواعد البلاغة العربية اليت طالما تستخدم الاستعارة والمجاز في الابداع البلاغي حيث تمتلئ دواوين الشعر والنشر العربي بالكثير من صور الاستعارة في أشكال بيانية رائعة؟ فلِمَ نستثني القرآن وهو الكتاب الالهي الفصيح والبليغ من القواعد اللغوية والبلاغية ، ونُحكم على

المجاز بأنه طاغوت لان الأمر يتعلق بالله تعالى؟

ألم ينزل القرآن الكريم باللغة العربية المحكمة : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)١ (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ٢.(

وفي العبارات البلاغية ، نقرأ كثيراً ، كلمات تفيض بلاغة وسحراً.

فلِمَ يتم استثناء القرآن الكريم . وهو كتاب الله المنزل بلغة العرب . من هذه الاصول البلاغية المألوفة في الشعر والأدب العربي؟

والغريب ان الصحاح السُنّة المعتبرة ، تذكر بأن الله خلق آدم على صورته ، أي ان شكل آدم مطابق لشكل الله ومشابه له ، فكيف والحال هذه ، يفسّر أهل السُنّة والجماعة قوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ٣(؟

وكذلك قولهم بأن الله ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا ويطلب من العباد ، الدعاء والاستغفار لكي يجيب دعواتهم ، وكأن الله تعالى لا يسمع أدعية الناس إلا إذا نزل بالقرب منهم .وهذه الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله ، والتي ملأت كتب الصحاح ، تتعارض والكثير من الآيات القرآنية التي تثبت بأن الله أقرب للإنسان من حبل الوريد ، أو قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) ٤ .(فلِمَ ينزل الله الى السماء الدنيا إذا كان قريباً من الانسان ويسمع دعاءه وتوسلاته؟

:مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ) ١.(

وعليه فإن هذه الروايات المدوّنة في صحاح أهل السُنّة والجماعة ، فضلاً عن تعارضها مع العقل والمنطق البشري ، فهي توجّه طعنة بالغة للقرآن الكريم.

أما لقاء النبي الله تعالى خلال عروجه الى السماء ، فهو أيضاً مستحيل ، لأن الله ـ وبحكم العقل ـ لا يُرى بالعين المجرّدة ، والآيات القرآنية في هذا الصدد لا تقرّ بذلك أبداً ، فإن الذي رآه الرسول صلى الله عليه وآله ، عند سدرة المنتهى ، هو جبرئيل ، لا أكثر ولا أقل ، وحتى القاضي السُنّي الشهير) عياض (يتعرّض في كتابه) الشفاء (للقضايا المتعلقة بذات الله ، فعند شرحه لقول الله تعالى) : ٢ ، (يقرّ ويعترف بأن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله والى الله ، فليس بدنو مكان ولا قرب مدى) ٣.(

وما توصلنا اليه بعد البحث في رؤية أهل السُنّة والجماعة لمفهوم التشبيه ، هو انهم بأجمعهم يؤمنون برؤية الله في الآخرة ، استناداً الى الروايات التي تثبتها الصحاح ، وابرزها صحيحا البخاري ومسلم اللذان لا يتطرق اليهما الشك لديهم.

وهذا يستدعي إثبات الصفات لله ، أي اعضاء وحركات يقوم بها ، مثل الضحك ، والتحدّث الى اهل الجنة ، وهذا بحد ذاته ، تجسيد لله ، وانه بذلك مُحْدَث كسائر الاجسام ، وما الفرق بين رؤيته في الدنيا او الآخرة؟ .. المهم ان صفات الله ، في هذا

الشأن ، هي صفات حقيقية وليست مجازية ، وعليه فلا معنى لمزاعم الكثير من اهل السَنّة الذين لا يؤمنون برؤية الله في الدنيا او ان له اعضاء ، ويعتبرون أنفسهم من» أهل التنزيه ، «ماداموا يؤمنون برؤيته في الآخرة.

ولمّا كنّا قد أثبتنا بأن الله من المحال ان تكون صفاته حقيقية ، وانما هي مجازية ، فإن نظرية الجمهور السُنّي تنهار جملة وتفصيلاً.

وجاء العلم الحديث والفيزياء المتطورة لتفنّد النظرية السُنّية حول ماهية الله تعالى وصفاته ، فالسماوات والأرض تحكمها قوانين الجاذبية والمغناطيسية ، وهذه القوانين وضعها الله تعالى لامساك السماوات والأرضين ، وليست هي في حاجة الى أصابع تحرّكها كما تزعم روايات البخاري ومسلم ، وهما أفضل صحاح أهل السُنّة.

ثم ان الله ليس له مكان ولا مقر محدّد ومعيّن يسكنه في السماء لأن الآيات التي تشير الى وجود الله في السماء ، ما هي الا تعبير رمزي عن السمو والرفعة ، وإلا اننا حينما نرفع رؤوسنا نحو السماء وندعو الله تعالى ، فإن كل الذين يدعون الله في أطراف المعمورة ، يرفعون رؤوسهم نحو السماء التي ستكون في الاطراف الأخرى من الأرض ، أي في سماء معاكسة لاتجاه سمائنا وهكذا كل أطراف الأرض ، بمعنى ان الله موجود في السماوات حول الأرض بشتى الاتجاهات ، وهذا إن دل على شيء فانما يدل على ان الله لامتناه ، فكيف يتوافق قولنا ان الله في السماء مع وجوده في شتى الاتجاهات وليس في اتجاه واحد؟

واذا سأل العباد ربهم فإنه يجيب دعوة الداعي اذا دعاه كما يؤكد القرآن الكريم ذلك ، والله الذي هو أقرب الى الخلق من حبل الوريد ، فما هو لزوم نزوله الى السماء الدنيا ولبْثه حتى الفجر يدعو الناس كي يستجيب لدعوتهم ، بينما هو يسمعهم حيثما كانوا لقربه منهم.!!

كما ان وجود الأعضاء من يدين وقدمين ووجه وأسنان وأصابع مهما كان كنهها ، إنما يدل ، ليس فقط على ان الله مُحدَث ، بل على حاجة الله الى هذه الاعضاء) الصفات ، (فاليد والاصابع ليمسك السماوات والأرض ، والعين لكي يرى ، والقدم لكي يقف عليها ، فهل هو بحاجة الى هذه الأعضاء حتى يتحرك بها بطلاقة؟

تُرى ما جدوى الاضراس التي يؤمن بها أهل السُنّة وان فم الله يحويها؟ هل لكي يسحق بها الطعام؟ سبحان الله عمّا يصفون .أما العرش الذي يعتقد أهل السُنّة والجماعة بأن الله يجلس عليه ، فهو في الحقيقة ، عرش رمزي خلقه الله تعالى لاثبات قدرته وعظمته ، حيث تحفّ الملائكة حوله وتسبّح بحمد ربها كما يقول القرآن الكريم ، هذا العرش مثله مثل الكعبة المُشَرّفة التي جعلها الله بيتاً رمزياً له ، لا أن يسكنه كما هو معلوم ، وكل الروايات التي تبيّن جلوس واستواء الله على العرش وان لكرسيه أطيطاً وما إلى ذلك ، فهي روايات واضحة الوضع ولا تنسجم مع العقل والمنطق وتعاليم القرآن الكريم حيث ان كرسي الله الرمزي يسع السماوات والأرض على حد التعبير القرآني : وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) ١.(

الموقف المريب من القرآن الكريم

إننا بعد تمحيص كتب جمهورنا المسلم وخاصة كتب الحديث من صحاح وسنن ومسانيد ، فضلاً عن تصانيف خاصة بعلوم القرآن وتدوينه ، نكتشف ان الكتب والآثار المعتمدة لدى أهل السُنّة والجماعة وبالذات البخاري ومسلم ملأى بالاحاديث والروايات التي تدل على تحريف القرآن الكريم وانه تعرّض للزيادة والنقصان والتلاعب ، كما ان النبي محمد صلى الله عليه وآله مات وتركه هنا وهناك ، وقصاصات عند هذا وذاك ، ولم يعنِ بجمعه ، ولذا فقد ضاع الكثير منه ، ولم يبق إلا هذا الموجود في أيدي الناس) ١.(

فالقرآن الكريم على هذا الأساس ، لم يُجمع . وإن كان مكتوباً متفرّقاً . ولم يعتمد المسلمون في العهد الاول إلا على نصه المحفوظ في الصدور ، بوجوده اللفظي ، وأنّه هكذا تواتر ، لا بوجوده الكتبي.

بينما يقول العديد من المؤرخين السُنّة بأن قرآناً كثيراً قد أُنزل على الرسول صلى الله عليه وآله ، فقُتل الحفظة يوم اليمامة ، الذين كانوا قد وعوه ، ولم يعلم بعدهم ولم يكتب) ١.(

يتضح من الحقائق المذكورة آنفاً ، ان أُمّهات الكتب المعتبرة لدى أهل السُنّة والجماعة ، كالبخاري ومسلم وغيرهما تقرّ إقراراً تاماً بتعرّض القرآن الكريم للتحريف ، وان القرآن الحالي ليس هو القرآن الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وآله ، في حينها،

غير ان علماء الجمهور لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة التأريخية المدوّنة في تصانيفهم ويتجاوزونها ، مقرّين بأن القرآن الكريم لم يتعرّض الى التحريف أو الزيادة والنقصان وانه هو القرآن نفسه لم يتغيّر أبداً.

هذا القول الفصل كما هو معلوم يطرحه أكثر علماء السُنّة من المتقدمين والمتأخرين.

فمحمد الغزالي يقول بان العالم الاسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ، ظل من بعثة محمد صلى الله عليه وآله الى يومنا هذه بعد أن سُلخ من الزمن أربعة عشر قرناً لا يعرف إلا مصحفاً واحداً مضبوط البداية والنهاية ، معدود السور والآيات والالفاظ.

أما العالم السُنّي الكبير» محمد أبو زهرة «فيؤكد أن القرآن بإجماع المسلمين هو حجة الاسلام الأولى وهو مصدر المصادر له ، وهو سجل شريعته ، وهو الذي يشتمل على كلّها وقد حفظه الله تعالى الى يوم الدين ، كما وعد سبحانه إذ قال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ١) (٢.(

فيما يقول» مصطفى الرافعي «بأن القرآن الكريم الموجود الآن بأيدي الناس من غير زيادة ولا نقصان) ٣.(

وهنا يجب أن يعترف أهل السُنّة جميعاً بأن كل مصادرهم التأريخية التي تعتقد وتذكر تحريف القرآن الكريم ، مُتّهمة وغير صادقة في ذلك ، حتى يكونوا صادقين في ادعائهم

بأن القرآن الكريم المتداول بين المسلمين ، لم يمسّه التحريف أو الزيادة والنقصان وإن الله حفظه بنص القرآن الكريم.

أيهما الحاكم : القرآن الكريم أم السُنّة؟

والمستغرَب في هذا الشأن ، إعتقاد علماء الجمهور بأن السُنّة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاضٍ على السُنّة)١.(

بل ويصر أهل السُنّة والجماعة على أن السُنّة النبوية تنسخ القرآن وتقضي عليه ، وأن القرآن لا ينسخ السُنّة ، ولا يقضي عليها.

ويمضي مكحول والاوزاعي الى أكثر من ذلك ، فيعتقد بأن القرآن ، أحوج الى السُنّة ، من السُنّة الى القرآن ، وذلك لأنها تبيّن المراد منه) ٢.(

وموضع اتفاق المسلمين هو : تخصيص الكتاب بما تواتر من السُنّة ، لكن الذي عليه الجمهور ان : خبر الواحد يخصّص عام الكتاب كما يخصّصه المتواتر.

غير ان الشاطبي يرفض هذه القاعدة السُنّة ، فيقول بإتفاق العلماء أجمع على عدم جواز نسخ الكتاب بخبر الواحد ، يشاطره في رأيه ، القطّان الذي ينسب عدم جواز نسخ القرآن الكريم بخبر الواحد الى الجمهور) ٣.(

بل أكثر من ذلك ، فالشافعي وأصحابه وأكثر أهل الظاهر من أهل السُنّة

والجماعة قد قطعوا بامتناع نسخ القرآن بالسُنّة المتواترة أيضاً.

نعم ان علماء سُنّة كباراً كالشاطبي ، قد شخص قيمة القرآن ، وهو الحاكم على السُنّة وليس السُنّة حاكمة عليه ، ولذلك فهو يقول عن القرآن الكريم : ان الكتاب قد تقرّر انه علية الشريعة ، وعمدة الملة وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر ، وانه لا طريق الى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسّك بشيء يخالفه ، وهذا كله لا يحتاج الى تقرير واستدلال عليه لأنه معلوم من دين الأمّة ، واذا كان كذلك يلزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة ، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها ، أن يتخذه سميره وأنيسه ، وأن يجعله جليسه على مرّ الأيام والليالي ، نظراً وعملاً لا اقتصاراً على أحدهما ، فيوشك أن يفوز بالبُغية ، وأن يظفر بالطلبة ، ويجد نفسه من السابقين وفي الرعيل الأول.

أما حبر الأمة عبد الله بن عباس ، فيقول ان القرآن ذو شجون وفنون ، وبطون ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل) ١.(

إذاً ... فالقرآن هو الحاكم على السُنّة وليس العكس صحيح ، غير إن علماء من أهل السُنّة والجماعة كالبيهقي وعبد الرحمن بن مهدي والخطابي ويحيى بن معين ، يرفضون أولوية القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف حول» عرض السُنّة النبوية على القرآن الكريم لمعرفة هل توافقه أم لا حتى تُضرب بعرض الجدار .«فيقول عبد الرحمن بن مهدي بأن الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ، يعني ما رُوي عنه صلى الله عليه وآله ، إنه قال» : ما أتاكم عني ، فإعرضوه على كتاب الله ، فإن وافق كتاب الله ، فأنا قلته ، وان خالف كتاب الله ، فلم اقله ، وإنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله«

وهذه الالفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وآله عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه) ١.(

ويدّعي البيهقي بان هذا الحديث ، باطل لا يصح ، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان ، فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن) ٢.(

وكذلك الخطابي الذي يقول بأنه حديث باطل لا أصل له .ويشاطره في ذلك يحيى بن معين.

وأهل السُنّة والجماعة في قضية الناسخ والمنسوخ ، يؤمنون بثلاثة أنواع من النسخ ، وهي:

١ .نسخ الحكم دون التلاوة.

٢ .نسخ التلاوة دون الحكم.

٣ .نسخ التلاوة والحكم معاً.

حرمة الرسول صلى الله عليه وآله في التراث السُنّي

هل حقاً أن للرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله ، موقعاً مرموقاً عند أهل السُنّة والجماعة؟ لأنهم طالما ادّعوا احترام وتبجيل خاتم الأنبياء وصاحب الخُلق العظيم ، وأنهم حَمَلة سُنّته ، والسائرون في طريقه دون غيرهم من الفرق والنحل والطوائف.

غير أننا بعد أن التوغّل في كتب الحديث السُنّية ، وخاصة الصحاح التي هي موضع ثقة كل أهل السُنّة والجماعة ، توصّلت الى حقائق راسخة ، تُثبت أن معظم أهل السُنّة لا يراعون حرمة الرسول صلى الله عليه وآله ، من خلال تدوين روايات وأحاديث مكذوبة عنه صلى الله عليه وآله ، وتؤكد استخفافه بالمجتمع وعدم حيائه واحترامه للأخلاق والمعايير الاسلامية ، اضافة الى اخطائه المتكررة وسهوه في الكثير من الامور الشرعية والفرائض الواجبة كالصلاة مثلاً ، بحيث يصحّح المسلمون أخطاءه التي لم يلتفت إليها) ١.(

ذو الخُلُق العظيم في صحاح السُنّة

فكتب الصحاح التي هي موضع اعتماد جلّ أهل السُنّة والجماعة ، وغيرها من كتب السنن والمسانيد ، تروي بأن النبي صلى الله عليه وآله ، كغيره من الناس ، يمسّه الشيطان ، ويقرّ

هو بذلك ، وانه في بعض الأحيان يعتريه المسّ ويستثني الشيطان أناساً آخرين دونه في المنزلة. بالطبع.) ١.(

ويصف القرآن الكريم ، خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله ، بأنه ذو خلق عظيم وعلى صراط مستقيم ، وعلى هدى قويم ، وعلى الحق المبين ، وتأتي صحاح أهل السُنّة ، لتصف النبي صلى الله عليه وآله ، بأوصاف وأفعال وممارسات لا يفعلها حتى المسلم العادي ، ويخجل من اقترافها أسوياء الناس) ٢.(

إذ كان النبي محمد صلى الله عليه وآله يُسحَر حتى ليخيل اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، ويأتي أهله ، وهو في الحقيقة لا يأتيها ، وقد اعترف صلى الله عليه وآله ، بأنه كان مسحوراً ، الى أن ذهب عنه أثر السحر بعد مدة كما يؤكد صحيح البخاري) ٣.(

هذا ي حين علّق العالم السُنّي الكبير محمد عبده على سحر الرسول صلى الله عليه وآله ، قائلاً : وقال كثير من المقلّدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة : ان الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صحّ فيلزم الاعتقاد به ... والقرآن ينفي السحر عنه صلى الله عليه وآله ، وعدّه من افتراء المشركين عليه ، وان المشركين كانوا يقولون إن الشيطان يلابسه ، وملابسة الشيطان

تُعرف بالسحر عندهم ... والذي يجب اعتقاده ، ان القرآن مقطوع به ، وهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه ، وقد جاء ينفي السحر عنه صلى الله عليه وآله ، ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذن هو ليس بمسحور قطعاً) ١.(

وهذا الحديث) سحر النبي (رواه الشيخان) البخاري ومسلم (وأحمد والنسائي) ٢.(

وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله ، عقيدة من العقائد ، ولو كان هؤلاء يقدّرون الكتاب حق قدره ، ما هذروا هذا الهذر ، ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة.

وفي قضية إخلاء الرسول صلى الله عليه وآله ، لأسرى بدر ، بعد أخذ الفداء ، قال بعض علماء أهل السُنّة والجماعة ، بأنه صلى الله عليه وآله ، عندما أخذ الفداء كان مجتهداً ، وكان الصواب قتلهم ، وان عمر بن الخطاء قد انتقد الرسول ، فاذا هو صلى الله عليه وآله ، وأبو بكر يبكيان ، وقال : ان كاد ليمسّنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل عذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب ، حيث قال هؤلاء : أنزل الله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ٣ .(حيث قال أهل السُنّة ، بنزولها في التنديد برسول الله وأصحابه ، حيث آثروا عرض الدنيا على الآخرة ، فاتخذوا الأسرى ، وأخذوا منهم الفداء قبل أن يثخنوا في الأرض ، وزعموا أنه لم يسلم يومئذ من هذه

الخطيئة الا عمر بن الخطاب ، وهم ادعوا ان النبي فعل ذلك بعد أن أثخن في الأرض ، وقتل صناديد قريش.

على أن آية : حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) ١ (انما نزلت في واقعة أخرى ، وهي ان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، قال بعضهم : العير أحب إلينا من قتال العدو ، وقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال لنتأهب له؟ إنما خرجنا للعير لا للقتال؟ فتغيّر وجه النبي صلى الله عليه وآله ، ، فأنزل الله تعالى : كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ) ٢.(

وحينما أراد الله أن يقنعهم بمعذرة النبي في إصراره على القتال ، قال : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ٣ ، (ولذلك لم يبال إذ فاته أسر أبي سفيان واصحابه حين هربوا بعيرهم الى مكة.

وهكذا أراد بعض كبار أهل السُنّة أن يعطوا مزية الى عمر بن الخطاب ، وسلْبها من النبي صلى الله عليه وآله ، الذي كان ان يصيبه عذاب أليم ، كبقية المسلمين ، في حين ينجو الصحابي عمر بن الخطاب .تُرى كيف تصف الصحاح »المقدّسة «الرسول صلى الله عليه وآله ، وبهذه الاوصاف التي لا يتصف أو يتّسم بها أقل المسلمين درجة أو مستوى ، مع أن القرآن يصف الهادي الأمين صلى الله عليه وآله ، بقمّة الرحمة والهدى والخُلُق العظيم والاستقامة التي لا يصل اليها البشر:

. رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) ١ (ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) ٢ (وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) ٣.(

:النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) ٤.(

:لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ٥.(

:ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ٦.(

إن صحاح أهل السُنّة تثبت أن النبي صلى الله عليه وآله ، لم يكن معصوماً بعد النبوة ، فيما وقع الاجتماع على عصمة الانبياء من تعمّد الكذب في الاحكام الشرعية لدلالة المعجزة على صدقهم ، وأما الكذب غلطاً فمنعه الجمهور).٧(

هذا النبي العظيم الذي يقول : إني لم أحلّ إلا ما أحلّ القرآن ، ولم أحرّم إلا ما حرّم القرآن .والذي دعا الصحابة إلى كتابة أقواله في الرضا والغضب ، لأنه لا يقول إلا حقاً ، والذي رواه الكثير من الرواة والمحدّثين وأخرجه الحاكم النيسابوري) ٨.(

أيهما أرفع مكانة : الانبياء أم الصحابة؟

عند عقد مقارنة بين موقف أهل السُنّة والجماعة من عصمة الانبياء ، وموقفهم من مكانة الصحابة ومنزلتهم ، يبرز بكل وضوح ، تفوّق) قداسة (الصحابة على قداسة الانبياء والمرسلين أنفسهم ، لأن الانبياء ـ طبق المفهوم السُنّي لوظائف النبوة ـ لم يكونوا معصومين في الافعال والتصرّفات ، وان رسول الله في رأيهم بشر يخطئ ويصيب ، وانه إن فعل شيئاً من الصغائر سهواً لم يُقرّ عليه) ١ .(هذا في حين ان الصحابة لا يقربهم ما يعتري كل انسان من سهو أو خطأ

أو وهم أو نسيان ، فقد تمّت عصمتهم من الاقتحام في الذنب) ٢ ، (بينما رسول الله ـ عندهم ـ كالبشر العاديين يخطئ ويصيب ويسهو ويقترف الصغائر من الذنوب.

حقيقة الصحابة وسيرتهم في القرآن والسُنّة

يُجمع أهل السُنّة والجماعة على عدالة الصحابة جميعاً ، وأن بساطهم مطوي بحيث لا يحق لأحد مهما كانت منزلته الدينية أو رتبته العلمية ، المساس بهم أو نقدهم ، لأنهم كانوا قمة في كل النواحي والأمور ، وكانوا ذوي مزايا وخصائص يفتقد إليها سائر المسلمين حتى في الوقت الحاضر ، لأنهم كانوا شريحة تحيط بالرسول صلى الله عليه وآله ، وتقتدي به في حركاته وسكناته ، وتنهل من معارفه وعلومه وآدابه ، ولذا ينبغي الإطلاع ـ عن كثب ـ على حياة الصحابة ، وسلوكهم مع الرسول ، أو استجابتهم لأوامره وإرشاداته.

وذلك لانه ـ وحسب اعتقاد أهل السُنّة والجماعة ـ كان الصحابة الكرام ، يتلقون الأحكام من أقوال الرسول وأفعاله ، وإقرارته ، وسكوته ، وجميع أحواله.

وفي رأي الجمهور المسلم ، وجوب وتقديس واحترام وتقدير الصحابة ، وجعلهم قدوة في حياتنا ، لأن الرسول صلى الله عليه وآله ، دعانا إلى ذلك ، بقوله : الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم ، فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله ، يوشك أن يأخذه).١(

فلِمَ كان النبي صلى الله عليه وآله ، ـ حسب اعتقاد أهل السُنّة ـ يؤكد بأنه لا يحب الصحابة إلا مؤمن ولا يكرههم إلا منافق؟ وذلك لأن كراهية الصحابة وهم رموز بالنسبة للاسلام ، هي كراهية مغلّفة للاسلام.

كل هذه الادعاءات والتأكيدات ، تدعونا الى التريّث في البحث والتنقيب عن حياة الصحابة ، خوفاً من الوقوع في الزلل والاثم والخطيئة ، لكن هذا التردد لم يطل كثيراً ، لأن الواجب والمنطق السليم يدعوننا الى ضرورة تعزيز إيماننا بالصحابة وقداستهم من خلال الأسس المتينة لا المزاعم والادعاءات التي ربما تفتقد الى المصادر الصحيحة ، ولابد من تقصّي الدلائل القوية عن كل ما سمعنا وقرأنا لحد الآن.

كل هذه الأمور والافتراضات التي يقال عنها حقائق لا تقبل الشك والنقاش ، تبقى مجرد إدعاءات ، اذا لم تقم عليها بينة من القرآن والسُنّة المطهرة الصحيحة ، والتأريخ النقي النزيه غير المشوّه.

علم الصحابة في الميزان

يدّعي أهل السُنّة والجماعة بأن الصحابة يحملون أخلاق النبوة عِلماً وحِلماً ، وملاحظة السيرة النبوية تفضي الى أن النبي صلى الله عليه وآله ، قد كوّن عدداً كبيراً من علماء الصحابة ، كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير.

جيل من العلماء والأئمة ، كانوا فقهاء ، وحكماء ربانيين ، ولم يكونوا مجرّد نقلة.

فوظائف النبوة ، ورثها الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وآله ، ، ولذلك فإن مذهب الصحابي حجّة مطلقاً .وان إجماع الصحابة أقوى الأدلة .ويُقصد بمذهب الصحابي : القول أو السلوك الذي يصدر عن الصحابة ، وتعبّد به من دون أن يعرف له مستند.

فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، لمّا طرأت لهم بعد وفاته ، حوادث وجدّت لهم طوارئ ، شرَّعوا لها ما رأوا أن فيه تحقيق المصلحة ، وما وقفوا عن التشريع لأن المصلحة ما قام دليل من الشارع على اعتبارها ، بل اعتبروا أن ما يجلب النفع أو يدقع الضرر حسبما أدركته عقولهم هو المصلحة ، واعتبروه كافياً لأن يبنوا عليه التشريع والأحكام ، كحرب أبي بكر لمانعي الزكاة ، ودرء القصاص عن خالد بن الوليد ، وايقاع عمر للطلاق الثلاث بكلمة واحدة ، وتجديد عثمان لأذان ثانٍ لصلاة الجمعة.

بل لا يسوّغ البعض من أهل السُنّة والجماعة ، الرجوع لغير الصحابي ، وجوّز بعضهم الرجوع الى الصحابة والتابعين دون غيرهم.

فهل يا تُرى هكذا كان الصحابة في المستوى العلمي والفقهي بحيث يؤهلهم لأن يكونوا ورثة النبي وحاملي علمه وحكمته ، وأُمناء على نقل الرسالة الى الأجيال اللاحقة؟

بعض علماء أهل السُنّة يشكّون في ذلك ، ويؤكدون أن الصحابة كلّهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يُؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخة ومتشابهه ومُحكمه ، بما تلقوه من النبي أو ممن سمعه منهم ، وكانوا يسمّون لذلك» القرّاء ، «أي الذين يقرأون القرآن ، لأن العرب كانوا أمّة أمّية ، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب ، بهذا الاسم لغرابته وبقي الأمر كذلك صدر الملّة) ١.(

وهذا يدلّ على انّ بعض الصحابة كانوا من» العلماء «وهم القرّاء ، وهم فئة قليلة

من عامة الصحابة على كثرتهم الكاثرة ، فمن غير الصحيح ، انسحاب هذا الأمر على كل الصحابة وسائرهم الذين هم من العرب الأميين.

واذا كان ابن القيّم الجوزية قد ذكر ستة وأربعين دليلاً على حجية رأي الصحابة ، فليس في واحد منها دلالة إلا بعض الأحاديث ، مثل : أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهديتم) ١.(

وهذا الحديث كذَّبه المحدّثون ، وأكدوا بأنه موضوع ، وفي مقدمتهم ابن تيمية ، استاذ ابن القيّم الجوزية.

والغزالي الذي يقرّ بصراحة بأن قول الصحابي ، اذا لم يكن حديثاً نبوياً صريحاً ، فهو غير مقبول لأنه ربما قاله عن دليل ضعيف ، ظنّه دليلاً وأخطأ فيه ، والخطأ جائز عليه ، وربما يتمسك الصحابي بدليل ضعيف وظاهر موهوم ، وأما وجوب اتباعه ، دون تصريح بنقل الحديث النبوي ، فلا وجه له.

وقد ذهب قوم الى ان مذهب الصحابي حجّة مطلقاً ، وقوم الى انه حجّة ان خالف القياس ، وقوم الى ان الحجة في قول أبي بكر وعمر خاصة ، وقوم ان الحجة في قول الخلفاء الراشدين اذا اتفقوا ، وفي رأي العالم السُنّي الكبير) الغزالي (ان جميع هذه الأقوال باطلة) ٢.(

وهذا دليل قاطع على ان مذهب الصحابي ليس حجة بأي حال من الاحوال.

بل والأكثر من هذا ، فان الشافعي يصرّ بأن الصحابي اذا لم يرفع قوله الى النبي صلى الله عليه وآله ، ، فانّ قوله يعتبر هو وسائر المسلمين في الاجتهاد سواء ، أي لا يُقدّم رأيه وقوله على سائر المسلمين.

نقد نظرية عدالة الصحابة

صحابة أم غير صحابة؟

لمّا كان السُنّة يقدّسون الصحابة ويثبتون عدالتهم . جميعاً . وعدم كذبهم على الرسول ، وان على المسلمين أن يأخذوا السُنّة النبوية عنهم لأنهم النَقَلة الامناء لها ، بل وتُعتبر آراؤهم الفقهية حجّة على الأمّة ، وان أقوالهم وسُنّتهم واجتهاداتهم مفروضة على ابناء المسلمين ، في حال عدم وجود النص النبوي .لكن لم يعيّن الجمهور السُنّي ، عدد الصحابة حتى تنطبق عليهم ، القاعدة المذكورة ، خاصة وان الصحابة ، كانوا حَمَلة الدين بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، وورثته ، فكيف لا نعرف صفاتهم وعددهم؟ وحتى كتّاب حياة وسيرة الصحابة ، لا يحدّدون عددهم؟ ويشكّكون في البعض ، هل هم من الصحابة أم لا؟ لكي يأخذ عنهم المسلمون ، سُنّة النبي أو آراءهم الفقهية ... ثم هل يحث أن نتجاهل الكثيرين لأننا لا نعرف لهم صحبة للرسول ، في وقت ربما كانوا صحابة؟ وهل يحق لنا أن نعدّ . حسب النظرية السُنّية . بعضاً من المسلمين الذين لم يصحبوا الرسول سوى لحظات أو دقائق أو رأوا الرسول من بعيد أو رآهم الرسول ، لندّعي بأنه يجب أن تنطبق عليهم شروط الصحبة التي أبرزها ، العدالة والفقاهة والمكانة المُشرّفة.

وهكذا ... فكيف يا تُرى نثبت» قداسة «و»مكانة «لشريحة لا نعرف عددها ولا الضوابط التي تحدّد إطارها الذي يستوعب هذه الشريحة ، وخاصة وان أهل السُنّة والجماعة يضفون عليها صفات مقدّسة ويحيطونها بهالة نورانية بحيث يربطون رضاها برضى الله ورسوله ، وغضبها بغضبهما ، وإن الذي يلعنها ويسبّها فكأنما يلعن ويسب الله تعالى ورسوله الكريم.

فهل من المعقول لفئة هذه مكانتها وميزاتها ، نشكّك في انتماء بعضها لمرتبة الصحبة العظيمة ، لضبابية الشروط الموضوعة لتحديد إطارها ، وهل تستوعب بعض الرجال دون الآخرين؟ لأن بعض علماء السُنّة ، يشترطون سنة واحدة على الأقل من ملازمة النبي حتى تثبت الصحبة ، في حين يتفاوت الآخرون بين مدد طويلة أو قصيرة جداً لكي تثبت صحبتهم ، بينما يتساهل آخرون في هذه الشروط الى حد يثبتون الصحبة لرجال لم يلتقوا بالنبي بتاتاً ، وانما هم رأوه فحسب ، ولم يتكلموا معه ، أو عاصروه فقط.!!

فأي حصانة تنشأن لدى إنسان مسلم يرى الرسول من بعيد ، لتتولد لديه قداسة ومكانة عظيمة من السمو الى درجة تحصّنه من الكذب على الرسول ، ويضحى سبّه بمستوى سبّ الله ورسوله ، والغضب عليه بمثابة الغضب على الله ورسوله ، وبالتالي يندرج السّابون في خالة الفَسَقة والكفار والمنافقين المغضوب عليهم من قبل الله ورسوله الأكرم صلى الله عليه وآله ، ؟

لاذ من حقنا التشكيك في كل ما وضعه أهل السُنّة والجماعة من صيغ وضوابط وشروط ، حدّدوا فيها ملامح الصحبة ودرجتها ومكانتها وقدسيتها .وقرّرت ان أُتابع الموضوع بصورة مفصّلة لمعرفة الحقيقة.

بين النبي والصحابة

تُرى ما حقيقة العلاقة بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحابته الكرام؟ وهل كانت علاقة متينة ومُحكمة كما يدّعي أقطاب الجمهور السُنّي؟ وهل حقاً ان الصحابة كانوا ملتفين حول الرسول صلى الله عليه وآله ، وكانوا رهن إشارته ، ومطيعين لأوامره لحظة بلحظة؟ وهل كانت سيرتهم معه سيرة حسنة؟ وهل كان النبي يعامل الصحابة بكل ايجابية ، ويثق بهم ثقة

مطلقة كما يؤكد أهل السُنّة؟ .. وهل وهل ... وهل؟ كل هذه التساؤلات وضعتها في ذهني وأنا أبحث في ثنايا الاحاديث والروايات التي تتناول العلاقات الثنائية والمتبادلة بين الرسول» صلى الله عليه وآله « ، وصحابته ، وتوصّلت الى الحقائق التالية:

١ .ذكّر النبي صلى الله عليه وآله ، أصحابه بأنه لا يخشى عليهم أن يشركوا بعده ، ولكنه يخشى عليهم الدنيا أن يتنافسوا فيها ويقتتلوا فيهلكوا كما هلك من كان قبلهم .ولو كانت في الصحابة ، حصانة ومناعة ضد الانحراف ، لما خشي عليهم من الدنيا) ١.(

٢ .كان النبي صلى الله عليه وآله ، يفعل أفعالاً يتنزّه عنها بعض أصحابه ، فكان يعيّرهم بذلك ، ويؤكد لهم بأنه أعلمهم بالله وأشدّ له خشية) ٢.(

٣ .أمر الرسول صلى الله عليه وآله ، أصحابه بعد أن خرج الى بدر في شهر رمضان المبارك أن يفطروا مثلما أفطر هو صلى الله عليه وآله ، فلم يفعلوا ، فوبّخهم وقال لهم) : يا معشر العصاة إني مُفطر فأفطروا .وكان من المفروض فيهم أن يمتثلوا لأمره حالاً ، لا أن يعصوه ، خاصة وان القضية تتعلق بحكم شرعي واضح) ٣.) ولم يخجل أحد الصحابة أن يوجّه كلاماً لاذعاً غير مؤدب الى الرسول صلى الله عليه وآله ، بقوله : يا رسول الله اتق الله ، فأجابه صلى الله عليه وآله : ، ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقي الله .وواضح ان هذا الصحابي يشكك في عصمة الرسول وعدالته باعتقاده ان

الرسول صلى الله عليه وآله ، ليس لديه تقوى الله) .١ (وبعض الصحابة لم تكن هجرته الى الله ورسوله ، وانما لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها) ٢.(

٤ .حذّر رسول الله اصحابه في حجة الوداع بأن لا يرجعوا بعد موته كفّاراً يضرب بعضهم رقاب البعض الآخر) .٣ (كان الرسول في يوم حُنين قد آثر أناساً في العطاء ، تأليفاً لقلوبهم وقلوب عشائرهم وترغيباً لهم في الاسلام ، فإتّهم أحد الصحابة النبي بأنه لم يعدل في القسمة) يعني انه قد ظلم الآخرين (فأجاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، بأنه إذا لم يعدل الله ورسوله فمن يعدل؟ رحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا وكان من المفروض على هذا الصحابي أن لا يحتج على الرسول أبداً وهو المعصوم !!لكن هذا الموقف عن الصحابي يعبّر عن سوء أدب وعدم احترام وتشكيك بسلوك الرسول صلى الله عليه وآله) ، ٤.(

٥ .وحين نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ، الآية الكريمة) : ٢٨٤ (البقرة ، اشتد ذلك على الصحابة ، فأتوا رسول الله ، وقالوا : أي رسول الله ، كُلُفنا من الاعمال ما نطيق : الصلاة والصيام ، والجهاد والصدقة ، وقد أُنزلت عليك هذه ال آية ، ولا نطيقها .قال رسول الله : أتريدون

أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا) ١.(

وهنا يبدو الصحابة في موقف غريب منهم ، فهم بدلاً من استقبال الأمر برحابة صدر وإعلان استعدادهم لتقبل الأوامر الالهية ، يحتجون على انهم لا يطيقونها ، بحيث عاتبهم الرسول ووبخهم وحذّرهم من عصيان الله.

ان هذه النماذج التي أوردتها ليست إلا أمثلة قليلة على العلاقة المتبادلة بين رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصحابته ، وهي توضّح ـ بجلاء ـ الموقف السلبي للطرفين ، كل من الآخر ، بحيث لا يمكننا بأي حال ، أن نصف الصحابة كفئة ذات خصائص عالية جداً تتفوّق على غيرها من فئات المسلمين ، وتتميز بالطاعة العمياء للرسول ، وانها رهن إشارته لأنها الصفوة المختارة من الناس لتبليغ الدين عنه صلى الله عليه وآله. ،

بعد كل هذه ا لحقائق الناصعة ، كيف يحق لنا أن نساوي بين الصحابة الأجلاء الذين كانوا مطيعين لأوامر القرآن والرسول صلى الله عليه وآله ، ومُبجّلين لشخصيته المباركة ، بحيث لم يُعرف عنهم غير المسارعة في تنفيذ ما يملي عليهم رسول الله من أوامرٍ ونواهٍ ، والمشاركة الفاعلة في غزوات وحروب الاسلام ضد الكفر ، وعدم الفرار من الزحف والمقاومة حتى الاستشهاد في سبيل الله ، ولم يُعرف عنهم ارتكاب أي خطايا أو موبقات ، وبين صحابة ضعاف الايمان ، أو من المنافقين والمؤلفة قلوبهم ، الذين أسلموا بلسانهم دون قلوبهم ، والذين طالما طعنوا بالرسول ، وخالفوا أوامره ، وفرّوا من القتال ، وشكّكوا بمواقفه وسلوكه ، واقترفوا شتى الذنوب والكبائر ، وتناولوا الخمر وغيره ... كيف يصبح جميع الصحابة عدولاً يا ترى؟ ولديهم حصانة ضد الكذب على الرسول صلى الله عليه وآله ، مع انه حذّرهم من الكذب عليه ، والذي يعصي الرسول ويشكّك فيه،

ويخالف أوامره ، ويسخر منه أحياناً ، ولا يحترمه في أكثر الاحيان وقد يتآمر عليه الى حد القتل ، أو يرتكب حتى كبائر الذنوب والمحرّمات ، فما أسهل عليه الكذب على الهادي النذري ، فضلاً عن صحابة مثل» الوليد بن عقبة «نزلت فيه آيات قرآنية تثبت فسقه وكذبه على الرسول!!

وعليه ان القاعدة السُنّة في هذا المجال ، قاعدة مهزوزة لا تتكأ على أسس صحيحة ، ولا تقوى على النهوض أمام الأدلة الدامغة على أن الصُحبة مجرّد احتكاك وملازمة لا تمنح صاحبها ، حصانة أو عصمة أو مناعة ضد الانحراف أو الكذب على صاحب الرسالة أبداً ، وان الصحابي ربما يُحسن الصحبة مع الرسول أو يسيء معه ، إنما الأمر يتعلق بدرجة إيمانه وتقواه والتزامه ، فهناك صحابة عظماء أتقياء صالحون مؤمنون حقاً ، وفي المقابل هناك صحابة ، ضعيفو الايمان ، سيئو النفوس ، يتذبذبون بين الايمان والشك ، لا يتورّعون عن عصيان الرسول وكراهية أفعاله ، والاساءة إليه والى القرآن والتعاليم الاسلامية ، بل والاستهزاء به صلى الله عليه وآله ، فكيف والحال هذه ، نضفي عليهم من القَدَاسة والعدالة ما لم يستحقوها من قريب أو بعيد ، ولا تليق بتصرفاتهم وأعمالهم أبداً؟

ثم أليس من الظلم والاجحاف وعدم العقلانية أن نعدّ من يطعن بالمنحرفين من الصحابة أو ينالهم بسوء أو ينتقدهم ويبغضهم فكأنما يسبّ الله او يطعن بالله تعالى ورسوله ويبغضهما !!انه لمنتهى السفاهة والسذاجة والاستهزاء بقَداسة الله ورسوله.

الصحابة والحديث النبوي

الصحابة ـ في نظر أهل السُنّة ـ كلهم عدول ، وهم الذين نقلوا السُنّة النبوية الى

التابعين ثم الى الأجيال التالية ، وذلك لأنهم أمناء وثقات مُؤتمنون لا يكذّبون على النبي أبداً ، وكيف يخونون الرسول صلى الله عليه وآله ، وهم الذين ربّاهم تربية صالحة ، ووجّههم التوجيه السليم بحيث أصبحوا رجالاً أمناء على أقواله وأحاديثه لينقلوها ـ بكل أمانة ـ الى الأمّة؟

وللثقة بالصحابة عند الجمهور ، فإنه قد أتى على الناس زمان لم يسأل أحد عن إسناد الحديث أبداً ، لأن المعتاد انه اذا وضح للصحابي بأن الحديث كان صحيحاً مروياً عن النبي ، طوى الاسناد ولم يذكره ، أما لو لم يتضح له ، نسبه الى غيره ، ليحمّله ما حمّله وذلك لثقة الصحابي بنفسه وانه لا يكذّب على الرسول مطلقاً) ١ .(

لماذا؟ لأنهم أمناء على الحديث ، وبالتالي لا يُتّهمون أبداً .فلم يكن الصحابة محتاجين الى الاسناد ، وذلك لأجل شيوع الصدق والأمانة بينهم ، إذ لم يكذّب بعضهم بعضاً) ٢ .(

ولم يكن يدري الصحابة ما الكذب ، ولذا انتفى الاسناد) ٣ .(ولم يكونوا يسألون عن الاسناد ، إذ لم يكونوا ما يروونه يسمعونه من فم الرسول ، لانهم مشغولون باعمالهم وإنما يسمعونه من بعضهم البعض ، فينسبوه الى النبي مباشرة دون إسناد) ٤ .(

وكالعادة ، حين نبحث في ثنايا الروايات التأريخية وفي سيرة الصحابة ، نتوصل الى الحقائق التالية:

١ .كان الخليفة الاول والثاني ، يشكّكان بالصحابة ولا يثقان بهم ، ولذا كانا يستوجبان البينة من الصحابة الناقلين للحديث النبوي ، للعمل به) ١ .(

٢ .يذكر الزركشي في كتابه الذي يحمل عنوان) : الاجابة لا يراد ما استدركه عائشة على الصحابة ، (بأن السيدة عائشة كانت كثيراً ما تستدرك على الصحابة أخطاءهم في نقل الحديث الذي يدّعون انهم سمعوه من الرسول ، فتارة تكذّبهم ، وتارة تتهمهم بالسهو ، أو لكونهم صغاراً في حياة النبي فما يعلمون من حديث الرسول صلىاللهعليهوآله ، وكانت تحمّل الصادقين من الصحابة على خطأ السمع أو سوء الفهم.

٣ .كان بعض الخلفاء ، يفرض على بعض الصحابة بإتيان شاهد معه في الخبر المروي عن النبي ، وذلك لعدم ثقته به.

٤ .لم يتفق كل الجمهور على عدالة جميع الصحابة ، إذ ان منهم يعتبر حكم عدالة الصحابة وحكم من بعدهم سواء في لزوم البحث عن عدالتهم في الرواية ، ومنهم من قال : انهم لم يزالوا عدولاً الى حين وقوع الاختلاف والفتن بينهم) ٢ .(

٥ .لو كان الصحابة جميعهم عدولاً في نقل الحديث النبوي ولديهم حصانة من الكذب عليه صلى الله عليه وآله ، ، فمن العبث أن يحذّرهم النبي من الكذب عليه ويوعدهم

بدخول النار) ١.(

٦ .اذا كان الصحابة هم الذين أخذوا على عاتقهم نقل الحديث النبوي ، لقربهم من الرسول وصدقهم وأمانتهم ، وهم قد ورثوا وظائف النبوة كما يقول أهل السُنّة والجماعة؟ فلِمَ إذاً ثد ثبت بأن كثيراً منهم لم يرو عن النبي صلى الله عليه وآله ، شيئاً ، بحيث ان أحدهم صحَب كبار الصحابة من أمثال طلحة وسعد بن أبي وقاص والمقداد بن الأسود وعبد الرحمن بن عوف ، فما سمع أحداً منهم يحدّث عن رسول الله ، لأنهم يخشون المزيد والنقصان ، بل وكان كثير من أجلّة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب ، يقلّون الرواية عنه ، بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل الموعود بالجنة كما يقال.

بل وان الصحابة كانوا من خشيتهم الرواية عن رسول الله وتعظيمهم إياه ، يقلّلون . خوف الزيادة والنقصان . ويحدّثون بالشيء الذي سمعوه من النبي مراراً ، ولا يصرّحون بالسماع ولا يقولون : قال رسول الله) ٢.(

فيا ترى لو كان الرسول حقاً قد اطمأن للصحابة على حديث الشريف ، فلِمَ كان كبار الصحابة يتهرّبون من رواية الحديث عنه ، وهم الذين كانوا يلازمون الرسول دائماً ولا يفارقونه إلا قليلاً؟ أليس من واجبهم المسارعة في رواية الحديث النبوي دون تردد أو تهيّب حتى يحقّقوا الأمنية النبوية ، ويكونوا قدوة للصحابة الآخرين الأقل ملازمة

للرسول؟ واذا كان هؤلاء الكبار من الصحابة وأجلاؤهم ، يخشون عدم ضبط الحديث وإتقانه ، فكيف تليق بهم وراثة النبوة كما يدّعي الجمهور؟

الصحابة وخيرية الأمّة

أبرز دليل يتمسك به أهل السُنّة والجماعة في احتجاجهم على عدالة الصحابة وحصانتهم ضد الكذب على الرسول صلى الله عليه وآله ، ، الآية القرآنية : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ... ١.(

فهذه) الخيرية (عندهم هي التي يستدلون بها . تأريخياً . على أن الصحابة هم الأمناء على السُنّة النبوية في نقلها الى التابعين ومن يأتي بعدهم من المسلمين.

فالله تعالى كلّف الأمّة بالدعوة نيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله ، لأن انتشار الاسلام يتم بقيام المسلمين المنتشرين في كل مكان بالدعوة ، فهم بمثابة الرُسُل الذين كان يبعثهم الله تعالى في كل تجمع بشري ، فكل مسلم يحمل أمر الدعوة ، فالنبوة في درجة بين جنبيه بكتابها المحفوظ وسُنّتها المحفوظة) ٢.(

فخيرية الأمّة أكبر سند للصحابة في تبوء مقعدهم المقدس في حمل الأمانة ونقل السُنّة النبوية الى الآخرين ، فضلاً عن الأدلة القرآنية والتأريخية.

ولنا هنا وقفة حول موضوع» الأمّة «وخيريتها والمدلول الذي تعنيه طبق المفهوم السُنّي ، وهل يحق لنا الاستدلال على أمانة الصحابة ، والواجب المُلقى على عاتقهم في

حمل الرسالة أم لا؟

وحين اشترط الله تعالى على الأمّة وجوب أدائها للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر حتى تتصف بالخيرية ، نلفى أبناء هذه الأمّة منذ مطلع الرسالة المباركة ، لم يقوموا بهذه الفريضة المقدسة حق قيام ، ناهيكم عن العهود اللاحقة ، فكيف تتصف الأمة إذن بالخيرية؟ ألم يكن الكثير من الصحابة يعصون أوامر الرسول ولا ينفّذونها سواء في الحرب أو السلم؟ وتنزل الآيات القرآنية تترى في التحذير من التمادي في عصيان الله ورسوله ، أو المسارعة في فعل المنكرات وترك المعروف وحتى إضافة الفرائض والواجبات ، فلم يكن أبناء الأمّة ، مواضبين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانما الذين كانوا يمارسون هذه الفريضة قلّة ، ولذلك كان القرآن الكريم يشدد على أهمية هذه الفريضة شبه المعطلة ، وان الامم السابقة ،كانوا لا ينتهون عن منكر فعلوه.

وليس القرآن الكريم وحده أشار الى مسألة تعطيل هذه الفريضة» : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «بل وحتى السُنّة الشريفة لطالما نوّهت الى نتائج التخاذل والتهرب ، عن تطبيق هذه الفريضة ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله» : ، لتأمرن بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو يُسلّط عليكم شراركم فتدعون فلا يستجاب لكم.«

ولذا فإن خيرية الامّة تنتفي في حال ثبوت عدم تنفيذ أبناء الأمّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله ، فإن الامور جرت بحيث أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، خاصة بعد تصدّي حكام منحرفين وظلمة لسدّة الحكم الاسلامي.

ولو كانت الأمّة قد مضت على الصراط المستقيم ، مطيعة لله ورسوله في حياته

وبعد مماته ، ومطبّقة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لما آلت الى ما آلت اليه من تراجع وانحطاط وتدهور على جميع المستويات.!!

فهي قد فقدت مقومات الثبات والاستمرار ، حالما تخلّت عن مهامها الجسيمة التي ألقاها الاسلام عليها ، وبدأت بالتقهقر في مرحلة مبكرة من البعثة النبوية كما هو معروف.

فكأنه» سلام الله عليه «قال : إنما يتحقق لكم وصف الوسط لو حافظتم على العمل بهدي خاتم النبيين ، واستقمتم على سُنّته ، وأما لو انحرفتم عن هذه الجادّة ، فالرسول بنفسه ودينه وسيرته ، حجّة عليكم بأنكم لستم من أمّته التي وصفها الله عزّ وجل بقوله : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ... ١.(

وهذا ما ينبغي أن تدركه» الأمّة الوسط «خير الأمم ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف انها» أُخرجت «لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها خير أمّة ، ومن ثم لا ينبغي لخير أمّة أن تتلقى من غيرها من أمم الأرض قاطبة.

واجب» الأمّة الوسط ، «خير الامم ، أن تكون في الطليعة دائماً ، وفي مركز القيادة دائماً ، ولهذا المركز تبعاته ، فهو لا يُؤخذ ادّعاء ، ولا يُسلّم لها به ، إلا أن تكون هي أهلاً له.

وبهذا يتبيّن أن منهج» الأمة الوسط الخيّر «يُطالبها بالشيء الكثير ، ويدفعها الى السبق في كل مجال ، لو أنها تتبعه وتلتزم به ، وتدرك مقتضياته وتكاليفه) ٢.(

نستشف مما مضى ، ان خيرية الأمّة لم تتحقق ، لانتفاء الشروط التي وضعها الله تعالى ، لتكون خير الأمم ، وبالتالي ، انحرفت كالأمم السابقة وكما أشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، حيث تكالبت الامم على هذه الأمّة وتداعت عليها كالأكلة على قصعتها على حد تعبيره صلى الله عليه وآله . ، ومن المعلوم ، ان من أسباب تسمية الله سبحانه وتعالى للأمّة الاسلامية ب»خير الأمم «لكون رسولها صلىاللهعليهوآله خير الرسل إطلاقاً ، فمن البديهي ان هذه الأمّة خير أمّة ، مادام نبيها خير الانبياء قاطبة ، وهي آخر الامم وخاتمتها ، اذ يقول صلىاللهعليهوآله» : أنا آخر الانبياء وأنتم آخر الأمم «وكونه خاتم النبيين إحدى خصائصه) ١.(

غير ان هذا لا يفرض أن يكون الصحابة وهم جزء من الأمّة ، ذوي عدالة مطلقة ولا يكذّبون على الرسول صلى الله عليه وآله كما يقول أهل السُنّة.

الصحابة وأهل الايمان

من المعروف ان أفضل الناس على الاطلاق بعد الرسول . في رأي أهل السُنّة والجماعة . هم الصحابة ثم التابعون ، وذلك لاحاديث كثيرة يروونها عن النبي صلى الله عليه وآله تثبت ذلك.

غير اننا . بعد التحقيق والتدقيق في هذا الادعاء . توصلنا الى أن رسول الله لم يكن قد فضّل الصحابة على غيرهم ، بل العكس ، فهو يعتبر الصحابة كغيرهم من المسلمين وليست هناك أية مزايا تفضّلهم على الآخرين إلا البعض منهم ، والادهى من ذلك ، هناك مِنَ المسلمين من يفوق الصحابة إيماناً وفضلاً وسموّاً .فذات يوم ، قال رسول

الله صلى الله عليه وآله لأصحابه : أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا : نحن .قال صلى الله عليه وآله : ومالكم لا تؤمنون ، وأنا بين أظهركم؟ قالوا : فمن يا رسول الله؟ قال : إن أعجب الخلق إلي إيماناً لقوم يكونون بعدكم ، يجدون صحفاً . فيها كتاب . يؤمنون بما فيها ، وفي روايات أخرى ، قال صلى الله عليه وآله هؤلاء أفضل أهل الايمان إيماناً ، وأولئك أعظم منكم أجراً) ١.(

وفي يوم كان صلى الله عليه وآله في محضر صحابته ، عندما قال : وددت أني لقيت أخواني ، فقال الصحابة : أو ليس نحن أخوانك؟ قال : أنتم أصحابي ، ولكن اخواني الذين آمنوا بي ولم يروني) ٢.(

وعلى هذا الاساس ، يعدّ النبي صلى الله عليه وآله المسلمين الذين يأتون في الازمنة التالية من بعد العصر النبوي ، أفضل إيماناً ، وانهم أخوانه صلى الله عليه وآله وأعظم أجراً من الصحابة الذين كانوا ملازمين له.

ولما كانت الأخوّة أكثر عمقاً من الصحبة ، فلسنا ندري لماذا يصرّ أهل السُنّة على أفضلية الصحابة إيماناً ومكانة ، مع ان الرسول صلى الله عليه وآله لا يعتبرهم كذلك ، وإنما يفضّل عليهم المؤمنين الذين يأتون من بعده ، والذين لم يرونه ويؤمنون به.

الصحابة وخصلة النفاق

يستثني أهل السُنّة والجماعة من الصحابة ، المرتدين والمنافقين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين ، وفي مقدمتهم . بالطبع . زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن أبي سلول.

لكن بعد التحرّي الدقيق في هذا الموضوع الحساس ، توصلنا ان قضية المنافقين من الصحابة ، ليست قضية هامشية أو ثانوية كما يحلو للبعض من الباحثين أن يصوّروها ، وانما هي قضية جوهرية ينبغي التوقّف عندها ودراستها بدقة لأنها تتصل بموضوعنا صلة وثيقة.

وحسبما يشير اليه القرآن الكريم ، فإن المنافقين ليسوا قلّة كما يتوهم الكثيرون ، وانما هم كثرة كاثرة ، إذا أضفنا إليهم ، الذين في قلوبهم مرض من ال ذين كانوا يشككون بالرسول» سلام الله عليه «وتعاليمه الخالدة ، وكذلك المُرجفون في المدينة الذين لم يكن همّهم سوى بث الأراجيف والأكاذيب والشائعات حول الرسول الأكرم صلىاللهعليهوآله ، ولهذا فليس صحيحاً ان المنافقين ، كانوا قلّة قليلة في المدينة فضلاً عن الإعراب الذين يقيمون حولها.

والمنافقون كانوا متظاهرين بالاسلام ، ومتسترين به الى درجة انهم حاولوا خداع الرسول نفسه لولا ان الله تعالى حذّره منهم ومن دسائسهم ، وهؤلاء كانوا من الصحابة ، يعيشون معه في المدينة ويلازمونه ليلاً ونهاراً كما يؤكد القرآن

الكريم : لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)١.(

وقد لعنهم الله تعالى غير مرّة في قرآنه المجيد.

:وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) التوبة ١٠١.(

)١ (الأحزاب ٦٠.

:وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) المنافقون ٤.(

وبالتالي ، فليس المنافقون ، فئة قليلة ، واستثناءات من الأعراب ومن أهل المدينة ، بل هم مندسّون بكثرة في صفوف المسلمين الى حد التأثير في الاوضاع فحذّر الله رسوله منهم ومن كيدهم.

أما الادعاء بأن المنافقين ليسوا من الصحابة ، فهو ادعاء فارغ يفتقد الى المصداقية والدليل الملموس ، لأنّ الهادي البشير» سلام الله عليه «نفسه كان يصف المنافقين بأنهم صحابه وينعتهم بالصحبة ، وان في أصحابه منافقين .ولما طلب ابن عبد الله بن أبي سلول من النبي صلى الله عليه وآله السماح له بقتل والده المنافق ، أجابه صلى الله عليه وآله بأن يترفق به ويحسن صحبته ما بقي مع المسلمين ، وحين طلب عمر بن الخطاب منه صلى الله عليه وآله قتل ابن سلول ، قال» عليه الصلاة والسلام : «فكيف إذا تحدّث الناس ان محمداً يقتل أصحابه؟) ١ (وذات يوم ، صعد

رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال» : يا معشر من اسم بلسانه ولم يدخل الايمان الى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ، ولا تعيّروهم ولا تتبعوا عثراتهم) «٢.(

والغريب ان المنافقين من الصحابة ، لم يكن يعرفهم حتى رسول الله» سلام الله عليه «وبعد أن عرّفه بهم الله تعالى ، أسرَ باسمائهم الى الصحابي الجليل) حذيفة بن اليمان (دون غيره ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب ، اذا مات ميّت ، سأل عن حذيفة،

فإن حضر الصلاة عليه ، صلّى عليه وإلا لم يصلّ عليه) ١.(

ونحن من حقنا أن نتساءل : لو كان الصحابة المنافقون ، ليسوا بذات أهمية ، فلماذا لم يذكر الرسول صلى الله عليه وآله أسماءهم لكل المسلمين حتى يتجنبوهم؟ ولكن يبدو أن لهم دوراً بارزاً ووزناً في المجتمع المدني بحيث كان الرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه يخشى أن يتآمروا على الأمّة بعد رحيله ، ويعبثوا بمصيرها ولذلك أخفى أسماءهم!!

واذا كان المؤرخون قد ذكروا أسماء بعض المنافقين في كتبهم ، كصاحب أنساب الاشراف الذي سجّل أسماء المنافقين من الأوس والخزرج ، ولكن ما الدليل على ان هؤلاء المنافقين من الصحابة ، كلهم وليس بعضهم ، خاصة وانهم كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الايمان ، ويؤدون الفرائض الدينية ، والناس مطمئنون لهم ويثقون فيهم .وقد يموتون ولا يعلم المسلمون من هم؟ وما في نفوسهم؟ وبالتالي سيشملهم قانون العدالة الذي وضعه اهل السُنّة والجماعة ليتسع كل الصحابة ، بحيث يدسّون من الاحاديث المكذوبة والموضوعة على لسان رسول الله» سلام الله عليه ، «دون أن يعلم المسلمون من أمرهم شيئاً ، وتصبح هذه الاحاديث ، سُنّة نبوية لا يعتريها الخطأ أو تُثار حولها الشبهات ، خاصة وان المسلمين بعد موت الرسول وفي عصر الصحابة التابعين ، لم يكونوا يسألون عن الإسناد ويتناقلون الأحاديث فيما بينهم دون ذكر الصحابي الأول الذي سمع الحديث من الرسول مباشرة ، كونهم مطمئنين وواثقين بأنه كان صادقاً ولم يكذّب عليه صلى الله عليه وآله أبداً ، في حين قد يكون منافقاً يتظاهر بالاسلام والتدين ويؤدي الفرائض ، ويحاول أن يشوّه السُنّة النبوية الطاهرة؟.!

الصحابة والإرتداد

الصحبة في تصوّر أهل السُنّة والجماعة تحصّن أشخاصها ضد ال كذب ، وتمنحهم حصانة وقداسة وتشريفاً لكون الصحابة ، يلتمسون من نور النبوة والوحي ، ويستقون من فيض صاحب الرسالة الخالدة ، بحيث تجعل الصحبة ، الانسان الصحابي صادقاً ومتخلّقاً بأخلاق الرسول وسلوكه ، بل وذهب فريق الى القول بأن الصحبة تمنع صاحبها عصمة تردعه عن الخطأ وارتكاب الذنوب ، فكيف بالكذب على الرسول صلى الله عليه وآله ؟ ولذلك بات الصحابة

، حَمَلة الحديث النبوي ، إذ أُلقي على عاتقهم ، نقل السُنّة النبوية الى التابعين ومن بعدهم الى الأجيال اللاحقة ، بكل أمانة وثقة ، ولذلك يُفترض أمانة الصحابي مسبقاً إلا اذا كان قد ارتد عن الدين الاسلامي.

فهناك العديد من الصحابة قد ارتدوا في حياة النبي ، وبعضهم ارتد بعد موته صلى الله عليه وآله . وكما هو معروف عند أهل السُنّة والجماعة ، فإن الردّة محبطة للصحبة السابقة ، فلا مجال لبقاء سمة الصحبة) ١.(

ولنا تعليق وجيه : وهو إذا كانت الصحبة ، تحصّن الصحابة وتعصمهم من الكذب على الأقل على الرسول صلى الله عليه وآله وهم أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وآله ، فلِمَ لا تنسحب العصمة او الحصانة على إيمانهم ، فتمنعهم من الارتداد عن الدين الحنيف؟

الصحابة وحروب النبي مع الكفار والمشركين

هل كان الصحابة الأجلّاء رهن إشارة الرسول وطوع إرادته ، في كل الاوامر والتعليمات التي تصدر عنه صلى الله عليه وآله ؟ وهل كانوا يُسارعون الى القتال ومحاربة الكفار والمشركين ، إمتثالاً لأوامر الرسول والقرآن الكريم ، ويشاركون في تلقين الكفار والاعداء ، الدروس البليغة ، من خلال الثبات والصمود وعدم التراجع أمام جحافل المشركين ، لأنهم قد تربّوا في أحضان الرسالة ، واستلهموا من شجاعة الرسول وقوته وبأسه الفريد من نوعه؟ بدعوى أن الصحابة كانوا أبطالاً بواسلَ لا يخشون في الله لومة لائم ، يقفون متراصين وهم يوجّهون ضرباتهم لأعداء الله ورسوله ، دون خوف أو وجل أو تراجع.

هذه مزاعمهم عن تسابق الصحابة للمشاركة في الحروب ضد الكفار والمشركين ، والذود عن حرمات الدين الاسلامي تنفيذاً لقوله تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) ١ (وبعد القراءة الواعية والتدقيق وتقليب صفحات التأريخ في العهد الاسلامي المدني ، ثبت ان أصحاب الرسول الذين مدحهم الله لمشاركتهم الفاعلة في معركة بدر ضد قريش ، تراجعوا في الحروب اللاحقة ، وكثيرا ما فرّوا من الزحف ، وتهاونوا وضعفوا ، وربما تركوا النبي في ساحة المعركة وحيداً ، ليس معه الا نفر قليل.

ونزلت آيات عديدة في ذمهم وتوبيخهم ووصفهم بأسوء النعوت.

فالآية الكريمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) ١ ، (تخص الصحابة الذين يتردّدون عن القتال ويثّاقلون الى الأرض ، ويخلدون الى الدعة والراحة ، تهرّباً من مواجهة الاعداء الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، وتهديد الله لهم بالعذاب الأليم ، وإستبدالهم بقوم آخرين ، ليسوا على شاكلة هؤلاء الفارّين المتهاونين المتهيّبين من قتال أعداء الله ورسوله.

ويقرّ علماء السُنّة والجماعة ومنهم النسفي بأن الآية القرآنية : إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) ٢ ، (نزلت حينما ترك الصحابة المركز الذي أمرهم رسول الله» سلام الله عليه «بالثبات فيه.

وهذا يعني أنَّ الصحابة الذين أمرهم رسول الله بالثبات في معركة أحد ، قد استزلهم الشيطان ، كما ان الجيش الاسلامي المكوّن من الصحابة قد فرّ بأجمعه من ساحة المعركة ، إلا ثلاثة عشر نفراً ، وبالتالي حقّ عليه اللعن كما أشار الله تعالى الى ذلك في أكثر من آية قرآنية.

ومع كل هذا الموقف المتخاذل من أغلب الصحابة وعصيانهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو بين أظهرهم ، وإيثارهم لمنافع دنيوية ضيقة على حساب أوامر الله ورسوله في مقاتلة أعداء الدين الالداء ، يأتي بعضهم بمنطق عجيب غريب ، يحمل قمة التناقض والتضاد مع العقل الانساني ، فيدّعي ان هؤلاء الذين وصفهم الله بالاذعان للشيطان ، وترجيح مصالح الدنيا الزائلة على الآخرة ، بأنهم صحابة مكرّمون ، لو وزن ايمان أحدهم بايمان المسلمين اليوم لرجح إيمانه ، بالرغم من مخالفة أوامر الرسول وهو بينهم ، فهم يبقون يحملون سلامة النية وصدق الايمان ، وإن برزت أمامهم مطامع الحياة الدنيا،

)١ (التوبة ٣٨.

)٢ (آل عمران ١٥٥.

فاستجابوا لها وأقبلوا على متاعها ، وخالفوا في سبيل أمر رسول الله الذي حذّرهم من ترك مواقعهم بحيث لم يثبت حول رسول الله سوى حفنة مؤمنة .لكن يبقى الفارون المتخاذلون والعاصون ، يمتلكون صدق الايمان وحسن القصد ، وهم الرعيل الاول من أهل الايمان في الارض ، لمخالفة» غير مقصودة ، «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ١.(

فلو كان الفارّون من أحد ، كما يصفهم هؤلاء بكل هذه الخصال الحميدة ، وبأن نواياهم صادقة ، فلِمَ يا ترى ذمّهم القرآن الكريم في أكثر من موقع بهذا الذمّ والتوبيخ والتحذير الشديد؟

إنها لمفارقة عجيبة لا يُصدّقها حتى السذج !!وفي معرض حديثنا عن معركة أحد ، نصّ كل مؤرخي غزوة أحد من أهل السير والأخبار ، على ان النبي خرج بألف من أصحابه ، فرجع منهم قبل الوصول ، ثلاثمائة من المنافقين ، وبقي معه منافقون لم يرجعوا خوف الافتضاح أو رغبة بالدفاع عن أحساب قومهم ، مما يدل على ان الصحابة المنافقين ليسوا قلة كما هو شائع وإنما هم أعداد غفيرة بحيث كان يغصّ بهم الجيش الاسلامي ، وان من المنافقين من كانوا يقاتلون المشركين ، خوفاً من افتضاح أمرهم ، أو دفاعاً عن أنسابهم دون إيمان أو قناعة بالحرب فعلاً ، مما يدل على مدى تغلغل المنافقين في صفوف الصحابة المؤمنين الى حد انخداعهم بهم.

وحين تناهى للمسلمين ، شائعة قتل النبي محمد» عليه الصلاة والسلام ، «أوغلو ا في الفرار لا يلوون على أحد ، كما قال تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) ٢ (أليس كان من

اللائق للصحابة الفارين عندما وصل اليهم خبر إستشهاد الرسول ، أن يستميتوا في القتال ومحاربة المشركين بدلاً من الفار ، واللوذ بالجبال ، وإيثار السلامة على الموت ، وما قيمة الحياة والفرار من الموت في ظل تكالب الاعداء والمشركين وسعيهم الدؤوب للقضاء على الاسلام وإجتثاث معاقل المسلمين؟

وهذا إن دل على شيء فانما يدل على مدى شدة جرم وخطيئة الفرار من الزحف ، وانها ليست مسألة هينة إطلاقاً

.

الخليفة الأول ... والسيرة الذاتية

قبل الشروع في دراسة سيرة الخليفة أبي بكر ومدى صدْقية الصورة التي رسمها أهل السُنّة والجماعة عنه ، لابد من التوقّف عند الآية الكريمة التي أشارت الى قصة الهجرة النبوية من مكة الى المدينة ، حيث هاجر النبي سراً بصحبة أبي بكر ، واختبآ في غار ثور لكي لا يكونا تحت رصد قريش التي تتبّعت الرسول لالقاء القبض عليه وقتله.

نزلت في هذا المشهد ، الآية الكريمة : إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) التوبة ٤٠ .. (والجمهور المسلم في الواقع تأثر جداً بهذه الآية المباركة ، معتقداً ، بأنها من مناقب أبي بكر وفضائله التي لا تعدّ ولا تحصى ، اذ تناقلت الأجيال ، قضية هجرة الرسول وصاحبه ، وكأن هذه الفضيلة لا تعادلها فضيلة أو توازيها ، على مرّ التاريخ.

وحين نَتناول هذه الآية الكريمة بالتحليل والتمحيص ، لم نجد فيها أية منقبة أو فضيلة للخليفة الاول .لأن عبارة : فإذْ هما في الغار ، يعني هما الاثنين ، والمعية هنا لا تعدّ مزية أبداً ، كما ان حزن أبي بكر وخوفه من احتمال وقوعهما في قبضة كفار قريش ، لا معنى له ، مع اطمئنان الرسول صلى الله عليه وآله بأن الله سينجيهما بعد المحنة الطارئة،

ولذلك ذكّره : بأن الله معهما ، وليس هناك أي داع للخوف أو الحزن .واللافت في هذه القضية ، ان الله أنزل سكينته على النبي فقط ، وليس على صاحبه مع ان الذي حزن وخاف هو أبو بكر لا النبي صلى الله عليه وآله ، وان المنطق

يفترض بأن السكينة تنزل على الإثنين معاً ، كما هو ديدن الآيات الأخرى التي تصف إنزال السكينة الالهية على النبي والذين آمنوا معه ، ولا تستثني المؤمنين من هذه السكينة ، كقوله تعالى : ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) التوبة ٢٦ ، (وقوله عزّ وجل هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) الفتح ٤.(

ترى لِمَ استثنى الله تعالى أبا بكر من السكينة المنزلة على النبي صلى الله عليه وآله ... فالله أعلم بذلك؟

الخليفة الأول والخوف على المصير

ومهما يكن فقد تَوصّلن بعد البحث والتحليل ، الى الحقائق التالية:

١. كان أبو بكر يجهل الكثير من الاحكام الشرعية ، فيضطر الى سؤال الصحابة عنها ، مع قربه من عهد الرسالة الاول ، فكان ـ لذلك ـ يُشاور أهل الرأي من الصحابة ، فيفتي برأيهم ، أو يستشهد صحابيين من الذين سمعوا الحديث عن رسول الله مباشرة ، فيُمضي الحكم ، أو يُجيب على الذين يستفتونه حتى لا يتحرّج بذلك ، كما في قضية الجدّة التي سألته حصّتها من الارث ، فأجابها بعد أن تأكد من بعض الصحابة) ١ ، (فإن أعيا أبا بكر أن يجد الحل في السُنّة النبوية،

يستشير الصحابة أو خيارهم ، فإن أجمع رأيهم على شيء ، قضى به) ١ ، (وفي بعض الاحيان ، اذا واجهت أبا بكر قضية ، لم يجد لها في كتاب الله اصلاً ، ولا في السُنّة اثراً ، اجتهد برأيه فيقول : ان كان صواباً فمن الله ، وان كان خطأ فمنه ، ويستغفر الله) ٢.(

وكثيراً ما يُسأل أبو بكر عن أمور ومسائل ، فيعجز عن الجواب .فمثلاً سُئل مرّة ، عن معنى الكلالة ، فقال فيها برأيه ، فإن كانت صواباً فمن الله ، وان كانت خطأ فمنه ومن الشيطان) ٣.(

وذات يوم جاء رجلاء الى أبي بكر ، وطلبا منه أرضاً سبخة عندهما ، فلم يكن يعلم إن ذلك له أم ليس له؟ فأقطعمها إياها ، وكتب لهما بذلك كتاباً) ٤.(

وعندما أتت جدتان أبا بكر ليطلبا ميراثهما ، فأعطى الميراث لأمّ الأمّ) دون أم الأدب (فقال صحابي كبير كان حاضراً : أعطيت التي لو أنها ماتت لم يرثها ، فتراجع وقسّمه بينهما) ٥.(

وبهذا فالخليفة الاول لم يكن من فقهاء الصحابة أبداً ، وانما كان جاهلاً بالكثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة ، فهو بذلك يعتمد على الآخرين ، وعندما يقع في حرج ، قد يفتي من عند نفسه من خلال الرأي المحض ، سواء أصاب الحق أم أخطأه ، وربما مضى على الخطأ والزلل إذا لم يسعفه أحد في اللحظة الحرجة ، كقطعه

يسار سارق ، وأمْره بأن يُحرق فجاءة السلمي بالنار ، في حين ان رسول الله نهى عن ذلك ، قائلاً : لا يعذب بالنار إلا ربّ النار) ١.(

٢ . كان أبو بكر يشكّك في نفسه وسلوكه دائماً ، فهو يقرّ بأن له شيطاناً عتريه أحياناً) ٢ .(وقال مرّة ان لسانه قد أورده الموارد) ٣.(

وأقسم . مرّة . بأنه تمنى لو كان بعتَكمراً ، ولم يكن بشراً.

وقال . ذات مرة . وقد شاهد طائراً على شجرة بأنه ودّ انه طائر ليس عليه حساب ولا عذاب) ٤.(

٣ . ان أبو بكر غالباً ما يفرّ من حروب المسلمين مع المشركين ، ففي معركة أحد ، فرّ مع الفارين ، فقال له الرسول : ما منعك يا أبا بكر أن تثبت إذ أمرتك؟ .وكان أبو بكر اذا ذُكر يوم أُحد بكى لأنه كان أول من فرّ من الزحف) ٥.(

كما انهزم أبو بكر ومن معه عندما بعثه رسول الله إلى خيبر وأعطاه الراية ، ومعه جمع من المهاجرين لمواجهة مرحب اليهودي) ٦.(

وفي غزوة السلسلة ، أمر النبي أبا بكر وثمانين رجلاً بمواجهة المشركين الذين اجتمعوا بوادي الرميل للاغارة على المدينة .فأخذ أبو بكر اللواء فمضى الى بني سُليم

فهزموه ، وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين ، وفرّ أبو بكر ، فساء رسول الله ذلك) ١.(

موقف الرسول من أبي بكر

لم يكن موقف الرسول صلى الله عليه وآله . في كثير من الأحيان . إيجابياً من أبي بكر ، وانما كان» سلام الله عليه «يتخذ مواقف منه لا تنسجم والقداسة التي يضفيها الجمهور على صحابي كبير كأبي بكر الذي أصبح فيما بعد ، الخليفة الاول للمسلمين:

فعندما صلى رسول الله على قتلى أُحد ، وقال : انا أنا هؤلاء شهيد ، تأثّر أبو بكر الذي فرّ من المعركة . كما هو معروف . فقال : أليسوا إخواننا ، أسلموا كما أسلمنا ، وجاهدوا كما جاهدنا ، قال الرسول : بلى ، لكنه صلى الله عليه وآله لم يشهد عليه كما شهد على هؤلاء ، وانما قال له : بأنه لا يدري ما سيحدث هو والآخرون من الصحابة ، بعده ، مما جعل أبا بكر يبكي لهذا الردّ القاسي من الرسول) ٢.(

ومعنى سيحدثون من بعده ، أي سيبتدعون من أمور وأحكام تخالف سُنّته صلى الله عليه وآله وتعاليمه التي بعثه الله تعالى من أجل تطبيقها) ٣ ، (واذا كان الرسول مطمئناً بأن أبا بكر لا يحدث بعده ، لقال له : بأني سأكون عليك شهيداً مثل هؤلاء؟

جاء نفر من قريش الى النبي صلى الله عليه وآله ، وتكلّموا معه ، وقالوا له بأنهم جيرانه وحلفاؤه ، بخصوص أناس من عبيدهم قد أتوا المسلمين ، ليس بهم رغبة في الدين ، طلبوا منه صلى الله عليه وآله أن يردّهم اليهم ، فأشار النبي على أبي بكر أن يعلن رأيه في هذا

الاقتراح من هؤلاء القرشيين ، فردّ أبو بكر بالايجاب ، وانهم صادقون في قولهم ، لكن الرسول تغيّر وجهه ، وذلك استغراباً من صاحبه أبي بكر ، كيف صرّح بصدْقهم مع ان الوقائع كلها تدلّ على كذبهم واحتيالهم على النبي) ١.(

موقف أبي بكر من الرسول

رفع أبو بكر صوته عند النبي حين قدم عليه ركْبُ بني تميم ، إذ قال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ٢ .(وذكروا آية أخرى في هذا السياق ، وهي قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ٣) (٤.(

ولاشك ان رفع أبي بكر لصوته عند النبي صلى الله عليه وآله ، ليس من الادب في شيء ، ولذلك وصف القرآن الكريم هذا السلوك بأنه محبط للأعمال ، أما الذين يغضّون أصواتهم عند الرسول ، فهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ولهم المغفرة والأجر العظيم ، بعكس من يرفعون أصواتهم عند الرسول او يجهرون له بالقول.

أبو بكر وحرق الحديث النبوي

أقدم الخليفة أبو بكر في عهده ـ وكما هو معلوم ـ على منع تدوين الحديث النبوي أو التحدّث به بين المسلمين ، وأكثرهم ـ بالطبع ـ من الصحابة ، وحجته في ذلك ، انّ نَقَلة الحديث أو المتحدثين به ربما لم يكونوا أمناء في التحدّث عن الرسول ، وبالتالي سيأتي الحديث مشوّهاً أو مبتوراً أو عكس المراد تماماً ، أو موضوعاً ، أي لم يكن النبي صلى الله عليه وآله قد قال به أصلاً.

ولهذا قام بحرق الأحاديث التي جمعها ، كما منع الناس من التحدّث بالاحاديث النبوية بعد أن رأى اختلافاً شاسعاً بين الاحاديث التي يتحدّث بها المسلمون ويتداولونها فيما بينهم ، وأكثر هؤلاء من الصحابة لأنه لم يمض على وفاة الرسول

سوى عام أو أقل من عام ، وأمر الخليفة أبو بكر بأن يكون القرآن هو الحكم بين الناس ، ليستحلّوا حلاله ويحرّموا حرامه) ١.(

وهنا لابد من وقفة عند الموقف المعارض للخليفة أبي بكر من تدوين الحديث النبوي أو التحدّث به:

١ ـ من المعروف ان القرآن الكريم ، يحمل مفاهيم مُوجزة ومُختصرة عن الدين وأحكامه ، وخوّل السُنّة النبوية ، مهمة التفصيل والتوسّع في استعراض الأحكام والمفاهيم الاسلامية والتعاليم الالهية الدقيقة ، فالقرآن وإن قال : مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) ٢ ، (وذلك على سبيل الاجمال والكليات ، لكن تأتي الآية القرآنية الأخرى ، لتؤكد : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

إِلَيْهِمْ) ١ .(فيما قال النبي صلىاللهعليهوآله : اني تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً .. كتاب الله وسُنّتي.«

وإذا كان الصحابة ـ طبق إدعاء الجمهور ـ جميعهم عدولاً ، فالمفروض على حكّام المسلمين بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله أن يبادروا الى تدوين السُنّة النبوية والسماح للصحابة بنشر وإذاعة هذه السُنّة بين أوساط المسلمين ليكونوا على علم بفرائضهم ومعتقداتهم ، وتفاصيل الحلال والحرام في حياتهم والتي ذكرها القرآن بشكل مقتضب.

ثم لو تمّ منع تدوين وإشاعة الحديث النبوي ، حينئذ سيعجز المسلمون من الحصول على تعالم الاسلام المُفصّلة والاحكام الدقيقة التي هم بحاجة ماسة إليها ، والتي من غير الممكن إلتماسها من القرآن فقط.

٢ ـ لو كان الصحابة باجمعهم عدولاً ، فلِمَ شكّك الخليفة أبو بكر بهم إلى درجة أن جَمَع هذه الاحاديث ، وهي ٥٠٠ حديث ، وهي عشر معشار ما تحدّث به الرسول طيلة فترة البعثة المباركة ، وأقدم على حرقها بالرغم من ان الكثير منها كان صحيحاً؟ فهل يحق لأحد حرق الأحاديث النبوية؟.

٣ ـ لو كان الصحابة يتحدّثون بالاحاديث النبوية ، ولكنهم يختلفون فيها اختلافاً شديداً ، ولم تمض سوى سنة أو سنتين على رحيل الرسول الى بارئه الاعلى ، فهذا يعني ان الكثير من هذه الاحاديث ، اما موضوع أو متلاعب بنصوصها ومعانيها ، أو محرّفة قليلاً أو كثيراً ، وبالتالي سيبرز الاختلاف والتعارض واضحاً بينهما ، ولو كان كذلك ، فليس من حق أحد أن يمنع تدوين أو إشاعة السُنّة التي تركها النبي صلىاللهعليهوآله لكي لا يضل الناس من بعده أبداً ، وانما المنطق

)١ (النحل ٤٤.

يدعو الى البحث عن الأمناء من الصحابة لتدوين السُنّة لا منعها منعاً باتاً ، ثم ان الأمر الحازم من الخليفة ابي بكر بأن يكون القرآن معياراً للحلال والحرام ، سيوجّه ضربة قاصمة للحديث النبوي ويجعله عبثاً ولا قيمة له ، فلماذا يا ترى دعا النبي للتمسك بالقرآن والسُنّة النبوية معاً ، كي لا يضل المسلمون بعده أبداً؟

وهل بمقدور المسلم الاعتماد على القرآن فقط في تبيان الحلال والحرام؟

وإن تَعْجب فالعجب قول الذهبي الذي يحاول أن يبرّر الموقف المتخذ من قبل الخليفة أبي بكر بالقول : بأن مراد الخليفة ، التثبّت في الأخبار ، والتحرّي لا سدّ باب الرواية ... ولم يقتل» : حسبنا كتاب الله) «١.(

والحقيقة ان الخليفة أبا بكر لم يُرد التثبّت والتحرّي عن الحديث الصحيح ، وإلا لأكد ذلك للمسلمين ونَقَلة الحديث النبوي ، وانما حصر الحلال والحرام في كتاب الله لا غير ، ولا ندري ما الفرق بين» بيننا وبينكم كتاب الله «وبين »حسبنا كتاب الله«؟ فالعبارتان تعنيان ان القرآن الكريم هو الفيصل في الأمور والحاكم والبديل عن السُنّة النبوية ويغني عنها ، وبالتالي لا حاجة للسُنّة النبوية بوجود القرآن الكريم؟

ولابد في هذا المجال ، الاشارة الى قول النبي صلى الله عليه وآله بأنه أُوتي القرآن الكريم ومصله معه ، فيوشك رجل يجلس على أريكته ويقول للناس عليهم بالقرآن ليحلّوا حلاله ويحرّموا حرامه ، أو يقول بعد أن يأتيه أمر النبي أو نهيه ، بأنه لا يدري فما وجده في كتاب الله اتّبعه) ٢.(

كما يقول صلى الله عليه وآله : أيحسب أحدكم متكأ على أريكته يظنّ ان الله لم يحرّم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ، ألا واني والله لقد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء ، انها لمثل القرآن أو أكثر.

وهذا الحديث النبوي إنما يشير الى رجال وخلفاء يأتون من بعده ، يدعون الناس الى التمسك بالقرآن الكريم فحسب ، ويمنعونهم من تداول السُنّة النبوية بأي حجة من الحجج ، وينطبق بالتأكيد على الخليفة أبي بكر لأن عبارة النبي وأبي

بكر ، متشابهتان ، ان لم يكونا متطابقتين ، وليس لأحد ان يحاول تبري الموقف المتخذ من الخليفة الأول من خلال ذرائع وهمية لا تصمد في دفاعها عن مسلك الخليفة أبي بكر المضاد لتدوين الحديث وتداوله بين المسلمين.

وقد التفت بعض الباحثين والمؤرخين الى هذه المسألة فاعترف بأنها من أعظم دلائل النبوة ، وأوضح اعلامها) ١ ، (وهو يقصد بذلك ، الإبلاغ النبوي لواقعة منع تدوين السُنّة النبوية من قبل الخليفة أبي بكر ، ومن جاء بعده .أما دفاع البعض عن موقف الخليفة الاول وتبرير موقفه ، والادعاء بأن الرسول انما أراد بقوله» : متكأ على أريكته ، «هم أصحاب الترف والدعة ، الذين لزموا البيوت ، ولم يطلبوا العلم من مظانه) ٢ ، (فهي حجة داحضة لم تُصبْ الحقيقة أبداً ، لأن الخليفة أبا بكر ، لم يقصد ذلك البتة ، وإنما كان مُراده من المنع بأن القرآن كافٍ لمعرفة الحلال والحرام.

وبالفعل فقد أكد البيهقي ، إشارة إلى إخباره» عليه الصلاة والسلام «بشبعان على أريكته ، يحتال في ردّ سُنّته ، بالإحالة الى ما في القرآن من الحلال والحرام دون السُنّة:

فكان كما أخبر النبي ،وقد ابتدع من ابتدع وظهر الضرر) ١ ، (وعمّ الانحراف في سائر نواحي الحياة الاسلامية ، وبرزت البدع والفِرَق المُختلفة بسبب الاعتماد على القرآن دون السُنّة النبوية التي بقيت بغير تدوين لأكثر من قرن كما يؤكد جهابذة أهل السُنّة والجماعة.

أبو بكر وجمع القرآن

من الأمور التي يرددها الجمهور دائماً في أوساطه الشعبية والدينية ، هي جمع الخليفة أبي بكر للقرآن الكريم ، والحديث الذي يستند اليه في تأكيده على جمع الخليفة الاول للقرآن ، هو الذي ينقله صحيح البخاري ومفادّه ان عمر بن الخطاب ذهب الى الخليفة أبي بكر وطلب منه جمع القرآن ، فأجابه أبو بكر بأنه كيف يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله الا وهو جمع القرآن .ثم أذعن أبو بكر في النهاية ، وطلب من زيد بن ثابت ، القيام بالمهمة ، وقال زيد بأنه تتبع القرآن يجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال) ٢ .(

ونستنتج من هذه الرواية التي يعدّها أهل السُنّة من اصح الروايات ، لأن الذي يرويها هو البخاري الذي يَعدّ صحيحه أصح الكتب بعد كتاب الله ، ونخلص بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يجمع القرآن ، وإنما تركه موزّعاً هنا وهناك ، ومبثوثاً في هذه الرفعة أو تلك ، بل وبعضه محفوظ في صدور الرجال من الصحابة الذين ربما يموتون في أي لحفظة ، ويذهب سرّ الآيات والسور المحفوظة في الصدور الى الأبد ، ولَستُ أعلم كيف يرضى

الرسول صلى الله عليه وآله أن يترك القرآن ، هكذا مشتتاً ، ومصيره مجهولاً ، فلربما ضاع بعض تلك الرُقع أو أكلتها الأرَضَة أو الحيوانات الداجنة ، أو مات الحَفَظة أو قُتلوا في الحروب؟

فهل يعقل أن يدع رسول الله أمّته التي هي آخر الأمم قاطبة ، ويرحل بعد أن يوصيها بالتمسك بالكتاب والسُنّة؟ ويبقى القرآن هكذا ، لا يعرف أبناؤه مصيره لأنه موزّع ومشتت هنا وهناك ، هذا في وقت بقيت سُنّته صلى الله عليه وآلهي الأخرى غير مدوّنة ، وانما محفوظة في صدور الرجال أو في رُقَعْ مُعرّضة للزال أو هي طعام للدواجن؟!

والغريب ان الخليفة أبا بكر يستغرب ممّن يدعوه لجمع القرآن ، فيما لم يجمعه الرسول أو يدعو الى جمعه؟

وما من شك ان هذا الحديث موضوع لأنه يجعل من النبي صلى الله عليه وآله رجلاً لا يبالي ولا يفكّر بمصير أمّته الخاتمة ولا بمستقبلها الذي يكتنفه الغموض وهي خير الامم على الارض قاطبة. والى يوم القيامة!!!

وما يثير الانتباه ان الاحاديث الأُخر المروية عند اهل السُنّة والجماعة حول قضية جمع القرآن ، لو تفحّصناها لوجدناها مُتعارضة ومتفاوتة وتختلف اختلافاً كبيراً ، بحيث من الصعب التوفيق فيما بينها ، أو لنقُل من المحال

فمرّة يدّعي مؤرخو الجمهور المسلم بأن عمر أول من جمع القرآن في المصحف) ١ (بينما يقول آخرون إنَّ جمع أبي بكر للقرآن ، كان بمنزلة الأوراق ، وُجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيها القرآن منتشر ، فجمعها أبو بكر من خلال زيد بن ثابت ، حيث ربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء ، كما أمر أبو بكر زيداً باستنساخ نسخة من القرآن

ومع ذلك يأتي من يُكابر ويلتفّ حول الحقيقة فيدّعي بأن القرآن لم يُجمع. وان كان مكتوباً متفرّقاً. ولم يعتمد المسلمون في العهد الأول إلّا على نصّه المحفوظ في الصدور ، بوجوده اللفظي ، وانه هكذا تواتر ، لا بوجوده الكتبي) ٢.(

ولا ندري ما المقصود بأنه محفوظ في الصدور ، والكل يعلم أن الذين حفظوا القرآن بأجمعه كانوا معدودين ، فكيف نقبل هذا الرأي الساذج؟ وإذا آمنا بهذا الرأي ، فيعني بأن أبا بكر لم يجمعه من الصدور وانما جمعه من الأوراق المتفرّقة ، وبالتالي لم يُضِفْ أي جهد من عند نفسه حتى يأتي من يقول ويزعم بأن الخليفة الاول هو أول من جمع القرآن الكريم ، بينما كان مجموعاً في عهد الرسول بأمره صلى الله عليه وآله ، وإنما قام بتجليده ، فليس من حق أحد الإدعاء بأن التشكيك في الخليفة الأول هو تشكيك في القرآن ، إذ كان مجموعاً في زمن الرسول ، بل وكان مصحفاً في العهد النبوي كما هو مشهور ، وكان الرسول يدعو المسلمين الى تلاوته كما جاءت أحاديث كثيرة تؤكد ذلك.

الخليفة الثاني. شخصية تثير الاهتمام

لم يكن من السهولة أن يجرأ أحد على البحث في سيرة الخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب ، وسَبْر أغوار حياته العامة والخاصة ، لمعرفة مدى صحة ما ينقله التأريخ عن ها الصحابي الذي حَكَم المسلمين لأكثر من عشر سنوات ، وتناقلته ألسنَة المؤرخين والباحثين عن شخصية عبقرية كشخصية عمر الذي كانت له اليد الطولى في تثبيت الدين ونشر الاسلام

في المناطق المحيطة بالجزيرة العربية ، والوصول الى مدينة القدس وتحريرها من براثن الروم ... ولذلك فلطالما يتردّد المرء عن تناول حياته وسيرته بالبحث والتنقيب خوف الوقوع في شبهات ربما تقلّل من قداسة هذا الخليفة الراشد ، وتزيل الهالة التي تحيط بشخصيته الخارقة ، ولكننا لما ان هدفنا هو تبيان الحقيقة مهما كانت صعبة ، وشق الطريق لها مهما كان وعراً ، قرّرنا الخوض فيها حتى النهاية ، لكشْف الملابسات التأريخية بدون رتوش أو تعديلات أو تلاعب ، سعياً للوصول الى الحق الذي لا ريب فيه والمنزّه من عبث العابثين.

حقيقة شجاعة عمر وجرأته

قبل البدء في تصفّح سيرة الخليفة الثاني ، ارتأينا أن نتثبّت من النظرية السُنّية حول جرأة عمر بن الخطاب وشجاعته ، بحيث أصبح الاسلام عزيزاً بعد أن كان خائفاً ، فور اعتناق الخليفة عمر للدين الاسلامي.

أول ما يلفت نظرنا في هذا الصدد ، غلظة عمر وفضاضته في علاقته بالاشخاص

من حوله ، حيث يقرّ الصحابة بأنه كان فضاً غليظاً قبل تصدّيه للخلافة ، مما كان يثير حفيظة وسخط المسلمين ، واستمر في سلوكه هذا بعد تسلّمه للسلطة غداة وفاة الخليفة أبي بكر ، خاصة وانه كان يستعمل وسيلته الشهيرة »الدرّة «وهي سوط في تعامله مع الرعية.

وفضاضة القلب وغلظته ، أمر مرفوض عند الله تعالى ، حيث قال عزّ وجل لنبيه الكريم : وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) ١ ، (أي ان هذه الصفة الذميمة تدعو لانفضاض المؤمنين من حول زعيمهم وقائدهم ، بينما كان الرسول صلىاللهعليهوآله ذا خلق عظيم ، يبشُّ في وجوه رعيته ويكسب مودّتهم وقلوبهم.

فهذه الصفة السلبية ما اكن ينبغي أن يتّصف بها الخليفة الثاني أو على الأقل كان عليه أن يتجنّبها أو يخفّف منها قدر المستطاع ، وينبذ اسلوب استعمال السوط في تعامله مع من حوله ، أسوة بالرسول والخليفة الاول ، لكنه تمادى في هذا الاسلوب القاسي طيلة تربّعه على كرسي الخلافة والحكم.

ويبد ان الخليفة الثاني واصل إسلوبه الفج مع رعاياه حتى آخر لحظة من حياته ، لأنه يوم طَعْنه من قبل غلام المغيرة بن شعبة ، كان لا يكبّر حتى يلاحظ الصف المتقدم في الصلاة ، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ، ضربه بسوطه المعهود) أي الدرّة.. (

وان دلّ هذا على شيء فانما يدلّ على ان الخليفة الثاني حتى آخر لحظة من حياته لم يتخلّ عن أسلوبه العنيف ضد مواطنيه) ٢ (وإلّا هل من الانصاف في شيء أن يَقْدم أي

رجل ولو لم يكن خليفة أو حاكماً بضرب أحد ذلك الضرب المبرح لأمر تافه جداً لا يستحق كل هذا ال ضرب الذي يُعتبر في القانون الالهي عقوبة ضد المقترفين خطايا أو آثاماً كبيرة يستحقون بسببها الجلد أو التعزير.

عمر وحروب المسلمين

ويبدو من خلال التفرّس في سلوك الخليفة الثاني في العهد النبوي ، ان ما يقال عن جرأته وشجاعته ، إنما هي شجاعة موجّهة ضد البسطاء من المسلمين الذين كان أكثرهم من الصحابة أو التابعين ، وإلا فإن مشاركة عمر في حروب النبي ضد المشركين تدلّ على خشيته من قتال الكفار ، وفراره من الزحف ، شأنه في ذلك شأن الكثير من الصحابة ، وهذه كُتُب التأريخ تشهد بمواقفه في معارك المسلمين ضد الكفار والمشركين ، اذ يروي المؤرخون ان عمر بن الخطاب كان يفرّ مع الفارّين عندما يقع المسلمون في مأزق ، ويتكالب الكفار عليهم من كل جانب ، وتبلغ القلوب الحناجر) ١.(

ونحن عند انهماكنا في دراسة دور الخليفة الثاني في معارك المسلمين الاولى مع الكفار والمشركين ، دار في ذهننا ، السؤال التالي : اذا كان عمر قد انهزم في معارك وحروب وغزوات مثل أُحد وحنين وخيبر وذات السلاسل ، فما هو دوره في الحروف الأخرى التي خاضها النبي والمسلمون ضد الكفار والمشركين؟) ٢(

وبعد الإمعان في هذا الإشكال أو الغموض ، توصّلنا الى ان الخليفة عمر في هذه الحروب ، لم يكن له دور ايجابي في القتال ، ولذا لم يذكر التأريخ أسماء مشهورين من

قريش أو أهل الكتاب ، كان عمر قد نازلهم في المعارك أو قتلهم ، وهذا يدل على ان عمراً كان يلعب دور المشاهد أو المتفرّج في ميادين القتال ، إذ ينوب عنه المقاتلون المسلمون الذين يستبسلون في قتال الاعداء ، وتوجيه الضربات المميتة لهم ، كما هو الحال في معركة بدر الكبرى ، ولكن في الامتحانات العسيرة التي يواجهها المسلمون ، كالانكسار الذي حلّ بهم في أُحد وحنين بسبب ضعفهم وركونهم الى جمع الغنائم أو شعورهم بالغرور ، هنا يبدو موقف عمر والآخرين الانهزامي حيث الخور والضعف والخلود الى الارض والخشية من المنازلة.

واذا كان عمر ، جريئاً شجاعاً مغواراً كما ينعته علماء أهل السُنّة وجهابذتهم ، بحيث أصبح الاسلام عزيزاً منيعاً باعتناق عمر له ، فلِمَ كان هذا الأخير لا يثبت قدراته إلا في أجساد الصحابة والمستضعفين الذين تلهب صدورهم وظهورهم ، سياطه الموجعة بحيث لم يفلت منها حتى النساء ، بينما كان الأحرى به ان يبرز بطولاته في سوح الوغى ضد ال كفار والمشركين الذين كانوا يحيقون بالنبي صلى الله عليه وآله وأتباعه ، لتوجيه الضربة القاصمة للاسلام في كل الحروب والمعارك الشهيرة.

موقف عمر من القرآن الكريم

كان عمر بن الخطاب ، الخليفة الراشد الثاني ، وبعظمته ومكانته تتحدث الأجيال التي نشأت وترعرعت في ظل المذاهب السُنّية ، حيث كان محدَّثاً ، تنزل الآيات القرآنية توافق آراءه ومقترحاته ، وكان رسول الله يذعن له في كثير من الأحيان .ورجل صحابي بهذه العظمة والمكانة السامية ، لابد من معرفة موقفه من القرآن الكريم ، وهل صحيح أنه كان مساهماً في جمع القرآن وحفظه من الضياع؟ وهل كان مؤمناً بصيانة كتاب الله من التحريف؟ وان ما بين الدفتين هو كتاب الله التام دون زيادة أو نقصان؟ وبالتالي كان

الخليفة عمر مؤتَمناً على القرآن والدين حسب وصايا الرسول للمسلمين بوجوب اتّباع سُنّة الخليفة الراشد الثاني ، وانه على الحق في كل أحواله كما تشهد العشرات من الاحاديث النبوية على ذلك ، وكما يدّعي أهل السُنّة بأنه الفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل؟

واذا كان عمر أول من جمع القرآن في مصحف) ١ (فما هو هذا المصحف؟ وما درجة صحته واعتباره؟ خاصة وهو القائل بأن القرآن الحقيقي أضعاف القرآن الموجود لدى المسلمين ، وإن من يقرأه فله بكل حرف زوجة من الحور العين ، ولا يعنينا تبرير العالم والمفسّر السُنّي) السيوطي ، (بأن عمر عني المنسوخ من الآيات القرآنية) ٢ .(

فهل يا ترى ان الآيات المنسوخة من القرآن ، هي أضعاف الآيات المثبّتة في القرآن الحالي؟ ومن يقول بهذا الرأي فهو لا يحترم عقلة ودينه وتعاليم القرآن الكريم !!ولطالما كان عمر يقرأ آيات ليست من القرآن المعروف ، مدّعياً بأنها كانت ضمن القرآن وأسقطت منه) ٣ ، (ولم يقل إنها نُسخت أبداً.

وهناك مواقف لعمر بن الخطّاب تثبت بأنه كان يجهل آيات غريبة أو محرّفة من القرآن الكريم ، وعندما يتثبت من الصحابة الحفّاظ لكتاب الله ، يعود فيقرّ بها وربما يدوّنها في المصحف التابع له) ٤ ، (بالرغم من عدم وجودها في المصحف المعروف أو

محرّفة عن آيات قرآنية.

بل وهناك آية شاذة يزعم الخليفة عمر انها كانت جزءاً من القرآن الكريم ، ولولا الخوف من قول الناس بأنه يزيدها في كتاب الله لاضافها الى مصحفه) ١.(

ولنا أن نتساءل عن هذه الآية المزعومة والمحذوفة أو غيرها ، لو كانت في الاساس ، جزءاً من القرآن ، خاصة وهي آية ذات مضمون شرعي ، فلماذا خفيت على المسلمين وان عمر بن الخطاب كان وحده على علم بها؟ ثم ان اعتراض المسلمين أو استغرابهم لو أضافها عمر للقرآن ، يدل على علمهم وقناعتهم بأنها ليست من القرآن الكريم؟ وهل ان الخوف من المسلمين يجيز لعمر حذفها من القرآن مع انها تتضمن حكماً شرعياً؟ أمّا كان لعمر بن الخطاب لو كانت هذه الآية المزعومة جزءاً لا يتجزأ من كتاب الله وهو الخليفة المطاع وأمير المؤمنين ، إقناع المسلمين بأنها آية حقيقية ، من خلال دعم موقفه بالصحابة الحافظين للقرآن أو المدوّنين له ، وهم كثرة في ذلك الوقت؟ ثم اين هو من المصحف الذي جمعه الخليفة الاول والذي يدّعي اهل السُنّة والجماعة بأنه أول مصحف أمر بجمعه أبو بكر بعد رسول الله ، والذي أودعه عند حفصة ابنة الخليفة الثاني؟

ان ما نستشفه من موقف عمر ازاء القرآن الكريم ، جهله بالمصحف الحقيقي الذي جُمع بأمر من رسول الله وتحت نظره ، وانما كانت معلومات عمر حول الآيات القرآنية يشوبها الشك والحيرة والتردد ، فهو تارة ينكرها أصلاً ، وطوراً يشكك في حقيقتها ويسأل هذا الصحابي أو ذاك ليتأكد منها.

موقف الخليفة الثاني من رسول الله

من المسلّمات في الشريعة الاسلامية أن طاعة الرسول صلى الله عليه وآله مقرونة بطاعة الله تعالى ، وعليه فالمفروض من المسلمين ، وخاصة الصحابة الذين كانوا ملازمين له صلى الله عليه وآله ، أن يطيعوه في كل صغيرة وكبيرة من أوامره الجليلة ، دون أي تردّد أو مواربة لأن ما يصدر عنه صلى الله عليه وآله ، حق خالص لا يقبل التشكيك أو النقاش أو الاعتراض من أي شخص مهما علا وزنه حتى وإن كان من الصحابة ، والقرآن الكريم ، كما تشهد العشرات من آياته الكريمة ، يأمر المسلمين جميعاً ، مهما سَمتْ مراكزهم ومستوياتهم ، على طاعة الرسول المُطلقة ، وأن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى ، وذلك طيلة فترة البعثة المقدسة ، كما يحذّرهم من عصيان الرسول بأي حال من الأحوال ، وإلا سيتعرّضون الى أشد العقوبات الالهية ، كما يهدّدهم ببطلان الاعمال ، لأن رسول الله حين يصدر الاوامر والنواهي

المتعلقة بالدين والامور الشرعية ، فهو إنما يأتمر بأوامر الوحي ، وليس من لدن نفسه ، وهو أعلم بالمصلحة الدينية من الآخرين ، وهو مطّلع على ما ينفعهم وما يضرّهم ، مهما كانت منزلتهم ودرجتهم من الصحبة معه ، بل وحتى الذين يلازمونه دوماً.

فهل كان عمر بن الخطاب الذي له سهْم وافر من الصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وكان صلى الله عليه وآله مصاهراً له ، قد أدّى حق الطاعة للرسول كما ينبغي ، ولم يعصه أبداً في قول أو فعل أو أمر صدر منه صلى الله عليه وآلهطيلة البعثة المباركة ، أم بالعكس؟ هذا ما سنعرفه في الأسطر التالية:

ردّ الخليفة عمر بن الخطاب أمر رسول الله برأيه واجتهد في ذلك ولم يألوا جهداً في قضية صلح الحديبية ، إذ رضي النبي صلى الله عليه وآله بحذف عبارة» بسم الله الرحمن الرحيم«

واستبدالها بعبارة» باسمك اللهم «لكن عمراً أبى ورفض ذلك ، وقال تعليقاً على هذه الوقفة منه ازاء الرسول ، بأن على المسلمين أن يتهموا الرأي على الدين ، وكان رسول الله في وقتها قد قال لعمر : يا عمر تراني رضيت وتأبى) ١ .(وام كان لعمر ولا لغيره من الصحابة مهما علا شأنهم ومنزلتهم من الرسول أن يعترضوا عليه في هذا الموقف الذي يدلّ على الحكمة والفراسة العميقة التي لا يبلغها الانسان العادي ، ثم ان الرسول مُوحىً إليه من السماء في اي خطوة يخطوها ، وعلى الجميع إطاعته في هذا المقام ، فالرفض والإباء هنا ، يعكس نوعاً من العصيان والتمرد على أوامر الرسول ، والتشكيك في مصداقيته وعصمته ، مهما كان ادّعاء المقابل بصدق النية واقتضاء المصلحة في أتخاذ الموقف المتشنج والمعارض للصلح مع قريش.

ولم يقتصر موقف عمر هذا على إسلوب كتابة وثيقة الصلح بين الرسول وقريش ، وانما امتد ليشمل مواقف أخرى له في هذا الشأن .فعندما أمر الرسول الفارين من مسلمي قريش بالعودة الى مكة حسب اتفاقية الصلح ، قال عمر للرسول : أترضى بهذا؟ وكإن عمر أبى تصرّف الرسول واعتبره مرفوضاً ، فتبسّم صلى الله عليه وآله وقال لعمر : من ذهب منّا اليهم فقد أبعده الله ، ومن جاء منهم الينا رددناه ، فسيجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً) ٢ .(ونستغرب هذا الالحاح الذي بدا من عمر وتشكيكه في جدوى إعادة المسلمين الفارين من قريش ، إلا إذا اعتقد بأن الرسول انما يترصف من وحي نفسه ، وليس على أساس تلقّي الوحي من السماء.

وتمادى عمر بن الخطاب ، في تشكيكه بمواقف وقرارات الرسول يوم الحديبية،

فتساءل مع صحابة آخرين : الم يكن حدّثهم بأنه» عليه الصلاة والسلام «سيدخل المسجد الحرام ويأخذ مفتاح الكعبة؟

فأجابهم رسول الله بأنهم سيدخلون المسجد الحرام ... ثم أقبل على عمر وقال : أنسيتم يوم أُحد؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أَحد !!وأنا أدعوكم في اخراكم !!أنسيتم يوم الاحزاب !!إذ جاؤوكم من فوقكم وأسفل منكم !وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ١ .. (وهذا الموقف المشكّك من عمر والآخرين ، نابع من خشيتهم بعدم تحقق النبوءة المحمدية التي مصدرها الوحي ، وان ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله مجرّد ادعاءات ومزاعم تفتقد للمصداقية ، ولذا فقد ذكّرهم صلى الله عليه وآله بكل مواقفهم السابقة التي شكّكوا فيها بانتصار المسلمين في حروبهم مع الاعداء ، الى درجة أن بلغت قلوبهم الحناجر ، وظنوا بالله ال ظنون التي تشكك بالوعد الالهي المؤكد بالنصر ، وان مآل تلك المعارك والحروب الطاحنة ، الى انحسار الاسلام والقضاء على المسلمين القضاء المبرم ، وبالتالي سيذهب وعد الله ونبيه بالنصر ، الى مجرّد وعد كاذب والعياذ بالله!!

وكان الصحابي» أبو عبيدة الجراح «قد فطن الى موقف عمر المُستَهجن ازاء الرسول في صلح الحديبية ، فقال لعمر : ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ، وتعوّذ» أبو عبيدة الجراح «من الشيطان الرجيم ، ثم قال : قال رسول الله يومئذ : يا عمر إني رضيت وتأبى) ٢ ... (فحتى الصحابة استغربوا من موقف عمر المُضاد لأوامر الرسول تلك .. وتعوّذوا بالله ... فليس من حق أحد أن يبرّر لعمر بن الخطاب ، سلوكه السلبي من النبي صلى الله عليه وآله بأنه نابع من إيثار المصلحة العليا ، والخوف على مصير الاسلام

والمسلمين ، وكأن عمر أكثر حرصاً منه» سلام الله عليه «على الدين ، وان النبي محمد صلى الله عليه وآله لم يحسب أي حساب عندما يتخذ تلك المواقف ، وكأنه لم يكن مُسَدّداً بالوحي والسماء ، وان نبوءاته تذهب أدراج الرياح والعياذ بالله.

على ان مواقف عمر المخالفة للاوامر النبوية ، والمعارضة للرسول ، لم تنحصر في قضية صلح الحديبية ، وانما استعت لتطال العديد من القضايا والحوادث الحساسة في حياة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله أثناء تبليغه للشريعة الاسلامية في شتى المنعطفات والمواقف التأريخية ، فذات يوم ، قسّم رسول الله أحد القسمات ، فلم يرض عمر بها ، وقال للرسول : بأنه غير هؤلاء أحق بها ، ومنهم أهل الصُفّة ، فامتعض الرسول وقال : بأنهم ـ أي عمر وجماعة غيره ـ يسألونه بالفحش) ١ ، (أي ان» سلام الله عليه «غير عادل في قسمته.

وسأل عمر ـ مرّة ـ النبي عن أشياء وأمور يكرهها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رأى عمر ما في وجهه من الغضب) ٢ (واعترض عمر ـ ذات يوم ـ على رسول الله في تحدّثه مع الاموات ، مدّعياً بأنهم قوم قد جيفوا !!إذ كيف يكلّم صلى الله عليه وآله أجساداً لا أرواح فيها؟ فأجابه الرسول : والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول فيها منهم) ٣ .(

وذات يوم ، بعث الرسول» أبا هريرة «للتبشير بأن من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه يدخل الجنة ، وعندما لقي عمر» أبا هريرة ، «واستفسر منه عن القضية ، ضربه بعنف وشدّة وأبكاه ، مدّعياً الخوف من إتكال الناس عليها ، وان على الرسول أن يدع

الناس يعملون .ونا يبدو من اعتراض عمر وسخطه الى حد ضرب» أبي هريرة «. وهو البريء . ذلك الضرب المبرح ، بأن الرسول كان جاهلاً بعواقب هذا الحديث الذي بعث» أبا هريرة «لتبليغه للناس ، وان عمر أدرى بالعواقب من رسول الله.

وتعليقاً على هذه الحادثة ، حاول بعض علماء الجمهور تبرير موقف عمر من ردّ حديث النبي صلى الله عليه وآله الذي بعثه مع أبي هريرة في تبشير المؤمنين بالجنة ، قائلاً : إن عمراً في هذه الواقعة لم يكن معترضاً على رسول الله أو راداً عليه ، ولكنه خشي إتكال المؤمنين على هذه البشرى إذا بلغتهم ، وتركهم العمل ، فرأى ان كتمها عنهم ، أصلح لهم ، وأعود عليهم بالخير من إبلاغهم إياها .وهذا ما دعاه الى ضرب» أبي هريرة ، «وإرجاعه وهو الذي حمله على القول لرسول الله أن لا يفعل ، نهياً له عما كان قد اصدر أمره به من تبشير المؤمنين بالجنة) ١.(

وهناك عالم آخر أكثر جرأة ، اعتبر حديث» أبي هريرة «في هذه الواقعة ، دليلاً على ان الامام والكبير مطلقاً اذا رأى شيئاً ، ورأى بعض أتباعه خلافه ، ينبغي أن يعرضه على المتبوع لينظر فيه ، فإن ظهر له ان ما قاله التابع هو الصواب ، رجع المتبوع اليه ، وإلا بيّن للتابع جواب الشبهة التي عرضت له) ٢.(

ومن حقّنا التساؤل : هل يحق لعلماء السُنّة ، تبرير موقف عمر من اعتراضه على أوامر الرسول صلى الله عليه وآله والتشكيك في عصمته وقدسيته ، واعتباره رجلاً عادياً يخطأ كما يخطأ الآخرون ، وينبغي تصحيح وصاياه وأوامره ونواهيه؟ لأن عمر بن الخطاب في هذه المواقف والممارسات ، انما كان يشخّص ما هو الاصلح والاعود بالخير على المسلمين من

رسول الله الذي يبدو هنا ، جاهلاً تماماً وغير عارف بعواقب كلامه ووصاياه التي ينصح بها الأمّة ، وان من حق عمر التابع أن يصحّح للنبي المتبوع أخطاءه ويدلّه على وجه الصواب لأنه كان صلى الله عليه وآله مخطئاً؟

فهل بقيت للنبوة هنا قيمة أو لعصمة الرسول معنى؟ هذا الرسول العظيم الذي هو أفضل الرُسُل قاطبة ، والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى ، يصبح مفتقراً الى من يصحّح له أقواله وتعاليمه ، ويُصوّب مواقفه تجاه المسلمين.!!

عمر والنصوص الدينية

لنستطلع الآن ، موقف عمر بن الخطاب من النصوص النبوية القاطعة ، وكيف كان يتعامل معها في فترة خلافته التي ناهزت العشر سنوات؟ وهل كان يتقيد بالنص الذي صدر عنه» صلوات الله عليه ، «ويتمسّك به حرفياً أم يتجاوزه ويتعدّاه في بعض الأحيان ، ليعمل بالرأي؟

فمن متابعة سلوك الخليفة الثاني ازاء النصوص الصادرة عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ، انه في بعض الأحيان يتجاوز النص لإعمال الرأي وإنْ خالف النص تماماً.

فقد كان الطلاق على عهد رسول الله وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : ان الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم) ١.(

والمشهور ان أحد الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وآله قد طلّق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً ، فسأله الرسول : كيف طلّقها؟ فقال : ثلاثاً فقال

له صلى الله عليه وآله : في مجلس واحد؟ قال : نعم ، قال» عليه الصلاة والسلام : «فإنما تلك واحدة ، فأرجعها إن شئت) ١ ، (كما أخبر الرسول عن رجل طلّق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام صلى الله عليه وآله غضِباً ثم قال : أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا نقتله؟) ٢.(

وهكذا فقد كان موقف الرسول حازماً حتى وان تساهل الناس في الطلاق ، وتلاعبوا بالنصوص القرآنية ، ولذا وبّخهم توبيخاً شديداً ، فكيف يأتي عمر بن الخطاب ويعارض نصّاً قرآنياً صريحاً ، أكّده رسول الله مراراً ، وذلك لأن الخليفة الثاني لم يرُقْ له استعجال الناس في الطلاق ، فأراد أن يمضيه عليهم وإن خالف كتاب الله ، وعارض نصوص القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وآله القاطعة.

إنها مخالفة صريحة لنص الهي ـ نبوي حازم ، لا يقبل التأويل أو التجاوز أو الالتفاف ، ولكن جاء علماء من أهل السَّنّة والجماعة ، فحاولوا تبرير مُخالفة عمر للنصوص المقدمة ، بتأويلات وحجج واهية لا تنطلي على ذوي الالباب ، فقال أحدهم : إن ما أحدثه عمر في قضية الطلاق كان تأييداً لقاعدة تغيّر الأحكام بتغيّر الزمان.

وعلّق أحد أكابر مدرسة الصحابة ، وهو ابن القيم الجوزية : بأن عمراً رأى ان الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثُر وتفشّى في المجتمع ، فرأى من المصلحة اعتبار التلفظ بالطلاق الثلاث في مجلس واحد ، طلاق ثلاثٍ لا رجعة فيه ، إلا أن تُنكح المطلقات برجال غير أزواجهن ، وذلك عقوبة للمطلقين ، وهذا الأمر المخالف للنص،

إنما كان قد راعى المصلحة في زمانه ، لأن الناس لم يكونوا في عهد النبي وعهد أبي بكر وصدر من خلافة عمر قد أكثروا من الطلاق ، بل كانوا يتّقون الله في الطلاق.

وهذا في رأي ابن القيم : مما تغيّرت به الفتوى لتغيّر الزمان ، وعَلِمَ الصحابة حُسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته في ذلك فوافقوه على ما ألزم به.

غير أن ابن القيم نفسه قد أبدى رغبة في الرجوع بالحكم الى ما كان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لأن الزمن قد تغيّر أيضاً ، وأصبح إيقاع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ، مدعاة لفتح باب التحليل الذي كان مسدوداً على عهد الصحابة ، وقال ابن القيم : بأن العقوبة اذا تضمّنت مِفْسَدة أكثر من الفعل المُعاقب عليه ، كان تركها أحب الى الله ورسوله) أعلام الموقعين. ابن القيم الجوزية ٣ : ٣٦.(

وينقل ابن القيم قولاً عن استاذه ابن تيمية ، نصّه : ولو رأى عمر عبث المسلمين في تحليل المُبانة لمطلّقها ثلاثاً لعاد إلى ما كان عليه ، الأمر في عهد الرسول.

وتعليقنا على موقف عمر بن الخطاب في قضية الطلاق ، ما يلي:

١ .كان على الخليفة عمر ، بعد أن كثُر الطلاق في زمنه ، أن يُوصي ال ناس بالإمتثال للحلول القرآنية والنبوية التي تحذّر الناس من الطلاق الذي هو أبغض الحلال عند الله ، وان يبعثوا الحكماء من أهل الزوجين إن خافوا حدوث الشقاق بينهما وما الى ذلك من الحلول التي تخفّف من ظاهرة الطلاق ، لا أن يُلغي النص الالهي ، ويستبدله برأي ونص من عند نفسه لكي يُعاقب به الذين يسارعون في الطلاق.

٢ . ان المجتمع الذي يتساهل في أمر الطلاق ، ويندفع الى إشاعته بين أوساطه ، لا ينبغي أن يُعاقب بتسهيل عملية الطلاق والترويج له شرعياً ، لأن هذه الخطوة الفوضوية ستشيع حالة الطلاق بصورة أكثر بحيث يصبح متداولاً حتى في

الاوساط التي تتجنّبه قد الامكان ، لأن إطلاق لفظة الطلاق إنما تتم في الغالب بصورة إنفعالية فُجائية ، ولذلك أمر الله تعالى أن يكون الطلاق رجعياً ، مرتين ثم يأتي الحل الأخير وهو الطلاق الدائم ، أما إذا سمح الشارع المقدّس بأن تكون لفظة الطلاق الثلاث ، طلاقاً بائناً بلفظة واحدة ، فلا يتوافر هناك مجال للندم والمراجعة وهكذا كان الأمر ، فالناس لم يكونوا قد امتثلوا للنص الجديد الذي فرضه عمر على المسلمين ، إذ أصبحوا يحلّلون المُبانة لمطلقها بالثلاث ، بدلاً بدلاً من التحريم كما أراد عمر ، ونستغرب هنا كيف ان الحالة التي رآها عمر في عهده قد انتفت بحيث ان ابن تيمية يتمنى لو ان عمر بن الخطاب قد تراجع عن فتواه بعد ان عبث المسلمون بأمر الطلاق؟

٣ . لا يحق لأي مسلم مهما كانت منزلته الدينية والعلمية ، أن يتجاوز النص الالهي متعلّلاً بتساهل المجتمع في تطبيقه ، أو لا يراعيه حق رعايته ، فيسارع الى ابتداع نص من عنده ، ليردع الناس من خلاله ، وإلا لو فسح المجال للعلماء في ابتداع النصوص الموضوعة مقابل النصوص الالهية ، فسيكون من حقهم ان يحرّموا الزواج مثلاً ، لأن مشاكل كثيرة

تحدث بين الازواج والزوجات ، بحيث تكون حياهم الزوجية ، بدلاً من ان تتخلّلها المودة والرحمة ، تتحول الى حياة لا تطاق.

ولاشك ان العيْب لا يكمن في النص الشرعي ، وانما في سوء استخدام النص أو الحكم الشرعي القطعي كما يريده الله تعالى ، ولذا فإن حلولاً وضعها الشرع في حال استفحال المشاكل الزوجية ، لا ان يُلغى الزواج لحل المشكلة.

وعليه فإن الخليفة الثاني كان مخطئاً في خطوته تلك التي تنبّه لها أمثال ابن قيم الجوزية وأستاذه ابن تيمية ، وخشيا أن يتّهما الخليفة عمر وهو المقدّس لديهما ، فحاولا تبرير فعلته اللامشروعة بمختلف الذرائع الواهية.

الخليفة الثاني ... بين العلم والفقاهة

هل كان عمر بن الخطاب عالماً بالسُنّة والأحكام الشرعية ... مُحدَّثاً ... مكلّماً ... مفتياً ، كما يعتقد أهل السُنّة ويشيعون عنه ، أم أنّه كان يجهل في أكثر الاحيان ولا يعلم من المسائل الدينية حتى البسيط منها؟ سنحاول هنا التحقق من صحة ادعاءات أصحاب المدرسة السُنّية حول خبرة الخليفة عمر القرآنية والعلمية والفقهية ، ومدى تبحّره في الاحكام الشرعية.

يستوقفنا في هذا المجال ، ردّ فعل عمر من وفاة الرسول ، فقد اتخذ موقفاً سلبياً للغاية من الأنباء التي تحدّثت عن موته صلىاللهعليهوآله ، إذ هدّد القائلين بوفاة رسول الله بضرب رؤوسهم بسيفه ، لأنه صلى الله عليه وآله لم يمت وانما ذهب الى السماء ، وعندما قرأ عليه أبو بكر ، الآية القرآنية : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) ... ١ (

،تراجع عمر عن قوله وتهديداته) ٢ .(كيف . يا تُرى . غاب عن عمر أن الرسول يموت كغيره من الرّسل والانبياء ، بل والناس أجمعين ، كما أن الآيات القرآنية صريحة في هذا الشأن ، كقوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) ٣.(

والمُستغرب ان المسلمين من أهل المدينة وغيرهم ، لم ينكروا خبر وفاة الرسول لأنه إنسان ، ومن الطبيعي أن تنطبق عليه السنن الالهية والطبيعية كغيره من بني آدم ، كما ان القرآن الكريم أخبرهم بذلك ، والرسول نفسه قد أوصى مراراً بأنه سيموت ، وكان

آخرها في حجة الوداع حيث قال للحجيج» : إني بشر أوشك ان يأتي رسول ربي فأجيب ، «أفيجهل عمر كل هذه الأمور البديهية؟ في حين مرّ خبر وفاة الرسول على الأمّة ، بشكل طبيعي ، إذ صدّقه كل المسلمين آنذاك بإستثناء عمر بن الخطاب.

إما ادعاء عمر فيما بعد بأن الذي حمله على تكذيب خبر وفاة الرسول ، انه كان يقرأ الآية : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ... ١ ، (اذ كان يظن ان رسول سيبقى في أمّته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها)٢ .(إن مثل هذا الادعاء ، يفتقر للصدقية ، ولا يصمد أمام الحقائق الناصعة في هذه القضية ، لأن الرسول سيشهد على أمّته يوم القيامة بما عملت ، وهل حققت وحفظت الأمانة التي أودعها فيها أم خانتها؟ وليس هناك من داعٍ ليبقى الرسول آلاف السنين لكي يحقق شهادته على الأمّة!!

ومن الأمور الدينية والشرعية التي خاض فيها عمر بن الخطاب وتبيّن جهله فيها ، مسألة التيمم في حالة عدم وجود ماء ، حيث ان القرآن الكريم حَسَم المسألة في قوله تعالى : وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) .النساء ٤٣(

والآية القرآنية الأخرى ، هي : فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) المائدة ٦.(

وكما نعلم فإن مدلول الآيات الكريمة ، واضح جداً ولا يحتاج الى تفسير أو توضيح ، ولكن الخليفة عمراً ، أفتى بعكس مضمون الآيات ، وأعلن حكماً شرعياً يتعارض مع النص الذي تتضمنه الآيات المباركة ، إذ أسقط الفريضة عند فقد الماء ، وهي التيمم الى أن يتوافر الماء ، ويبدو من حيثيات فتوى عمر انه أمر الصحابة بالتمسّك بفتواه وإنْ كانت تُعارض القرآن الكريم ، وما جرت عليه السُنّة النبوية .فمن خلال الحوار الذي جرى بين الصحابي أبي موسى الاشعري وابن مسعود ، يتضح ان الصحابة كانوا يَخشون اعتراض الخليفة عمر أو نقده في هذه الأمور ، فعندما سأل أبو موسى

الاشعري ، ابن مسعود عن حكم المُجنب الذي لا يجد ماءً ، فقال له ابن مسعود بانه لا يصلي حتى يجد الماء ، فذكّر أبو موسى ، ابن مسعود ، أمر النبي لعمار بالتيمم في قضية معروفة حكاها له ، فأجاب ابن مسعود بأن عمر لم يقتنع بذلك) ١ ، (يعني انه بالرغم من حكم النبي القاطع في هذه المسألة الشرعية إلا أن عمر بن الخطاب تمادى في مخالفته له بحيث ان الكثير من المتحلّقين حوله ، قد خشوا أن يخالفوا رأيه في هذه المسألة ، واختاروا المضي في الالتزام بأوامره في هذا المجال ، بالرغم من عدم إقتناعهم بذلك.

وعموماً كان الخليفة عمر بن الخطاب ، يجهل أكثر المسائل التي تُطرح عليه ، فيستنجد بالآخرين لحل المعضلات التي كانت تواجهه ، فقد حظر على الصحابة المجتهدين في المدينة أن يغادروها ، ليستشيرهم في المسائل المعضلة ، وفي الأحكام ، فكوّن منهم لجنة للفتوى) ٢.(

وكان عمر إن أعياه أن يجد في القرآن والسُنّة ، حلا لمشكلة ما . بالطبع حسب

إطلاعه على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . نَظَر الى أقضية أبي بكر ، وإلا دعا الصحابة ورؤوس الناس ، فإذا أجمعوا على أمر ، قضى به) ١.(

كما كان عمر يدعو ابن عباس للمسائل المعضلة التي تواجهه ، فضلاً عن شيوخ المهاجرين والانصار) ٢.(

وهكذا لم يكن عمر بن الخطاب ، من الفقهاء أبداً وانما يعتمد على الآخرين ، في ايجاد الحلول للمشاكل والمعضلات التي كثيراً ما تواجهه وهو الخليفة الذي يتوقّع المسلمون أن يكون المرْجع لكل الأمور الدينية والدنيوية.

في هذا ا لمجال ، قال النبي صلى الله عليه وآله مرّة ليس لعمر بن الخطاب فقه) ٣ ، (وعمر نفسه يقول لرعيته بأنه لعلّه ينهاهم عن أمور تصلح لهم ، ويأمرهم بأمور لا تصلح لهم) ٤.(

ولنأخذ مثلاً ، قضية ميراث الجد ، فعمر يقول بأنه يقضي في الحد برأيه) ٥ ، (اي لم يكن يفقه في هذه المسألة شيئاً ، وليس له أي مقدرة على استنباط الحكم من الكتاب والسُنّة ، بل ربما لم يطّلع على الآيات والاحاديث النبوية الواردة في هذه القضية أصلاً.

فعمر بن الخطاب سأل النبي صلى الله عليه وآله عن ميراث الجد مع الأخوة ، فقال له : ما سؤالك عن هذا يا عمر؟ إني أظنك تموت قبل أن تعلمه ، وقال راوي الحديث . سعيد بن المسيب : فمات عمر قبل أن يعلمه) ٦.(

ويقرّ الخليفة عمر بانه قضى في الجد قضايا ، ثم رجع في هذه المعضلة الى زيد بن ثابت) ١ ، (وقد كان عمر قد أفتى في ميراث الجد ، مئة فتوى مختلفة) ٢.(

ولاريب ان عمر بن الخطاب من خلال الحقائق المذكورة آنفاً ، لم يستوعب حكم إرث الجد بالرغم من إجابة النبي له ، وظلّ جاهلاً بالحكم ، ويقضي فيه بأقضية كثيرة متفاوتة ، تُعدّ بالعشرات إلى أن استقرّ على قضاء زيد بن ثابت .وهنا يثبت الخليفة عمر بأنه كان جاهلاً بهذا الحكم ، من عصر النبي صلى الله عليه وآله وحتى وفاته ، كما يتضح من مسلسل الحوادث التي وقعت في تلك الفترة.

وعلى هذا المنوال ، جاء رجلان الى عمر ، وسألاه عن طلاق الأمَة ، فأفحم عمر ولم يحْرِ جواباً ، ثم ذهبا الى علي وسألاه فقال : إثنتان ، فالتفت عمر إليهما وقال : إثنتان ، فقال أحدهما لعمر : بأنهما جاءا اليه وهو أمير المؤمنين ، فسألاه عن طلاق الأمَة ، ولكنه انصرف الى رجل فسأله عن الجواب) ٣.(

ولقد سُئل ابن عباس عن رجل توفي وترك ابنته وأخته لأبيه وأمه ، فأجاب بأنه ليس لأخته شيء من الارث ، والبنت تأخذ النصف فرضاً وبالباقي تأخذه رداً ، فقال السائل له بأن عمر قضاها بغير ذلك ، فقال له ابن عباس : أأنتم أعلم أم الله؟

وقال ابن عباس أيضاً : إن الله تعالى قال : إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) ٤ (وقلتم أنتم : لها نصف ما ترك وإن كان له ولد) ٥.(

وما يجدر ان الآية القرآنية : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ) ١ (صريحة في اشتراك التوارث بين الأخوة والأخوات ان لا يكون للموروث منهم ولد ، والنبت ولد في اللغة العربية والعُرف ، ومعاجم اللغة تشهد بذلك .وحسبنا قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) ٢ ... (وكان بعض العرب يبشّر بولادة بنت له ، فيقول : والله ما هي بنعْمَ الولد.

لكن عمر بن الخطاب حمل الولد في الآية المذكورة على الذكر خاصة ، فساوى في الميراث بين بنت الميت ، وأخته لأبيه وأمه ، فخصّ لكل منها النصف مما ترك ، وتبعته في ذلك المذاهب السُنّية كافة ، مع ان الخليفة الثاني خالف الآية القرآنية بصراحة تامة ، جاهلاً أو متجاهلاً معناها الجلي.

وخطب عمر يوماً ، فقال ان من غالى في مهر ابنته ، فإنه يجعل فضل ذلك في بيت المال ، فقامت اليه إمرأة وقالت له : كيف تمنعنا ما منحنا الله تعالى به في كتابه ، في قوله تعالى : وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا) ٣ ، (فأجابها عرم : كل الناس أفقه من عمر حتى المخدّرات في البيوت) ٤ ، (ثم رجع الى المنبر ، وقال للناس : إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق ، ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له ، ثم قال لأصحابه : تسمعوني أقول هذا

القول فلا تنكرونه عليّ حتى تردّ عليّ إمرأة ، ليست من أعلم النساء) ١.(

وهنا كان عمر كعادته ، جاهلاً بالآية الكريمة ، وحينما أفحمته إمرأة ، تراجع عن فتواه ، واعترف بأن الناس كلهم أفقه منه حتى النساء ، ووبّخ الصحابة لأنهم لم ينبهوه على خطأه الى أن جاءت إمرأة وصحّحت له معلوماته.

ورواية أخرى تشير الى تفاوت أحكام الخليفة عمر ، نصّت على ان امرأة ماتت وخلّفت زوجاً وأمّاً .وأخوين لأمها دون أبيها ، وأخوين لأمها وأبيها معاً ، فأفتى في المرة الأولى ، باعطاء زوجها حقه وه والنصف ، وإعطاء أمها حقها ، وهو السدس ، وإعطاء أخويها لأمها خاصة الثلث لكل منهما السدس من المال ، وأسقط الحق عن اخويها الشقيقين.

وفي المرة الثانية ، أراد عمر أن يقضي بذلك أيضاً ، فقال له أحد الشقيقين : هبْ ان أبانا كان حماراً ، فأشركنا في قرابة أمّنا ، فأشرك بينهم بتوزيع الثلث على الاخوة الاربعة بالسواء ، فقال له رجل : انك لم تشركهما عام كذا ، فقال عمر : تلك على ما قضينا يومئذ ، وهذه على ما قضينا الآن) ٢.(

ان حيثيات هذه المسألة الارثية ، وتعاطي الخليفة عمر معها ، تدلّ على جهل عمر المطلق بالحكم الشرعي ، وانه حَكَم في قضيتين متطابقتين ، بحكمين مختلفين تماماً ، وذلك بإعمال رأيه في هذه المسألة الشرعية ، وإن ظلماً فاحشاً أصاب الشقيقين في الحالة الأولى نتيجة هوى عمر وجهله.

وذات يوم ، تحيّر عمر في حكم الشك في الصلاة ، فسأل غلاماً بأنه هل سمع من

رسول الله أو من أحد من أصحابه ، اذا شك الرجل في صلاته ماذا يصنع؟) ١.(

والصلاة كما يشهد الكل ، عمود الدين ، وهي على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وكانوا يقيمونها خمس مرّات في اليوم مع رسول الله ، وحتماً كان عمر بن الخطاب يقيمها جماعة معه صلى الله عليه وآله في المسجد النبوي الشريف ، ألم يشكّ عمر في الصلاة آنذاك أو غيره من الصحابة؟ أم ان شكّ عمر في صلاته قد حدث أول مرّة في حياته أيام خلافته ، فسأل الغلام عن الشكّ ، وهل سمع من رسول الله شيئاً عن شكوك الصلاة؟ انه لغز محيّر بحاجة الى حل وتفسير ، وإذا كان أمير المؤمنين عمر يجهل شكوك الصلاة ، والمؤمنون يتبعونه في كل الأمور ، فكيف هو حال المؤمنين أنفسهم؟ وكيف يجهل الأمير ، فيسأل أتباعه الذين هو أميرهم؟

وفَقَد عمر ـ مرّة ـ أحد أصحابه ، فانطلق مع عبد الرحمن بن عوف الى منزله ، فوجد الباب مفتوحاً وهو جالس وامرأته تصبّ له في الاناء ، فقال عمر لابن عوف : هذا الذي شغله عنّا ، فقال ابن عوف لعمر : وما يدريك ما في الاناء؟ فقال عمر : أتخاف أن يكون هذا تجسّساً؟ قال : بل هو التجسّس.

قال عمر : وما التوبة من هذا؟ قال ابن عوف : لا تعلمه بما اطّلعت عليه من أمره) ٢.(

وفي حالة مشابهة ، كان عمر يدور في المدينة ـ ليلاً ـ فسمع صوت رجل في أحد البيوت يتغنّى ، فتسور عليه الجدار ، فوجد عنده امرأة وخمراً ، فقال له : يا عدو الله ، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية؟ فقال الرجل لعمر : لا تعجل عليّ ، إنْ أكون

عصيت الله في واحدة ، فقد عصيت الله في ثلاث ، قال الله : ولا تجسّسوا وقد تجسّست ، وقال : وأتوا البيوت من أبوابها ، وقد تسوّرت عليّ ودخلت عليّ بغير اذن ، وقال الله تعالى : لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها .قال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال : نعم ، فعفا عنه وخرج وتركه) ١.(

إن الخليفة عمر ، فَعَل في هذه الحادثة وأمثالها ، أموراً يجهل انها تجسّس على الآخرين ، والغريب ان أحد الرجال المغمورين ، لقَّن لخليفة دروساً في الأخلاق ، وما ينبغي عليه إذا أراد دخول بيوت الآخرين ان يكون كذلك ، وكان يجب أن يكون العكس هو الصحيح.!!

وذات يوم ، سمع عمر بن الخطاب ، رجلاً يقول : اللهم اجعلني من القليل ، فقال له مُستهجناً : ما هذا الدعاء؟ فقال له الرجل : اني سمعت الله يقول : وقليل من عبادي الشكور ، فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل ، فقال عمر : كل الناس أعلم من عمر) ٢.(

وفي هذا المشهد ، يبرز هذا الرجل أكثر ذكاء وفراسة من الخليفة عمر الذي عجز عن استيعاب ما يُومئ دعاء الرجل من معنى إقتبسه من القرآن الكريم ، ولذلك لم يعلّق عمر على جواب الرجل سوى بقوله ان جميع الناس أعلم منه.

وهناك مواقف أخرى تثبت جهل عمر بالكثير من الآيات القرآنية أو فهم مغزاها

)١ (الدر المنثور ـ السيوطي ، ذيل تفسير قوله تعالى وَلَا تَجَسَّسُوا سورة الحجرات ٤٩ : ١٢ ؛كنز العمال ٨٠٨ : ٣ /٨٨٢٧.

)٢ (الدر المنثور ـ السيوطي ، تفسير وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ٢٢٩ : ٥ ؛ الكشاف الزمخشري ، تفسير قوله تعالى وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ سورة سبأ ٣٤ : ١٣.

ومعناها .فمرّة كان عمر يقرأ آية كريمة فوصل الى عبارة ، فاكهة وأبّاً ، فقال : ما الأبّ؟ ثم أ ردف قائلاً : إن هذا ل هو التكلّف فما عليك أن لا تدري ما الأب) ١.(

ولكن عمر لم يكن مصيباً في قوله ، ان البحث عن الأبّ هو من باب التكلّف ، فإن كان يجهل معنى الأبّ ، فعليه أن يسأل الصحابة ومفسّري القرآن لكي يبيّنوا له معنى الأبّ.

وقرر عمر ـ يوماً ـ رجم امرأة حامل اعترفت بالفجور ، فتلقاها علي بن أبي طالب ، فقال : ما بال هذه؟ فقالوا : أمر عمر برجمها .فردّها علي ، وقال لعمر : هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها ، ولعلك انتهرتها وأخفتها ، وقال عمر : قد كان ذلك ، قال علي : أو ما سمعت رسول الله ، قال : لا حدّ على مُعترف بعد بلاء ، انه من قُيد أو حُبس أو تُهدّد فلا إقرار له ، فخلّى عمر سبيلها) ٢ ، (وهمّ الخليفة الثاني برجم امرأة قد ولدت لستة أشهر ، فبلغ ذلك علياً ، فقال له أن لا حدّ عليها ، فخلّى عمر سبيلها ، وقال : لولا علي لهلك عمر) ٣ ، (وفي هذه القضية أقرّ عمر بأنه لولا الصحابي علي بن أبي طالب لهلك ، وهو إقرار بأن علياً ينجيه من المعضلات والمواقف الصعبة والحرجة.

وهناك موقف للخليفة عمر يثبت جهله وإهماله لمطالب بالغة الاهمية ، تتعلق بتطبيق التعاليم القرآنية ، إذْ كان قد ردّ على شكوى الوفد المصري من إهمال أوامر في كتاب الله ، يرون نبأنه لا يُعمل بها ، ردّاً لا ينسجم وموقع الخليفة كأمير للمؤمنين ، إذ بدلاً

من التحقيق في الأمر والتنقيب عن الاسباب التي أدت الى تعطيل العمل بكتاب الله ، وذلك تطبيقاً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حاول عمر تمييع القضية ، وان هؤلاء المحتجين يحاولون تكليف الخليفة فيما لا يطيقه ، وان القرآن الكريم يؤكد ان المهم هو اجتناب الكبائر فحسب ، وان الله يغفر السيئات ، ويدخل المؤمنين مدخلاً كريماً.

ثم قال الخليفة عمر بأنه لو علم أهل المدينة بالأمر لنكّل بهؤلاء الوافدين ليجعلهم عبرة للآخرين) ١.(

ولسنا نعلم ما الداعي للتنكيل بالوفد المصري الذي كان يجب أن يحظى أعضاؤه بالشكر والتكريم على اهتمامهم بالقرآن الكريم وضرورة تطبيق تعاليمه على المجتمع ، بدلاً من عقابهم فيما لو اذاعوا الخبر في أوساط أهل المدينة ، ولماذا التعتيم ـ أصلاً ـ على أمر مهم وهو الاستخفاف بالاوامر القرآنية؟ ثم من قال بأن هذه الأمور المعطّلة من كتاب الله ، لا تتعلق بالكبائر التي أشارت إليها الآية القرآنية التي استشهد بها الخليفة؟ ثم أليس الخليفة وأمير المؤمنين مُؤتَمناً على

الدين وهو الخليفة الراشد الثاني؟ فكيف يعالج مثل هذه الأمور بالتواني والتهرّب من مواجهة المشكلة وتمييعها بالشكل الذي جرى مع الوفد المصري؟ أما كان على عمر أن يستشير ـ كما هي عادته ـ الصحابة من حوله لاستكشاف الحل المناسب؟

عمر ومنع التحدّث بالسُنّة النبوية أو كتابتها

الحديث النبوي ، أفضل ما ترك الرسول صلى الله عليه وآله فضلاً عن القرآن الكريم ، بعد رحيله الى البارئ الأعلى ، والقرآن الكريم كما هو معروف ، نزل في أكثر آياته مجملاً غير مفصّل ، وهو بحاجة الى شرح وتفسير وتأويل حتى يتمكّن المسلمون من فهمه

الدقيق ، واستيعاب معانيه وأبعاده التشريعية والدينية وكل المتطلبات الانسانية.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم : لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ١.(

ورسول الله نفسه يؤكد للمسلمين بأن» : جئتكم بالقرآن ومثليه ... «ويقول : في حديث مشهور عند اهل السُنّة : »تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ، كتاب الله وسُنّتي «وعليه ، فينبغي أن تكون السُنّة النبوية ، متداولة بين المسلمين ، والكل يطّلع عليها حتى يعرف مسؤوليته الشرعية في الحياة ، والحديث النبوي في حدّ ذاته ، حُجة على الأمة ، ويجب عليها الإمتثال لأوامر الشريعة ونواهيها وواجباتها بكل دقة ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت السُنّة النبوية مدوَّنة حتى لا ينساها حَفَظَتها بمرور الزمن ، كما ينبغي على أبناء الأمّة تَداول الحديث النبوي فيما بينهم كل يتعايشوا معه ، ويملأ نفوسهم بالحكمة والموعظة ، ويطبّقونه في سلوكهم وممارساتهم الحياتية الدقيقة على أساس شرعي متين . فالمسؤولية في تطبيق الشرع المقدس تقع على جميع المسلمين من خلال الاستلهام من القرآن والسُنّة معاً.

فبالنسبة لكتابة وتدوين الحديث النبوي ، منع الخليفة الثاني تدوين الحديث ، لأنه لا ينبغي أن يُكتب كتاب مع كتاب الله ومن كان عنده شيء من أحاديث الرسول فليمحه) ٢ .(ويقصد عمر بالكتاب ، تدوين الحديث النبوي بعد أن كان محفوظاً في صدور الرجال والحَفَظَة من الصحابة ، وقال عمر أيضاً بأنه لا يُلبس كتاب الله بشيء أبداً) ٣ (أي بكتابة وتدوين الحديث النبوي.

ومع ذلك فقد بدا لعمر بن الخطاب ـ فجأة ـ أن يدوّن السُنّة النبوية ، فاستفتى أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك ، فاستشارهم فأشاروا عليه بكتابتها ، لكنه قال بأنه كان يريد كتابة السُنّة ، وتذكّر قوماً من أهل الكتاب ، كتبوا كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانه أقسم أن لا يشوب كتاب الله بشيء أبداً) ١ ، (ثم ان الخليفة الثاني أمر رعاياه في الأمصار بأن من كان عنده شيء من الحديث فليمحه) ٢ ، (وكان أمره بالمنع متشدّداً لا يقبل التساهل.

والخطوة الثانية التي أقدم عليها عمر ، هي أن أمر الناس بإتيانه بالاحاديث المدوّنة لديهم ، فأمر بحرقها ، وذلك حينما علم بأن الاحاديث قد كثرت في عهده ، قائلاً : مثناة كمثناة أهل الكتاب ، ... فإستجاب الناس وامتنعوا عن كتابة الاحاديث النبوية) ٣ ، (وذلك لأن الأوامر كانت حاسمة في المنع.

وكان عمر في تبريره للمنع حسب رأيه ان تدوين الحديث النبوي يؤدي الى تحقيق أمنية أهل الكتاب ، وكلمة مثناة أو مشناة ، انما هو مصطلح يهودي عبّروا به عن التوراة المبدّلة المحرّفة) ٤ .(

ويعني الخليفة الثاني بأن تدوين الحديث النبوي سيُسهم في تحريف وتشويه القرآن الكريم من خلال الخلط والمزج بني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وان الاحاديث النبوية ربما تتسلل الى كتاب الله من حيث لا يعلم المسلمون ، وسيصبح القرآن محرّفاً على أثر ذلك كما حدث لكتب أهل الكتاب.

مع ان اليهود مثلاً ، لديهم التوراة التي حُرّفت من قبل رجال دينهم بما تشتهي أنفسهم ، أما التلمود فهو عبارة عن مجموعة نصائح ووصايا النبي موسى عليهالسلام وليس فيه من التوراة شيء ، وأما الانجيل فقصته تختلف عن التوراة ، إذ ان هناك ـ كما هو مشهور ـ أربعة أناجيل ، دوّنتها مجموعة من) حواري (أتباع السيد المسيح بعد صعوده الى السماء بأربعين عاماً ، كُل حسب ذوقه ورؤيته ، ولذلك فهي تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً وتسمّى باللاهوت ، فيما كان الفقه المسيحي مدوّناً بصورة منفصلة ويُسمّى عند النصارى بالناسوت.

ولسنا نعلم ، ما العلاقة بين تدوين السُنّة النبوية والقرآن الكريم ، الذي صانه الله من الضياع والتحريف ، وهو المدوّن والمجموع في عهد الرسول كما يشهد المؤرخون؟

فلماذا الخوف إذاً؟ ولِمَ أشار الصحابة على عمر بتدوين الحديث؟ ولم يخشوا على القرآن الكريم من التحريف كما خشي عمر؟ خاصة وان الكثير منهم جمعوا القرآن بأيديهم ، ومنهم العديد من حفّاظ القرآن الكريم ، ويدركون بأن تدوين الحديث ال نبوي هو الخطوة الصحيحة التي تحول دون ضياع الحديث واندثاره ، وخاصة ان الحفّاظ ربما ينسون الحديث المحفوظ في صدورهم بمرور الزمن ، وهم معرّضون للكبر والشيخوخة والخَرَف والموت أيضاً.

ولم يقتصر الخليفة الثاني على منع تدوين الحديث بل وأمر بعدم التحدّث بحديث رسول الله أيضاً ، والتقليل منه قدر الامكان.

فقد دعا عمر الى إقلال الرواية عن رسول الله ، عمّا لا يفيد حُكماً ولا سُنّة ، إلا فيما يُعمل به ، أي السُنّة العملية)١ .(ومن الغريب أن يمنع عمر التحدث بالحديث النبوي

باستثناء السُنّة العملية ، فهل من المعقول قد أدلى النبي بأحاديث كثيرة في مجالات متنوعة عبثاً ولا تفيد المسلمين؟ أم كل أحاديثه ذات فائدة عظيمة ، ولابد من الاستفادة منها ، فلماذا يُحرَم المسلمون من أريجها الفواح؟

ثم إذا خشي الخليفة الثاني من الكذب على رسول الله ، فإن الذين يكذّبون على الرسول من الرواة ، لا يفرّقون بين أحاديث الاحكام الشرعية والفرائض الواجبة ، وبين احاديث الفضائل والأخلاق والتربية ، بل ربما كان المنافقون والمندسون من أهل الكتاب ، يحبّذون تحريف أحاديث العقائد والتشريعات الاسلامية المتضمنة للأحكام والفرائض على الأحاديث الأخرى ، بغية بث الاختلاف والفرقة بين المسلمين؟ ثم إذا كان ال صحابة كلهم عدولاً كما يزعم أهل السُنّة والجماعة ، فلِمَ اتخذ عمر بن الخطاب موقفاً حذراً منهم ، وأمرهم بالاقلال من الحديث النبوي.

ولم يقف الخليفة الثاني عند هذا الحدّ في منع انتشار الحديث النبوي ، بل أمر الذين يغادرون المدينة الى الأمصار ، بالتقليل من التحدث عن رسول الله حتى لا يعيقون أو يشوشون على الذين يتلون القرآن الكريم ولهم دوي كدويّ النحل ، ثم أمر هؤلاء الصحابة بالعودة الى المدينة ، وحبسهم فيها حتى مات .وهؤلاء الصحابة ليسوا من الصحابة العاديين ، وانما هم من كبار الصحابة وأجلّتهم ، كابن مسعود وأبي مسعود الانصاري وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأبي ذر الغفاري وغيرهم ، وهؤلاء الصحابة الادلّاء ، هم الذين سجنهم عمر في المدينة لأنهم يكثرون الحديث عن رسول الله) ١.(

وهنا نتساءل:

١ . هؤلاء الصحابة كانوا من الملازمين للنبي صلى الله عليه وآله والمقرّبين إليه ، ولابد انهم

سمعوا منه صلى الله عليه وآله الكثير من الحديث الشريف ، ولم يسمعوا منه صلى الله عليه وآله ، أمراً بمنع تدين او التحدّث بالحديث الذي كان يدلي به ، والا لامتنعوا قبل غيرهم ، فلماذا يتم منعهم من التحدّث بالسُنّة النبوية؟

وإذا حُرِم المسلمون في الاصقاع البعيدة من الاستفادة من هؤلاء الصحابة المقرّبين الذين كانوا ملازمين لرسول الله ، وسمعوا الكثير من حديثه ، فعلى من يعتمد المسلمون للتزوّد بالسُنّة النبوية التي هي المصدر الثاني للأحكام والشرائع الدينية؟ وهل كان عمر ابن الخطاب أعلم من هؤلاء بالسُنّة النبوية ، وهو الذي طالما كان يجهل النصوص الشرعية باعترافه هو نفسه ، وان الناس أفقه منه حتى ربات الحجال .بل ان بعض الصحابة يتّهمه بأنه كان يشغله التسكع في الأسواق.

٢ . ان سجن هؤلاء الصحابة الكبار في المدينة ، ومنعهم من التحدّث بالسُنّة النبوية ، تشكيك بهم وتكذيب لهم ، وإنهم في إكثارهم للحديث النبوي ، يتعدّون الصدق والأمانة في النقل بحيث يضعون الحديث من عند أنفسهم

ويلصقونه بالنبي صلى الله عليه وآله او يحرّفونه على الاقل ، واذا كان هذا هو حالهم ، فكيف ينسجم موقف عمر هذا من الصحابة ، والقاعدة السُنّية التي تسبغ العدالة المطلقة على كل الصحابة وانهم لا يكذّبون على الرسول بتاتاً.

٣ . عندما كان الخليفة عمر يبعث بالولاة والعمال الى الأقطار والولايات والامصار ، يأمرهم بالتقليل من الحديث النبوي ما استطاعوا وان عليهم الاكتفاء بالقرآن الكريم دون أن يضع لهم ضوابط في ذلك) ١ (مع العلم ان رسول الله طالما وعظ ونهى عن أشياء مثل القرآن أو أكثر ، وحذّر من الذين

يقولون للمسلمين بأن عليهم بالقرآن فحسب ليحلّوا حلاله ويحرّموا حرامه ، وان ما وجدوا في كتاب هالله اتبعوه.

وطبق قول رسول الله فإن خلّف حديثاً كثيراً ، فلماذا يُمنع المسلمون من تداوله ، بحيث يبقى القرآن الكريم وحيداً منفرداً ، يحلّلون حلاله ويحرّمون حرامه دون الرجوع الى السُنّة النبوية ومعرفة التفاصيل والشرح المفصَّل للمجمل من القرآن.

فكيف والحال هذه ، سيطبّق المسلمون ، الشرع على أنفسهم وهو في الكتاب العزيز مُجمل ، والمفروض الاعتماد على السُنّة النبوية لكي تصبح المسائل والمشاكل الشرعية واضحة للمكلَّفين؟

والغريب ان الخليفة الثاني لم يستثنِ حتى الصحابي» أبي هريرة ، «المعروف ـ عند أهل السُنّة ـ بأنه من أبرز نَقَلة الحديث النبوي ، لمواهبه وذكائه الخارق ، وقدرته الفائقة على الحفظ ، ومع ذلك فقد منعه الخليفة عمر بن الخطاب منعاً باتاً من التحدّث بالحديث النبوي ، وتهدده بالضرب والنفي إذا حدّث عن الرسول صلى الله عليه وآله شيئاً ، وحذّره اذا لم يترك الحديث عن رسول الله فسوف يلحقه بأرض قومه) ١ .(وكان» أبو هريرة «يؤكّد بأنه لم يستطع التحدّث بالسُنّة النبوية حتى مات الخليفة الثاني) ٢ .(

وبعد رحيل عمر بن الخطاب ، أطلق» أبو هريرة «العنان للحديث دون رقيب ، قائلاً بأنه لو حدّث بهذه الأحاديث في زمن عمر لأوجعه ضرباً) ٣ .(

وعندما تصدّى الخليفة عثمان بن عفان لسدة الحكم بعد وفاة الخليفة عمر بن

الخطاب ، أطلق سراح الصحابة الذين حجزهم عمر في المدينة) ١ .(وهنا نتساءل مرّة أخرى ، إذا كان هؤلاء الصحابة الكبار ومن ضمنهم» أبو هريرة «قد منعهم عمر من التحدّث عن رسول الله وشدّد النطاق عليهم ، ومنعهم من السفر الى الأقاليم الاسلامية الأخرى حتى لا يتحدثون بأحاديث عن رسول الله ، ربما يشوبها الكذب وعدم الصحة ، فلماذا أطلقهم الخليفة عثمان؟ ليسيحوا في الارض ويتحدثوا كما يشتهون؟

ولاشك ان مخاوف عمر لم تتبدد في موته أبداً سوى ان سوطه الذي كان يخشاه» أبو هريرة «وأمثاله في زمن عمر قد زال مع موت الخليفة ، وأخذ يتحدث كيفما يهوى ويشاء في عهد عثمان ، مما يدلّ على تساهل الخليفة الثالث ، فهل كان الخليفة الثاني خاطئاً في تشديده وتضييقه على الصحابة ، أم الخطأ كان من جانب الخليفة عثمان؟

وأخيراً فإن قصد الخليفة عمر كما يبدو ، منع تدوين الحديث النبوي والتحدّث به ، لا الاقلال منه فقط ، وهو ما نستشفه من قوله الحاسم» : لا كتاب مع كتاب الله ، «وقوله» : ان من كتب حديثاً فليمحه ، «أو قوله : بأنكم لتأتون بلدة لأهلها دوي كدوي النحل فلا تصدّوهم بالاحاديث عن رسول الله لتشغلوهم) ٢ .(فالخليفة الثاني انما يقصد هنا ، منع الحديث النبوي ككل من سريانه في المجتمع الاسلامي ، وأن لا يحق لأحد أن يدوّن حديثاً الى جانب القرآن الكريم.

ونحن نعجب ممن يدّعي بأن عمر كان شديداً على مَنْ أكثر الرواية ، أو أ ن يأتي بخبر في الحكم لا شاهد عليه ، ولذلك كان يأمرهم بأن يقلّوا الرواية ، ويريد بذلك أن لا يتسع الناس فيها ، ويدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق

والفاجر والاعرابي) ١.(

فأولاً : ان الذين كانوا يُحدّثون عن رسول الله ، أكثرهم من أكابر الصحابة الذين لم يشهد عليهم أحد بالكذب أو شهادة الزور ، مثل عبد الله ابن مسعود وأبو ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان ، وأبو مسعود الانصاري وأبو الدرداء وغيرهم ، فلماذا لم يستدعهم الخليفة الثاني ليدوّنوا الحديث النبوي في صحف محدّدة ، ولَما ينقضي على موت الرسول سوى سنين معدودة ، سنتين ونيف أو ثلاث سنوات ، وبالتالي ، يزول الخوف من الكذب على الرسول ، أو الخشية من اختلاط القرآن بالحديث النبوي؟

وثانياً : ما الفرق بين الإكثار أو الإقلال من الحديث النبوي ، مادام الصحابة قد حفظوا السُنّة النبوية؟ فبعض الصحابة قد أثروا من الحديث لكونهم أقرب الى رسول الله وأثر التصاقاً به ، بينما هناك صحابة أقلّوا الحديث عنه صلى الله عليه وآله لقلّة الملازمة له ، ماداموا كلهم صحابة ولا يكذّبون على الرسول لكونهم بأجمعهم عدولاً ، وانه صلى الله عليه وآله قد أوصى بأصحابه خيراً ، وان على المسلمين أن يأخذوا سُنّته منهم ، لأنهم ثقة عدولٌ لا يحق لأحد أن يشكّك فيهم أو في سلوكهم وأعمالهم وأقوالهم؟ كما هو متوافر في الكثير من الأحاديث المنقولة عن رسول الله ، والمختصة بالصحابة الكرام.

عمر والخوف من المصير

من الامور التي يتوقف عندها المرء ويستغرب منها كثيراً ، خشية الخليفة الثاني عمر من الموت ، وما ينتظره في الحياة الآخرة ، وندمه على حياته وتمنّيه بأنه لو كان كبشاً لأهله

لِيُذبح ويُؤكل ، ولم يكن بشراً) ١ ، (وانه أقسم وقت موته بأن لو كان له ما طلعت عليه الشمس لافتدى من هول المطّلع) ٢.(

ومما يثير الاستغراب ، خشية عمر من الموت وانه يتمنى لم يكن بشراً ، وهو الذي كان محدَّثاً ، وكثيراً ما تنزل الآيات القرآنية موافقة لآرائه واقتراحاته وأقواله ، وانه بالمنزلة الكبرى ، والمكانة العظمى التي يحلم بها كل مسلم ، وهو الخليفة الراشد الذي تتحدّث به الركبان .. فلماذا هذا الخوف والرعب من المصير؟ مع وجود الكثير الكثير من الأحاديث النبوية التي تتحدث عن فضائل عمر ومناقبه ومكانته عند الله ورسوله؟ فلماذا إذاً يتمنى لو لم يكن بشراً .. أو يخشى من سوء العاقبة؟

الخليفة الثاني ولقب الفاروق

ما حقيقة اللقب الذي يحمله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، والمعروف بالفاروق؟ والذي يستند أهل السُنّة والجماعة فيه الى حديث منسوب الى رسول الله ، يُفيد بأن تسمية النبي صلى الله عليه وآله لعمر بالفاروق جاء تلبية لتأكيد جبرئيل بأن عمر بن الخطاب فرّق بين الحق والباطل) ٣.(

وبعد التحرّي في كتب التأريخ لمعرفة صدقية هذا الادعاء ، توصلنا إلى ان تلقيب الخليفة الثاني بالفاروق لم يتم من قبل جبرئيل والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وانما اهل الكتاب هم الذين أول من لقّبوا عمر بالفاروق ، وكان المسلمون يؤثرون ذلك من قولهم ، ولم

يعرف ان رسول الله ذكر من ذلك شيئاً) ١.(

ولم يبلغ ان ابن عمر قد قال ذلك لأبيه فيما يذكر من مناقب عمر الصالحة.

ويؤكد الطبري ان الذي سمّى الخليفة الثاني بالفاروق هو كعب الأحبار نفسه) ٢.(

ويذكر آخرون بأن تسمية رسول الله لعمر بالفاروق أثبت كذبها.

هذه هي حقيقة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كما يرويها التأريخ النزيه ، غير الملوّث بأكاذيب وافتراءات الوضّاعين ومؤرخي السلاطين.

الخليفة الثالث والحقيقة ال مرّة

هل صحيح أن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ، كان خليفة عادلاً ، ليّناً ، مُحبّاً لأقاربه ، واصلاً لهم ، مطبّقاً لسُنّة الله ورسوله ، فأثار هذا النهج الرحيم ، حقد الغوغاء الجاحدين من الرعية في العراق ومصر ، فأقدموا على حصار الخليفة في المدينة وقتله غيلة ، فإستشرت الفتنة وأدّت الى نشوب الحروب بين المسلمين.

وهل كان الخليفة عثمان ، مواضباً على الهدي النبوي ، لا يحيد عنه أبداً ، وكان يُدعى ذا النورين الذي تستحي منه الملائكة ، وعاش محبّاً لذوي رحمه ، مقرّباً إياهم ، مُنعماً عليهم مما أثار استياء الناقمين الذين لم يرُق لهم هذا التصرّف النابع من أخلاقية أسرية رفيعة ، فثاروا عليه ، وتقاطروا وهو يقرأ القرآن ، فقُتل وسُمّي الخليفة المظلوم.

هذا مختصر الإنطباع السطحي عن سيرة الخليفة عثمان بن عفان ، قبل التعمّق بالبحث والتوغل في الاسباب التي أدّت الى مقتله ، وهو الصحابي الكبير والخليفة الراشد المعروف بالعطف والرعاية لذوي الارحام .ومن حقنا التساؤل ونحن نقلّب صفحات التأريخ : هل قُتل الرجل نتيجة مؤامرة دُبّرت بليل أم هناك تداعيات وإرهاصات أفضت الى مقتله؟

ولم يَطُلْ البحث بنا حتى عثرنا على الاسباب والعوامل التي مهّدت للثورة على الخليفة الثالث ، وانتهت بالإجهاز عليه ، وهو مُحاصر في بيت الخلافة في عاصمة الرسول صلىاللهعليهوآله.

كما اننا عند التحرّي الدقيق في ثنايا المصادر التأريخية المعتبرة ، اكتشفنا كم كنا واهمين في انطباعاتنا عن الخليفة عثمان ، فقد توصّلنا الى حقائق مذهلة في هذا المجال.

ولم يكن اعتمادنا إلا على مصادر الجمهور الصحيحة والموثّقة والمعتمدة لدى سائر الكتّاب والباحثين والمفكّرين حيث تصبح بمجموعها ، مسلّمات لا يمكن الطعن فيها.

حقائق مذهلة

اشترط الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . وهو في لحظاته الأخيرة . على عثمان لو بويع للخلافة من قبل هيئة الشورى التي عيّنها عمر نفسه ، أن لا يسلّط بني أمية على رقاب المسلمين .هذا الشرط وضعه أحد أبرز أفراد الهيئة ، وهو الصحابي عبد الرحمن بن عوف في حسابه وهو يرشّح عثمان بن عفان للخلافة ، حيث ذكّره بالشرط العمري ، فقبل الشرط ، وقال : نعم.

دام عهد الخليفة الثالث ، اثني عشر عاماً ، أمضى نصفها والمسلمون راضون عنه ، إذ لم يشهد عهده في تلك الفترة ، انحرافاً يُذكر عن السُنّة النبوية ، ولم يوجّه إليه المسلمون ، وخاصة كبار الصحابة ، نقداً شديداً لسيرته وممارساته وأعماله ، إنما بدأ الاعتراض على سلوكه في الإدارة والحكم ، خلال النصف الثاني من عهده حيث انتهى به الى القتل على يد الثائرين.

فماذا فعل الخليفة الثالث حتى لقيَ حتفه بهذه الطريقة المأساوية؟ وهل كان الثوار كلّهم من الغوغاء والعُصاة والمنافقين؟ بل وهل كان عثمان بن عفّان بريئاً في سلوكه ومواقفه السياسية والادارية والأخلاقية بحيث يُعتبر قتله ظلماً وتعدّياً ، وانه بحق الخليفة المظلوم؟

ان واقع الاحداث المتعاقبة ، يكشف بكل وضوح ، ان تقريب وإيثار الخليفة لأقاربه

وذوي رحمه من بني أمية ، يُعدّ السبب والعامل الاكبر لكل ما جرى بعد ذلك من وقائع ساخنة أدّت الى مقتل الخليفة الثالث في دار الخلافة بعد حصار دام أربعين يوماً.

ولا يخفى ان الخليفة عثمان ، قد نكث العهد الذي قطعه بعدم تسليط بني أمية على رقاب الناس حسبما اشترط عليه الخليفة عمر بن الخطاب ، وممثله في هيئة الشورى عبد الرحمن بن عوف.

والرموز الأموية التي اختصّها عثمان من ذوي قرباه ، كان قد طُعن بها من قبل القرآن الكريم وكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله : فالحَكَم عمّ عثمان كان النبي صلى الله عليه وآله قد أمر بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة لسخريته به صلى الله عليه وآله وتجسّسه عليه حينما كان مختلياً باحدى أزواجه ، وحين لم يُقتل نفاه هو وإبنه مروان ، اللذين نعتهما بالوزغ ابن الوزغ ، إلّا ان عثمان قرّبهما وآثرهما وحباهما وأقطعهما أموالاً وممتلكات هائلة من بيت مال المسلمين ، وزوّج مروان من ابنته ، وأصبح وزيره الأعظم الذي بيده الحلّ والعقد ، والحاكم المطلق بلا منازع ، أما أبوه الحكم بن العاص ، فقد غدا النديم العريق للخليفة ، وأفضل سُمَّاره .ولقد اعتبر المسلمون ، وبالأخص الصحابة الكرام .هذه الخطوة من لدن عثمان بن عفان ، استخفافاً منه بالبشير النذير صلىاللهعليهوآله وخيانة له بكل المقاييس.

اما أخوه لأمه الوليد بن عقبة ، فقد ولّاه الكوفة ، بالرغم من نزول القرآن بفسقه وكذبه على النبي صلى الله عليه وآله ، ووهب البصرة لابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز .أما مصر فقد كانت من حصّة أخيه في الرضاعة ، عبد الله بن سرح الذي نزل القرآن بلعنه) ١.(

ووزّع عثمان الأموال على ذوي قرباه بلا حساب ، وأصبح بيت المال نهباً لبني أمية دون سواهم من المسلمين وأهل المدينة الذين عانوا من شظف العيش والعوز فيها

)١ (تفسير الآلوسي ١ : ٣٠٣.

انغمس بنو أمية في بحبوحة من العيش الرغيد ، لم يحلموا بها طيلة حياتهم السابقة.

أما ولاة عثمان من ذوي قرباه وأرحامه ، فقد منحهم صلاحيات مطلقة يعبثون بالرعايا حسب أهوائهم وأمزجتهم الشخصية ، الى درجة ان عامله بالكوفة سعيد بن العاص لم يتورّع من التصريح بأن السواد بستان له ولأقاربه من بني أمية دون سواهم مما أثار استياء الجماهير الغاضبة في العراق) ١.(

هذه السياسة المُحابية لأقاربه ، أدّت الى بث السخط في نفوس المهاجرين والانصار ، وبالذات صحابة الرسول الكرام الذين وجدوا فيها ، انحرافاً خطيراً ، ليس فقط عن السُنّة النبوية ، وإنما حتى عن سياسة الخليفة الاول والثاني اللذين لم يعرف عنهما محاباة لذوي رحمهما ، أو استغلال لبيت مال المسلمين ، وحتى عمّالهما وولاتهما لم يكونوا مُصطَفين على أساس عشائري.

وبالتالي ، ضجّت المدينة المنورة ، فضلاً عن الامصار الأخرى ، مستنكرة سيرة الخليفة الثالث وبطانته الأموية ، وعلى رأس المحتجين بالطبع ، عائشة وطلحة والزبير ، وسائر المهاجرين والانصار ، ولا ننسى أمهات المؤمنين ، إذ أخذ الكل يوجّه انتقادات لاذعة للخليفة ، ويتّهمه باقتراف الخطايا ، وخاصة عندما عاقب صحابة كباراً وأجلّاء بالضرب المبرح ، من أمثال عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي ذر الغفاري الذي نفه عثمان الى صحراء الربذة ، حيث مات هناك ، طريداً شريداً وحيداً ، وهو الصحابي الجليل الذي قال فيه رسول الله بأنه لم تطل خضراء ولا غبراء أصدق لهجة منه.

لم يكن الخليفة الثالث يحتمل أدنى انتقاد أو لوم .وحين واجهته أمّ المؤمنين عائشة،

متّهة إياه بأنه أبلى سُنّة الرسول ، ودعت الناس الى قتله ، لأنه كفر حسب قولها ، نعتها بأقذع النعوت.

وبقيت عائشة تدعو عليه ، وتحرّض الناس على الاقتصاص منه إلى أن غادرت المدينة الى مكة المكرمة ، ولم تستجب لالتماسات صهره ووزيره) مروان بن الحكم (الذي امرها برد المحاصرين لعثمان وانها وحدها القادرة على درء القتل عنه.

وفي طريقها الى مكة ، أخذت عائشة تتابع اخباره من القادمين لتتأكد منهم خبر مقتله الذي كانت تتمناه لحظة بلحظة ، وتتوقع بأنه واقع لا محالة .وأشدّ المحرّضين على قتل الخليفة عثمان ، كان الصحابي طلحة بن عبيد الله الذي قاد عملية الحصار الذي دام أربعين يوماً ، ومنه عنه الطعام والماء بمعية حواري رسول الله الزبير بن العوام.

أما الثوار الذين تقاطروا من البصرة والكوفة ومصر ، حيث كان زعماؤهم من الصحابة المعروفين ، فلم يكونوا في البداية ، ينادون بحصار الخليفة ومن ثم قتله ، وانما كانت نواياهم مجتمعه على رضوخ عثمان لمطاليبهم التي حُدّدت باستبدال ولاته الظلمة من ذوي قرباه ، بولاة صلحاء من غير بطانته الفاسدة .واتّحدت هذه المطالب مع أهداف أهل المدينة من المهاجرين والانصار الذين أجمعوا على تغيير هذه البطانة ، وخاصة مروان بن الحكم ، والتوبة الى الله من سياسته التمييزية والخشنة تجاه فضلا الصحابة وأهل المدينة عموماً ، والعودة لاتّباع القرآن والسُنّة النبوية ، ووسّط

هؤلاء الصحابي عليّ ابن ابي طالب في هذه القضية ليضمن تنفيذ هذه الشروط ، واستجاب عثمان للشروط في أول وهلة ، وأقرّ بذنوبه وأخطائه ، وانه سيلبي شروط الثوار ومطالب أهل المدينة ، لكنه تراجع مراراً ، ونكث بوعوده بتحريض من صهره مروان بن الحكم الذي كان يفرض إرادته على الخليفة وهو المتحكّم به أصلاً ، وحين أجمع الكل على ضرورة

خلع عثمان بن عفّان بعد اليأس من إصلاحه ، وإختيار أحد الصحابة المعروفين بالصلاح والكفاءة ، أبى عثمان وقال بأنه لا يخلع قميصاً قمّصه الله تعالى به ، وادّعى بأن الرسول قد نصحه بعدم الرضوخ للمنافقين الذين يبغون تنحيته عن الحكم ، ويقيناً ان ادعاء الخليفة الثالث كان مجرّداً من المصداقية والمنطق السليم ، لأن تبوّأه للحكم إنما جاء بفعل اختيار هيئة الشورى التي حدّد معالمها الخليفة الثاني ، ثم انّه أخلّ بأهم شرط وضعه عمر بن الخطاب وممثله عبد الرحمن بن عوف وهو : وجوب عدم تسليط بني أمية على رقاب المسلمين ، وكذلك اتّباع سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسُنّة الخليفتين الأول والثاني ، وهو من هذه الناحية ، لم ينفّذ هذه ال شروط ، وبالتالي فقدكان المسلمون في حلّ من بيعتهم له.

ثم ان الذين دعوا الخليفة الى خلع نفسه ،كانوا قد استنفدوا كل الحلول الأخرى المطروحة ، خاصة بعد أن أقرّ عثمان بأخطائه وخطاياه ، ثم لم يفِ بوعوده أبداً.

وهؤلاء الذين يدعوهم الخليفة عثمان بالمنافقين حسب زعمه ، جلّهم من المهاجرين والانصار والصحابة الكبار ، وعلى رأسهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة .أما تبرير الخليفة لاصطفائه بني أمية والعبث بأموال المسلمين بحجة صلة الرحم وان الرسول صلى الله عليه وآله كان يصل بني هاشم وأهل بيته من الخمس ، وكذلك قيام الخليفة الاول والثاني بوصل رحمهما من ذوي قرباهما ، فهي حجة واهية لا تقوم على دليل أبداً ، لأن الرسول صلى الله عليه وآله إنما عيّن الخمس لذوي قرباه بناء على الأمر الالهي وطبق الآية الكريمة : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) ... الانفال ٤١ ، (وذلك لأن الله حرّم على بني هاشم أخذ الصدقة ، أما الخليفتان أبو بكر وعمر فلم يذكر التأريخ أنهما استأثرا بأحد من أقاربهما على حساب الآخرين ، بل المعروف عن الخليفة الثاني أنه كان متشدّدا في هذا الشأن ، وكذلك لم يسلّط أحداً من ذوي قرباه على رقاب المسلمين .ولو كان الخليفة عثمان قد حبا ذويه من ماله الخاص لما كان للمسلمين عليه مأخذ ، ولكن المال الموهوب لبني أمية كان مغصوباً من الحق العام ، ثم ان بني أمية لم يكونوا سوى من الطلقاء ، والمؤلفة قلوبهم ، أي من مسلمي الفتح أو الذين أهدر النبي دماءهم ، أو نزل القرآن في ذمهم ولعنهم ، وهؤلاء أولى بالإهمال والنبذ من الاحترام والتقدير ، كما فعل الخليفة الثالث.

ومهما يكن ، فإن الخليفة عثمان بن عفان ، لم يكن قبل أن يقتل قد تاب حقيقة وتراجع عن مواقفه السابقة التي اعترف بأنه كان مخطئاً فيها وانه كان مذنباً ازاء الجماهير ، بل أصرّ على التمادي بسلوكه المخالف للسُنّة النبوية وتبنّيه للعصابة الاموية حتى رمقه الأخير ، كما هو معلوم.

وهكذا إتضحت حقائق كانت خفية على المسلمين البسطاء الذين يصدّقون كل ما يملى على أسماعهم من معلومات مغلوطة ، كما هو الحال ، مع الخليفة عثمان الذي زعموا انه كان ليناً يصل رحمه ،فأثار هذا السلوك ، الغوغاء فقتلوه غدراً بعد أن استتابوه ، وتاب فعلاً ، في حين انه لم يتب من قريب أو بعيد.

مآخذ على الخليفة الثالث

١ . مخالفة النصوص النبوية

ذكرت كتب الحديث والتأريخ المعتبرة لدى أهل السُنّة بأن رسول الله صلى الله عليه وآله آمن ما كان بمنى يصلّي ركعتين ، وان النبي صلى الله عليه وآله كان يصلّي بمنى قصراً) ١.(

غير ان الخليفة عثمان بن عفان ، صلى بمنى أربع ركعات ، فقيل لعبد الله بن مسعود ، فاسترجع) أي قال : إنا لله وانا إليه راجعون ، (ثم قال : صليت مع رسول الله بمنى ركعتين ، وصليت مع أبي بكر ركعتين ، وصليت مع عمر بمنى ركعتين ، فليت حظي من أربع ركعات ، ركعتان متقبلتان) ١.(

وقيل لعبد الله بن معسعود : إسترجعت وقلت ما قلت ، ثم صليت أربعاً ، فقال : الخلافة ، ثم قال : وكان عثمان أول من أتمّها أربعاً .ثم أردف قائلاً : الخلاف شرّ ، بعد أن عاب على عثمان فعلته تلك.

وقيل لابي ذر الغفاري وهو بمنى : ان عثمان صلى أربعاً ، فاشد ذلك على أبي ذر وقال قولاً شديداً ، ثم قال : صليت مع الرسول وأبي بكر وعمر ركعتين ، ثم علّق : أمَرَنا رسول الله أن لا يغلبونا على ثلاث ، أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ونعلّم الناس السنن.

وفي هذا النطاق ، قال عبد الله بن عمر : صلّى رسول الله وأبو بكر وعمر بمنى ركعتين ، وعثمان صدراً من خلافته ثم ان عثمان صلى بعده أربعاً .فكان ابن عمر إذا صلى مع الامام صلّى أربعاً ، واذا صلاها وحده ، صلى ركعتين.

وعلى هذا المنوال ، قال عمران بن حصين : حججت مع رسول الله فصلّى ركعتين ، وحججت مع أبي بكر وعمر وعثمان ست سنين من خلافته ، فصلّى ركعتين .ما سفار النبي إلا وقصّر ، وفي مكة وحنين والطائف ، وقصّر أبو بكر وعمر وعثمان صدراً من خلافته.

ومن الذين قالوا هذا الكلام ، أنس بن مالك وكذلك عروة) ٢.(

وهنا يتفاوت موقف الصحابة من خطوة عثمان بن عفان بتغيير السُنّة النبوية في صلاة السفر ، من إذعان وخوف من المخالفة بذريعة عدم التصادم مع الحاكم وان خلافه يجلب الشر ، وهو موقف ابن مسعود ، وبين الموقف المقاوم الذي لا يخشى رد فعل الخليفة ، وهو موقف أبي ذر الغفاري ، وموقف ممالئ للخليفة حتى لا يثير حفيظته فيصلّي خلفه أربع ركعات ، ولكنه يصليها في منزله ركعتين ، وهو موقف عبد الله بن عمر ، مع ان ال جميع يقرّ بمخالفة الخليفة الثالث لسُنّة رسول الله ، الى حد أقرار عبد الله بن عمر بأن صلاة السفر ركعتان ، ومن خالف السُنّة النبوية فقد كفر) ١.(

الجهل بالاحكام الشرعية

هناك العديد من النماذج التي تدلّ على جهل الخليفة عثمان بالكثير من الاحكام الشرعية ، وسنذكر هنا عدداً منها على سبيل المثال لا الحصر.

همَّ عثمان بأكل الصيد في مكة وهو مُحرم بالرغم من أن القرآن الكريم والنبي صلىاللهعليهوآله نهيا عن ذلك) ٢.(

وذات يوم ، أمر عثمان برجم امرأة قد ولدت في ستة أشهر ، فلما أقنعه عليّ بأن الحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها ، بعث عثمان في أثرها فوجدها قد رُجمت فشبّ الغلام بعد ، فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به) ٣.(

التساهل في الأحكام

كان المعروف عن عثمان بن عفان ، التساهل في القضايا الدينية ، بعكس عمر بن الخطاب الذي كان متشدّداً في هذا المجال ، ولذلك فإن ربيعة بن أمية بن خلف قد أدمن الشراب ، بل وشرب الخمر في شهر رمضان ، فعاقبه الخليفة الثاني وغرّبه الى ذي المروة ، فلم يزل هناك حتى توفي عمر واستخلف عثمان ، فقيل لربيعة : قد توفي عمر واُستخلف عثمان ، فلو دخلت المدينة ما ردّك أحد ، فلحق بالروم وتنصر) ١.(

وبسبب الانفتاح والتحرّر من التعاليم الدينية ، فقد كان كعب الأحبار في عهد عثمان يفتي مجلسه بما يرضي الخليفة في مسألة الأموال ، وأنكر عليه أبو ذر ذلك ، حتى وكزه بعصاه مرّة في صدره ، وأخرى على رأسه ، قائلاً له : ما أجرأك يا بن اليهودي على القول في ديننا.

عثمان والحديث النبوي

لم يسمح عثمان بن عفان في عهده لأحد أن يروي أحاديث لم يُسمع بها في عهد أبي بكر أو في عهد عمر ، قائلاً : لم يمنعني أن أحدّث عن رسول الله ألا أكون أوعى اصحابه ، إلا أني سمعته يقول : من قال علي ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار) ٢.(

ولسنا ندري اذا كان عثمان وهو الصحابي الكبير الذي كان ملازماً دوماً لرسول الله ومن أوعاهم ، ومع ذلك فهو يحذر الحديث عنه صلىاللهعليهوآله ، خشية الكذب عليه حسبما يدّعي ، فما بالنا بالصحابة الآخرين الذين لم يلازموا الرسول إلا قليلاً؟

)١ (سنن الدارقطني ٢ : ٢١١ ؛ التأريخ الصغير ـ البخاري ١ : ٧٣.

)٢ (الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٢ : ٣٣٧ ؛ تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٣٩ : ١٨٠.

عثمان وجمع القرآن

ما هي حقيقة جمع الخليفة عثمان بن عفّان للقرآن الكريم ، كما يقول أهل السُنّة والجماعة والكبار في مدرستهم؟ وهل هي مزية امتاز بها أو فضيلة تُحسب له؟

بعد البحث والتحقيق ، توصّلنا الى ما يلي:

أخبر الصحابي حذيفة بن اليمان الخليفة عثمان بأن يدرك الناس ، فقد غزا ارمينية ، فاذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، واذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفّر بعضهم بعضاً) ١.(

ومن الملاحظ ان علياً قال بأن عثمان ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا ، وكان عثمان قد جمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرق ولا اختلاف.

فاذاً القضية لا تتعدى اختلاف قراءات فحسب ، فقد حدث أثناء خلافة عثمان بن عفان نزاع بين أهل العراق وأهل الشام على قراءة بعض السور ، وتخوّف الناس من فتنة قد تنشأ من اختلاف اللهجات والقراءات.

إذ عمل الفريق الذي كُلّف بمراجعة ونسخ المصاحف عن نسخة الرسول الاصلية أيام عثمان مدة خمس سنين ، تم خلالها كتابة المصاحف ، ثم ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، وهي نفس نسخة أبي بكر الأصلية ، وأرسل الى كل جند من أجناد المسلمين ، وقد احتفظ عثمان بمصحف منها لأهل المدينة ومصحف لنفسه ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذي أُرسل اليهم) ٢.(

ويقرّ الحارث المحاسبي بان المشهور عن الناس ، ان جامع القرآن ، عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار بينه وبين من شهد من المهاجرين والانصار لمّا خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات) ١.(

وهكذا اعتمد الخليفة الثالث على الصحابي علي وبقية المهاجرين والانصار في تحديد واختيار القراءة الصحيحة من بين القراءات وبالاعتماد على النسخة المودعة عند حفصة فحسب ، فاستنسخ نسخاً عديدة وزّعها على الامصار ، وحرق النسخ الأخرى ، وهذا العمل على ما يبدو وباعتراف واقرار كبار علماء مدرسة الخلفاء ، لم يكن جمعاً للقرآن الكريم كما يدّعي البعض.

أما إحراق النسخ القرآنية الأخرى ، فنعجب كيف سمع عثمان لنفسه باحراقها وهي التي تضم آيات الله المباركة ، عدا بعض التحريفات أو القراءات غير المقبولة؟ في بعض السور ، وكان الأحرى به أن يتلفها من خلال وسائل أخرى غير الحرق ، كالطمس في الماء مثلاً.

عثمان والمشاركة في حروب المسلمين

لقد عابوا على عثمان بن عفّان في زمن الرسول ، غيبته عن معركة بدر وفراره يوم أحد ، وعدم حضوره بيعة الرضوان.

وكان الخليفة عثمان قد ولّى الدبر يوم أُحد ، مع سعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وهما إخوان من الانصار من بني زريق وغيرهم ... انهزم هؤلاء حتى بلغوا

موضعاً بعيداً ، ثم رجعوا بعد ثلاثة أيام ، فقال لهم الرسول حين رآهم : لقد ذهبتم بها عريضة) ١.(

ويقول ابن الزبير في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ...)٢ (منهم عثمان بن عفان ، وسعيد بن عثمان وعلقمة بن عثمان الانصاريان ، قد بلغوا جبلاً بناحية المدينة فأقاموا هناك ثلاثاً) ٢.(

وعن ابن عباس في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) ٤ ، (نزلت في عثمان ورافع بن المعلّى ، وخارجة بن زيد) ٥.(

وكان الصحابي المقداد بن الاسود التميمي قد قال في يوم الشورى ، مشيراً الى عثمان بن عفان : ان وليتموها أحداً من القوم فلا تولوها من لم يحضر بدراً ، وانهزم يوم أُحد ، ولم يحضر بيعة الرضوان ، وولّى الدبر يوم التقى الجمعان) ٦.(

الفتنة والمصير الحتوم

كانت خلافة عثمان بن عفان ، اثني عشرة سنة ، قضى منها ست سنوات دون ان ينقم عليه احد ، بل كان أحب الى قريش من عمر بن الخطاب ، لأن عمر كان شديداً

عليهم ، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ، ثم توانى في السنوات الست الأخيرة من حكمه في أمر الناس ، واستعمل أقرباءه وأهل بيته من بني أمية وغيرهم وحمّلهم على رقاب الرعية ، فكتب لمروان بخمس خراج مصر ، وأعطى أقرباءه المال ، واتخذ الاموال واستلف من بيت المال قائلاً : ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وانه أخذه فقسّمه في أقربائه ، فأنكر الناس عليه ذلك) ١.(

موقف عائشة من ممارسات وسلوك الخليفة الثالث

تُعدّ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، من أوائل الذين طعنوا بسياسة الخليفة عثمان وانحرافه عن السنّة النبوية ، وتلاعبه بأموال المسلمين ، وإيثاره بني أمية على سائر المسلمين.

وذات يوم كان عثمان يخطب ، إذ دلت عائشة قميص رسول الله ، ونادت : يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبلَ ، وقد أبلى عثمان سُنّته .فقال عثمان : رب اصرف عني كيدهن ان كيدهن عظيم) ٢.(

موقف طلحة والزبير من عثمان بن عفان

من أبرز الذين حرّضوا الناس ضد الخليفة الثالث ووقفوا موقفاً عدائياً منه ، ومحاصرته الى أن قُتل ، هو الصحابي الكبير طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الخير ، أما الزبير فيأتي في الدرجة الثانية في هذا المجال.

وكان طلحة قد استولى على أمر الناس في الحصار) ١ .(وكان الصحابة والثوار قد حصروا عثمان أربعين ليلة وطلحة يصلّي بالناس) ٢ .(وكان أيضاً على الحرس الذي أحاطوا بدار الخلافة ، وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان الذي كان ظمآناً من العطش ، فنادى : اسقونا شربة من الماء ، وأطعمونا مما رزقكم الله ، فناداه الزبير : يا نعثل ألا والله ، لا تذوقه ، وقال الزبير : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ) ٣.(

أما محمد بن أبي بكر فقد أجلب على عثمان بن تيم ، وأعانه على ذلك طلحة) ٤.(

وناجى طلحة ، عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وهو صحابي ممن بايع النبي صلى الله عليه وآله تحت الشجرة ، وشهد فتح مصر ، وكان ممن سار الى عثمان من مصر ، فقال ابن عديس لاصحابه : لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ولا يخرج من عنده .فقال عثمان : اللهم أكفني طلحة فإنه حمّل علي هؤلاء وألّبهم ، والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً ، وأن يُسفك دمه ، إنّه انتهك مني ما لا يحلّ له) ٥.(

وكان تعليق طلحة : فإن قتل) أي عثمان (فلا مَلَك مقرّب ولا نبي مرسل) ٦.(

موقف أهل المدينة من عثمان

يتشكل أهل المدينة من المهاجرين والانصار ، ولم يبق أحد منهم إلا حنق على عثمان ، وزاد ما فعل الخليفة بابن مسعود وعمّار وأبي ذر ، من حنق أهل المدينة وغيظهم ، فقام أصحاب النبي صلى الله عليه وآله بمنازلهم ، وما منهم أحد إلا وهو مُغتم لما في الكتاب الذي بعثه عثمان مع غلامه إلى عامله في مصر حيث أمره بقتل العديد من الصحابة هناك.

وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ، ويحتجّون ويُقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله) ١.(

وقد كتب المهاجرون وبقية الشورى لاهل مصر : تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل ان يسلبها أهلها ، فإن كتاب الله قد بُدّل ، وسُنّة رسوله قد غيّرت ... غُلبنا على حقنا وأستولي على فيئنا ... الخلافة اليوم ملك عضوض من غَلَب على شيء أكله) ٢.(

ولما رأى الناس ما صنع عثمان ، كتب من بالمدينة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله الى من بالآفاق منهم ، وكانوا قد تفرّقوا في الثغور : انكم خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلى الله عليه وآله ، فإن دين محمد قد أُفسد من خلفكم وتُرك ، فهلمّوا فأقيموا دين محمد صلى الله عليه وآله ، فأقْبَلوا من كل أفق حتى قتلوه

إذاً فإن أصحاب النبي خذلوا عثمان ، وكرهوا الفتنة ، والدليل على موقف الصحابة السلبي من عثمان ، إرسال الخليفة الثالث كتاباً الى معاوية جاء فيه ان أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ... لكن معاوية تربّص به وكره مخالفة أصحاب رسول الله ، وقد عَلمَ اجتماعهم) ١.(

كما قال عبد الرحمن بن عثمان : إن المهاجرين والأنصار لو حُرموا دم عثمان ، نصروه ، وبايعوا علياً على قتلته ، فهل فعلوا؟) ٢.(

وكان معاوية قد قال في ايام خلافته ، للصحابي عامر بن واثلة) أبو الطفيل : (أكنت ممن قتل عثمان؟ قال : لا ، ولكن من شهد فلم ينصره .قال معاوية : ولمَ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والانصار) ٣.(

وانتقاماً من أهل المدينة ، بعث يزيد اليهم ثلاثاً يصنعون ما شاءوا لمداهنتهم الذين قتلوا عثمان.

أين دُفن الخليفة الثالث؟

هكذا لم يف الخليفة الثالث بتعهداته التي تعهّدها للثائرين ، فهو لم يغيّر سياسته أبداً ، فلا هو استبدل ولاته من بني أمية وأقاربه بولاة آخرين ، ولا هو تخلّى عن مروان وبني أمية ، ولا هو تنحّى ليختار المسلمون خليفة بديلاً عنه ، وتوصّل الثوار الذين كانت قياداتهم من الصحابة المدعومين من المهاجرين والانصار ، الى إن عثمان لم يتب

وقد نكث تعهداته مراراً وليس هناك من حل إلا تصفيته وإنهاء حكمه ... وهكذا تم قتل الخليفة الثالث.

وبعد مقتل عثمان بن عفان ، نُبذ ثلاثة أيام بدون دفن ، ولما سمع الناس بمحاولة دفنه ، قعدوا له بالطريق بالحجارة ، وخرج به أفراد يسيرون من أهله ، حيث حمله أربعة ، فلما وُضع ليُصلّى عليه ، جاء نفر من الانصار ، يمنعونهم الصلاة

عليه ، ومنعوهم أن يُدفن بالبقيع ، وقالوا : لا يُدفن في مقابر المسلمين أبداً ، وقيل لم يُصلّ عليه ودفن بغير صلاة ، وتم دفنه في حش كوكب ، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم ، ولما ظهر معاوية على الناس ، أمر بهدم الحائط حتى أفضى به الى البقيع ، فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين ... ولم يشهد جنازته إلا مروان بن الحكم وثلاثة من مواليه وابنته الخامسة ، وكادت تُرجم جنازته) ١.(

الخليفة الرابع .. السيرة والمسيرة

علي بن أبي طالب ، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله ، وزوج ابنته فاطمة ، ووالد أسباطه الحسن والحسين وزينب ، وهو الصحابي الذي قضى سائر أوقاته الى جوار رسول الله ، إذ تربّى في أحضانه قبل البعثة المباركة ، وصاحَبه بعد البعثة في حلّة وترحاله الى أن وُري الثرى ، وبذلك يُعتبر عليّ الصحابي الذي تنطبق عليه صفة الصحبة والمُلازمة أكثر من الصحابة الآخرين ، ومن ثَمَّ بايعه المسلمون خليفة عليهم بعد مقتل الخليفة الراشد الثالث ، ليصبح الخليفة الراشد الرابع .ومع كل هذه الخصال والمناقب الجليلة لعلي ، فلابد من استقصاء أحواله وتفحّص سلوكه وتصرفاته ومواقفه ، سواء في عهد الرسول صلى الله عليه وآله أو عندما انتخبه المسلمون خليفة عليهم ، لنعلم مدى انطباقها مع التعاليم الاسلامية وأوامر القرآن الكريم والسُنّة النبوية المطهّرة ، وذلك للتأكّد من سلامة سيرته العملية كما هو الحال مع كل الصحابة الآخرين الذين عاصروا الرسالة الاسلامية منذ إعلان إسلامهم وحتى وفاتهم.

علي في نظر القرآن الكريم

نزل الكثير من الآيات القرآنية في حق علي بن أبي طالب ، وقد أوصلها عبد الله بن عباس الى نحو ثلاثمائة آية ، ونحن هنا نذكر بعض الامثلة:

يقول ابن عباس : ان الآية وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا) ١ (نزلت في حق علي) ٢.(

والآية القرآنية : وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) ٣ (تقصد يوشع) مؤمن آل يس (وعلي الذي سبق الى الرسول) ٤.(

وقد نزلت في حق علي عند مبيته على فراش الرسول ، الآية الشريفة : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) ٥ .(ونادى جبرائيل : بخّ بخّ من مثلك يا بن أبي طالب ، الله يباهي بك الملائكة) ٦.(

وفي علي نزلت الآية الكريمة : وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) ٧ (حين أذّن بالآيات من سورة براءة)٨.(

وفي رسول الله وفي علي ، نزلت الآية المباركة : وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) ٩ ، (وهما

أول من صلّى وركع) ١.(

ونختم حديثنا في هذا المقام بقول عبد الله بن عباس : ليس آية من كتاب الله» : يا أيها الذين آمنوا «إلا وعلي أوّلها وأميرها وشريفها ورأسها وقائدها .ولقد عاتب الله أصحاب محمد في آي من القرآن ، وما ذكر علياً إلا بخير) ٢.(

موقف الرسول من علي بن أبي طالب

كان علي أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله) ٣ .(ويقول ابن عباس : إن أول من أسلم علي بن أبي طالب) ٤.(

أما أنس بن مالك ، فيقول : بُعث النبي يوم الاثنين ، واسم علي يوم الثلاثاء) ٥.(

ويقول الرسول صلى الله عليه وآله : قُسمت الحكمة عشرة أجزاء فأُعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً) ٦.(

ويقول صلى الله عليه وآله : ان الله أوحى إليّ في علي ثلاثة أشياء ، ليلة أُسري بي : انّه يسد

المسلمين ، وإمام المتقين وقائد الغرّ المحجّلين) ١.(

ويقول صلى الله عليه وآله : لو ان الاشجار أقلام ، والبحار مداد ، والجن حسّاب ، والانس كتّاب ، ما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب) ٢.(

وقال صلى الله عليه وآله : عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب) ٣.(

وقال صلى الله عليه وآله : علي مني بمنزلة رأسي من بدني) ٤.(

وقال صلى الله عليه وآله) : لأعطينّ هذه ال راية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفرار ، فجثم الناس على الركب ... واعطى علياً الراية) ٥.(

علي في نظر رموز المسلمين وعلمائهم

قال ابن عباس : كان علي بن أبي طالب ، صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، ويوم أُحد ، ويوم خيبر ، ويوم الاحزاب ، ويوم فتح مكة ، ولم تزل معه في المواقف كلها) ٦.(

أما ابن مسعود فيقول : أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب) ١.(

ويؤكد المسعودي : والذي حفظ الناس عنه ،علي (من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانين خطبة يوردها على البديهة) ٢.(

ويقول عبد الله بن مسعود : ان القرآن نزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وان علي بن أبي طالب عنده الظاهر والباطن) ٣.(

وخصّ الكنجي الشافعي باباً في تخصيص علي بمئة منقبة دون سائر الصحابة.

ويذكر ابن حنبل علياً قائلاً في حقه : ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالاسانيد الصحاح مثلها لعلي.

وفي موقع آخر يقول ابن حنبل : ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي بن ابي طالب.

اما ابن عباس فيرى : ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي.

بينما يجمع النسائي وأبو علي النيسابوري والقاضي إسماعيل ، قائلين : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالاسانيد الحسان ما جاء في علي) ٤.(

علي في عهود الخلفاء الثلاث الاوائل

على أثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، اجتمع عدد من الانصار وبعض المهاجرين في

سقيفة بني ساعدة ، واختاروا أبا بكراً خليفة على المسلمين ، ولم يكن علي ضمن المجتمعين ، لأنه كان منشغلاً بتجهيز ودفن الرسول صلى الله عليه وآله

وكان علي بن أبي طالب طيلة عهد الخليفة الاول ، مثال الرجل الناصح الذي يسعى لتطبيق الحدود الشرعية وعدم التواني أو التهاون في تنفيذها بحق مستحقيها ، ولم يطُلْ عهد الخليفة أبي بكر سوى سنتين ، إذ اوصى أن يكون عمر بن الخطاب ، خليفة من بعده على المسلمين.

ودام عهد الخليفة الثاني نحو عشر سنوات ، وكان علي مسالماً للنظام الحاكم مادام المسلمون لم يتذمّروا من سياسته ، وحاول علي توجيه الخليفة الثاني لتطبيق الحدود الشرعية ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وتعامل مع سياسة عمر بالتي هي أحسن ، فيشاوره إذا طل منه المشورة ، ولم يتوانَ عن الاجابة على الاسئلة والاستفسارات الشرعية التي يوجّهها له الخليفة الثاني ، بل وحتى تصحيح الأخطاء في قضاء الخليفة ، ولذلك طالما قال عمر في مدح علي اقوالاً مثل : أقضانا

علي ، ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن ولما طعُن الخليفة الثاني ، وتيقّن من موته ، عيّن هيئة للشورى من ستة أعضاء . من ضمنها . علي ، لتنتخب من بينها خليفة له ، وقد بيّن عمر مساوئ خمسة من أعضاء الشورى إلا علياً فقال لو اصبح خليفة فسيحمل الأمّة على المحجّة البيضاء.

واشترط عليه عبد الرحمن بن عوف إنْ أصبح خليفة أنْ يسير بسيرة النبي صلى الله عليه وآله والخليفة الاول والثاني وان لا يختار وُلاتَه من بني هاشم ، فرفض الشرطين ، فهو رضي أن يسير على وفق سُنّة رسول الله دون الخليفتين الاول والثاني اللذين كانا مجتهدَين وليس من واجبه أن يستن بسُنّتهما ، كما ان في بني هاشم رجالاً أسوياء وكفوئين فلا معنى أن يهملهم أو يحرمهم من الولاية حسب الشرط الثاني.

وهكذا تم حرمان علي من الخلافة وتصدّى لها عثمان بن عفان الذي قبل

بالشرطين ، وكانت مدة ولايته في حدود اثنتي عشرة سنة ، في السنوات الست الأولى لم يكن هناك اعتراض أو نقد لسيرته في الحكم ، لكنه في السنوات الست الأخيرة من حكمه ، نكث العهد الذين عاهد هيئة الشورى عليه ، أي الالتزام بالشرطين ، فهو لم يسنن بسُنّة الخليفتين الاول والثاني ، فضلاً عن تجاوزه على سُنّة الرسول صلى الله عليه وآله ثم سلّط بني أمية على رقاب المسلمين ، فثارت ثائرتهم ومن بينهم المهاجرون والانصار ، وكانت سياسة علي ، إصلاح ذات البين ونزع فتيل الفتنة .وكان الطرفان ، الخليفة الثالث والثوار يستشيرونه ، فيشير على الطرفين بما يدرأ الفتنة قبل حدوثها ، وكانت مطالب الثوار معقولة وعادلة ، ولذلك طالما نصح عليّ ، الخليفة الثالث بالاستجابة لمطالب الثوار ، وهي عزل ولاته من أقاربه وبني أمية ، وتنحية مروان على الأخص ، والإتيان بولاة وعمال نزيهين مكانهم ، وتعهّد عثمان بن عفان بتحقيق مطالب الثوار ثم نكث عهده بتأثير من قريبه مروان بن الحكم.

وكان الخليفة عثمان ، يحاول أن يجذب علياً الى جانبه في التصدّي للثوار ، لكن عليّاً لم يكن يوافق على أي خطوة من هذا القبيل إلا إذا غيّر الخليفة بطانته وسياسته في الحكم والعودة لتطبيق السُنّة النبوية.

وحين يأس من اي استجابة لعثمان ، انزوى في بيته حتى لا يكون شاهداً على نتائج الفتنة التي لم تكن في صالح الأمّة .. ولما عَلمَ علي بن أبي طالب أن الثوار ومن يحضّهم من المهاجرين والانصار ، يسعون الى قتل الخليفة ، خرج من عزلته ووضع إبنيه الحسن والحسين على باب دار الخلافة حتى يمنعوا الثوار من دخوله ، معتقداً ان قتل الخليفة عثمان سيؤدي الى فتنٍ ، واحدة تلو الأخرى ، والاجدر أن يقوم الثوار بعزل الخليفة بالقوة ، وانتخاب خليفة بديل له يحظى بقبول الجميع ، غير انّ تسوّر بعض الثوار الجدار والقيام بقتل عثمان ، أُسقط في يد علي ، ثم قيام أهل المدينة بأجمعهم بالضغط

على علي لكي يقبل بمبايعته خليفة على المسلمين ، حيث رفض علي في بادئ الأمر ، لان الفتنة كانت مستشرية معقّدة ، فطلب علي من المهاجرين والانصار ومعهم أهل الامصار ، انتخاب من يرونه يصلح للخلافة منهم ، لكن إصرار الجميع وإجماعهم على مبايعته ، اضطرّه الى القبول ، ولكن اشترط عليهم السير طبق السُنّة النبوية وإصلاح كل المفاسد السابقة ، فقبلوا بشروطه ، وتمت بيعة المهاجرين والانصار جميعاً عدا ثلاثة من الصحابة وهم ، عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الذين رفضوا فقط مبايعة عليّ على قتال الناكثين ، لانهم لم يشهدوا . حسب رأيهم . حرباً بين مسلمين.

أما إعلان الحرب من قبل عائشة وطلحة والزبير ومعهم بنو أمية ، ضد علي حتى يسلّم قتلة عثمان ، تحت ذريعة الطلب بدم عثمان ، فما هي إلا حجة مرفوضة لأن علياً أصبح خليفة بدلاً من طلحة أو الزبير ، ولم يكن علي بن أبي طالب ، مستعداً لتسليم من ساهم في قتل الخليفة ، مادام القتلة الحقيقيون هم من حرّض على قتله مباشرة ، وهم عائشة وطلحة والزبير الذين لم يطالبوا بدم عثمان إلا عندما بايع المسلمون علياً ، ثم ان الخليفة لم يتب أبداً ولم يغير بطانته او يصحّح سيرته ، وان تسليم القتلة لهم ، سيكون تزكية وتنزيهاً لكل ممارسات عثمان المخالفة للقرآن والسُنّة النبوية ، ولذا عندما طلب الناكثون في حرب الجمل من عليّ تسليم القتلة ، أجاب جيشه برمته بأنهم قتلة عثمان ، لأنه كلهم ساهموا في قتله بطريقة أو بأخرى ، وان الناكثين هم من بايعوه ثم نكثوا البيعة ومن حقه قتالهم في تلك الحرب التي كانت بين معسكرين ، معسكر يضم عائشة وطلحة والزبير وبني أمية ومعهم شريحة من أهالي البصرة ، وبين علي الخليفة المُبَايع ومعه سائر المهاجرين والانصار وأهل الكوفة ومصر ، وهكذا انتصر عليّ على الناكثين ، وبقي يحكم أربع سنوات ونيف .وشهد حكمه ، فضلاً عن حرب الجمل ، حربين

أخريين ، الأولى حرب صفين من قبل معاوية وأهل الشام ، والثانية من قبل الخوارج الذين قتلوه وهو يصلي الفجر في محراب مسجد الكوفة.

وخلال تلك السنوات ، حاول جاهداً فيها ، أن يُقيم العدل ولا يخرج عن السُنّة النبوية ، فقد خرج علي يوماً الى السوق ومعه سيفه ليبيعه ، قائلاً : من يشتري مني هذا السيف؟ فوالذي فق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله ، ولو ان عندي من إزار لما بعته) ١.(

واستعمل علي رجلاً من ثقيف على عكبرا ... فقال له علي : إن يبلغني عنك خلاف ما أمرتك عزلتك ، فلا تبيعن لهم رزقاً يأكلونه ، ولا كسوة شتاء ولا صيف ، ولا تضربنّ رجلاً سوطاً في طلب درهم ، ولا تهيّجة في طلب درهم ، فإنّا لم نؤمر بذلك ، ولا تبيعن لهم دابة يعملون عليها ، إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو

قال الثقفي : إذاً أجيئك كما ذهبت!!

قال : وإن فعلتَ .قال : فذهبت فتتبعت ما أمرني به ، فرجعت والله ما بقي عليّ درهم واحد إلا وفّيته) ٢.(

وقال علي لابن عباس ، عندما ولاه البصرة : عليك بتقوى الله والعدل بمن ولّيت عليه ... وإياك والهوى فإنه يصدّك عن سبيل الله

وبعد مقتل علي ، قال ابنه الحسن : والله ما ترك صفراء ولا بيضاء ، إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه) ٣.(

شجاعة علي

كانت شجاعة علي وبسالته ، مضرب الامثال ، هذا ما استيقناه من خلال دراسة سيرة هذا الصحابي الكبير ، إذ كانت راية الرسول معه في كل الغزوات والحروب ، ولم يُعرف عنه أبداً إنه تلكأ في معركة من المعارك ، ففي يوم بدر ، نزل جبرئيل من السماء ، وهو يقول : لا فتى الا علي ولا سيف إلا ذو الفقار) ١.(

وكما هو مشهور عنه ، ان نصف قتلى معركة بدر من المشركين ، قُتلوا على يده.

وفي معركة أُحد ، ثبت مع النبي صلى الله عليه وآله ولم يفرّ كما فرّ الآخرون.

وفي معركة الخندق ، هو الذي قتل أحد كبار أبطال المشركين وهو عمرو بن عبد ود العامري ، وانكسر جيش الكفار على أثرها.

وفي معركة خيبر ، هو الذي اقلع بابها ، ثم قتل قائد اليهود مرحباً.

وهذا في كل المعارك خاض عليّ في قتل الاعداء ولم يعرف التواني أو الضعف .وكان المشركون إذا أبصروا بعلي في الحرب ، عهد بعضهم الى بعض .بل ان خصمه معاوية بن أبي سفيان يقرّ بهذه الشجاعة ، قائلاً : هل رأيت أحداً قط بارزه علي إلا قتله.

كلمة أخيرة

هذه هي فضائل الصحابي الكبير علي بن أبي طالب ومناقبه الكثيرة ، كما توصلنا إليها من خلال التنقيب في بطون الكتب التأريخية والروايات المعتبرة لدى الجمهور

المسلم ، حيث ثبت لنا في الوهلة الاولى ، أنّ علياً كان كغيره من الصحابة الكبار والخلفاء الراشدين الذين حازوا على قصب السبق في الفضائل والمزايا الخيّرة من خلال مدح الرسول لهم والثناء عليهم ، لكننا تيقنا إن علي بن أبي طالب ، تفوّق في الميدان العلمي والحربي ، حيث كان مُفرط الشجاعة والبسالة والثبات في الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الكفار والمشركين كما يشهد له الجميع ، كما كان بارعاً في المعارف والعلوم والفقه والقضاء بحيث كان موجّها للآخرين الذين كانوا يستفتونه في الامور الفقهية والقضائية ، وكانت إجاباته حاسمة في هذا المجال.

غير ان هناك تساؤلات ظلت تراودنا ، وتبعث الحيرة والشك في أنفسنا ازاء هذا الصحابي المُقرَّب من رسول الله ، وتدعوننا للبحث في مزيد من صفحات التأريخ ، لاستجلاء الحقيقة ، وبامكاننا اختصارها فيما يلي:

١ . لِمَ لم يُسارِع علي بن أبي طالب كغيره من المهاجرين والانصار لمبايعة الخليفة الاول ، بل تباطأ وتلكأ لمدة ستة اشهر ، ثم أعلن بيعته للخليفة أبي بكر؟

٢ . لِمَ نحّى علي معاوية بن أبي سفيان عن ولاية الشام؟ إذ لو أبقاه ولو مؤقتاً لما ثار عليه وشن حرباً ضده ، وكان ما كان من الفتن والمآسي التي جلبت الويلات على المسلمين؟ واذ كان الخليفة عليّ له ال حق في محاربة الأمويين ، فلِمَ قبل التحكيم مع معاوية بحيث أدى الى نشوء فتنة مدمّرة أخرى وهي فتنة الخوارج؟ أما كان لعلي أن يتلافى مثل هذه الفتن والبلايا والتداعيات التي تلتها؟ هذه وغيرها من التساؤلات بحاجة الى إجابة مقنعة.

المذاهب السُنّية الاربعة تحت المجهر

الامام ابو حنيفة والانتقادات اللاذعة

تُرى هل صحيح ان الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة؟) ١.(

وهل صحيح انه إمام في الفقه ، وبَلغَ في الفقه منزلة لم يصل إليها أحد ممن عاصره؟) ٢ .(وهل هو أفقه من الآخرين وإمام أهل الرأي والامام الاعظم ، وهو المحدّث الأمين .. الثقة ... الأدق فطنة .. وإنْ كان أحدٌ ينبغي له أن يقول برأيه فهو ابو حنيفة النعمان فحسب.

كنا نتصوّر ان الهالة التي أحاطها به المؤرخون وأتباع المذهب الحنفي بالذات ، لا تسمح لأحد بتوجيه نقد ولو بسيط لعميد المذهب أبي حنيفة الامام الاكبر؟

ولكن عندما نتصفّح التأريخ ، ونقلّب صفحاته بدقة ، نكتشف ان أبا حنيفة كان الفقيه السُنّي الذي نال القسط الاوفر من الاتهامات والطعون والانتقادات اللاذعة والتجريح البليغ من لدن أقرانه أصحاب المذاهب الأخرى ، والفقهاء من زملائه المعاصرين له ، أو الذين جاءوا من بعده.

وأولى الملاحظات التي ينبغي توجيهها للمذهب الحنفي ، أن أبا حنيفة النعمان لم يكن يرضى أن يقلّده الآخرون من تلامذته ، فهو أساساً غير متيقن من فتاواه وأحكامه ، فهو على حد قوله : يرى الرأي اليوم ويتركه غداً ، ويرى الرأي غداً ، ويتركه في غده ، ولذلك نهى أتباعه من تدوين كل ما يسمعونه منه) ١.(

ولم يشأ أبو حنيفة ، الانتصار لرأيه ، إذ شجّع تلاميذه على الاستقلال برأيهم ، ونهاهم عن التزام أقواله ، وتحرّر بعضهم من التقليد الأعمى له ، كلما انقدح لهم وجه الحق في غير مقالة أبي حنيفة ، ووجدوا الدليل المُخالف لما ذهب إليه).٢(

فكيف إذن يحق لأحد ، التأكيد ان أبا حنيفة ، أعلم الفقهاء المعاصرين له؟ وهناك من يكتشف أخطاءه ومثالبه الفقهية؟

بل ان قول أبي حنيفة بالخصوص : هذا الذي نحن فيه رأي ، لا نجبر أحداً عليه ، ولا يجب على أحد قبوله بكراهية ، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به) ٣ ، (لدليل على عدم إطمئنان الامام بفتاواه وأحكامه ، وإن هناك من الرجال ، من هو أعلم منه ، وأعمق في التفقّه والإفتاء.

ثم ان أبا حنيفة ، لم يؤلّف في مذهبه كتباً ، لأنه لم يكن يُريد أن تصبح أحكامه وأقواله ، مرجعاً للآخرين ، وهو بالتالي كان فقيهاً كالفقهاء الآخرين من قبله ، كفقهاء المدينة وغيرهم ، من أمثال سعيد بن المسيب وسفيان بن عيينة وأبي ثور وسفيان الثوري الخ .. ولكن تلاميذه ، كأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني ، هم الذين ألّفوا

الكتب في المذهب ، وبالتالي شاع الفقه الحنفي وتحوّل الى مذهب وكُرِّس في المجتمع وذاع صيته ، خاصة وان أبا يوسف تولّى القضاء على مذهب استاذه ، مما ثبّت أحكامه.

والمعروف ان أبا حنيفة كان يأبى التعامل مع السلطة العباسية أو تولّي القضاء لها ، ولذلك آثر المكوث في السجن على القضاء حتى مات وهو في سجن أبي جعفر المنصور ، فكيف يحق لأبي يوسف والعديد من تلاميذ أبي حنيفة ، أن يتمرّدوا على موقف استاذهم ، فيتولّوا القضاء للخليفة العباسي هارون الرشيد والخلفاء من بعده ، خاصة وان الخلفاء العباسيين المتوارثين للحكم ، كانوا ظَلَمة حسب اعتقاد الامام أبي حنيفة ، ولم يكن يسوّغ التعامل معهم ، ولسنا ندري لو طال به العمر ، ورأى تلاميذه يُسارعون في تولّي القضاء للحكام العباسيين ، فماذا كان ردّ فعله سوى نعتهم بالخيانة؟ ولولا تولّي هؤلاء للقضاء والوظائف الحساسة في البلاط العباسي ، لما شاع المذهب الحنفي الذي دوّنه أبو يوسف القاضي وأقرانه ولَما بلغ هذه الشهرة والانتشار.

إذ ان أبا يوسف أول من صنع أصول الفقه على مذهب استاذه ، وبثّ علمه في اقطار الأرض ، ولم يكن الامام ابو حنيفة سوى فقيه يقر بالخطأ والزلل والقصور ، وان رأيه مجرد رأي قابل للنقاش والرفض أو القبول ، ولم يكن يَدور في خلده ان تصبح فتاواه وأحكامه ، مذهباً مشهوراً يُطبق الآفاق من خلال تلاميذه وأتباعه الذين تبوأوا المقاعد القضائية والوظيفية للبلاط العباسي الذي كان يتهرّب منه الامام نفسه) !!١.(

ونأتي الآن للخوض في حيثيات المذهب الحنفي نفسه ، لنعرف مدى صحة الادعاءات التي أطلقها أصحاب المذهب الحنفي والمدافعون عنه ، حول أعلمية الامام أبي حنيفة وفقاهته التي لم يبلغها أحد من معاصريه.

أبو يوسف على خطى أستاذه

لم يطع أبو يوسف استاذه أبا حنيفة عندما نصحه بعدم كتابة كل ما يسمعه منه ، لأن أحكامه وفتاواه تتغير باستمرار ولا تعرف الثبات ، بينما يقول أبو يوسف انه لم يخالف أبا حنيفة في آرائه أبداً وانما إذا اصدر حكماً مخالفاً لحكم أبي حنيفة في الموضوع نفسه ، فإنما هو حكم سابق لاستاذه كان أصدره ثم رغب عنه .بمعنى ان ابا يوسف يستنسخ آراء استاذه جملة وتفصيلاً.

غير ان أبا يوسف القاضي تمرّد على تعاليم استاذه أبي حنيفة حين أخذ يفتي للسلطان بلا حساب ، بعد أن أصبح قاضياً لبني العباس ، نفقد أفتى لزبيدة زوجة الرشيد بما تحب وترغب ، فجازته خير جزاء ، وبعثت له أموالاً وموادَ نفيسة مقابل فتاواه وأحكامه .وصلّى هارون الرشيد ـ مرة ـ إماماً وقد احتجم ، فصلى الامام أبو يوسف خلفه ، ولم يُعد الصلاة مع ان الحجامة عنده تنقض الوضوء) ١.(

ولم يتورع أبو يوسف القاضي ان يقول في أستاذه : ان أبا حنيفة كان مُرجئاً جهمياً حتى مات على ذلك ، فقيل له : فأين أنت منه؟ قال : إنما كان مدرّساً ، فما كان من قوله حسناً قبلناه ، وإن كان قبيحاً تركناه) ٢.(

موقف مالك من أبي حنيفة

ويكشف مالك بن أنس عن حقيقة ابي حنيفة بالقول : لو خرج على هذه الأمّة بالسيف كان أهون ، ابىا حنيفة كَادَ الدين ، ومن كَادَ الدين فليس له دين) ٣ .(وما ينبغي

لبلد يُذكر أبو حنيفة فيه أن يُسكن) ١ .(وما ولد في الاسلام مولود اضرّ على أهل الاسلام من أبي حنيفة) ٢ .(وكانت فتنة أبي حنيفة أضرّ على هذه الأمّة من فتنة إبليس) ٣.(

موقف أحمد بن حنبل من ابي حنيفة

كان ابن حنبل عندما يكتب الحديث ، يختلف الى أبي يوسف القاضي لأنه أميل إليه من أبي حنيفة .وعند ابن حنبل ان رأي أبي حنيفة مذموم) ٤ .(وصرّح ابن حنبل في رسائل عقائده بثلُب أبي حنيفة.

موقف الشافعي من أبي حنيفة

وحين نظر الشافعي في كتاب لأبي حنيفة فيه عشرون ومائة ، أو ثلاثون ومائة ورقة ، وجد فيه ثمانين ورقة في الوضوء والصلاة ، ووجد فيه إما خلافاً لكتاب الله ، أو لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآلهأو اختلاف قول ، أو تناقضاً ، أو خلاف قياس.

سأل ابن إدريس الشافعي محمد بن الحسن الشيباني : نشدتك الله من كان أعلم بسُنّة رسول الله : مالك أو أبو حنيفة : فقال : مالك ، ولكن صاحبنا أقيس .فقال الشافعي : قلت نعم ، ومالك أعلم بكتاب الله من أبي حنيفة ، فمن كان أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ، كان أولى بالكلام ، فيسكت الامام محمد بن الحسن) ٥.(

البخاري وأبو حنيفة

يقول الامام البخاري ، صاحب الصحيح الشهير ، عن أبي حنيفة بأنه كان مرجئاً ، سكتوا عن رأيه وعن حديثه) ١ .(وقالا لبخاري في كتابه في الضعفاء والمتروكين : أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت الكوفي ، قال نعيم بن حماد : ان يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ ، سمعا سفيان الثوري يقول : قيل : أُستتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين) ٢ .(وينقل البخاري عن سفيان بن عيينه عن أبي حنيفة : لعنه الله ، كان يهدم الاسلام عروة عروة ، ما وُلد في الاسلام مولود أشرّ منه) ٣.(

سفيان الثوري وأبو حنيفة

يقول سفيان الثوري عن أبي حنيفة : ما وضع في الاسلام من الشر ما وضع أبو حنيفة) ٤.(

وذات يوم قال سفيان الثوري وقد جاء نعي أبي حنيفة : الحمد لله الذي أراح المسلمين منه) ٥.(

أما سفيان بن عيينه فيقول : ولم يزل أمر الناس معتدلاً حتى غيّر ذلك أبو حنيفة

الاوزاعي وأبو حنيفة

يقول الامام الاوزاعي : إنا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى ، كلنا يرى ، ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي)صلى الله عليه وسلّم (فيخالفه الى غيره) ١.(

إتهامات بحق أبي حنيفة

. ابن الجارود ، جُلّ حديثه وَهْمٌ ، وقد أختلف في إسلامه) ٢.(

. ضعّفه النسائي من جهة حفظه ، وابن عدي وآخرون) ٣.(

. قال سلمة بن سليمان لابن المبارك : وضعت من رأي ابي حنيفة) ٤.(

. حماد بن أبي سليمان : أبلغ عني أبا حنيفة المشرك اني بريء منه حتى يرجع عن قوله في القرآن) ٥.(

. عبد الرحمن بن مهدي : ما أعلم في الاسلام فتنة بعد فتنة الدجال أعظم من رأي أبي حنيفة) ٦.(

. عمر بن قيس وهو من أعلام أهل السُنّة وأعيان التابعين : من أراد الحق فليأت الكوفة فلينظر ما قال أبو حنيفة وأصحابه فليخالفهم) ٧.(

نقد لاذع بحق أبي حنيفة

روى الخطيب البغدادي كثيراً من النقد اللاذع ، والجرح البليغ ، بحق أبي حنيفة ، وجمع كل ما قيل في أبي حنيفة من قدح وذمّ حتى المكفّرات ، ثم رجّحها) ١.(

ومما نقله الخطيب:

. يوسف بن اسباط : ردّ أبو حنيفة على رسول الله أربعمئة حديث أو أكثر.

. وكيع : وجدنا أبا حنيفة خالف مئتي حديث.

. حماد بن سلمة : ان أبا حنيفة استقبل الآثار والسنن ، فردّها برايه.

. أبو حنيفة : لو أدركني النبي وأدركته لأخذ بكثير من قولي ، وهل الدين إلا الرأي الحسن.

ونقل الخطيب هذا وأمثاله عن أبي حنيفة النعمان ، بالاساليب المعتبرة ، عن كل من أبي عوانة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، ووكيع ، والحجاج بن أرطأة ، وفيان بن عيينة وغيرهم.

أبو حنيفة بين الحديث النبوي والقياس والرأي

الطريقة التي اتبعها أبو حنيفة النعمان في استنباط الاحكام الشرعية ، هي انه يبحث في كتاب الله ، ثم في السُنّة النبوية ، ثم يأخذ بأقوال الصحابة إذا اتفقوا ، أما اذا اختلفت آراؤهم ، يأخذ بقول أحدهم.

والمهم عند أبي حنيفة هو ان الحديث النبوي اذا صحّ فهو مذهبي.

وأبو حنيفة ، يقدّم القياس الجلي على الخبر الواحد المعارض له) ١ .(والمدافعون عن أبي حنيفة يزعمون انه انما كثر القياس في مذهبه ، لكونه في زمن قبل تدوين الحديث ، ولو عاش حتى تدوين الاحاديث الشريفة ، وبعد رحيل الحُفّاظ في جمعها من البلاد والثغور ، وظفر بها ، لأخذ بها وترك كل قياس كان قاسه.

وتعليقنا على هذا الادعاء من أصحاب المذهب الحنفي : لِمَ تأخر تدوين الحديث النبوي الى أواسط القرن الثاني الهجري ، بحيث اضطر الفقهاء والمجتهدون للاستفادة من القياس والرأي لاستنباط الاحكام الشرعية مع نُدرة الاحاديث النبوية التي لو دوّنت في حينها لما حصل ما حصل من اختلاف في الأحكام المستنبطة وبُعْدها عن الحكم الصحيح الذي أراده الله تعالى للمسلمين.

ثم ان الحقائق تثبت ان الاحاديث كانت متوافرة عند أبي حنيفة ، لكنّه كان يردّها ، لمخالفتها القياس في نظره ، وقد تكون الاحاديث التي يردّها مما عَمَل به غيره ، لصحّتها أو لحُسنها وصلاحيتها للاحتجاج) ٢ .(وإن كثيراً من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة لردّه كثيراً من أخبار الآحاد والعدول ، لأنه كان يذهب في ذلك الى عرضها على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن ، فما شذّ عن ذلك ردّه وسمّاه شاذاً) ٣.(

ولذلك فان اتهام أبي حنيفة بأنه يُقدّم القياس ويعتد بالرأي من دون الحديث ليس بباطل ، وان الذين يقولون بأنه ما يكون لأبي حنيفة ولا لغيره ولا لأحد من أهل الايمان

والعلم ، أن يترك سُنّة رسول الله ، اذ لا يترك السُنّة إلا مبتدع ، ولا يزيغ عنها إلا هالك ، قد أقرّوا بزيغ أبي حنيفة من حيث لا يشعرون.

وأما الذين يدّعون بأن أبا حنيفة إنما اخذ بالقياس وترك الحديث الصحيح ، فإنه لابد أن يكون القياس مسبوقاً بنص صحيح من الشارع ، فما في القياس طرح للسُنّة ، بل هو العمل بسُنّة هي أقوى في نظر المجتهد من سُنّة أخرى) ١.(

فهو زعم عجيب يفتقد الدليل والبينة ، لأن أبا حنيفة لم يدّع ذلك أبداً ، وانما هو يُعمل الرأي والقياس إذا لم يطمئن للحديث وشكّك بصحته ، فيما يُثْبت الفقهاء الآخرون صحته المطلقة ، ومن حقنا أن نتساءل : لماذا يخفي أبو حنيفة ، خبر الحديث الصحيح عنده يا ترى ، فهل يخفيه لكي يثير الشكوك حول نفسه؟ أم ان هؤلاء يحاولون الدفاع عن صاحب المذهب الحنفي بكل الذرائع والمبررات مهما كانت واهية ومُضادة للعقل ، هذا في وقت يعترض الشافعي على

أبي حنيفة لعمله بالحديث المُرسل ، للجهل بصفات الراوي التي تصحّ بها الرواية ، بينما ترى أبو حنيفة ان المُرسل في قوة المُسند يحتج به ، ووجه احتجاجه بأن الصحابة أنفسهم أرسلوا) ٢ .. (لكن الصحابة ليسوا كلهم عدولاً ، كما أثبتنا من قبل ، واذا كان بعض الصحابة يثق بالآخر ، فربما اندسّ بين الصحابة العدول ، صحابة مشكوك فيهم ، ويتظاهرون بالتقوى والصلاح ، فيضعون من الأحاديث ما يشوّه الحديث النبوي ، بعد ان أثبت القرآن الكريم والرسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسه بأن هناك صحابة منافقون وفي قلوبهم مرض ، بل وان النبي صلى الله عليه وآله هنفسه كان يجهل حالهم ، فينقل الصحابي الثقة ، الخبر المكذوب منهم دون أن يعلم ولا يذكر اسماءهم

)١ (المذاهب الفقهية : ٤٠.

)٢ (المذاهب الفقهية : ٤٢ ـ ٤٣.

لثقته بهم .وعليه فمن الخطأ الوثوق بالحديث المُرسل واعتماده في الفتوى.

ثم ان الحنفيين يثقون بالصحابي الراوي الى درجة ، يعتبرون فعله المخالف للقرآن ، تخصيصاً لعام القرآن ، لأن الصحابي لا يفعل فعلاً مخالفاً للقرآن الكريم بحكم حصانته الذاتية التي تمنعه من ارتكاب الافعال القبيحة أو المخالفة للنصوص القرآنية) ١ (ولذلك فقد توقّف أبو حنيفة في تحريم بعض المشروبات الكحولية لأنه ثبت ان بعض الصحابة كانوا يعاقرونها ، ولما تيقّن هو بأن القرآن الكريم قد حرّمها ، وحفاظاً على كرامة الصحابة ، امتنع عن تحريمها لكنه لا يحلّلها في الوقت نفسه ، مع ان الكثير من الصحابة قد ارتكبوا خطايا أكثر من شرب الخمر ، كقتل النفس المؤمنة المحترمة ، أو ممارسة خطيئة الزنا أو سرقة بيت المال ، أو التجسّس لصالح المشركين ، بل ان بعض الصحابة أو الكثير منهم ، قد

فرّوا من الزحف في الحروب ، مع ان القرآن قد لعنهم ، وغير ذلك من الافعال المُشينة التي كان يمارسها الصحابة ، ويأتي القرآن أو النبي صلى الله عليه وآله ليفضحهم ويشهّر بهم.

فإذن الادعاء بأن مذهب الصحابي على خلاف العموم ، مخصص له ، لكونهم يفترضون ان الصحابي ما كان ليذهب الى خلاف عموم دليل يعرفه إلا إذا كان يعلم عن رسول الله ما يخصّ ذلك العالم ، أو انهم يردّون الرواية اذا عمل الراوي) الصحابي (بخلافها لأنه لفرط الثقة فيه ، لا يظن به أن يعمل بخلاف ما رواه ، إلا أن يثبت عنده نسخه) ٢ (هذا الاستنتاج مغلوط وغير علمي ولا منطقي ويتعارض مع التأكيدات القرآنية والنبوية وسيرة الصحابة بأي حال من الاحوال.

نموذج من الفتاوى الغريبة لأبي حنيفة

إذا تزوج أحدهم ، امرأة لا يحل له نكاحها ، كأمّه أو ابنته ، أو اخته ، أو جدّته ، أو خالته ، أو بنت أخيه ، عالماً بقرابتها منه ، وبتحريمها عليه ، لا حدّ عليه ، سواء كان عالماً بذلك أو غير عالم ، لكنّه يُعزّر ويوجع عقوبة اذا كان عالماً بذلك ، فالولد لاحق به ، والمهر واجب لهنّ عليه ، وذلك لأن العقد يورث شبهة حسب زعمه) ١ .(

حكم الرأي بين الحنفيّة ومعارضيهم

يتشبث أصحاب المذهب الحنفي في دفاعهم عن تبنّي) الرأي (كقاعدة في الاستنباط الشرعي ، بالآية القرآنية : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) ٢ ، (غير ان هذه الآية لا تشير من قريب أو من بعيد لإعمال الرأي في استخراج الاحكام الشرعية ، كما ان المذهب الظاهري لا يحل لأحد العمل بالرأي لقوله تعالى : مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ)٣ ، (وكل هذا اذا تعدى به ما ورد فيه النص فهو تعدّ لحدود الله) ٤ .(

من شطحات أبي حنيفة عند الفقهاء

.كثرة الرواة لا تفيد الرجحان.

. تقديم القياس الجلي على خبر الواحد المعارض له.

. الأخذ بالاستحسان وترك القياس عندما تظهر الى ذلك حاجة.

. اذا خالف الراوي الفقيه روايته ثم صح عنه العمل بخلافه ، إن العمل بما رأى لا بما روى) ١ .(

اذا كان المدافعون عن المذهب الحنفي ، يعتبرون تقليل اعتماد أبي حنيفة على الحديث النبوي بسبب قلّة الصحيح فيه ، لأن ذلك تم قبل تدوين كتب الحديث والسنن المعتبرة من صحيح وسُنن وغيرها ، وإن أبا حنيفة لو عاش الى ذلك العهد لترك الكثير من آرائه وأقواله وفتاواه فهذا إقرار بأن تلك الآراء والأقوال كانت مخالفة للسُنّة النبوية الصحيحة المعتبرة ، فلِمَ يا ترى لم يتخل أتباع المذهب عنها بعد تدوين السنن والصحاح الوثيقة؟ وظلوا متمسّكين بها بالرغم من تحذير صاحب المذهب نفسه ، أي أبي حنيفة الذي طالب تلاميذه وأتباعه بعدم الالتزام الحرفي بكل ما رآه وأفتى به؟ إنه التقليد الاعمى؟؟ .فكيف لنا أن نتبّع مذهباً ، هو في الحقيقة ، لم يكن سوى آراء وأقوال واحتمالات ، أطلقها فقيه لم يطمئن لها ، وانما عدّها محاولات تحتمل الصواب والخطأ ، فجاء تلاميذه وأتباعه ومريدوه ، وأنشأوا منها مذهباً ، اصبح مُعتَمداً ، بالرغم من انتقاد العشرات من علماء وفقهاء أهل السُنّة وأصحاب المذاهب الأخرى ، وتخطئتهم لصاحب المذهب ، وتوجيه مختلف الطعون والشكوك له ولآرائه الفقهية؟

)١ (فتح الباري . ابن حجر ٩ : ١٣١ ؛ عمدة القاري . العييني ٢٠ : ٩٨.

عند التحرّي عن آراء واستدلالات الامام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وشيخ الحديث ، وصاحب المذهب الثاني من المذاهب الاربعة الشهيرة ، لمعرفة حقيقة علم الإمام ومدى تطابق الحقيقة مع الواقع ، نستنتج الحقائق والامور التالية.

مالك ومقدرته العلمية

لم يكن الامام مالك بن أنسن يجيب عن كل الاسئلة والاستفسارات الفقهية ، وانما كثيراً ما كان يُبدي عجزه عن الاجابة ، ويبقى حائراً لا يدري ما يقول ، فمرَّة سُئل عن أربعين مسألة ، فقال في ست وثلاثين منها بأنني لا ادري.

وذات يوم كان الهيثم بن جميل ، حاضراً عند مالك عندما سُئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فأجاب عن اثنتين وثلاثين منها بأنه لا يدري) ١.(

وقَدمَ خالد بن خداش على مالك بأربعين مسألة ، فما اجابني منها إلا على خمس مسائل) ٢.(

وفي بعض الاحيان ربما كان مالك يُسأل عن خمسين مسألة ، فلا يُجيب عن واحدة منها ، ويُبدي حيرة في كلّها في الاطلاق .وجاء رجل الى مالك ليسأله عن مسألة ، قائلاً إن قومه أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر ، فقال مالك له : أخبر الذي

أرسلك اني لا علم لي بها .فقال الرجل : ومن يعلمُها؟ قال مالك : من علّمه الله ، قالت الملائكة : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ١) (٢.(

ويُبرّر مالك بن أنس عجزه عن الجواب ، بقوله : كان رسول الله ، إمام المسلمين وسيّد العالمين ، يُسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء ، فاذا كان رسول رب العالمين لا يجيب إلا بالوحي ، فمن الجرأة العظيمة ، إجابة من أجاب برأيه ، أو بقياس ، أو تقليد من يحسن به الظن ، أو عُرْف أو سياسة أو ذوق ، أو كشف أو منام ، أو استحسان أو خرص) ٣.(

وقال مالك ذات يوم : أفكلما جاءنا رجل ، تركنا ما نزل جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله لجدله) ٤.(

ونحن نستغرب كثيراً ، كيف يُبرّر مالك عجزه عن الاجابة بهذه الاعذار اللامسؤولة؟ فهو تارة يزعم بأن الذي يعلم الجواب عن الاسئلة هي الملائكة التي يعلّمها الله ، وطوراً يقول : أفكلما جاءه رجل ليحاوره ، يترك الشرع الاسلامي لجدله ، وحيناً يدّعي بأن الرسول وهو إمام المسلمين وسيّد العالمين ومع ذلك فهو لا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء ، فمن الجرأة أن يجيب أحداً برأيه أو بقاس أو بإحدى الوسائل التي وصفها هو والفقهاء الآخرون لاستنباط الأحكام .تُرى هل ان الله تعالى كلّف الملائكة بالاجابة عن أسئلة الحياري من المسلمين؟ خاصة في الامور التكليفية ، أم

ان الإجابة من واجب العلماء والفقهاء يلمون بالتشريع الاسلامي؟ ولماذا قال تعالى إذن في كتابه الكريم : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ١(؟ .. أليس من حق أفراد المجتمع المسلم ، الإجابة عن أسئلتهم وإشكالاته أم تظل معلّقة في أذهانهم دون جواب؟ مع ان الشريعة الاسلامية كانت متكاملة ، ولم يفرّد الله في الكتاب من شيء؟ ولِمَ يترك الامام مالك الشرع الذي جاء على محمد صلى الله عليه وآله ليجادل الناس في أمور تدور في الفلك الشرعي حتماً ، وجوابها تتضمنه القواعد الشرعية من كتاب وأحاديث نبوية هائلة؟ ثم كيف يقارن مالك بن أنس بينه وبين النبي صلىاللهعليهوآله في موضوع الاجابة عن إشكالات وأسئلة المستفسرين ، فالرسول نبي مصطفى من قبل الله تعالى ، يتلقّى الشرع من الوحي مباشرة طيلة فترة نبوته حتى يكتمل الدين وتنتهي مهمة الوحي ، أما علماء المسلمين ، فمهمتهم تبليغ الدين الذي اكتمل برحيل النبي وانتهاء مهمة الوحي ، وأجوبة الاشكالات الفقهية والعقائدية انما متوافرة في القرآن والسُنّة ، ولا ندري ما الربط بين الاثنين إلا التهرب أو العجز عن الاجابة على استفسارات الناس؟

ثم لو كان الاعتماد على الرأي والقياس والاستحسان والقواعد الأخرى الموضوعة من قبل أصحاب المذاهب الفقهية ، يُعتبر جرأة عظيمة ، فلِمَ اذن وضعوا تلك القواعد وأفتوا الناس عبرها سواء كان مالك نفسه أو الفقهاء الذين سبقوه كأبي حنيفة والحسن البصري وسعيد بن المسيب وغيره؟ اذا كانت هذه القواعد نفسها مشكوكاً في صحتها ، ولا تؤدي الى تعيين الحكم الالهي في المسألة ، وانما هي مجرّد ظنون واحتمالات وشكوك لا ينبغي الاستدلال بها؟

)١ (النحل ٤٣.

الامام مالك والرأي

كان الامام مالك يفتي بالرأي بالرغم من انه كان ينتقده ويشكّك في مشروعيته في الاستنباط الفقهي ، فقد أحصى الليث بن سعد على مالك بن أنس ، سبعين مسألة كلها مُخالفة لسنة رسول الله صلىاللهعليهوآله ، مما قال فيها برأيه ، ولقد كتب إليه يعظه في ذلك.

وكان أحمد بن حنبل يؤكد بأن حديث مالك صحيح ، لكن رأيه ضعيف ، كما قال سلمة بن سليمان لابن المبارك : وضعت من رأي أبي حنيفة ، ولم تضع من رأي مالك؟ فقال ابن مبارك : لم أره علماً.

ومالك بن أنس نفسه بكى في مرض موته ، قائلاً : والله لوددت أني ضُربت في كل مسألة أفتيت بها رأيي سوطاً ، وليتني لم أُفت بالرأي) ١.(

واذا كان مالك هكذا يشكّك بفتاواه وأحكامه التي وضعها ، وان الآخرين من رفاقه كانوا ينتقدون ضعف رأيه ، فلِمَ يا تُرى أقدم تلامذته على اتخاذ فقهه وأحكامه مذهباً ليُقتدى به ، ويتّبعه الكثير من المسلمين ، خصوصاً في المغرب والاندلس والعديد من الاقطار الاسلامية؟

الطعون على مالك بن أنس

ما أكثر الذين طعنوا وقدحوا في مالك ، واعابوا عليه ، علمه وفتاواه وآراءه ، منهم:

. محمد بن إسحاق الذي طعن في نسب مالك وقدح فيه) ٢.(

. وقدح في مالك ، ابن أبي ذؤيب وابن أبي حازم وعبد العزيز الماجشون وغيرهم ، وتكلموا فيه بكلام فيه جفاء وخشونة.

. وعاب جماعة من أهل العلم ، على مالك باطلاق لسانه في قوم معروفين

ـــــبالصلاح والديانة والصدق والأمانة) ١.(

. وتكلّم في مالك كذلك ، عبد العزيز بن أبي سلمة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن أبي يحيى ، وابن أبي الزناد ، فقد عابوا أشياء في مذهبه ، وتكلّم فيه غيرهم.

. وتحامل على مالك ، الشافعي ، وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه.

. وعابه قوم في إنكار المسح على الخفين في الحضر والسفر ، وكلامه في علي وعثمان ، وفي فُتواه بإتيان النساء في الأعجاز ، وفي قعوده عن حضور الجماعة في مسجد رسول الله ، ونسبوه بذلك الى ما لا يحسن ذكره.

. وكان أحمد بن حنبل يرى بأن ابن أبي ذؤيب أفضل من مالك ، إلا ان مالكاً أشدّ تنقية للرجال منه) ٢.(

الموطأ في الميزان

المشهور عن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور انه يوم حجّ الى بيت الله الحرام ، دعا مالك بن أنس ، فدخل عليه وحادثه وسأله فأجابه ، ثم عزم عليه المنصور أن يقوم باستنساخ الموطّأ الذي ألفه مالك بأمر الخليفة نفسه ، عدة نسخ ، ثم يبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة ، وأن يعملوا بها ولا يتعدّوها الى غيرها ، لأن أهل المدينة هم أهل العلم ، فأبى مالك أن ينفّذ تلك الفكرة ، لأن الناس قد سبقت اليهم أقاويل،

صلىاللهعليهوآله وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم وعلموا به ، ودانوا من اختلاف أصحاب رسول الله صلىاللهعليهوآله وغيرهم ، وانّ ردّهم عمّا اعتقدوا به ، غير ممكن .وطلب الامام مالك من الخليفة المنصور أن يدَعْ الناس وما هم عليه ، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم) ١ .(وبعبارة أخرى طلب مالك من المنصور أن لا يحمّل الناس على العمل بالموطأ ، وانما يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها رواية ودلالة ، وعلى من وثق برواية أحد وفهْمه لشيء منها أن يأخذ عنه ، ولكن لا يجد ذلك تشريعاً عاماً) ٢.(

وفي تصريحاته تلك ، يقرّ الامام مالك بحدوث اختلافات فقهية شديدة بين علماء الامصار المختلفة وفقهائهم ، وانهم قد تبنّوا أحاديث نبوية صدّقوها ووثقوا بها ، وطبّقوا مدلولاتها جيلاً بعد جيل ، ومن البعيد أن يتخلّوا عن قناعاتهم لاستيعاب ما توصّل إليه في الموطأ من أحاديث وآراء .وهذا إن دلّ على شيء فانما يدلّ على على أن ما دوّنه مالك في الموطأ إنما هو قناعات وانطباعات شخصية له ، من المحتمل أن يستسيغها بعض العلماء ، ويرفضها البعض الآخر ، ومن الخطأ تحميل الكل عليها ، لعلمه ـ أي مالك ـ بأن الموطأ ليس كتاباً مقدّساً أو ما يقارب ذلك ، وليس كتاباً يخلو من الأخطاء كما يزعم العديد من أتباع المذهب المالكي .بل ان من علماء السُنّة والجماعة يقول بأن مالكاً وضع في الموطأ ، نحو عشرة آلاف حديث ، ولم يزل ينظر فيه كل سنة ، ويحذف منه شيئاً فشيئاً حتى بقي نحو ٥٠٠ حديث ، ولو بقي حياً لحذفه كلياً ، والمتبقي من الموطّأ يحوي ثلاثمائة حديث مرسل ، وهذا المقدار يُعتبر أكثر من نصف مسانيده).٣(

والغريب ان عدد النسخ المنقولة عن الامام مالك ، غير معروف أو محدّد أبداً،

فبعضهم يدّعي أن عشرين نسخة اشتهرت للموطأ ، وذكر بعض آخر بأنها ثلاثون ، والمستفيض منها أربع نسخ) ١ ، (بينما أكد الامام الشاه ولي الله ست عشرة نسخة في مقدمة كتاب أوجز المسالك.

كما ان نُسخة الموطأ عن أبي محمد سويد بن سعيد بن شهريار ، مشتكوك فيها لأن هذا متكلّم فيه عند المحدثين كالامام البخاري وابن المديني) ٢.(

وكذلك نسخة الموطأ عن أبي زكريا ، يحيى بن بكير المصري الذي ضعّفه النسائي .وفي نسخة الموطأ عن أبي مصعب أحمد بن الحارث ، زيادة على سائر نسخ الموطأ بنحو من مائة حديث) ٣.(

وفي الموطّأ على سبيل المثال : جاءت إمرأة أبي حذيفة الى الرسول صلى الله عليه وآله ، فقالت إن سالماً يدخل عليها وهي مكشوفة الرأس والجسم ، وليس لهم إلا بيت واحد ، ورجته أن يضع حلاً للمشكلة ، فأوصاها صلى الله عليه وآله ، أن ترضعه خمس رضعات ، فيحرم لبنها ، فعملت بوصيته صلى الله عليه وآله ، ، فأصبح سالم ابناً لها من الرضاعة ، فاقتدت بها زوج الرسول عائشة ، فكانت اذا أحبّت أن يدخل عليها من الرجال ، أمرت أختها أم كلثوم وبنت أخيها فيرضعنه ، ويصبح محرماً لها) ٤.(

صلى الله عليه وآله ، ولا ريب انه من المحال أن تكون هذه الواقعة قد حدثت بالفعل ، ولاشك ان هذا الحديث موضوع جملة وتفصيلاً ، لأن سالماً كان شاباً قد بلغ الحُلُم ، وليس طفلاً ، صغيراً حتى يحقّ لامرأة أجنبية أن ترضعه ويصبح محرماً لها ، فكيف يجوز للمرأة أن تكشف عن جسدها ليضع فمه على صدرها ويمسه ويمتص من اللبن حتى بلوغ الرضعة الخامسة التي يصبح بعدها ابنها من الرضاعة؟ .. ثم لماذا لم يشتهر هذا الحديث إلا عبر عائشة دون غيرها ، مع ان الذين أصبحوا محرماً لها عدد لا بأس به ، وكان ينبغي أن يشيعوا خبر هذا الحلّ النبوي لهذه المعضلة حتى يصبح مخرجاً شرعياً للذين يقعون في مثل هذا المأزق؟ ولاشك ان سائر المسلمين اليوم لا يستسيغ هذا الفعل المُستهجن لأمه أو زوجته أو أخته أو إبنته ، فكيف يصحّ مثل هذا الحُكْم وانه قد صدر من النبي الأكرم صلىاللهعليهوآله يا أولي الالباب؟

نماذج من فتاوى الامام مالك وأقواله

الأول : يدّعي مالك أن أول سورة براءة لما سقط من القرآن الكريم ، سقطت معه البسملة التي كان من الثابت انها تعدل سورة البقرة في طولها) ١.(

وهذا إقرار من الامام مالك بأن القرآن الكريم المتوافر في أيدي الناس ناقص ، وان هناك عدداً من آيات براءة قد سقط منها مع البسملة ، بينما يؤكد أهل السُنّة والجماعة نقلاً عن ابن عباس بأنه سأل علياً لَمَ لم تُكتب في براءة) بسم الله الرحمن الرحيم ، (فقال علي : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف) ٢ ، (ولذلك لم تضم سورة براءة آية البسملة . فكيف نوفّق بين الروايتين؟

الثاني : كان مالك يضعّف حديث غسل الاناء سبعاً ، اذا ولغ فيه الكلب ، ويقول بأن ما يُؤكل صيده ، كيف يُكره لعابه؟ مع ان لا علاقة بين الاثنين ، وانه قياس باطل ، ومع تضعيف مالك لهذا الحديث ، فإن البخاري ومسلم قد دوّنا الحديث في صحيحهما.

الثالث : أهمل مالك اعتبار حديث : من مات وعليه صوم ، صام عنه وليه ، وذلك للأصل القرآني وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) ١ ، (مع ان الامام البخاري ومسلماً جاءا بعده وصحّحا الحديث ، ودوّناه في صحيحهما إثباتاً له.

والمعروف ان صحيح البخاري هو أصحّ كتاب بعد كتاب الله ، كما يعتقد جمهور المسلمين.

الرابع : فرّق مالك بين الوطء بعقد النكاح ، وبين الوطء في بعض تلك بملك اليمين ، فيقول : من ملك بنت أخيه ، أو بنت أخته ، وعمته ، وخالته ، وإمرأة أبيه ، وامرأة ابنه بالولادة ، وأمّه نفسه من الرضاعة ، وابنته من الرضاعة ، وأخته من الرضاعة ، وهو عارف بتحريمهن ، وعارف بقرابتهن منه ، ثم وطأَهُنَ كلهن ، عالماً بما عليه في ذلك ، فإنّ الولد لاحق به ، ولا حدّ عليه ، لكن يُعاقب ، ورأى ان الرجل إنْ مَلكَ ، أمّه التي ولدته ، وإبنته وأخته ، بأنهن حرائر ساعة يملكهن ، فإن وطأهن حُدّ حد الزنا) ٢.(

وليتنا نعلم ، كيف يحق للرجل أن يمتلك محارمه المقرّبين ، عالماً بتحريمهن عليه ، ويطأهن كلهن ، ثم يعاقب عقاباً يسيراً ، وهل هذا الحكم إلا إعمالٌ باطل ومغلوط للقياس والرأي؟

الخامس : ان ابن الماجشون . وهو فقيه مالكي وصاحب مالك . المعروف بسماع الأغاني والطرب . قد أفتى بأن المُخدَمة سنين كثيرة لا حدّ على المُخدم ، إذا وطأها . طبعاً بدون عقد زواج . ولا نعلم كيف يضفي هذا الفقيه المالكي على الزنا الصريح ، حكم الحلّية وعدم إقامة حد الزنا على الفاعل ، وهل ان الخدمة الطويلة ، تسمح للخادم بممارسة هذه الخطيئة وتخليصه من العقاب؟ إنه لعجب عجاب.

السادس : يقول مالك بعدم بقاء زوجة المفقود في عصمته ، وان من حقها الزواج بعد الفسخ ، وذلك بعكس ما يقول أبو حنيفة والشافعي من ان الزوجة تبقى في عصمة زوجها المفقود حتى تثبت وفاته أو تموت.

لا حجّية لعمل أهل المدينة

إن المتتبع لأحوال أهل المدينة وموقفهم من صاحب الرسالة الاسلامية ، طيلة فترة نزول الوحي ، وبعد رحيله صلىاللهعليهوآله ، لا يحكم بصحة ما يقوله مالك بن أنس في عمل أهل المدينة ، بخلاف أئمة أهل السُنّة الآخرين ، من انّ عملهم بمثابة سُنّة مشهورة مأثورة ورواية للحديث ، لأنهم . والقول لمالك . لا يخالفون الرسول صلىاللهعليهوآله ، ويتركون سُنته ، وانما عملهم امتداد لسُنّته ، وينبغي إتّباعها والأخذ بها مطلقاً ، وهي مقدّمة على خبر الآحاد) ١.(

وفي تعبير آخر : لما كان القرآن قد نزل في المدينة ، وأهلها هم أول من وجّه إليهم التكليف ، ومن خُوطبوا بالأمر والنهي ، وأجابوا داعي الله فيما أمر ، واقاموا عمود الدين ، وورثوا علم السُنّة ، وفقه الاسلام ، ولذا لا يجوز لأحد مخالفة عمل أهل المدينة ، للوراثة التي آلت إليهم في عهد تابعي التابعين.

)١ (المذاهب الفقهية : ٦٥.

ولا غرو ان هذه مجرّد إدعاءات ومزاعم تفتقر الى الدليل ، وذلك لأن القرآن الكريم كثيراً ما حذّر المسلمين ، وخاصة أهل المدينة ، من عصيان الرسول صلى الله عليه وآله ، وعدم إطاعته ، والتملص من تنفيذ أوامره ، كقوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ) ١ (وهدّد الله تعالى فريقاً من أهل المدينة بقوله : لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) ٢.(

وقد يردّ مُعرض بأن المعنيين في الآيات الكريمة ، بعض أهل المدينة وليس كلهم .. وهذا صحيح ، ولكن أولئك ضعاف النفوس من أهل المدينة الذين صنّفهم الله في خانة المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، يبثّون سمومهم هنا وهناك ، ويسعون إلى إفساد الآخرين والتشويش عليهم وبلبلة أفكارهم ومعتقداتهم ، وتحريف السُنّة النبوية من خلال الكذب

على رسول الله ، وربما تغلغلت سمومهم وأباطيلهم في أوساط أهل المدينة ، من حيث لا تعلم ، خاصة وانهم كانوا مجهولين على كثير من الناس ، ومندسّين بينهم ، فكيف والحال هذه ، نطمئن الى عمل أهل المدينة ، دون التحرّي عن الصادق منهم والكاذب ، والنزيه منهم والمتهم ، والمخلص منهم والمشبوه ، والحاد الذهن منهم ، وضحل الفكر والتلقي ، ولو كان أهل المدينة كلهم صادقين ، لما قال النبي صلى الله عليه وآله : ، من كذّب عليّ فليتبوأ مقعده من النار؟

ثم من قال ان أهل المدينة قد أجاب . جلّهم . داعي الله ، والقرآن الكريم دعاهم

الى الإجابة وحذّرهم ، قائلاً : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) الاحقاف ٣٢(؟

ثم لِمَ انفرد الامام مالك ، باعتبار عمل أهل المدينة سُنّة مشهورة دون أقرانه من الفقهاء وأصحاب المذاهب الأخرى ، الذين لم تَرُقْ لهم هذه القاعدة الفقهية التي تبنّاها مالك في نظريته الفقهية الخاصة به؟

مالك والسلطة الحاكمة

على الرغم من ان الخليفة العباسي) أبو جعفر المنصور (هو الذي أوعز للامام مالك بن أنس ، بتدوين الموطأ الذي أ صبح قُطب الرحى لأتباع المذهب المالكي) ١ ، (إلا ان مالكاً ظلّ مبتعداً عن أصحاب السلطة والحُكم ، كما هو معروف عنه ، حتى انه ظل منزوياً لا يصلي جماعة طيلة ٢٥ عاماً من حياته ، لأنه يعتبر النظام الحاكم غير عادل ولا ينبغي ممالاته والتعاون معه حتى رحل عن هذه الدنيا) ٢ ، (وأشار إلى محنته مع حكام زمانه اكثر المؤرخين ، مثل ابن الاثير والذهبي وابن خلكان وصاحب شذرات الذهب .وكان بعض تلاميذه قد سار بسيرته المتنفّرة من الحكام ، لكن بعض تلاميذه الآخرين ، خرجوا عن هذا المسلك ، مثل تلميذه يحي بن يحيى الذي أشاع المذهب المالكي في الاندلس ، لمسالمته لحاكمها ، وانتخابه القضاة له من المالكيين ومن أصحابه ، فانقرض مذهب الاوزاعي من الاندلس ، وخَلَفه مذهب مالك) ٣ ، (ولكن ذلك لم يتفق

لليث بن سعد ، صديق مالك ، حيث ان السُلطة لم تدعمه ، ولم يتوافر له أصحاب يؤازرونه كأصحاب مالك ، فانقرض مذهبه وفقهه ، اما الليث فقد قال فيه الشافعي كان أفقه من مالك) ١ .(

تُرى لو امتدّ العمر بالامام مالك ، وعاش ليرى تلامذته وقد هادنوا السلطات الحاكمة ، ودعموها ودعمتهم ، وبالتالي شاع مذهبه هناك ، فضلاً عن المغرب العربي وشامل إفريقيا ، فما هو موقفه من ذلك ومن التعاون مع الحكّام والعمل في مؤسساتهم ، الذين لم يكونوا ليقلّوا ظلماً عن حكّام بني العباس كما هو معلوم.

ولو قيّض لليث بن سعد ، أصحاب وتلاميذ سالموا الحكام وتعاونوا معهم ، وتبوأوا القضاء والوزارة لدى البلاط الحاكم ، لانتشر فقهه ، ولأصبح مذهباً مرموقاً الى جوار المذاهب الأخرى ، لا أن يتلاشى ويندثر وينزوي عن الحياة الاجتماعية كغيره من المذاهب التي ربما كانت اكثر متانة وقوّة وصحة وعُمقاً من المذاهب الاربعة الشهيرة ، لكن لم يسعفها الحظ أن تلتقي مع البلاط الحاكم؟

الامام الشافعي والتقلب بين المدارس الفقهية

هل صحيح ان محمد بن إدريس الشافعي ، ثالث أصحاب المذاهب الأربعة المُعتمدة لدى الجمهور المسلم .كما يقول أهل السُنّة والجماعة . عالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علماً ، وهو إمام الدنيا وعالم الأرض؟) ١ .(

وهل صحيح ان الشافعي أعظم منّة على الاسلام ، جَمَعَ الله له من العلوم والمفاخر ما لم يجمع لامام قبله وبعده ، واتّفقوا على إمامته وعدالته؟.

وهل صحيح انه لم يعرف ناسخ الحديث من منسوخه غير الشافعي؟.

وهل صحيح ان الشافعي سارت الركائب بفضله ، ومعارفه وثقته وأمانته ، الحافظ المثبّت ، ناصر الحديث والسُنّة؟)٢ .(

لابدّ من التأكد من أمثال هذه التقاريض التي امتلأت بها كتب علماء السُنّة ، وبالخصوص ، علماء المذهب الشافعي حول إمامهم وفقيههم.

وبعد البحث والتنقيب ، توصّلنا الى هذه الحقائق الراسخة:

١ . لم يكن هناك فقيه وعالم في التأريخ قد تذبذب في آرائه وأحكامه الفقهية مثل الامام الشافعي ، فهو في البدء كان متأثراً بمالك بن أنس وأنصار الحديث ، عندما كان في الحجاز ، ثم نبذ هذه الطريقة ، لما حلّ بالعراق ، متأثراً بأهل العراق وأصحاب أبي حنيفة

من مدرسة القياس والرأي ، ثم حين توجّه الى مصر ، وجد من الأنسب ان يمزج بين طريقة الحجازيين وطريقة العراقيين ، فوفّق بين مدرسة الحديث ، ومدرسة الرأي) ١ .(

نحن نستغرب ، لِمَ هذا التذبذب في تبنّي القواعد الاصولية والفقهية لدى الامام الشافعي؟ وما علاقة ذلك بتغيّر البيئة والعرف في العراق ومصر ، كما يرى أشياع المذهب الشافعي ، ويعزونها الى مرونة الفقه الاسلامي ، ومسايرته للتطور؟)٢ .(

واذا علمنا ان لكل قطر وبلد وبقعة في الارض ، بيئة معينة خاصة بها ، فهل يعني أن يتبني العلماء وأصحاب المدارس الفقهية ، مذاهب بعدد الأمصار والبلدان والبقاع الموزّعة ـ شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، حسب تلك البيئة والمصر.!!

واذا عرفنا ان المذهب الشافعي له أتباع في كل الاقطار والبقاع والقارات ، وليس في مصر بالذات ، فكيف يوفّق أولئك الأتباع بين أحكام المذهب ، وبيئاته وأعرافهم التي تختلف من بقعة الى أخرى ، وتتعارض فيما بينها؟ تُرى لو قيّض للامام الشافعي ، الرحيل الى قطر آخر من الأقطار والولايات الاسلامية ، قبل ان يتوفى ، فهل كان قد غيّر مذهبه وقواعده وأحكامه ، طبق ذلك القطر ذي البيئة ال مخالفة لبيئة مصر والعراق أو الحجاز؟

وفي هذا السياق ، إذا كان المذهب الحنفي .ملائماً للعراق فحسب ، أي المذهب المبني على قواعد القياس والرأي؟ ، فكيف تبّنته ولايات وبقاع نائية ، تختلف بيئاتها وتقاليدها عن أهل العراق كلياً ، كالدولة العثمانية ، وبلدان أوروبية كالبوسنة والهرسك ومقدونيا وألبانيا؟

وعليه ، فلو كانت الطريقة أو المدرسة الفقهية التي تبنّاها الامام الشافعي ، مُلائمة لأهل مصر فقط ، فلِمَ لم يقصرها صاحب المذهب ، على مصر دون غيرها من الأمصار التي انتقل إليها المذهب الشافعي؟

ثم لو كان المذهب المالكي أو ما يُسمّى بمدرسة أهل الحجاز والحديث ، تُلائم الحجازيين فقط ، ولذلك غيّر الامام الشافعي ، أسلوبه الأصولي والفقهي عندما رحل الى العراق ثم مصر ، فكيف انتشر المذهب المالكي في بقاع نائية ، تختلف تقاليدها وبيئاتها وأعرافها عن أهل الحجاز كلياً ، مثل المغرب والاندلس ، وأصبح المذهب المالكي هو الحاكم في تلك المناطق؟

والغريب ان المذهب الحنبلي الذي كان صاحبه يعيش في بغداد ، قد تبنّته الشام أولاً ، ثم أصبح حكراً على أهل الحجاز البيئة المتفاوتة مع العراق مثلاً؟

والحق ان تعدد المذاهب الفقهية ، انما أملاه اختلاف ثقة أصحاب المذاهب بالحديث النبوي ومزاجهم الخاص ، وليس للبيئة أي دور في هذا الصدد.

فمالك بن أنس ، كان يثق بأهل المدينة ، ويعدّ عملهم بمثابة سُنّة عملية ، ولذلك كان يتوسّع في قبول الحديث ال نبوي ، ويقلّل من شأن القواعد الأخرى كالقياس مثلاً.

أما أبو حنيفة النعمان ، فلم يثق إلا بالحديث المشهور الواضح المعنى ، ولم يلتفت الى الحديث ال حسن أو المُرسل كما هو عند مالك والشافعي .ولاريب ان السُنّة النبوية لو كانت مدوّنة منذ العهد النبوي أو بعده مباشرة ، لما حصل كل الذي حصل؟

٢ . لم يكن الامام الشافعي ، مُقتنعاً اقتناعاً تاماً بأقواله وآرائه ، فهو يقول بأنه إذا صحّ الحديث فاضربوا بقولي الحائط)١ ، (يعني اذا كان قد رأى رأياً على أساس ان الحديث النبوي غير صحيح أو ضعيف ، وقد صحّ الحديث عن طريق الآخرين ، أو عند

أهل الجرح والتعديل ، فللمقلدين أن يتخلّوا عن تقليد الشافعي في هذه المسألة ، ويرجعوا الى الحديث الصحيح ، خاصة وان الشافعي أوصى بأن ليس لأحد أن يترك قول رسول الله لقول أحد) ١.(

ويحاول البعض تبرير موقف الشافعي هذا ، بقوله : وما يبدو من عدول عن بعض الحديث ومخالفته ، فعذره عنده ، ان الحديث لم يصله ، أو وصله ولم يصح عنده لضعفه ، أو وجد فيه طعناً ، لا يراه غيره طعناً ، أو تركه ، وهو صحيح حسن ، لثبوت ما هو أصح منه عنده ، أو ثبت عنده نسخه) ٢ .(ولكن والحال هذه ، ستتعدّد الفتاوى والأحكام الشرعية وتتعارض فيما بينها ، تَبَعاً لثقة المجتهد بالحديث أو عدم ثقته ، فلو كان الحديث النبوي قد صدر حقاً من الرسول صلى الله عليه وآله ، فإن الحكم الشرعي الذي يعتبر الحديث صحيحاً ، سيكون أقرب صحة من الأحكام الشرعية الأخرى التي تعتبر الحديث حسناً ، أو ضعيفاً ، أو مطعوناً فيه ، أو منقطعاً أو منسوخاً ، وهو في الحقيقة ، غير منسوخ ولا ضعيف ولا منقطع ، بل ربما كانت الفتوى أو الحكم الشرعي ، غير شرعي تماماً ، ولا تنطبق عليه صفة الشرعية ، لفقدان الاساس الذي يستند اليه وهو الحديث الصحيح الذي جاء عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، ومصدر كل هذه الإشكالات عدم تدوين الحديث النبوي في وقته المناسب ، وذلك عندما فُرض طوق على الحديث من خلال منع تدوينه أو التحدّث به بحجة الخوف من تداخله مع القرآن الكريم.

فهل كان الامام الشافعي معذوراً عندما توقَّف في كثير من المسائل ، ولا يدري ما الجواب الشرعي فيها؟

)١ (المذاهب الفقهية : ٩١.

)٢ (المصدر السابق.

أمّا لو كان الحديث المزعوم لم يصدر عن النبي صلىاللهعليهوآله أبداً ، أي ان موضوع الحكم أو الفتوى التي يصدرها الفقيه ، اذا كانت مبنية على أساس ان الحديث ضعيف أو مطعون فيه أو مشكوك بأمره ، فإن هذه الفتوى هي أقرب للصواب من الفتوى المبنية على أساس ان هذا الحديث صحيح أو حسن أو يستيغه الفقيه لأي سبب من الأسباب ، فيأتي الحكم غير مشروع وهو أقرب للبدعة.

كما ان الامام الشافعي لما ردّ المُرسل ، وخالف من تقدّمه ، اضطربت أقواله ، حسب اعتراف أقرانه من علماء أهل السُنّة ، فمرّة ، قال : المُرسل ليس بحجة مطلقاً ، إلا مراسيل سعيد بن المسيب ، ثم اضطر الى ردّ مراسيل ابن المسيب نفسه ، ثم الى الأخذ بمراسيل آخرين ، ثم قال بحجّية المُرسل عند الاعتقاد ، ولذلك تعب أمثال البيهقي في التخلّص من هذا الاضطراب ، وفي مسند الشافعي نفسه مراسيل كثيرة) ١.(

وما من شك ان هذا الاضطراب والتردّد ، وعدم اتخاذ موقف حاسم من المراسيل ، إنما يُنبئ عن طبيعة الامام الشافعي نفسه ، التي لا تثبت على موقف فقهي معيّن ، ولا قاعدة محدّدة ، كما هو ديدنه في تحوّلاته بين الحجاز والعراق ومصر . فهو عندما تبنّى مدرسة الرأي في العراق ، قلّل من اهتمامه بالحديث ، خاصة المراسيل منه ، ولكنه عندما حلّ في مصر ، رجع الى مدرسة الحديث ، واهتم بالمراسيل أكثر من قبل ، مُركّزاً على الحديث الصحيح والحسن في نظره.

الشافعي والقرآن الكريم

كان الشافعي ، وهو الذي عاش في القرن الثاني من الهجرة ، يقول بانه لا يحل

)١ (نصب الراية ـ الزيلعي ١ : ٢٣.

لأحد أن يُفتي في دين الله ، إلا ان يكون رجلاً عارفاً بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكّيه ومدنيّه ، وما أُريد به ، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن) ١.(

غير ان الشافعي قد أدان نفسه بنفسه ، لأنه لم يكن على إطّلاع راسخ بالقرآن الكريم كما ينبغي ، ووضع قواعد اصوله وفقهه على أساسه ، فهو قد أخطأ في فهم معاني القرآن مراراً ، منها على سبيل المثال ، مصطلح العَول ، حيث اعترض العلماء على تفسير الامام الشافعي ، الآية الكريمة : ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) ٢ ، (ففسّر الشافعي» : تعولوا « بمعنى» يكثر عيالكم ، «فقال ابن الوزّان : أخطأ الشافعي ، يُقال : عال) الرجل (يعيل إذا افتقر ، وأعال) معيل (إذا كثر عياله) ٣.(

هذا في شأن القرآن الكريم ، أما في شأن الحديث النبوي ، فالشافعي نفسه قال : إذا صحّ الحديث فاضربوا بقولي الحائط ، لأنه كان غير مطمئن لأقواله وآرائه بأنها تأتي على وفق الحديث الصحيح ، فلربما كان يشكّك في حديث ما ، وهو صحيح أنه لم يكن مطّلعاً عليه بصورة كافية ، واذا كانت الحال هذه ، فكيف سوّغ لنفسه ، الإفتاء في دين الله ، مع انه لم تكتمل لديه قواعد الاستنباط الكافية ، والشروط التي تؤهّله ليكون فقيهاً ومفتياً بحق.

الامام الشافعي ويحيى بن معين

يحيى بن معين ، من كبار أئمة الجرح والتعديل ، جعلوا قوله في الرجال حُجّة قاطعة ، وهو قد شكك في الامام الشافعي ، وتصريحه بهذا ثابت عنه من طرق صحيحة ، ومن أقوال يحيى بن معين : الشافعي كان يكذب ، ما أحبّ حديثه ولا ذكره) ١.(

الشافعي والصحابة

يعتقد الامام الشافعي بأن الصحابة هم رواة للحديث النبوي ، غير ان اجتهادهم وفتاواهم وآراءهم ، مَحطّ تساؤل ، لأنهم قد يخطئون كغيرهم من المسلمين ، ولذا لا يلزم أن تُؤخذ أجمعها أو بعضها ، كما هو عند المذهب الحنفي ، أما اذا عمل الصحابي بخلاف ما رواه ، فالشافعي يعمل بالحديث المروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله ، ويترك عمل الراوي ، إذ قد يكون عن اجتهاد ، أو سهو ، أو نحو ذلك) ٢.(

والشافعي بذلك يُخالف المذاهب الفقهية الأخرى التي تتمسك بفتوى واجتهاد الصحابي لتدعم بها قواعدها الفقهية.

غير ان الشافعي لثقته بالصحابة يأخذ بروايتهم للحديث النبوي ، مأخذ الصحة الكاملة ، من دون أي نقاش أو تشكيك ، باعتبارهم رواة صادقين للحديث ، نراه في كتابه) الأم (يجوّز على الصحابة الذين رووا عن النبي ، الخطأ والكذب ، إذ كانوا لا يقبلون مرويات بعضهم أحياناً ، ويعمل كل منهم بما يوحيه اجتهاده ، وقد تراشقوا بأسوأ التهم ، واستحل بعضهم دماء البعض الآخر.

فإذا كان هذا حال الصحابة ، فكيف يعتمد على روايتهم للحديث النبوي وتُصدّق مروياتهم دون تمحيص وتحقيق كامل؟ وكيف يمكن قبول المراسيل ، دون معرفة الصحابة المنقولة عنهم تلك الروايات المنقطعة؟ إنها تساؤلات وجيهة!!

من فتاوى الشافعية

أبو سهيل الأبيوردي ، من علماء الشافعية ، ويُوصَف بأنه أحد أئمة الدنيا علماً وعملاً ، ومن أئمة الفقهاء ومع هذه الألقاب الرنانة ، فهو قد أفتى بأن الحدّ لا يلزم من يلوط بمملوك له ، بخلاف مملوك الغير ، وبدلاً من توجيه النقد لأمثاله ، وتخطئة مثل هذه الفتاوى والأحكام المخالفة بوضوح لحكم الله تعالى ، نرى علماء كباراً يسعون لتبرير مثل تلك الفتاوى والاحكام بذرائع واهية ، كقول القاضي حسين بأنه ربما قاس الايبوردي ، هذا الأمر على وطء أمته المجوسية أو أخته من الرضاع ، وعلله صاحب البحر بأنه ملكه فيه يصير شبهة في سقوط الحد ، والذي جزم به الرافعي تبعاً لأكثر الأصحاب ، أنه لا فرق بين مملوكه وغيره ، نعم في اللواط من أصله قول ان موجبه التعزير ، انه مخرج من القول بنظيره في إتيان البهيمة) ١.(

على ان ابن عقيل يرى بأن الوطء إن كان في الدبر في حق أجنبية ، وجب الحدّ الذي أوجبه في اللواط ، وعلى هذا فحدّه القتل بكل حال ، وان كان في مملوكه ـ أي عبده ـ فذهب بعضهم انه يعتق عليه.

إنها تبريرات ساذجة تتصادم والحكم الشرعي الصحيح والواضح جداً في هذ القضية ، وهي ان الحدّ يلزم المالك لكون العملية ، إغتصاباً وفعل إنسان بإنسان ، وليس

هناك أي مهرب من الحد الشرعي الذي يقتضيه اللواط بأي حال من الأحوال.

إنتشار المذهب الشافعي

كان الامام الشافعي ـ وكما هو معلوم ـ ينهى المسلمين عن تقليده ، وبحسب إقرار تلميذه المزني الذي ألّف كتاب »المختصر الصغير ، «ونشر به المذهب ، حيث جاء في مقدمة الكتاب : اختصرت هذا من علم الشافعي ، ومن معنى قوله : لا بيّنة لمن أراد ، مع إعلامية نهيه عن تقليده ، وتقليد غيره ، ليأخذ فيه لنفسه ، ويحتاط لدينه) ١.(

ولكن ليس هناك دليل على ان غاية الشافعي من النهي تقليده ، هو الاحتياط للدين ، وانما هو اعتراف بأن فتاواه وأحكامه وآراءه ، قابلة للطعن من قبل المجتهدين والفقهاء الآخرين الذين ربما توصّلوا الى أحاديث نبوية صحيحة ، لم تتوصل جهوده للكشف عنها في حياته.

أما كيفية انتشار المذهب الشافعي ، فهذا يعود لتولّي علماء الشافعية لمناصب القضاء والوظيفة العليا في السلطان الحاكة ، سواء في مصر أو غيرها من البلدان الاسلامية .فالمقريزي مثلاً ، تولّى نيابة القضاء على المذهب الشافعي ، وأصبح واعظاً في جامع عمرو بن العاص ، ومدرسة السلطان حسن ، وإماماً في جامع الحاكم ، ومدرّساً للحديث في المدرسة المؤيدية ، وهو من كبار المؤرخين في عصر المماليك ، مصنّف ، وأشهر كتبه : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» الخطط المقريزية.«

قال المقريزي : وإني لأرجو أن يحظى إن شاء الله تعالى عند الملوك) ٢.(

أما القاضي الجرجاني ، فقد سمع الحديث في نيسابور ، وقد تولّى القضاء على

المذهب الشافعي مراراً في بلدان مختلفة حتى أصبح قاضي القضاة في الري) ١.(

هذا إن دلّ على شيء فانما يدل على ان انتشار المذهب الشافعي ، كان بفعل الترويج له من قبل القضاة والسلطات الحاكمة من ورائهم ، وان المذهب حظي بتبني المماليك له في مصر ، وهم الذين وطّدوا أسسه في المجتمع المصري ، ثم في الامصار والبقاع الأخرى.

)١ (المصدر السابق ٢ : ٥٨٥.

الامام أحمد بن حنبل والتشبّث بآثار السلف

تُرى هل حقاً انّ الإمام أحمد بن حنبل قد بزّ أقرانه في حفظ الحديث والذبّ عن السُنّة النبوية؟ وهل هو أعظم الناس ببغداد وإمام المحدّثين في عصره ، ومفتي العراق وشيخ الأمّة بلا منازع؟) ١.(

وهل ان ابن حنبل كان إماماً في الحديث وضروبه ، وإماماً في الفقه ودقائقه ، وإماماً في السُنّة ودقائقها؟) ٢.(

ثم هل ان الامام أحمد كان كما أكد معاصروه قد أعزّ الله الاسلام به ، وانه ليس هناك من هو أفقه منه في بغداد ، وهو حُجّة بين الله وبين عباده؟ وان الله جمع له علم الأولين والآخرين ، يقول ما يشاء ويُمسك ما يشاء؟ وهو قام مقام الانبياء) ٣.(

وكالعادة ، لابد من البحث والتنقيب في بطون الكتب والروايات للتوصّل الى الحقيقة كاملة حول صاحب المذهب الرابع.

وأول ما لفت انتباهي ان أئمة السُنّة والجماعة آنذاك ، كانوا يصرّون على ان صبغة المحدّث قد غلبت على أحمد ، أكثر مما ظهرت فيه صبغة الفقيه ، وانه كان يرفض أن

)١ (تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ٥ : ١٧٨ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٥ : ٢٦٢ .

)٢ (شذرات الذهب ـ ابن العماد الحنبلي ٢ : ٩٦ ؛ العبر في خبر من غبر ـ الذهبي ١ : ٤٣٥ .

)٣ (سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ١١ : ١٨٨ ؛ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكي ٢ : ٢٨ ؛ الجرح والتعديل ـ الرازي ١ : ٣١٠ و٣١١ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٥ : ٣١٨ ؛ المغني ـ عبد الله بن قدامة ١ : ٥ .

تُسجّل آراؤه وأقواله لأنه كان غير مطمئن لها ، غير ان الخلّال وتلميذه إسحاق التيمي هما اللذان دوّنا علومه وأقواله بالرغم من ممانعته لذلك أيام حياته) ١ ، (ولأنه كان يعتقد بأن التقليد لغير النبي مذموم وفيه عمى للبصيرة ، وهو بالتالي يؤمن بالتقليد ولا يحق للمسلم أن يتفقه بغير الاقتباس من الاحاديث النبوية الصحيحة منها والضعيفة فضلاً عن فتاوى الصحابة والتابعين ، وان أقواله وآراءه كانت مجرّد آراء لا ينبغي تقليدها والأخذ بها غير أن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه ، سارعوا الى تدوين آرائه التي كانت متناقضة الى حد كبير.

أصول فقه ابن حنبل في ميزان علماء أهل السُنّة والجماعة

من المعروف ان الفقه المنقول عن أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضارباً يصعب على العقل نسبة كل هذه الأقوال إليه . والمرء حين يفتح أي كتاب للحنابلة ، وأي باب من أبوابه يجده لا يخلو من عدة مسائل اختلفت فيه الرواية بين لا ونعم.

ـ نُقل عن الامام الغزالي ان الاعتراف بفقه الحنابلة كان حوالي سنة ٥٠٠ هـ.

ـ الترقيع على المذهب الحنبلي من ناحية الكلام والاستدلال قد قام به أبو الحسن الاشعري ، بعدما أصبح من الحنابلة.

وأما الترقيع من الناحية الثانية ، فقد قام به أبو بكر الخلّال المتوفى سنة ٣١١ هـ ، وهو جامع أشتات المسائل الفقهية المنسوبة لابن حنبل ، ومن حلقته في جامع المهدي ببغداد ، انتشر المذهب الحنبلي الفقهي ، وقد اختلفت الروايات في أقوال أحمد اختلافاً عظيماً ، والمخرجون بعده اختاروا صحّة بعض الأقوال ورجحوها على غيرها.

)١ (المذاهب الفقهية : ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٧.

ـ سأل رجل أحمد بن حنبل عن مسألة في الحلال والحرام ، فقال له أحمد : سل عافاك الله غيرنا ، قال : انما نريد جوابك يا أبا عبد الله .قال : سل عافاك الله غيرنا ، سل الفقهاء ... سل أبا ثور) ١.(

ـ ابن قتيبة) متكلم أهل السُنّة ، (لم يذكر ابن حنبل في جماعة الفقهاء ، وكذلك بن عبد البر ، فانه لم يذكره في الفقهاء في كتابه الانتقاء.

ـ وكذلك ابن جرير الطبري لم يذكره في كتابه في اختلاف الفقهاء من الفقهاء ، وانما كان محدّثاً) ٢.(

ـ ان كثيراً من الأقدمين لم يعدّوا أحمد من الفقهاء ، كابن قتيبة وهو قريب من عصر أحمد جداً ، وابن جرير الطبري وغيرهما ، ولو كانت تلك المجموعة الفقهية معروفة مشهورة عنه وهي بلا شك تجعل صاحبها فقيهاً أي فقيه ، لم يكن هناك مسوّغ لأولئك أن يحذفوا أحمد من سجل الفقهاء.

ـ أبو حسن الأشعري بعد أن تاب من الاعتزال وانتسب الى أحمد وأصبح حنبلياً ، كما ذكر ذلك ابن عساكر ، اختلفوا في مذهبه الفقهي انه حنفي أو شافعي أو غيره ، ولم يحددوا هل كان حنبلياً أم لا؟ ومثله الباقلاني ، فإنه مع كونه يوقّع : أبو بكر الحنبلي ، فقد كان على مذهب مالك في الفقه ، ومثله عبد الله الانصاري الهروي المتوفي سنة ٤٨١ ، وكان شديد الانتصار لمذهب أحمد ، فهو في الفقه كان على طريقة ابن المبارك.

)١ (الكامل ـ الجرجاني ٢ : ٣٦٧ ؛ تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ٦ : ٦٤ ؛ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكي ٢ : ٧٥.

)٢ (الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٨ : ١٣٤.

ـ والمشهور ان ابن حنبل كان ينهى في رسائله عن الرأي والقياس والاستحسان ، ويجعل القائلين بالرأي والقياس في رديف الجهمية والقدرية والرافضة ، ويحمل على أبي حنيفة بشخصه.

ـ ويعلّل ابن خلدون ، ظهرة قلّة أتباع المذهب الحنبلي ، ـ قديماً ـ بأن مذهب أحمد يكاد يكون مذهب حديث ، لخلّوه من نزعة الاجتهاد الفقهي ، فيقول : فأما أحمد بن حنبل فمقلّده قليل ، لبُعد مذهبه عن الاجتهاد ، وأصالته في معاضدة الرواية ... وأكثرهم بالشام والعراق ، من بغداد وضواحيها ، وهم أكثر الناس حفظاً للسُنّة ، ورواية الحديث).١)

ـ ولإبن جرير الطبري كتاب) اختلاف الفقهاء (الذي أحدث هزّة حنبلية في بغداد ، لما كتبه ، وتنوول في الايدي ، إذ لم يعد الامام أحمد في الفقهاء ، وقال الطبري) : أما أحمد بن حنبل فلا خلافه (كما ذكره ياقوت في مشاجرتهم له ورميهم إياه بالمحابر) ٢.(

ـ وأحمد بن حنبل نفسه يقول : إذا سُئلت في مسألة لا أعرف فيها خبراً ، قلت فيها : يقول الشافعي ، لأنه إمام عالم من قريش) ٣.(

ـ ولابن القيم الجوزية قولاً هزيلاً مفاده : وليس المراد بالضعيف عنده) ابن حنبل ، (الباطل ، ولا المنكر ، ولا ما في روايته متهم ، بحيث لا يسوغ الذهاب إليه ، فالعمل به ، بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح ، وقسم من أقسام

)١ (تأريخ ابن خلدون ١ : ٤٤٨.

)٢ (المذاهب الفقهية : ١٤٧.

)٣ (تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٥١ : ٣٣٩ ؛ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكي ١ : ٢٠٠.

الحسن ... فإذا لم يجد في ال باب أثراً يدفعه ، ولا قول صحابي ، ولا إجماعاً على خلافه ، كان العمل به أولى من القياس .وليس أحد من الأئمة إلا وهو موافقه على هذا الأصل من حيث الجملة ، فإنه ما منهم أحد إلا وقد قدّم الحديث الضعيف على القياس) ١.(

. ويفصح أبو داود عن عجز ابن حنبل عن الجواب ، بالقول : ما أُحصي ما سمعت أحمد ، سُئل عن كثير ، مما فيه الاختلاف في العلم ، فيقول : لا أدري) ٢.(

. والحق ان اعتماد أحمد كان على الحديث والأثر وأقوال السلف ، أكثر من اي شيء آخر ، فهو إذاً من الفقهاء الذين غلب عليهم النقل ، ولهذا عدّه بعض المؤرخين من فقهاء المحدّثين ، ولم يعدّه ابن جرير الطبري في كتابه) اختلاف الفقهاء (من الفقهاء ، ولم يعرض لذكره فيها ، فأثار حقد أتباعه الحنبليين عليه ، وثاروا عليه ، وهدّدوه ، ولما توُفي كادوا يحولون دون دفنه في بغداد ، فاضطرت الدولة للتدخل ، منعاً للاصطدام بين تابعيه ومعاديه ، فدُفن ليلاً) ٣.(

. ولا يخفي ابن القيم حقيقة أخرى عن أحمد حين يقول إنه كان شديد الكراهة لتصنيف ال كتب ، وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يُكتب كلامه ، ويشتد عليه جداً ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكُتب من كلامه وفتواه ، أكثر من ثلاثين سفراً) ٤.(

)١ (المذاهب الفقهية : ١٠٨ . ١٠٩.

)٢ (المذاهب الفقهية : ١٠٩.

)٣ (المذاهب الفقهية : ١٠٩ . ١١٠.

)٤ (المذاهب الفقهية : ١١٣.

. فيما سمع المروزي أحمد يقول : أما الحديث فقد استرحنا منه ، وأما المسائل ، فقد عزمت إن سألني أحد عن شيء ، ان لا أجيبه) ١.(

. وحين قدم أحمد بن حرب) الزاهد النيسابوري (من مكة ، سأل أحمد بن حنبل : من هذا الخراساني الذي قدم؟ قيل : من زهده كذا وكذا ، فقال : لا ينبغي لمن يدّعي ما يدّعيه) من الزهد (أن يدخل نفسه في الفتيا) ٢.(

. أما أبو بكر الأشرم ، تلميذ ابن حنبل فقد كان يحفظ الفقه والاختلاف ، فلما صَحِب أحمد بن حنبل ترك ذلك) ٣.(

. ويصرّح ابن حنبل نفسه مُحذّراً : إيّاك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام) ٤.(

. وسمع عبد الله بن أحمد حنبل أباه يقول : وَددتُ أني نجوت من هذا الأمر ، كفافاً لا لي ولا عليّ) ٥.(

النتيجة المُستخلصة

نستدل من كل تلك الاقوال التي أدلى بها ابن حنبل وأصحابه ، وكذلك خصومه ، على ما يلي:

١ . لم يكن لأحمد فقه واضح ومحدّد ، وانما أقوال وآراء استخرجها من الأحاديث وفتاوى الصحابة مباشرة ، ولكون بعض الأحاديث غير صحيحة

وضعيفة ، وفتاوى الصحابة والتابعين ، كانت مختلفة ومتفاوتة أيضاً ، فمن الطبيعي أن تأتي أقوال ابن حنبل متناقضة ذلك التناقض الصارخ.

٢ . كان أحمد بن حنبل يتهرّب من الإجابة عن الاسئلة والاستفسارات ، ويكثر من قول : لا أدري ، ويحيل السائلين الى الامام الشافعي أو أبي ثور وغيره من الفقهاء ، ولهذا دلالة على ان الامام أحمد غير فقيه .. كما ان عدم درايته بالمسائل وأجوبتها ، يضعه في صف المقلّدين.

٣ . إن الكثير من علماء أهل السُنّة ، لم يصنّفه من الفقهاء كإبن قتيبة الدينوري وابن جرير الطبري ، واعتراف ابن خلدون بأن مذهب أحمد كان مذهب حديث ، لخلوّه من نزعة الاجتهاد الفقهي.

٤ . لم يكن أبو الحسن الأشعري والباقلاني وعبد الله الأنصاري الهروي على الفقه المنسوب الى ابن حنبل ، بالرغم من كونهم منتسبين الى المذهب الحنبلي في الأصول التي نُقّحت على أيديهم ، مما يدلّ على انهم كانوا غير مقتنعين بأن أحمد كان فقيهاً متمكّناً ، وانما غلب عليه النقل من السلف فحسب.

٥ . كان الامام ابن حنبل يتهم الذين ينبرون للفتيا بعدم الزهد ، أو لديهم عمى في البصيرة ، لأن تقليد غير الرسول صلىاللهعليهوآله مذموم.

٦ . إن إكثار ابن حنبل من قول لا أدري أو الصمت أو الإحالة الى الغير ، يدلّ على انعدام ملكة الاجتهاد لديه.

٧ . ان الذين كانوا يصحبون الامام أحمد ، كأبي بكر الاشرم ، يتركون التفقّه والفقه إقتداءً بامامهم واستاذهم.

٨ . ان قول أحمد بن حنبل بأنه لولا الامام الشافعي لبقيت أفقيتهم كالكرة بأيدي

أصحاب الرأي ، لدليل على انه كان يفتقد المقدرة على الجدال والمناظرة الفقهية التي هي من شروط المجتهد الفقيه كالشافعي.

مع مُسند أحمد بن حنبل

من الامور المسلّم بها عند الحنابلة ان الامام أحمد كان يحفظ نحو ٧٥٠ ألف حديث نبوي ، اختار منها أربعين ألف حديث ضمّها المُسند ، وكلها مروية عن سبعمائة صحابي ، وان الامام ابن حنبل لم يرو فيه إلا عمّن ثبت عنده صدقه وديانته ، اذ يقول في المقدمة بأن هذا الكتاب قد جمعه وانتقاه من أكثر من ٧٥٠ ألف حديث ، فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله) صلى الله عليه وسلم (فعليهم الرجوع اليه فإن وجدوه وإلا فليس بحجة) ١.(

وماذا يعني الامام أحمد بذلك؟ لاشك انه يُريد التنبيه بأن هذه الاحاديث المنتقاة كلها صحيحة ولذا فان اختلف المسلمون في حديث هل هو صحيح أو موضوع؟ فإن الميزان هو كتاب المُسند ، فإن وجدوه فيه فيعني أنه صحيح وان لم يضمّه المُسند ، فهو موضوع وسقيم او مشكوك في أمره.

وبذلك يؤكد علماء الحنابلة بأن المذهب الحنبلي تأصّل في المُسند ، لكونه الفيصل في صحة الحديث من سقمه ، وبناء على المذهب يعتمد تقريباً على الحديث وأقوال السلف ، فان المُسند والحال هذه ، هو الاساس في فتاوى المذهب وأحكامه.

فماذا يقول علماء السُنّة المعاصرون لاحمد أو الذين جاءوا بعده في المُسند وقيمته العلمية ومنزلته الفقهية؟

مسند ابن حنبل في رأي العلماء السنّة الكبار

. أفرد فيه أحمد حديث كل صحابي على حدة من حديثه صحيحاً كان أو سقيماً.

. المسانيد جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر ، والخطأ والصواب ، والثابت والمقلوب) ١.(

. أحمد : صحّ من الحديث سبعمائة ألف وكسر .. وقال أبو زرعة كان احمد يحفظ ألف الف حديث) ٢.(

. أبو نعيم؟ .. وقد يروي الامام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لإتهام رُواتها بسوء الحفظ ونحو ذلك ليعتبر بها ويستشهد بها ، وقد يكون الصحابي كذاباً في الباطن وليس مشهوراً بالكذب ، بل يروي كثيراً من الصدق فيروى حديثه ، وكثير من المصنفين يعزّ عليه تمييز ذلك على وجهه بل يعجز عن ذلك ، فيروي ما سمعه كما سمعه ، والدرْك على غيره لا عليه .. وليس كل ما رواه أحمد في المُسند وغيره يكون حجة عنده ، بل يروي ما رواه أهل العلم ، وشرطه في المُسند أن لا يروي عن المعروفين بالكذب عنده وإن كان في ذلك ما هو ضعيف .. وأما كتب الفضائل فيروي ما سمعه من شيوخه ، سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً) ٣.(

. ابن تيمية : ان أحمد بن حنبل كان يروي ما رواه الناس وإن لم يثبت صحته،

)١ (اضواء على السنة المحمدية . أبو رية : ٢٩٦.

)٢ (كشف الظنون . حاجي خليفة ١ : ٥٩٧.

)٣ (اضواء على السنة المحمدية . أبو رية : ٣٢٦.

وليس كل حديث رواه أحمد في الفضائل ونحوها صحيحاً ، ولا كل حديث رواه في مُسنده صحيح ، وقد تكون بعض الأحاديث ضعيفة وباطلة.

. ابن تيمية : مجرّد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحاً يجب العمل به ، بل الامام أحمد روى أحاديث كثيرة لتُعرف ويبيّن للناس ضعفها) ١ .(وابن الجوزي أثبت ان في مُسند أحمد حديثاً موضوعاً ، وبيّن ان فيه أحاديث قد علم انها باطلة) ٢.(

. ابن كثير : في مُسند أحمد أحاديث ضعيفة بل موضوعة) ٣.(

. العراقي : وجود الضعيف في المُسند ، فهو مُحقق بل فيه أحاديث موضوعة ، وقد جمعتها في جزء) ٤.(

. أبو الخطاب : أصحاب الامام أحمد يحتجون بالأحاديث التي رواها في مُسنده وأكثرها لا يحلّ الاحتجاج بها ، وانما أخرجها الامام أحمد حتى يُعرف من أين الحديث مخرجه والمنفرد به أعدل أو مجروح ، ولا يحلّ لمسلم عالم أن يذكر الا ما صحّ لئلا يشقى في الدارين ، لما صحّ عن سيد الثقلين أنه قال » : من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) «٥.(

. والحق ان في المُسند ، أحاديث كثيرة ضعيفة ، وقد بلغ بعضها في الضعف إلى أن

)١ (المصدر السابق.

)٢ (انظر : مجموعة الفتاوى . ابن تيمية ١ : ٢٤٨ ؛ اضواء على السنة المحمدية . أبو رية ٣٢٦.

)٣ (انظر : اضواء على السنة المحمدية . بو رية : ٣٢٧.

)٤ (المصدر السابق.

)٥ (اضواء على السنة المحمدية . ابو رية : ٣٢٨.

أُدخلت في الموضوعات) ١.(

. وجاء في مقدمة مًسند أحمد : كتب أحمد المُسند في أوراق مفردة) مسودّة ، (ومات قبل تنقيحه وتهذيبه ، ثم ان ابنه عبد الله ، ألحق به ما يشاكله ، فوق الاختلاط من المسانيد ، فبقي كثير من الأحاديث في الاوراق والأجزاء لم يظفر بها . وهذا جواب على ما أشكل قول الامام أحمد : عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سُنّة عن رسول الله رجع اليه) ٢.(

. ويعلّق الذهبي على قول أحمد : ان هذا الكتب قد جمعته ... فارجعوا إليه ، فإن وجدتموه ، وإلا فليس بحجة : هذا القول منه على غالب الأمر ، وإلا فلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ، ما هي في المُسند ، وقدر الله أن الامام قطع الرواية قبل تهذيب المُسند ، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة) ٣.(

. ويُروى عن ابن الجوزي قوله : في مُسند أحمد ما ليس بصحيح ، والامام روى المشهور والجيد والرديء ، ثم هو قد ردّ كثيراً ما روى ، ولم يجعله مذهباً له ، اليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ مجهول ، وأحاديث كثيرة في المُسند ، ثد طعن فيها أحمد) ٤.(

. ويذهب الفرّاء الى القول : انما روى أحمد في مُسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم) ٥.(

وأحمد يقول : قصدت في المُسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صحّ عندي ل أرو في هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ... لست أخالف ما ضعُف من الحديث اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه) ١.(

. ويضيف الفراء : وقد أخبر) أحمد (عن نفسه كيف طريقه في المُسند ، فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه وترك مقصده) ٢.(

. فيما يقول ابن قتيبة : قطع أحمد بن حنبل رواية الحديث قبل وفاته بسنين كثيرة من سنة ٢٢٨ هـ ، فدخل في الروايات عنه ما دخل من الأقوال البعيدة عن العلم ، إما من سوء الضبط أو من سوء الفهم أو تعمّد الكذب) ٣.(

. ويستغرب العسقلاني : رواية أحمد ، حديث ربيعة بن أمية بن خلف ال جمعي ، وهو ممن أسلم في الفتح ... وحدّث عنه بعد موته ، ثم لحقه الخذلان فلحق في خلافة عمر بالروم وتنصّر بسبب شيء اغضبه .وإخراج حديث مثل هذا مُشكل) ٤.(

. ومن الاحاديث الغريبة في المُسند : ان إمرأة أبي حُذيْفة قالت : يا رسول الله ان سالماً مولى أبي حذيفة يدخل عليّ وهو ذو لحية .فقال الرسول : ارضعيه .فقالت : كيف أرضعه وهو ذو لحية ، فقال رسول الله : ارضعيه ، فكان يدخل عليها) ٥.(

(١) المستدرك ـ ابن تيمية ٢ : ٩١.

(٢) سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ١١ : ٣٢٧.

(٣) اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣٣٠.

(٤) فتح الباري ـ ابن حجر ٧ : ٣.

(٥) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٤ : ٢٦٠ ؛ مسند احمد ٦ : ٣٦٥.

الاستنتاج

١ ـ إعتراف علماء المسلمين من الحنابلة وغيرهم ، بأن المُسند فيه السقيم والضعيف والموضوع والغريب والباطل والشاذ والمُنكَر ، باتفاق العلماء ، وانه لا يمكن الركون للمُسند ولا يسوغ الاحتجاج به والتعويل عليه.

٢ ـ إحتجاج أصحاب الامام أحمد ، بأحاديث المُسند ، والكثير منها لا يحلّ الاحتجاج به ، وهذا يدلّ ان هؤلاء كانوا يثقون بالمُسند كما يثق به أحمد بن حنبل ، غير ان الذين دقّقوا في المُسند من علماء المذاهب الاسلامية الأخرى ، وحتى من المذهب الحنبلي نفسه ـ كإبن تيمية ـ اكتشفوا ضعف المُسند ، وهشاشة الكثيرة من الاحاديث فيه.

٣ ـ إدّعاء الكثير من العلماء بأن أحمد كان يعلم بأن العديد من أحاديث المُسند ، ضعيف وموضوع ، وانها ليست حجة عنده ، ولكن أراد أن يتعرّف الناس على ضعفها ويشخصون رواتها المشكوك في أمرهم ، والمجهولين .هذا الادعاء مجرّد للدفاع عن أحمد نفسه الذي كان يطمئن لاحاديث مُسنده ويثق بها ، ولكن بعد مجيء كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما ، وفيها أحاديث صحيحة قوية لم تكن في المُسند ، كما ان البخاري ومسلماً لم ينقلوا إلا حديثاً واحداً من المُسند ، واضطر العلماء للادلاء بأقوالهم تلك حتى لا يتّهموا أحمد بن حنبل بعدم القدرة على تمييز الصحيح من السقيم ، وان مذهبه لا يمكن الركون إليه.

٤ . غير ان ابن القيم له دفاع آخر عن أحمد ومُسنده عندما أصرّ بأن المُراد من الضعيف عند ابن حنبل ، ليس الباطل ولا المنكر ولا المتّهم ، بحيث لا يسوغ العمل به ، وانما الحديث الضعيف هو قسم من أقسام الصحيح والحسن ، والعمل به أولى من القياس ، وان المجتهدين من علماء المذاهب الأخرى،

يوافقون أحمد على ذلك .وهذا دفاع ينسف الحجج الأخرى التي وُضعت للتستر على المُسند وصاحبه.

٥ . التأكيد على ان أحمد قطع رواية الحديث قبل وفاته بسنين عديدة ربما ١٣ سنة ، فدخل في الرواية ما دخل من سوء الضبط ، أو من سوء الفهم ، أو تعمّد الكذب ، كما ان الامام ترك المُسند أوراقاً مفردة ، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه ، ووقع الخلط فيه بعد ذلك ، فلماذا لم يُهذّب الامام أحمد مُسنده وينقحه ، وقد عاش ١٣ عاماً بعد إيقاف الرواية؟ ولماذا قال ان كتابه هذا ، حجّة وميزان للأحاديث وهو لم ينقحها بعد؟ ألا ينبغي له أن يقول قوله الخطير هذا بعد التنقيح حتى لا يأتي تلامذته من الحنابلة ، ويستنسخون المُسند كحقيقة لا تقبل الطعن والشك كما هو معلوم.

٦ . ويكفي ان في مُسند أحمد ، حديث ربيعة بن خلف وهو من الطلقاء ، وقد ارتدّ وتنصّر بعد ذلك ، أو حديث رضاعة الكبير الذي هو واضح البطلان عند المسلمين ، إذ كيف يحق لامرأة أبي حذيفة أن ترضع سالماً وهو ذو لحية واجنبي غير محرم لها ، حتى يصبح ابنها وحلاً لها ، كيف تكشف صدرها لرجل حتى يرضعه ويمسّه مباشرة بفمه؟ انها من مهازل المُسند الذي دوّنه أحمد بن حنبل ، وانتقاء من ٧٥٠ ألف حديث منسوب لرسول الله.

٧ . تُرى لِمَ أصرّ الحنابلة على التمسّك بأحاديث المُسند ، بعد أن ثَبت ضعفها وسقمها ، واستنبطوا الاحكام والفتاوى منها بالرغم من بروز أحاديث قوية وصحيحة في الصحاح والسنن ، وهي تعارض أحاديث المُسند بكل وضوح؟

إنه الإصرار والعناد والتمسّك بأصول مذهب لا يقوم على أساس متين.

أحمد بن حنبل والتشبيه

من الأخطاء التي وقع فيها الامام أحمد بن حنبل ، اعتباره النصوص الواردة في القرآن الكريم حول الاستواء والفوقية والنزول والعلو ، وفي الوجه والعين واليد والقدم ، غير معلومة الكُنْه والحقيقة ، وانها صفات الله بلا تأويل ولا تعطيل ، مع تنزيه الله من سمات الحدوث ومشابهة المخلوقات) ١.(

أنسي الامام أحمد بأن مفردات اللغة العربية ، تحمل الكثير من عبارات الاستعارة والمجاز؟ أليس هناك عبارات دارجة ، مثل» : وقع المجرم في قضية العدالة «أو» تسلّم فلان كرسي الحكم «أو» تربع الرجل على العرش «أو» هم تحت يدي « أو» تلاحقه عيون السلطة «أو» استوى على كرسي الحكم «أو» قلّب أوجه القضية«؟ هل هذه العبارات تشير الى أيد وعيون وأوجه ، حقيقة أم مجازية؟ فلماذا نستثني الله تعالى من قواعد البلاغة ، كالمجاز والاستعارة ، ونطبّقه على المخلوقات؟

وعلى فرض ان هذه الصفات ، خاصة بالله ولا تشبه صفات المخلوقات ، طبق الآية الكريمة : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ٢ (أي غير معلومة الكُنْه والحقيقة ، ولكنها في كل الأحوال ، هي صفات تعبّر عن جوارح ، فهل الله بحاجة الى عين ليرى ، أو يد ليمسك بها الأشياء ، أو قَدَم يسير بها؟ بينما هو غني عن الحواس أو هذه الوسائل التي هي من صفات

المخلوقين ، يستعينون بها في حياتهم ، فلماذا يتّصف الله بصفات وحواس مهما يكن كُنْهها وحقيقتها؟ هي في الحقيقة صفات مخلوقين يفتقرون إليها دون الخالق الغني الحيد .ثم ان صفات الله هذه التي يؤمن بها ابن حنبل وأمثاله هي صفات حقيقية لا

)١ (المذاهب الفقهية : ١٠٧.

)٢ (الشورى ١١.

يمكن الادعاء بأنها غير صفات المخلوقين ، لماذا؟ لأنه من البديهي عندما تتناهى كلمات الى سمع الإنسان مثل : يد ، قدم ، عين ، وجه ، ساق ، حيث تتجسّد في ذهنه هذه الصفات المعروفة لديه . بداهة . دون أدنى شك ، فضلاً عن ان هذه الصفات لابدّ وأن تحدّد وجهة معينة وتشغل حيزاً من الفراغ ، يعني : تُجسّم تلك الصفات ، وبالتالي تُجسّد وتجسّم صاحبها وهو الله تعالى ، فكيف يدّعي ابن حنبل بأنه منزّهٌ لله تعالى ولا يؤمن بالتجسيم والحلول؟

ابن حنبل وقضية خلق القرآن

قضية خلق القرآن ، هي الأخرى من القضايا التي تمسك بها أحمد بن حنبل ، وعانى ما عانى من أجلها ، مع انها لم تستحق كل تلك المعاناة والتضحية من قبل الامام أحمد ، ليصرّ على رأيه ، ولم يستشر العلماء الآخرين ، قبل أن يتمادى في موقفه من قضية خلْق القرآن ، وهل هو قديم أم هو حادث ومخلوق؟ تُرى ما الفرق بين القرآن والمخلوقات الأخرى؟ فالله تعالى كان في علمه الأزلي انه سيخلق الانسان ، وذلك قبل أن يخلق آدم عليهالسلام ، ومن ثم خلق سُلالة الانسان ، فهل يعني ان الله خلق الانسان منذ الازل ام ان الانسان حادث مخلوق بإجماع الأئمة والعلماء؟

فلِمَ نستثني القرآن من الخلْق ، مع ان الله تعالى كان في علمه انه سيُنزل القرآن في مقاطع زمنية متوالية ، وذلك حسب الحوادث التي وقعت في عهد الرسول صلىاللهعليهوآله ، حيث كانت الآيات والسور النازلة تحكي قصصاً وحوادث ووقائع حدثت منذ خلق النبي آدم والانبياء الآخرين ، والى نزول الرسالة الاسلامية ، حيث ذكرت بالتفصيل ، مجريات العهد النبوي يوماً بيوم ، فالآية الكريمة التي تقول : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) ١ (هل تعني ان الله قد خلق» خولة بنت الأزور «وزوجها منذ القديم والأزل ، وهما يتحاوران أم خلقهما لاحقاً؟

والآية ـ في الحقيقة ـ حكت حوادث ووقائع قد وقعت في العهد الاسلامي ، وهكذا هناك المئات من الآيات قد روت وقائع وحوارات تخص الصحابة والمسلمين ، فهل كان هؤلاء مخلوقين منذ الأزل .. وكان القرآن منذ الأزل قد تحدّث عنهم أم ان علْم ذلك كان في الذات الالهية الأزلية لكي يروي تلك الوقائع في وقتها بعد أن يخلق الانسان؟

ثم ان الكلام أي كلام لا يتحقق وجوده الفعلي إلا بحروف وكلمات تحدث بفترات زمنية متقطعة تتخللها فترات صمت ، والكلام ـ بالتالي ـ بمجمله حادث وليس قديماً ، ولذلك قال تعالى : مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) الانبياء ٢ .. (فكيف يكون كلام الله قديماً غير حادث أو مخلوق؟

والغريب بعد كل ذلك ، إصرار ابن حنبل على ان من زعم ان القرآن كلام الله ووقف ، ولم يقل ليس بمخلوق ، فهو أخبث من القول الاول ، وان قائله ملعون) ٢ ، (مع ان القائل بأن القرآن كلام الله ، ربما يعتقد في نفسه بأنه قديم ،

ولكنه قال ذلك من قبيل الاختصار ، فكيف يستوي هذا مع القائل بأن القرآن مخلوق؟ انه تعسّف لا يقبله العقل بحال.

ولذلك خالف الكرابيسي ، الامام أحمد بعد أن كان صديقه ، في القول بقدم القرآن ، فهجره الحنابلة ، وترك الناس حديثه لطعن أحمد عليه ، فقال : ماذا نعمل مع

أحمد؟ إن قلنا القرآن مخلوق .قال : بدعة ، وإن قلنا غير مخلوق ، قال : بدعة) ١.(

التشدّد في فكر ابن حنبل

ان التشدّد والغلو في مواقف أحمد بن حنبل وأفكاره وسلوكه ، سرى في نفوس تلامذته وأتباعه ، وتصرفاتهم ، ولكن بصورة أكثر شدّة وغلواً من استاذهم ومَثلَهم الاعلى الامام أحمد .فقال بعض كبار الحنابلة بأن كل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم ، ومن أبغض أحمد بن حنبل فقد كفر) ٢.(

وقال السبكي عن الحنابلة بأنهم يرون الكذب على مخالفيهم في العقيدة بكل ما يسوءه في نفسه وماله ، وان كبير الحنابلة أستفتي في شافعي : أيشهد عليه بالكذب؟ فقال : ألست تعتقد ان دمه حلال؟ قال : نعم ، قال : فما دون ذلك ، دون دهم فإشهد ، وادفع فساده عن المسلمين.

وقال السبكي : فهذه عقيدتهم يرون انهم المسلمون ، وانهم أهل السنة ، ولو عدّوا عدداً لما بلغ علماؤهم ولا عالم فيهم على الحقيقة مبلغاً يعتبر ، ويكفّرون غالب علماء الأمّة وانما انكر على قوم غروا انفسهم اليه وهو منهم بريء) ٣.(

ويقولا لطبري : لا عصابة في الاسلام كهذه العصابة الخسيسة ، ويقصد الحنابلة) ٤.(

وفي فتنة الحنابلة بغداد سنة ٣٢٣ : مشى الرجال مع النساء والصبيان ، فاذ رأوا

)١ (تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ٨ : ٦٥ ؛ تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ٢ : ٣١١ ؛ المنتظم ـ ابن الجوزي ١٦ : ١٣٢.

)٢ (تأريخ الاسلام ـ الذهبي ٣٣ : ٥٨ ؛ الذيل على طبقات الحنابلة ـ عبد الرحمن بن احمد الحنبلي ٣ : ٥٢.

)٣ (طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكي ٢٣٥ : ٤.

)٤ (المنتظم ـ ابن الجوزي ١٣ : ٢١٧.

ذلك ، سألوه عن الذي معه من هو؟ فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة ، وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأرهجوا بغداد) ١.(

وقد غلب على أصحاب ابن حنبل واتباعه الخشونة ، والتقليل بالنقل وعدم التأويل ، وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك ، قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية باريها) ٢.(

ومما يُؤخذ على فقه ابن حنبل انه يأخذ بالتشديد في طائفة من الأمور ، حتى اشتهر بين الناس ان مذهب ابن حنبل يمثّل العنف والضيق.

وقد وصف الخليفة الراضي في سنة ٣٢٣ هجرية ، الحنابلة لما شغبوا في بغداد ، بعد أن عاب عليهم قولهم بالتشبيه ، وان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين ، وإنكار زيارة قبور الائمة ، وتشنيعكم على زوّارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجمعون على زيارة قبر رجل من العوام) ابن حنبل ، (ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله ، وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء) ٣.(

من فتاوى ابن حنبل وأتباعه

كان الامام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرُعاف والحجامة ، فقيل له : فإن كان الامام قد خرج منه الدم ، ولم يتوضأ ، هل يُصلى خلفه؟ فقال : كيف لا أصلي

)١ (الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٨ : ٣٠٧.

)٢ (الذيل على طبقات الحنابلة ٣ : ١٥٢.

)٣ (الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٨ : ٣٠٨.

خلف الامام مالك وسعيد بن المسيب؟) ١(

ويُوجب ابن حنبل غسل اليد عند القيام من النوم ، مع ان هذا سُنّة في المذاهب الأخرى ، ويُوجب المضمضة والاستنشاق في الوضوء ، ويوجب الوضوء من أكل لحم الابل.

والمذهب الحنبلي يُوسع دائرة القرابة التي توجب النفقة ، فكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب ، تجب عليه نفقته في حالة عجز هذا الفقير) ٢.(

وعند الحنبلية ، ان رفع اليدين عند الركوع والقيام منه مكروه شرعاً .. وقد رواه البخاري في صحيحه وغير صحيحه عن عشرات الصحابة بأسانيد كثيرة جداً ، لأن ابن حنبل لم يصح عنده لأنه لم يطّلع على أسانيد البخاري فيه) ٣.(

وهكذا يتضح ان فتاوى وأحكام ابن حنبل وتلامذته وأتباعه الحنابلة ، يتطرفون في التحريم ، ويُغالون في الواجبات الشرعية أكثر من سائر المذاهب الأخرى.

ومن الغريب ان اتباع أحمد بن أعد اطّلعوا على كُتب البخاري وتصحيحه لرفع اليدين عند الركوع والقيام منه ، لم يتحوّلوا عن فتوى ابن حنبل في هذه المسألة لأنهم جامدون على فتوى إمامهم بالرغم من أنه لو اطّلع على ذلك الحديث المنقول في البخاري فإنه حتماً سيغيّر فتواه ورأيه .. لكن الجمود والتحجّر هو ديدن الحنابلة على مر التأريخ.

ابن حنبل وأقوال الصحابة

١ .يعتمد ابن حنبل في فتاواه على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ، ولم يلتفت الى ما يخالفه ولو كان من كبار الصحابة ، وهذا اعتراف منه على ان الصحابة الكبار ربما يخالفون في أُقوالهم وآرائهم القرآن والسنّة النبوية)١.(

٢ .عند عدم وجود النص النبوي : يتبنّى ابن حنبل فتوى الصحابي اذا لم يجد لها مخالفاً من الصحابة ، مما يدلّ على ان الصحابة يختلفون ويتعارضون في فتاواهم) ٢.(

٣ .وعند اختلاف الصحابة في مسألة ، يختار أقرب أقوالهم الى الكتاب والسُنّة ، اذ ربما هناك أقوال للصحابة بعيدة عن الكتب والسُنّة .وكيف اذاً والحال هذه ، نثق بفتاوى وأقوال قد تتعارض أو تخالف القرآن والسُنّة النبوية ولو كانت لكبار الصحابة) ٣.(

)١ (المذاهب الفقهية : ١٠٨.

)٢ (المصدر السابق.

)٣ (المصدر السابق.

ملاحظات على المذاهب الأربعة

بعد أن عرضنا بشيء من التفصيل المذاهب الاربعة ، وأثبتنا ان هذه المذاهب تختلف فيما بينها على قواعد الاستنباط الفقهي ، مما أدّى الى بروز خلافات فقهية حادة ، تجلّت بوضوح في الفتاوى المتضادّة والاحكام المتعارضة للمذاهب الاربعة المشهورة التي لم يكن أصحابها سوى فقهاء ضمن مئات آخرين ، حذّروا تلامذتهم من تقليدهم وإتّباعهم في آرائهم الخاضعة لاعادة النظر والتراجع والنقاش والتغيير حالما يثبت قصورها بفعل ظهور أدلّة أقوى من قبل فقهاء آخرين.

وهنا نعقد مقارنة مباشرة بين أدلة هذه المذاهب لمعرفة الأسباب التي نجمت عنها تلك الفروقات الصارخة في فتاوى وأحكام كل مذهب من تلك المذاهب الأربعة ، وهي المذاهب المعروفة بأنها أفضل المذاهب السُنّية على الاطلاق ، والمُعترف بها منذ مئات السنين ، والتي قاومت عوامل الزمن دون أن تضمحل وتتلاشى كالمذاهب الفقهية الأخرى.

المذاهب الفقهية والنص القرآني

تتفق المذاهب الاربعة على ان القرآن الكريم هو المصدر الاول للاحكام الشرعية بلا منازع ، ولا يحق لأحد الاجتهاد مقابل النص القرآني بأي حال من الأحوال ، ولكن هناك من المذاهب من يُخضع النصوص القرآنية لعمل الصحابي ، وخاصة عند أبي حنيفة وابن حنبل حيثُ يُخصّص عل الصحابي ، عموم القرآن ، لأن الصحابي لا

يترك أوامر القرآن العامة إلا اذا كان يعلم بأن هناك تخصيصاً يستثنيه من العموم.

غير ان هذا الاستدلال خاطئ تماماً ، اذا ما علمنا ان الصحابة كغيرهم يصيبون ويخطئون ، وربما يرتكب بعضهم المعاصي والخطايا ، وحتى الذنوب والكبائر من الذنوب ، كما يثبت التأريخ ذلك ، وتدلّ سيرة العديد من الصحابة على انهم ربما كانوا يُخالفون أوامر القرآن الصريحة.

وقد التفت العالم المصري الكبير محمد عبده الى هذه القاعدة الفقهية الخاطئة لبعض المذهب الاسلامية ، فقال : أريد أن يكون القرآن أصلاً تُحمّل عليه المذاهب والآراء في الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلاً ، والقرآن هو الذي يُحمّل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى المخذولون ، وتاه فيه الضالون) ١ .(

المذاهب الأربعة والسُنّة النبوية

الأصل الثاني في عملية استنباط الأحكام الشرعية عند المذاهب الأربعة لأهل السُنّة والجماعة ، ينحصر بالسُنّة النبوية أو الحديث المروي عن رسول الله ، لكن اختلاف المذاهب يدور حول حجم الثقة والايمان بصحّة الحديث المرفوع عنه صلىاللهعليهوآله .فلما كان الحديث النبوي لم يُدوّن في عهده ن وقد منع الخلفاء من بعده ، تدوين الحديث أو التحدّث به ، لأسباب معروفة ، ظلّ الحديث النبوي ، محفوظاً في صدور الرجال ، يتناقلونه من جيل الى جيل ، وكان عُرضة لنسيان الحفّاظ ، فضلاً عن اختراق الكذابين والوضّاعين الذين تلاعبوا بالحديث وغيّروا فيه دون أن يردعهم رادع أو وازع من دين أو ضمير.

)١ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٤٠٦ .

وعندما حلّ القرن الثاني للهجرة ، بدأ التدوين ولكن بصورة محدودة ، وكان أول من دوّن الحديث النبوي بصورة مفصّلة ، الامام مالك بن أنس في كتابه الموطأ ... ثم مسند أحمد بن حنبل ، ثم ظهرت كتب أخرى ، لكن هذا التدوين جرى قبل تأليف كتب الصحاح والسنن المعتبرة ، بعد تنقيح الحديث وعرضه للجرح والتعديل ، ولذا كان الحديث النبوي في أواسط القرن الثاني ، وبالضبط في عهد أبي حنيفة ، لم يكن مغربلاً ، ولذا كان أبو حنيفة النعمان لم يطمئن إلا للحديث المشهور الذي كان يؤثره على القياس والقواعد الأخرى ، غير أنّه كان يفضّل القياس على الحديث غير

المشهور ثم رأي الصحابة ثم القواعد المعروفة .أما الامام مالك فكان يفضّل الحديث الحسن وحتى المُرسل على القياس والقواعد الأخرى ، بل وان عل أهل المدينة ، كان برأيه حجّة بمستوى الحديث النبوي كما ذكرنا آنفاً ، بيد ان الامام الشافعي ، ذهب الى أبعد من ذلك في التعاطي مع الحديث والسُنّة النبوية على حساب القواعد الاصولية ، ولم يكن يثق بعمل أهل المدينة ولا يعتبره حجّة أبداً ، ثم جاء أحمد بن حنبل ووثق بالحديث النبوي الى أبعد الحدود ، ففضّل الحديث الضعيف على القياس والرأي ، بل لم يعدّ القياس والرأي والاستحسان والمصالح المرسلة حجّة ابداً.

فأبو حنيفة يحتج بالحديث الصحيح والمشهور ولا يعتبر غيره حجّة في حين يحتج به مالك ، ولا يحتج مالك بالحديث الضعيف الذي يحتج به ابن حنبل دون غيره من المذاهب الاربعة.

وعمل أهل المدينة يحتج به مالك ، احتجاجه بالحديث النبوي ، دون غيره من أصحاب المذاهب ، وهكذا من الطبيعي أن يحصل تفاوت واختلاف صارخ في فتاوى وأحكام المذاهب الاسلامية الاربعة.

والحديث يعمل به الحنفي لشهرته ، ثم يأتي الشافعي فيرفضه لضعف في سنده،

ونجد المالكي يترك الحديث لأن العمل جرى على خلافه عند أهل المدينة ، ويعل به الشافعي لقوة في سنده على ما رأى.

آراء وفتاوى الصحابة

كذلك يتفاوت أصحاب المذاهب في اعتماد وآراء وأقوال وفتاوى الصحابة ، في استنباط الاحكام الشرعية .واذا كان أبو حنيفة يأخذ من أقوال الصحابة ما يشاء ويذر ما يشاء ، فإن الشافعي لا يحتج بها مطلقاً لأنه يعتبرها عن اجتهاد وربما يخطأ الصحابي.

وعلى العموم يتفاوت أصحاب المذاهب الأربعة في الأخذ بفتوى ورأي الصحابي واعتبارهما حجّة في الاحكام الشرعية ، وهذا أدى بالطبع الى اختلاف الفتاوى أيضاً.

القياس والرأي والقواعد الفقهية الأخرى

اذا كان المذهب الحنفي يمنح الرأي والقياس دوراً كبيراً في الاستنباط الشرعي ، بعد الحديث المشهور المرفوع عن رسول الله ، فإن المذاهب الأخرى لا تمنحه هذا الدور الكبير ، بل ان من المذاهب من لا يعتبره حجّة أبداً ، ويضيّق ابن حنبل من الرأي والقياس الى درجة ربما يتركه نهائياً في الاستنباط ، إذ ان تلامذة ابن حنبل لم يحتجوا به ـ إطلاقاً ـ وهكذا بقية القواعد الفقهية كالاستحسان والمصالح المرسلة ، ومن الطبيعي أن تأتي الفتاوى والأحكام الفقهية متفاوتة وربما متناقضة ومتضادة أحياناً ، فقد يُحلّ المذهب الحنفي أمراً ، يُحرّمه الشافعي أو الحنبلي ، ويعتبره مالك مكروهاً على سبيل المثال .. وهكذا.

بعد أن صحّت الأحاديث

فلِمَ إذن ، تمسّك فقهاء أهل السُنّة والجماعة بالرأي والقياس والقواعد الأخرى رغم اتضاح صحة الكثر من السُنّة النبوية على يد أصحاب الجرح والتعديل ، وعلى رأسهم يحيى بن معين وعبد الرحمن بين المهدي والقطان؟ ثم ألم تكن

أقوال الأئمة المأثورة عنه : قولنا صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب ، وقولهم : إذا صحّ الحديث ، فهو مذهبي ، واضربوا بقولي عرض الحائط ، وكل واحد يُؤخذ منه ويردّ عليه ، إلا الرسول) صلى الله عليه وسلم(؟).١)

إن هؤلاء الفقهاء والمجتهدين ، وفي مقدمتهم فقهاء المذاهب الأربعة ، لم يصلوا إلى قناعة تامة في العديد من استنتاجاتهم الفقهية ، نظراً لعدم غربلة الحديث النبوي ، ليتبيّن الصحيح القاطع من الضعيف الواهي والسقيم ، ولذلك رأى أولئك الفقهاء قصوراً في الحديث لا يملأه إلا الاعتماد على أقوال الصحابة والقواعد الفقهية الموضوعة من قبلهم ، من أمثال الرأي والقياس والاستحسان وغيره ، ولم يصلوا الى اليقين في الكثير من أحكامهم ، على أمل أن يأتي غيرهم ، ويبحثوا ويدقّقوا في الحديث النبوي ، والتوصّل الى الحقائق الفقهية المجهولة ، وعليه فكان الفقهاء لا يحبّذون تقليدهم ، ويحذّرون تلامذتهم وأتباعهم من استنساخ أحكامهم وفتاواه ، وإنما حثّوهم على البحث والتنقيب والتقصّي ، وعدم التقليد والجمود على تلك الفتاوى التي يحتمل الكثير منها ، الخطأ والصواب ، لأن الكثير منها مبني على الحدس والظن والرأي فحسب ، غير ان هؤلاء التلاميذ والأتباع ، لم يطيعوا أساتذتهم واقتبسوا تلك المسائل وكأنها نصوص مقدّسة لا يمكن المساس بها أو نقدها ، مع اتضاح الكثير من الاحاديث التي كانت مبثوثة

)١ (فيض القدير ـ المناوي : ٣١٠.

هنا وهناك وغربلتها من قبل أهل الجرح والتعديل ، وعليه فقد تمادوا في التقليد والجمود على مسائل وأحكام اتضحت مخالفتها للسُنّة النبوية ، وما جرى بعد ذلك من صراعات مريرة بين اتباع المذاهب ، في حين لو تحرّى الاتباع من الاحاديث النبوية في كتاب الصحاح والسنن ، لتقلّصت الاختلافات الفقهية الى حد بعيد.

ان الجمود والإصرار على الخطأ والتمادي فيه ، والتشبّث بالظنون لدى أتباع المذاهب الأربعة ، وصل الى درجة كبيرة من الإسفاف والعناد والمكابرة ، فبعض الناس اذا وجد حديثاً واحداً يوافق مذهبه فرح وسلّم ، وإن وجد حديثاً صحيحاً سالماً من النسخ والمعارض ، مؤيّداً لمذهب غير إمامه ، فتح له باب الاحتمالات البعيدة ، وضرب عنه الصفح ، ويلتمس لمذهب إمامه أوجُهاً من الترجيح ، مع مخالفته للنص الصريح والصحابة التابعين ، وإن عجز عن ذلك كله ، ادّعى النسخ بلا دليل ، أو الخصوصية ، وإن عجز أيضاً ، ادّعى ان إمامه اطّلع على كل مروي ، فما ترك هذا الحديث الشريف إلا وقد اطّلع على طعن فيه) ١.(

والتعصّب المذهبي قد اتخذ أشكالاً مختلفة ، فالبعض ينتقل من مذهب الى آخر ، ليس لدليل اكتشفه وثبت فيه ضعف المذهب الذي كان يعتنقه ، وانما لاعتبارات مزاجية ونفسية .فهذا ابن عبد الحكم ، طلب مجلس الشافعي بعد موته ، فقيل له بأن الشافعي قال بأن الربيع أحق بمجلسي ، فغضب وتخلّى عن مذهب الشافعي وتمذهب لمالك بن أنس ، وصنّف كتاباً سمّاه» : الرد على محمد بن إدريس فيما خالف فيه الكتاب والسُنّة) «٢.(

ولذلك سُئل بعض العارفين عن معنى المذهب ، فاجاب ان معناه دين مبدّل) ١.(

وقد انتبه الامام الشهير محمد عبده الى ما جرى من صراعات طائفية ومذهبية في سالف الازمان ، بدون الرجوع الى أي دليل مُعتبر ، فقال محذّراً وناصحاً : ان المسلمين ليس لهم إمام في هذا العصر غير القرآن ، وأن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه الصدر الاول قبل ظهور الفتن.

ويقول محمد عبده أيضاً ودون مواربة : لا يمكن لهذه الأمّة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها ، ولن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الأول وهو القرآن ، وكل ما عداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم) ٢.(

فتاوى متعارضة وأحكام متضادة

من البديهي أن تأتي الأحكام والفتاوى المنسوبة لاصحاب المذاهب الاسلامية متعارضة ومتفاوتة وذات اختلاف شاسع بين الحلال والحرام ، مع ان القضية المطروحة واحدة لا تحتمل أكثر من حكم واحد محدّد.

وعلى سبيل المثال ، قدم عبد الوارث بن معبد مكة ، فالتقى أبا حنيفة وقال له : ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال : البيع باطل والشرط باطل ، فأتى ابن أبي ليلى فسأله عن ذلك ، فقال : البيع جائز والشرط باطل ، فأتى ابن شبرمة ، فسأله ، فقال : البيع جائز والشرط جائز ، فقال في نفسه : سبحان الله ، ثلاثة من فقهاء العراق،

)١ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣٧١.

)٢ (المصدر السابق : ٤٠٦.

لا يتفقون على مسألة) ١.(

وهؤلاء الفقهاء الثلاثة ، انما رووا هذه القضية الشرعية عن ثلاثة من الصحابة ، منهم عائشة وجابر بن عبد الله الانصاري ، ومع ذلك تتفاوت الرواية بين نهي الرسول وتجويزه للبيع المذكور.

وهنا لابد ان تكون إحدى الروايات الثلاث صحيحة والاثنتان موضوعتان ، وإلا لا يصح أبداً أن تناقض أقوال الرسول صلىاللهعليهوآله ، والوضع إنما كان من قبل الصحابة أو الرواة الآخرين الذين نقلوا القضية عن الرسول صلىاللهعليهوآله ، لكن الفقهاء الثلاثة ، وأبرزهم أبو حنيفة الامام الاعظم ، مضوا في فتواهم ، كل متمسّك برأيه ولم يتراجع عنه أو يناقشه على الأقل للتأكد من صحة الحُكم الذي أدلى به.

واختلف الفقهاء في حُكم وطء أمرأة ميتة ، وانه هل يحدّ واطؤها أو يُعزّر؟ فالاوزاعي مثلاً ، يوجب الحدّ على الفاعل لأن الوطء في المرأة الميتة أشبه بوطء المرأة الحية ، ولأنه أعظم ذنباً ، وأكثر إثماً ، ولأنه فضلاً عن الفاحشة ، هتك حرمة الميتة .أما الحسن البصري فلا يوجب الحدّ على هذا الفعل لأنّ الوطء في الميتة كلا وطء ، لأنه عوض مستهلك ، ولأنه لا يُشتهى مثلها وتعافها النفس ، فلا حاجة الى تسرّع شرع الزاجر عنها) ٢.(

وهكذا سائر الأحكام والقضايا ، تتفاوت وتتعارض فيما بينها تعارضاً صارخاً ، وذلك نسبة الى الاختلاف والتفاوت بين القواعد الفقهية التي يلتزم بها هذا المذهب أو ذاك.

)١ (المصدر السابق : ٣٧١.

)٢ (الشرح الكبير ـ عبد الرحمان بن قدامة ١٠ : ١٨٦.

ثم أخذ الفقهاء ـ سواء كانوا أصحاب مذاهب أم لم يكونوا ـ يتكاثرون وأصبحوا بالمئات ، حتى القرن الرابع الهجري حيث انتهى الاجتهاد ، وأما في القرن الثالث فقد كان الاجتهاد ولا يزال هو الشائع فيه ، وربما عهد بعض العلماء الى التخريج على قواعد وأصول من سبقهم من أهل العلم ، ولكن دون تقليدهم والتشبث بأقوالهم ، فلم ينقضِ القرن الثالث إلا ونحو خمسمائة مذهب كان موجوداً ، وان كان من المؤرخين من يعتقد بأن هذه المذاهب ، لم تكن في الحقيقة سوى فقهاء لم يكن لهم من المقلّدين والأتباع سوء قلة قليلة.

وتشعبت المدارس الفقهية في ذلك الوقت ، وتضاربت فتاوى الفقهاء الى درجة ، دبّت الصراعات بينهم من جهة ، وبين أتباعهم من جهة أخرى ، مما دعا الحاكم بيبرس البنداري ، الى سد باب الاجتهاد بمصر ، عام ٦٦٥ هـ ، لكي يضع حداً للاقتتال الفقهي بين العلماء والمجتهدين ، وكثرة الاجتهادات الفقهية التي أدت الى صراعات دموية في كثير من الأحيان.

والغريب ، لم يتراجع علماء ذلك الزمن وبعد قرون على نشوء المذاهب ، وخاصة المذاهب الاربعة ، عن الاحكام التي استنبطها اصحاب المذاهب ، بالرغم من اتضاح الكثير من الاحاديث الصحيحة التي تدحض استنتاجات أئمة المذاهب الفقهية ، فمضى اتباعهم على سنّتهم وأحكامهم ، وتمسّكوا بأقوالهم حيث تنطبق عليهم الآية الكريمة : قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ١.(

وفي هذا المقام ، نتذكّر قول ابن حزم الذي قال فيه : ومن جاءه خبر عن رسول الله صلىاللهعليهوآله ، يقرّ أنه صحيح ، وأنّ الحجة تقوم بمثله ، أو قد صُحّح مثل ذلك الخبر في

)١ (البقرة ١٧٠.

مكان آخر ، ثم ترك مثله في هذا المكان ، لقياس أو لقول فلان وفلان ، فقد خالف أمر الله وامر رسوله ، واستحقّ الفتنة والعذاب الأليم) ١.(

وقرأنا أيضاً ان صلىاللهعليهوآله قال : من قال في ديننا برأيه فاقتلوه) ٢.(

وقوله صلىاللهعليهوآله : لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به) ٣.(

أو قول الرسول صلى الله عليه وآله» : إن أفضل الهدى هدي محمد ، وشرّ الامور محدثاتها ، وكل مُحدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .«أو قوله صلى الله عليه وآله» : ان الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهّال يستفتون برأيهم فيضلون ويضلون) «٤.(

وتُرى ، ألم يقل الله تعالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) ٥.(

وقوله عزّ وجل : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) النحل ١١٦ ، (وقوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) الاسراء ٣٦.(

)١ (الاحكام ـ ابن حزم ١ : ٩١.

)٢ (لسان الميزان ـ ابن حجر ١ : ٣٦٦ ؛ الموضوعات ـ ابن الجوزي ٣ : ٩٥.

)٣ (الدر المنثور ـ السيوطي ٢ : ١٧.

)٤ (صحيح البخاري ٨ : ١٤٨ ؛ عمدة القاري ـ العيني ٢٥ : ٤٤ ؛ الاحكام ـ ابن حزم ٢ : ٢١٨.

)٥ (الشورى ٢١.

أم نسي فقهاء الجمهور ، هذه التحذيرات الالهية في غمرة إختلافهم وإصرارهم على الخطأ والمضي فيه؟

ويرجع عبد الوهاب الخلّاف في كتاب» : مصادر التشريع وأدلة الاحكام عند فقهاء السُنّة الأوائل «الى تسعة عشر دليلاً ، منها : الأخذ بالأخف ، سد الذرائع ، والعوائد ، وغير ذلك مما لم يرد في كتاب أو سُنّة ، ولا يعتمد على غير الاجتهاد المبني على الحدس والظن.

ولذلك قال مؤلف) كتاب الفقيه والمتفقه : (لقد ذل من ترك قول رسول الله الى قول من بعده ، أو قول الخطيب البغدادي : لا ينبغي أن يقلّد أحد في ترك ما ثبتت به سُنّة رسول الله صلىاللهعليهوآله.

ثم ألم يقل الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ) ١.(

وهكذا نشكّك بكل ما حمله التأريخ من مذاهب ومدارس فقهية ، ابتعدت عن القرآن الكريم والسُنّة النبوية الصحيحة التي تُدوَّن بالصورة الكاملة وتُوثّق جيداً إلا بعد مضي أكثر من قرنين من الزمن.

ثم نتسائل : لِمَ ثبّت لنا الحكّام أربعة مذاهب فقط دون غيرها من المذاهب؟ وهل هي حقاً أحقّ من غيرها بالتقليد؟ ثم لِمَ اغلقوا باب الاجتهاد ، وانما كان عليهم تنظيمه وترشيده لئلا يدخل هذا الباب كل من هبّ ودب ، لا ان يغلقوه الى الأبد؟

فهذا الطبري كان من العلماء المجتهدين وصاحب مدرسة مستقلة في الفقه ، وهو لم يقلّد أحداً من الائمة الاربعة ، بل كان له مذهبه الفقهي الخاص ، وهو إمام في التفسير والحديث والفقه والتأريخ ، عارف بالحديث والسُنن ، عارف بأقوال الصحابة ، وكان

)١ (صحيح مسلم ٥ : ١٣٢ ؛ مسند احمد ٦ : ٢٧٠ ؛ المحلى. ابن حزم ١٠ : ١٢٨.

أحد أئمة الفقه من أصحاب المذاهب ، خطّ لنفسه مذهباً كان له فيه أتباع ، وقد عدّه مثل الامام الاوزاعي والثوري والليث بن سعد من أصحاب المذاهب المندثرة.

أما ابن حزم ، فقد أورثوا قلوب أهل زمانه ، الحقد عليه وبغّضوا الملوك فيه ، فأُحرفت كتبه وطُرد عن بلاده الى البادية حتى كانت وفاته.

وكان ابن حزم حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسُنّة ، وكان مخالفاً لعلماء عصره في الرأي ، وأنه يخالف في حجّية بعض الأدلة.

وهناك علماء كبار تنقّلوا بين المذاهب الاربعة بحثاً عن المواقع السياسية ، كإبن هشام الأنصاري) ت ٧٦١ هـ (المعروف بقوة ملكته وسعة إطلاعه ، فقد حرص على أن ينال نصيباً كبيراً من الدنيا ، وكان في أول أمره على المذهب الحنفي ، ثم تفقه بالمذهب الشافعي ، ولما لم يستطع أن يحتل منصباً سياسياً في مدارس الشافعية ، انتقل الى المذهب الحنبلي ، فجعله الحنابلة في منصب للتدريس في مدارسهم.

ومع ان هذه المذاهب المندثرة وأمثالها كانت لأئمة مجتهدين ، لهم ما لغيرهم من أصحاب المذاهب من قوّة الرأي وعلو القيمة في الاجتهاد والاستنباط ، غير أنهم لم يحالفهم الحظ أن ينبري لهم أتباع يتملّقون للسلطان ، ويتعاونون معه ، ويتبوأون المناصب الحساسة والكبرى ، أو يتصدّون للقضاء ، فضلاً عن الذين كانوا ينفرون من السلطات الحاكمة ولا يحبّذون التعامل معها .. وهكذا لم تمض سوى قرون على بداية نشوء وانتشار المذاهب ، وجد حكّام ذلك العهد ، ان المذاهب الأربعة المعروفة ، أكثر من بقية المذاهب الأخرى ، لها أتباع ونفوذ في البلاط الحاكم ، فاثبتوها وألغوا المذاهب الأخرى ، وأنهوا وجودها بالكامل.

النتيجة المُستخلصة

١ . لو تم تدوين الحديث النبوي في حياته صلىاللهعليهوآله ، أو بعد رحيله مباشرة ، لما تعدّدت واختلفت المدارس الفقهية ، وتضاربت أحكامها ومسائلها ذلك التضارب الصارخ؟

٢ . لم يكن فقهاء ومجتهدو القرن الثاني والثالث الهجريين ، وخصوصاً الامام أبو حنيفة ومالك بن أنس ومحمد بن ادريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، أصحاب مذاهب ، وانما مجرّد فقهاء ومجتهدين ، وأحكامهم وفتاواهم قابلة للنقاش والنقد وحتى النقض ، ولم يكونوا يَرْضون بتقليدهم من قبل تلاميذهم وأتباعهم الذين خالفوا نصائح أساتذتهم ، وبثّوا فقههم بين أوساط المسلمين على شكل مذهب خاص لا يقبل الطعن أو التغيير ، خاصة في القواعد الأصولية والفقهية.

٣ . العديد من الفقهاء الذين قام أتباعهم بتحويل نهجهم الفقهي والأصولي الى مذهب محدّد ، كانوا يرفضون الاتّصال بالحُكام والتنسيق معهم ، أو العمل تحت إمرتهم ، أو امتهان القضاء ، أو تسلّم مواقع حساسة في الدولة ، لأنهم كانوا يعتبرون حُكّام ذلك العصر ، ظَلَمة وجائرين ، لذلك لاقوا القمع والتنكيل والسجن والإبعاد بسبب رفضهم التعاون مع الاجهزة الحاكمة ، كأبي حنيفة ومالك وابن حنبل ، لكن تلامذتهم لم يتورّعوا من تسنّم تلك المناصب الحساسة ، وبالتالي كانوا السبب في انتشار مذاهبهم بدعم مباشر من السلاطين والحكام الجائرين.

٤ . تعدّدت الخلافات بين أتباع المذاهب والمدارس الفقهية ، من الخلاف والحوار

الفقهي والعلمي الهادف الى توتّرات حادة على مستوى القيادات ، وعلى مستوى القواعد والأتباع ، مما أدّى الى نشوب صراعات مريرة على مختلف الصُعُد ، مما استنزف مُقدّرات المسلمين في ذلك الوقت ، وامتص طاقاتهم الفكرية والاقتصادية ، وصدّع وحدتهم وتماسكهم ، وحوّل مجتمعاتهم الى فرق وطوائف متناحرة حتى انتهى المطاف بالسماح للمذاهب الاربعة المعروفة بالنشاط الاجتماعي والثقافي والديني وإلغاء المذاهب الأخرى ، وذلك من قبل السلطات الحاكمة آنذاك.

الصحيحان في ميزان الصحة والخطأ

منذ القديم والمسلمون يتهيّبون من توجيه أي نقد ولو بسيط لصحيح البخاري ومن بعده صحيح مسلم ، للقناعة التي تولّدت في أنفسهم منذ الصغر ، بأن صحيح البخاري هو أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم ، فأنّى لنا ان نتناول مثل هذا الكتاب بالتضعيف أو التشكيك أو الطعن ولو بحديث واحد منه ، ويليه في ذلك صحيح مسلم ، فالصحيحان أو الشيخان اللذان دوّنا هذين الكتابين ، لهما موقع أول في قلوب المسلمين وبالأخصّ عند علماء الحديث والفقهاء والمؤرخين الذين يستقبلون هذين الصحيحين بالتسليم والقبول المطلق منذ مئات السنين وحتى الآن ، وكل الأحاديث التي لم ترد فيهما ينبغي أن تُخرّج على شرطيهما حتى تصبح موضع رضى واطمئنان الآخرين ولِتُؤخذَ مأخذ التسليم.

ولأننا آلينا على أنفسنا اليوم أن نلغي كل قناعاتنا ونضعها جانباً ، فقرّرنا ان ننطلق من الصغر ، ونبحث في هذين الصحيحين وننقّب فيهما جيداً لكي نعزّز تلك القناعات أو نغيّرهما طبق النتائج ، وليس لدينا أدنى خوف من تلك النتائج ، مهما كانت ، لأننا باحثون عن الحقيقة فحسب ، ولا تأخذنا في ذلك لومة لائم.

في البداية ، خامرنا إحساس بالرهبة والتردّد ، فهذان الصحيحان ، هما خُلاصة جهد كبير جداً ، وعصارة طاقات هائلة استطاعت من خلال غربلة مئات الآلاف من الأحاديث التي جُمعت من كل الأقطار الاسلامية ، بعد رحلات شاقة ، ليتم اختزالها

بعدة آلاف فقط ، هي عصارة جهود جبّارة من التأمّل والتحقيق والمُقارنة والتمحيص.

واستطعنا طرْد تلك الوساوس من أنفسنا ، والتوكّل على الله ، ومن يتوكل على الله تعالى فهو حسبه ، كيف نتوانى ونتردّد ونحن الذي تخلّينا عن كل قناعاتنا المذهبية السابقة بحثاً عن الحق مهما كان وإنْ اصطدم بأهوائنا الشخصية وقناعاتنا الذاتية التي نشأنا عليها منذ الطفولة.

وانطلقنا نبحث ونفتّش وننقّب في صفحات وبطون الصحيحين ، فوجدْنا الكثير من الأحاديث المتينة التي تدلّ على أنّها حتماً من نطْق صاحب الرسالة الغرّاء ، فهي متماسكة ومتكاملة لا ينقصها شيء ، ومتطابقة مع الوحي الالهي ، ومفاهيم القرآن الكريم .غير اننا وجدْنا هناك العديد من الأحاديث التي يناقض بعضها البعض الآخر ، وبعض الأحاديث يُخالف مفاهيم وعقائد القرآن الكريم ولا يقبلها العقل والمنطق السليم أبداً ، ولاشك انها من الموضوعات التي دسّها أعداء الدين لهدمه من الأساس ، ولم يلتفت إليها البخاري ومسلم وهما يؤلّفان كتابيهما الشهيرين .وهناك أحاديث شواذ اختلقها صحابة منافقون خَفيَ أمرهم على المسلمين وحسبوهم انهم يحسنون صنعاً ، وهناك اليهود والنصارى الذين أسلموا ظاهراً وأبطنوا الكفر ووضعوا من الأحاديث باسم الرسول صلىاللهعليهوآله لتشويه تعاليم الدين الاسلامي.

فاستغربنا كثيراً واضطرّنا البحث والتنقيب لتقصّي آراء علماء أهل السُنّة الكبار حول الصحيحين ، لمعرفة ما هي مواقفهم ازاء المزاعم التي تؤكد بأن هذين الصحيحين أفضل الصحاح على الاطلاق ، فاكتشفنا أنَّ العديد من العلماء والمؤرخين والمحققين ، قد طعنوا في صدقية هذين الصحيحين واسترابوا من بعض أحاديثها ، وضعّفوا منها ، بأدلة معتبرة ، لا تقبل نقاشاً.

البخاري في مقياس الحقيقة

قمنا في البدء ، بقراءة البخاري ، قراءة دقيقة ، فوجدنا الكثير من الاحاديث تنسجم مع الهدي النبوي ، وكل من يتفرَّس فيها يتيقن بصدورها عن الهادي النذير) عليه أفضل الصلاة والسلام ، (لكننا اكتشفنا في ثنايا صفحات الصحيح ، أحاديث كثيرة وروايات تفتقر الى المنطق والعلمية والموضوعية أيضاً ولا تليق بمقام النبوة أبداً ، وأحاديث وروايات أخرى تتعارض والذوق الانساني والاسلامي وهي أقرب للأساطير والخرافات التي ينأى العقل الانساني عنها فضلاً عن الاسلامي .ومن المسلّم به انها روايات وأحاديث مدسوسة من قبل اليهود والنصارى والمنافقين لتشويه اسلامنا العظيم.

النبي محمد وقداسته

ففي الوقت الذي ينقل البخاري عن النبي صلىاللهعليهوآله أمْره للمسلمين بعدم استقبال القبلة ولا استدبارها عند قضاء الحاجة ، ينقل عن عبد الله بن عمر بأنه ارتقى سطح بيت أخته حفصة ، فرأى النبي يقضي حاجته مستدبراً القبلة ، مستقبلاً الشام) !!١.(

فإذا كان الصحابي ابن عمر صادقاً في أقواله ، فيعني ذلك ان النبي لا يطبّق وصاياه التي اوصى بها المسلمين على نفسه ، فهو في الوقت الذي ينهاهم عن استدبار القبلة ، كراهية لهذا التصرّف ، يُمارس هذا العمل المكروه ، في حين ، يدعو القرآن الكريم الناس ليتخذوا من الرسول قدوة حسنة.

والإحتمال الآخر في هذا الشأن أن يكون ابن عمر كاذباً وتسْقط بذلك نظرية عدالة

الصحابة أجمعين .ومهما يكن فإن البخاري نقل روايتين متعارضتين حول الرسول صلى الله عليه وآله ، وبالتالي فهو مخطئ في إحداهما ، إذ لابد أن تكون موضوعة للنيل من قداسته صلى الله عليه وآله.

وبالرغم من ان أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله على الأنبياء» عليهم السلام «أمر بديهي ومفروغ منه ، لأنه خاتم الانبياء وأعظمهم مكانة ، لكن البخاري ينقل عن النبي قوله بأنه ليس أفضل من موسى عليهالسلام) ١ ، (بل ويقول البخاري بأن موسى عليهالسلام كان المرشد لمحمد صلى الله عليه وآله في تخفيف خمسين صلاة الى خمس صلوات ، وكأن الله لا يعلم بعدم طاقة الانسان وقدرته لاداء خمسين صلاة ، وان لنبي موسى أعلم من الله ورسوله من هذه الناحية.

ويروي البخاري أحاديث تثبت بأن الناس يصعقون يوم القيامة حتى الانبياء ، ومن ضمنهم النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي أبدى احتمالاً بعدم شمول موسى عليهالسلام وحده بالصعق وذلك لتفضيله على الأنبياء جميعاً ، ومنهم نبينا صلى الله عليه وآله) ٢ .(

ويروي البخاري ان النبي صلى الله عليه وآله قد سها في صلاته ذات يوم ، ومع ذلك قال لمن استفسر عن ذلك : بأنه لم ينس ولم تُقصّر الصلاة ، وبعد أن تأكّد من سهوه ، أكمل الصلاة ، وكان الناس قد اعتقدوا بأن الصلاة قد قَصُرت).٣(

وفي صحيح البخاري ، ورد ان حمزة عم النبي كان يشرب الخمر في أحد الايام مع

القينات والمغنيات ، وصادق ان جاء رسول الله الى ذلك المنزل ونظر الى حمزة ، فقال له حمزة : وهل أنتم إلا عبيد؟).١(

فهل يليق بحمزة أن يجابه الرسول صلى الله عليه وآله بذلك الكلام الوقح ، بدلاً من الخجل والاعتذار من ابن أخيه صلى الله عليه وآله؟ وعلى فرض ان حمزة كان يمارس هذه التصرفات المبتذلة قبل إسلامه ، فهل يصح أن يزور الرسول هذه الاماكن المشبوهة؟

الله تعالى في منظار البخاري

كيف يصف رسول الله ، الخالق عزّ وجل كما يروي البخاري؟

ينقل الصحيح عنهصلى الله عليه وآله بأن آخر انسان يدخل الجنة ، يحاوره الله تعالى مراراً ، فيأمره بدخول الجنة ، فيأتيها ويخيّل إليه انها ملأى ، فيقول الله تعالى إنها ملأى ، وهكذا يتكرّر هذا المشهد ، فيقول الله تعالى له إذهب

وادخل الجنة فان لك مثل الدنيا عشر أمثالها ، فيقول لله تعالى : تسخر مني أو تضحك عليّ ، وبعد أن يدلي رسول الله بهذا الكلام يضحك حتى تبدو نواجذه) ٢.(

أيعقل إنسان بأن هذا الحديث صحيح ، وان الله يحاور إنساناً مباشرة وجهاً لوجه ، الى درجة يغضب هذا الانسان الداخل الى الجنة ويواجه الله تعالى بهذا الاسلوب الفج ، متّهما الخالق جل شأنه . والعياذ بالله . بأنه يسخر منه أو يضحك عليه؟ وهل تصل الامور بالنبي الى درجة الضحك والسرور لردّ مخلوق بهذه الفضاضة على خالقه تعالى ، إنه لعجب عجاب!!

ومن روايات البخاري الغريبة عن رسول الله : ان الله خلق آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ... فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقصون حتى الآن) ١.(

والمآخذ على هذه الرواية : أولاً : ألم يقُل الله تعالى في قرآنه الكريم : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ٢(؟ وعلماء السلف من أهل السُنّة والجماعة يقولون بأن لله وجهاً ليس كوجوهنا ، وله سيقان وأيدٍ وأعضاء ليس كأعضائنا ، ومع ذلك يأتي هذا الحديث ويقرّ بأن الله خلق الانسان على صورته أي مطابق له ، بمعنى ان صورة الله كصورة آدم ، وطوله ستون ذراعاً كطول آدم.

ثانياً : كيف ينقص الخلق وهم لم يدخلوا الجنة حتى الآن ، لأن الذي يموت ، سيمكث في عالم البرزخ حتى يوم القيامة ، ومن بعدها يدخل الجنة أو النار ... فمن اين يأتي هذا النقصان؟ خاصة وان آدم كان وحده في الجنة ثم نزل الى الأرض!؟

صحيح البخاري والانبياء

يروي البخاري عن النبي سليمان بن داود بأنه طاف في احدى الليالي بمئة إمرأة ، ووطأهن جميعاً ، لكي تدل كل إمرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، وحين قال له المَلَك بأن عليه أن يقول : ان شاء الله ، فلم يقل ، ولذلك لم تلد منهن إلا واحدة ، نصف إنسان) ٣.(

تُرى أي قدرة لسليمان تمنحه طاقة هائلة لوطء مئة إمرأة في ليلة واحدة فقط؟ ثم لماذا أصرّ على عدم قول» إن شاء الله «وهو النبي الحكيم والمعصوم ، ليخالف أوامر الملائكة ويخسر أمنيته في الحصول على مئة مقاتل في سبيل الله!!

ومن روايات البخاري التي تنتقص من الانبياء ، رواية تحكي أنَّ بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة ، ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ، وكان موسى يغتسل وحده ، فشكّك بنو إسرائيل برجولة موسى عليهالسلام ، وذهب موسى مرّة ليغتسل ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه ، فأسرع في أثره ، وهو يتكلم مع الحجر ، قائلاً : ثوبي حجر ، فنظر بنو

إسرائيل إلى عورته ، فقالوا بأنه لم يكن كما ظنوا ، وأخذ موسى ثوبه وأوسع الحجر ضرباً) ١ ، (هذه الرواية تنتقص من مكانة النبي موسى عليهالسلام وتسخر منه وهي بلا شك موضوعة ، وتصب في خانة الخرافات والأساطير.

وفي شأن موسى عليهالسلام يروي البخاري ان ملك الموت أُرسل الى موسى لقبض روحه ، فلما جاءه ، صفعه موسى عليهالسلام فانطفأت عينه ، فرجع ملك الموت إلى ربه ، وقال : أرسلتني الى عبد لا يريد الموت ، فردّ الله عليه عينه ، وقال له بأن يرجع ويقول لموسى بأن يضع يده على متن ثور ، فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سنة ، قال : أي رب ، ثم ماذا؟ قال : ثم الموت) ٢.(

فهل من المعقول أن يواجه نبي من أولي العزم وبتلك القداسة والعصمة ، ملك الموت وبهذه القسوة ويصفعه ليفقأ عينه؟ وهل ان ملك الموت يأتي للانسان جهاراً ، وبهيئة مخلوق له عين؟ ثم هل يُعقل من نبي عظيم كموسى عليهالسلام يرفض الموت ويتشبث

بالحياة الدنيا في حين يجب أن يكون الانبياء قدوة للبشر؟

أما قضية الثور الذي تمنح كل شعرة من شعره ، سنة إضافية لعُمر موسى ، فهي خرافة لا تستحق التعليق.

البخاري والقرآن الكريم

يروي البخاري ، الكثير من الروايات التي تثبت ان هناك آيات كريمة محذوفة من القرآن ، وان هناك آيات قرآنية ذات عبارات غير موجودة في القرآن الذي يقرأه المسلمون.

فمثلاً ، يروي البخاري عن عبد الله بن عباس بأن الله أنزل آية ، نصها» : ليس عليكم جناح في مواسم الحج) «١ ، (فيما ينقل عن الصحابي ابن مسعود انه كان يقرأ» : والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، والذكر والأنثى ، «مدّعياً بأن الرسول أقرأه إياها من فمه ، مُقسماً بأنه سمع النبي صلىاللهعليهوآله يقرأها هكذا ، رافضاً من يريد أن يقرأها : »وما خلق الذكر والأنثى «كما هي موجودة في القرآن الحالي) ٢.(

وينقل البخاري عن الخليفة عمر بن الخطاب ، انه والصحابة قرأوا آية الرجم ووعوها ، وهو يخشى إن طال الزمان ربما يدّعي بعضهم بأنهم لا يجدوا آية الرجم في كتاب الله ، ثم تلا عمر آية أخرى وهي من القرآن الكريم ، وهي» : أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائهم.«

ثم قال عمر بأنه لو أن يقول الناس بأن عمر زاد في كتاب الله ، لكتب آية الرجم

بيده) ١.(

ومن روايات صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس ، الآية المزعومة» : وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين) «٢.(

والبخاري في رواياته هذه ، يقرّ ويعترف بأن صحيحه يتضمن روايات عديدة عن صحابة كبار يثبتون بأن هناك آيات كثيرة لا يحتويها القرآن المقروء عند المسلمين ، بما يدل ان القرآن قد اعتراه التحريف ، وانه قد حُذفت منه آيات كثيرة ، وان هناك آيات في القرآن كانت تُقرأ وفيها عبارات وكلمات غير التي يتضمنها القرآن الكريم اليوم.

إما عائشة فتقرّ . في البخاري . على ان النبي كان يُسحر بحيث يخيل إليه انه كان يفعل الشيء وهو في الحقيقة لم يكن قد فعله) ٣.(

تُرى كيف يثق المسلمون بالنبي وهو خاتم الانبياء وأفضلهم ، وهو يُسحر حسب إقراره بنفسه؟ وكيف بنبي مسحور في أوقات معينة ، أن يصدر أحاديث وأحكاماً شرعية يتعبد بها المسلمون ، وهو ما علي همن التأثر بالسحر؟ فربما يتحدّث للناس وهو مسحور لا يعلم ما يقول؟ فتأتي أحاديثه غير متطابقة مع الوحي؟ فيما يقول الله تعالى : وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ٤ .(ويقول عزّ وجل : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) الحاقة ٤٤ . ٤٦ ، (فكيف ينسجم هذا المنطق الالهي مع قول البخاري بأن النبي صلىاللهعليهوآله مكث كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله وهو لا يأتي ، وانه كان مسحوراً على يد أحدهم ثم بعد ذلك ذهب السحر بعد مدّة) ١.(

وطبق صحيح البخاري ، فإن رسول الله يقول بأن ما من بني آدم ، مولود يُولَد إلا يمسّه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وإبنها) ٢ ، (وهو في ذلك لم يستثن إلا مريم العذراء والسيد المسيح ، أي انه صلىاللهعليهوآله مثل الآخرين مسّه الشيطان عند ولادته ، وان عيسى المسيح أفضل منه لأنه أُستثني من المس!!!

ومن روايات البخاري عن أم المؤمنين عائشة ان عمر أمر الرسول أن يحجب نساءه ، فلم يكن الرسول يفعل ، وكان عمر بن الخطاب قد عرف أم المؤمنين سودة بنت زمعة وكانت قد خرجت الى الشارع) ٣.(

ويبدو هنا ان عمر بن الخطاب أكثر غيرة وحمية من النبي على نسائه بحيث انه لم يبال بهنّ وهنّ يخرجن سافرات غير مستورات؟ واذا كان تشريع الحجاب قد فرضه الله تعالى ، فلماذا لم يمتثل إليه الرسول صلىاللهعليهوآله دون عمر بن الخطاب الذي سارع في توجيه عتابه الى النبي الاكرم صلىاللهعليهوآله الذي كان غير متورع عن ستر نسائه بالرغم من الامر الالهي القاضي بتحجّب النساء.!!

ومن الذين يروي عنهم البخاري ، خادل الرسول ، أنس بن مالك الذي يقول بأن رسول الله كان يدور على نسائه في ساعة واحدة من الليل والنهار ، وهنّ إحدى عشرة،

لأنه صلى الله عليه وآله كان قد أُعطي قوة ثلاثين ، كما كان يتحدث أنس ورفاقه) ١.(

والتساؤل الوجيه في هذا المقام : مَنْ أعلم أنس ابن مالك ان النبي كان يدور على نسائه في ساعة واحدة من الليل والنهار ويضاجعهنّ جميعاً؟ فهل كان رسول الله يُطلعه على أسراره الزوجية أم كان انس يتلصص على بيوت زوجات الرسول؟ ثم اذا كان النبي صلىاللهعليهوآله قد خصّص يوماً لكل زوجة من زوجاته ليبيت عندها حتى يحقق العدل بينهنّ ، فكيف يتفق هذا البرنامج النبوي مع رواية أنس التي تزعم باجتماع الرسول مع زوجاته في ساعة واحدة؟

ثم ألا كان من الأجدر لأنس وأصحاب رسول الله أن يتحدّثوا في مواضيع ضرورية مهمة لا هذا الموضوع الذي يمسّ عِرض الرسول وأسراره الزوجية التي يجب أن تبقى مُصانة من أن تلوكها أفواه الرجال؟

وفي قضية أخرى ـ كما ينقل البخاري ـ كان النبي محمد صلى الله عليه وآله يقرّ بأن النبي يونس بن متى خير منه ، مع ان يونس كان نبياً ولم يكن من أولي العزم ، فكيف يصبح خيراً من أفضل الانبياء على الإطلاق) ٢.(

وهذا إن دل على شيء فانما يدلّ على ان تلك الأحاديث موضوعة ، سواء وضعها أولئك الصحابة أم قيلت على لسانهم وهم منها براء.

بيْد ان البخاري الذي يُعتبر صحيحه ، أصح كتاب بعد كتاب الله ، لم يتورّع عن تدوين أحاديث وروايات بالرغم من هشاشتها ، ووضوح كذبها وإبتداعها.

طعون على البخاري

من خلال تتبّع المصادر والكتابات التي تناولت صحيح البخاري ، اكتشفنا ان هناك عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والمؤرخين قد طعنوا في هذا الصحيح ، وانتقدوا بعض أحاديثه ورواته وأسانيده.

منهم الإسماعيلي الذي بعد أن أورد الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة بان إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزرقترة .قال بأن هذا الخبر في صحته نظر) ١.(

وقال أحد علماء أهل السُنّة والجماعة بأن سند ابن ماجة خماسي ، وسند البخاري سداسي ، فحصل له تفوّق) أي ابن ماجة (بهذا الاعتبار أيضاً) ٢.(

وفي» السنن «من الأحاديث الصحيحة التي هي أصحّ من أحاديث صحيح البخاري صحة) ٣.(

يقول الحازمي تحت عنوان» : باب في إبطال قول من زعم ان شرط البخاري ، إخراج الحديث عن عدلين وهلم جرّا ، إلى أن يتصل الخبر بالنبي صلىاللهعليهوآله : «ان هذا الحكم من لم يمعن الغوص في خبايا الصحيح ، ولو استقرأ

الكتاب حق الاستقراء لوجد جملة من الكتاب ناقضة عليه دعواه ، فإبن حبان ، قال : وأما الأخبار فإنها كلها أخبار الآحاد ، لأنه ليس يوجد عن النبي خبر من رواية عدلين روى أحدهما عن عدلين ، وكل واحد منهما عن عدلين حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ، فلما استحال هذا وبطل،

ثبت ان الأخبار كلّها أخبار الآحاد ومن إشترط ذلك ، فقد عمد الى ترك السُنن كلها لعدم وجود السُنن إلا من رواية الآحاد) ١.(

وقد يقع لمحمد البخاري الغلط في أهل الشام ، وذلك لأنه أخذ كتبهم ونظر فيها فربما ذكر الرجل بكنيته ، ويذكره في موضع آخر بإسمه يظنهما إثنين) ٢.(

والإمام البخاري صنّف كتابه في طول رحلته ، لأجل هذا ربما كتب الحديث من حفظه فلا يسوق ألفاظه برمّتها بل يتصرّف فيه ويسوقه بمعناه) ٣.(

واعتمدا لبخاري ونقل كثيراً عن عكرمة مولى ابن عباس ، وهو خارجي كما نصّ على ذلك ابن خلكان في وفياته والشهرستاني في» الملل والنحل «وكان إبن عمر يقول لمولاه نافع : لا تكذّب عليّ كما يكذّب عكرمة على ابن عباس ، وكما كان ابن سيرين يقول ما يسوءني أن يدخل) عكرمة (الجنة ولكنه كذاب وإنه يكذّب على ابن عباس كما يؤكد ابنه علي .وقد كذّبه عطاء ويحيى بن سعيد الانصاري ، وأمر مالك بن أنس أن لا يُؤخذ عن عكرمة ، ويقرّ الشافعي بأن مالكاً سيء الرأي في عكرمة ، قائلاً : لا أرى لأحد أن يقبل حديث عكرمة ، وعكرمة لا يُحسن الصلاة ، ولم يشهد جنازة عكرمة إلا السودان) ٤.(

ومع كل هذه التهم والطعون ضد عكرمة الخارجي ، فقد وثّقه الامام البخاري واعتمده كثيراً.

ويحتج البخاري بسمرة بن جندب الخارجي ، أحد ولاة معاوية الذي قتل ثمانية

آلاف من المسلمين ، وقد قتل في يوم أربعين رجلاً كلهم قد جمع القرآن ، وسمرة كان يبيع الخمر أيام الخليفة عمر بن الخطاب) ١.(

والامام البخاري نفسه يقول بأن رُبّ حديث سمعه بالبصرة ثم كتبه بالشام ، ورُب حديث سمعه بالشام كتبه بمصر ، وعندما قيل له : بكماله ، سكت) ٢.(

والبخاري يروي عن ألف ومئتين من الخوارج ، وانتسخ ابو إسحاق المستملي كتاب البخاري من اصله الذي كان عند صاحبه محمد بن يوسف الغربري ، فرأى فيه أشياء لم تتم ، وأشياء مبيضة ، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئاً ، ومنها أحاديث لم يترجم لها ، فأضافوا بعض ذلك الى بعض.

ومما يدل على صحة هذا القول ، هو اختلاف رواية أبي اسحاق المستملي ، ورواية أبي محمد السرخسي ، ورواية أبي الهيثم الكشميهي ، ورواية أبي زيد المرزوي ، بالتقديم والتأخير مع انهم نسخوا من أصل واحد ، وانما حصل ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم فيما كان في رقعة مُضافة أنه من موضع ما ، فأضافه إليه ، ويبين ذلك ان نجد ترجمتين وأكثر من ذلك متصلة ليس بينها أحاديث) ٣.(

وكل ذلك يدل دلالة واضحة على أن صحيح البخاري نفسه لم يكتمل بعد وكان بحاجة الى إضافة وتنقيح وتعديل من قبل صاحبه البخاري الذي مات وتركه بكل تلك النقائص والعيوب ، فكيف يصح ان نقول إن البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله ، وهو بتلك الحالة حيث تتعدد النسخ عنه وكل نسخة تختلف وتتفاوت فيما بينها حسب مزاج وذوق النسّاخ الذين وجدوا ثغرات وفراغات فملؤوها حسب أذواقهم وأفهامهم.

والبخاري احتج بجماعة سبق من غيره الجرح لهم ، كعكرمة الذي ذكرناه سابقاً ، واسماعيل بن أبي أويس ، وعاصم بن علي ، وعمر بن مرزوق ، وغيرهم) ١.(

وقد تصدّى ابن حجر في كتاب» التقريب «وفي مقدمة شرحه للبخاري ، والعلامة الدهلوي في كتابه» مشكاة المصابيح ، «الى حصر ما روى البخاري عن الخوارج والمُضعَّفين.

ويقول محمد بن الأزهر السجستاني : كان البخاري معنا يسمع ولا يكتب ، فقيل لبعضهم : ما له لا يكتب ، فقال : يرجع الى بخارى ويكتب من حفظه) ٢.(

ومن نوادر ما وقع في البخاري ، أنه يخرج الحديث تاماً بإسناد واحد بلفظين) ٣ ، (والسبب هو إنه كان يكتب من حفظه ولما كان ينسى ويغفل كغيره من الناس ، فمن الطبيعي أن يكتب الحديث النبوي بالمعنى دون النص في أكثر الأحوال ، فيأتي الحديث بألفاظ مختلفة .فضلاً عن ان الامام البخاري قد ترك كتابه مسودّة ، ودلّ ذلك على أنه كتب كل ترجمة على حدة ، فضمّ بعض النقلة بعضها الى بعض حسبما اتفق.

والبخاري ، أول لمن كتب الصحيح من الحديث ـ في نظره ـ قبل غيره ، فاختار كتابه مما تبيّن له أنه صحيح.

وقد انتقده الحفّاظ في مئة وعشرة أحاديث ، منها ٣٢ حديثاً ، وافقه مسلم على تخريجه ، و٧٨ حديثاً انفرد هو بتخريجه) ٤.(

ويقول السيوطي وأبو بكر بن العربي : الموطأ هو الأصل الأول واللُباب ، وكتاب

)١ (التأريخ الصغير ـ البخاري ١ : ٢٠.

)٢ (مقدمة فتح الباري ـ ابن حجر : ٤٧٩.

)٣ (فتح الباري ـ ابن حجر ١٠ : ١٩٣.

)٤ (مقدمة فتح الباري ـ ابن حجر : ٣٤٥.

البخاري هو الأصل الثاني في الباب ، أي ان الأهمية الأولى تُولّى للموطأ قبل البخاري) ١.(

هذا وعقد ابن حجر فصلاً خاصاً في الجزء الثاني من مقدمة فتح الباري للطعن في رجال البخاري ، وسرد فيه اسماءهم ، مع حكاية ذلك الطعن والتنقيب عن سببه ، والقيام بجوابه ... وقد استغرقت هذه الاسماء نحو أربعمائة ، وبلغت ٦٥ صفحة من رقم ١١٣ ـ ١٧٦.

ويسرد ابن حجر العسقلاني اسماء من طعن فيهم من رجال البخاري) ٢.(

روايات مطعون في صدقيتها

يروي البخاري عن أنس بن مالك روايتين عن الصحابة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلىاللهعليهوآله .الرواية الأولى يذكر أنس أن الذين جمعوا القرآن ، هم أربعة من الأنصار : كعب ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، أبو زيد.

وفي الرواية الثانية ، ذكر أنس أن هؤلاء الأربعة هم : أبو الدرداء ، معاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، أبو زيد .وأنس بذلك ذكر خبرين يختلفان اختلافاً واضحاً في مَنْ الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول صلىاللهعليهوآله؟ ففي الجزء الأول ذكر كعب وفي الجزء الثاني أبا الدرداء .وقد اعترض الاسماعيلي على إخراج حديثي أنس معاً في الصحيح لتباينهما ، بل الصحيح أحدهما.

)١ (تنوير الحوالك ـ السيوطي : ٦.

)٢ (مقدمة فتح الباري ـ ابن حجر.

وجَزَم البيهقي بأن ذكر أبي الدرداء وهْمٌ ، والصواب أبي بن كعب .وقال الداودي : لا أرى ذكر أبي الدرداء محفوظاً ، والصحيح هو الرواية الأولى) ١.(

ويقرّ هؤلاء جميعاً بأن الرواية الثانية غير صحيحة مطلقاً بالرغم من أن الامام البخاري نفسه نقلها في) صحيحه.(

ومن مُفارقات البخاري في) صحيحه (انه ينقل حديثاً لرسول الله صلىاللهعليهوآله ، يلعن فيه السارق لسرقته البيضة أو الحبل فتقطع يده .في وقت يروي حديثاً عن السيدة عائشة تزعم فيه ان يد السارق لا تقطع إلا في ربع دينار) ٢ ، (أي بأكثر من البيضة كثيراً ، وهاتان الروايتان تتعارضان كما يبدو ، ولابد ان إحداهما موضوعة حتماً.

)١ (عمدة القاري ـ العيني ٢٠ : ٢٨.

)٢ (صحيح البخاري ٨ : ١٦ ـ ١٧ ؛ صحيح البخاري ٨ : ١٥.

صحيح مسلم .. وحكم التأريخ

النبي محمد صلى الله عليه وآله في صحيح مسلم

يروي مسلم في صحيحه بأن الرسول صلى الله عليه وآله ، قال : من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد ، فليقل : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبن لهذا) ١ ، (ولا شك ان النبي صلى الله عليه وآله بريء من مثل هذا القول الذي لا يتّفق وأخلاق النبوة ومكانة المسجد في الاسلام ، إذ ان المسجد لا يختص فقط بالصلاة والعبادة ، وإنما لكل الأمور التي تخصّ المسلمين ، فكيف اذا كان الأمر هو نشْد ضالة أو طلب قضاء حاجة أو مشكلة ، فليس هناك مكان أولى من المسجد ولا أنسب لحل مشاكل المسلمين ومعضلاتهم ، فلِمَ ينصح الرسول المسلمين بهذا الدعاء السلبي؟ انها ليست من صفات ولا خصال النبي صلى الله عليه وآله الذي هو قدوة الأمّة.

ثم يروي مسلم القشيري بأن الرسول صلى الله عليه وآله يقول : اللهم ، إنما أنا بشر فأيّما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته ، فاجعله له زكاة ورحمة) ٢ .(

فهل يصحّ من النبي المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى ، والذي هو ذو خلق

عظيم ، أن تصدر منه هذه الكلمات التي لا تليق به أبداً ، وهو القدوة الحسنة للمسلمين جميعاً.. ؟ لابد ان هذا الحديث من الموضوعات للحطّ من منزلة صاحب الدعوة الاسلامية المقدسة.

القرآن الكريم في صحيح مسلم

يروي مسلم كصاحب البخاري عن صحابة للنبي صلىاللهعليهوآله بأن هناك سُوَراً وآيات عديدة كانت ضمن القرآن الكريم وحُذفت منه ، كقول أبي موسى الأشعري بأنه هو والصحابة كانوا يقرأون سورة يشبّهونها في الطول بسورة براءة

حفظ منها) : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن ادم إلا التراب «وكان الاشعري وصحبه يقرأون سورة أخرى كانوا يشبهونها بإحدى المسبحات ، حفظ منها» : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون .فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة) ١.(

وتعليقنا على هذه الرواية:

١ . تثبت رواية الأشعري وجود عدة سُوَر كانت في القرآن الكريم ثم حُذفت منه.

٢ . الآيات التي أوردها الأشعري كنماذج من الآيات التي كان حفظها من تلك السور ، ركيكة جداً ولا تنسجم والاسلوب البلاغي البديع والرصين للقرآن الكريم.

ويروي مسلم عن عائشة بأن آيات قرآنية كانت تحدّد ثبوت شرعية أخوّة الرضاعة

)١ (صحيح مسلم ٣ : ١٠٠.

في عشر رضعات معلومات ولكن نُسخن بخمس معلومات ، وتوفي رسول الله وهنّ فيما يُقرأ من القرآن .وإطلالة على القرآن الكريم تثبت عدم صحة هذه الرواية فضلاً عن ان هذه الرواية تدلّ على تحريف القرآن في هذا الصدد) ١.(

ويروي مسلم بأن ابن عباس كان يشك في بعض كلمات النبي صلىاللهعليهوآله ، انها من القرآن ، وانه قال مرّة بعد نقله لحديث عن الرسول صلىاللهعليهوآله : فلا أدري أمن القرآن هو أم لا؟) ٢(

وهذا يثبت بأن إبن عباس لم يكن يطمئن الى سلامة القرآن من التحريف ومن الزيادة والنقصان وانه هو نفسه لا يعلم ان بعض أقوال الرسول هل هي آيات قرآنية أم أحاديث؟ فكيف والحال هذه أن نطمئن الى صحيح مسلم بأنه لم يسلم من الأخطاء وهو يقرّ بأن القرآن لم يخلُ من التحريف؟

مسلم والأنبياء

يروي مسلم في صحيحه إسطورة كراهية النبي موسى عليهالسلام للموت التي نقلها البخاري ايضاً .ويذكر مسلم أيضاً بأن آدم أقرّ بالمعصية لأكله من الشجرة ، وان ابراهيم أقرّ بأنه كان كاذباً ، وان موسى أقرّ انه قتل نفساً) ٣ ، (مع ان هذه الأمور لم تكن معاصي أبداً لأن الانبياء معصومون ولم يكونوا يفعلون المعاصي والذنوب ، ولكن يبدو أن

)١ (صحيح مسلم ٤ : ١٦٧ ـ ١٦٨.

)٢ (صحيح مسلم ٣ : ١٠٠.

)٣ (صحيح مسلم ١ : ١٢٧ ـ ١٢٨.

مسلم القشيري لا يتورّع عن رواية الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة التي تنال من الانبياء عليهم السلام.

مسلم وصفات الله تعالى

يروي مسلم أحاديث وروايات تُضفي صبغة الجسم والهيئة على الله تعالى ، منها قول الرسول صلىاللهعليهوآله بأن جهنم لا تزال يُلقى فيها البشر وهي تقول هل من مزيد حتى يضع الله فيها قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض وتقول قط

قط) ١ ، (أو قول النبي صلىاللهعليهوآله بأن الناس يرون الله في يوم القيامة .أو قوله صلىاللهعليهوآله بأن الله يتحاور مع آخر الداخلين الى الجنة ـ مراراً ـ ولا يزال هذا الشخص يدعو الله حتى يضحك الله منه كما ذكرنا هذه الرواية الموضوعة عندما تحدثنا عن صحيح البخاري) ٢ .(كما يتحدّث مسلم عن رب يظلم فيدخل العاصي الجنة ، ويدخل المؤمن النار .. بالرغم من ان هذا الحديث يتعارض مع تأكيد القرآن الكريم بأن الله عادل ولا يظلم أحداً من عباده ، وهو ليس بظلام للعبيد ، وان الحديث السابق ينسب الظالم بأقسى أشكاله الى الخالق العظيم.

الطعن على مسلم

طعن على مسلم وصحيحه ، عدد كبير من العلماء والمحققين من أهل السُنّة والجماعة ، وتناولوه بالنقد والتجريح.

)١ (صحيح مسلم ٨ : ١٥٢.

)٢ (صحيح مسلم ١١٤ : ١.

فالحافظ الرشيد ، له كتاب» الفوائد المجموعة في شأن ما وقع في مسلم من الأحاديث المقطوعة ، «ويقول : فقد روى مسلم عن ليث بن أبي سليم وغيره من الضعفاء.

وروى مسلم عن أبي الزبير عن جابر ، أحاديث كثيرة ، وقد قال الحفاظ عنه أنه يدلس في حديث جابر.

ويذكر مسلم بأن أبا سفيان قال للنبي بأن يعطيه ثلاثاً ، أن يزوّجه ابنته أم حبيبة ، وأن يجعل ابنه معاوية كاتباً له ، وأن يأمره أن يقاتل الكفّار ، وان النبي أعطاه ما سأل وفي هذا من الوهم لا يخفى ، فأم حبيبة تزوّجها رسول الله وهي بالحبشة ، وأما إمارة أبي سفيان ، فقد قال الحفّاظ إنهم لا يعرفونها أي ينكرونها ، وكذلك تأميره في بعض الغزوات ، وهذا لا يعرف وما حملهم على هذا كله إلا بعض التعصّب) ١ .(إذ ان المعروف عكس هذه المزاعم ، فأبو سفيان كان لا يشارك في المعارك وانما يقف متفرجاً ، أملاً في انتصار الكفار حتى يلتحق بهم كما تؤكد الروايات ، فكيف يا تُرى يدعو الرسول لتأميره على جيوش المسلمين لمقاتلة الكفار؟

واحتج مسلم أيضاً بسويد بن سعيد وجماعة اشتهر الطعن فيهم ، وهكذا فعل أبو داود السجستاني ونقل السيوطي عن ابن الصلاح انه قال : قد عيب على مسلم روايته في صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين.

وقد احتج علماء سُنّة على قول مسلم : ليس كل شيء صحيحاً عندي وضعته في كتابي ، وإنما وضعت هذا ما أجمعوا عليه .إذ يقول النووي إن هذا القول مُشكل ، فقد وضع فيه أحاديث كثيرة مختلف في صحّتها لأنها من حديث من اختلفوا في صحة حديثه.

)١ (صحيح مسلم ٧ : ١٧١.

وكذلك قال ابن الصلاح ، وقال ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص : ان الحديث الذي رواه مسلم في خلق التربة يوم السبت ، حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره ، وقالوا إنه من قول كعب الأحبار ، ولهذا الحديث نظائر عند مسلم ، فقد روى أحاديث عرف أنها غلط ، مثل قول أبي سفيان لما أسلم أُريد أن أزوجك أم حبيبة ، ولا

خلاف بين الناس ان النبي قد تزوّجها قبل إسلام أبي سفيان ، ومثل صلاة الكسوف ان النبي صلّاها باربع ركع ، والصواب أنه لم يصلّا إلا مرة واحدة بركوعين) ١.(

وقد بلغت الأحاديث التي انتقدت على مسلم ١٣٢ ، وعدد من انتقدوه من رجاله ١١٠.

ومسلم روى حديث الجساسة في كتابه من طرق يخالف بعضها بعضاً ، منها : ان النبي جمع الناس وقال لهم : جمعتكم لأن تميماً كان رجلاً نصرانياً ، فجاء فبايع وأسلم ... ثم حدّثه بحديث الجساسة الذي مؤداه : أن تيماً الداري ركب سفينة بحرية مع عدد من الرجال ، ثم دخلوا جزيرة ، فوجدوا إنساناً يديه الى عنقه ، وما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ... ولما عرف أنهم من العرب ، سألهم عن النبي ... ثم قال : أنا المسيح ، وان أوشك أن يؤذن لي في الخروج.

وإن التي أخبرتهم عن المسيح ، دابة تتكلم وقالت : أنا الجساسة حيث أشارت الى الدَيْر ، وان بين قرني الجساسة فرسخاً للراكب) ٢.(

ومن المعلوم ، إضافة الى إختلاف الروايات التي يذكرها مسلم في كتابه بخصوص

)١ (صحيح مسلم ٣ : ٣٤ ؛ مجموعة الفتاوى. ابن تيمية ١٧ : ٢٣٦.

)٢ (صحيح مسلم ٨ : ٢٠٤.

حديث الجساسة ، ان عيسى المسيح ، رفعه الله إلى السماء كما يشير القرآن الكريم ، فكيف عاد الى الأرض واستقر في الدَيْر ، ولم يكن قد آن آوان آخر الزمان ، كما ان هذه الدابة التي بين قرنيها فرسخ من المسافة ، تبدو من اساطير وخرافات كعب الأحبار اليهودي الذي اسلم نفاقاً لدس الأحاديث بين المسلمين.

إن هذه المآخذ والطعون المُتخذة ضد صحيح مسلم ، تتعارض وقول مسلم بأنه أخرج كتابه وقال عنه هو) صحيح ، (وانه أخرجه من الحديث الصحيح ليكون مجموعاً عنده وعند من يكتبه عنه ، ولا يرتاب في صحتها .. وقد اتضح عند الكثيرين أن هناك أحاديث ضعيفة وموضوعة في كتابه الذي يدّعي بأنه صحيح والذي اختاره من ٦٠٠ ألف حديث.

بين صحيحي البخاري ومسلم

سنتناول الآن صحيحي البخاري ومسلم معاً والاختلافات بينهما ، وموقف العلماء منهما معاً ، خاصة وهما الشيخان اللذان عليهما مدار الحديث على مر الأزمان والحُقَب وكل حديث يُخرّج على شرطيهما ، يُعدّ حديثاً ذا شأن ومقبولية عند المحقّقين والمؤرخين والفقهاء.

وأول ما نُفاجأ في هذا الشأن ، ان الذين انفرد مسلم بالاخراج لهم دون البخاري ، ستمائة وعشرون ، المُتكلّم فيهم بالضعف منهم مائة وستون رجلاً ، اختص البخاري بأقل من) ٨٠ (وباقي ذلك يختص بمسلم) ١ .(كما ان مسلماً أخرج أحاديث أقوام ، ترك البخاري حديثهم لشبهة وقعت في نفسه ... ذلك بأن ائمة النقل ، في تعاطي اصطلاحاتهم يختلفون في أكثرها ، فرُبّ راوٍ هو موثوق به عند عبد الرحمن بن مهدي ، ومجروح عند يحيى القطّان وبالعكس ، وهما إمامان عليهما مدار النقد في النقل ، ومن عندهما يتلقى معظم شأن الحديث) ٢ .(

وهذا دليل آخر يثبت أن مصادر البخاري ومسلم نفسهما لم يتّفقا على الجرح

)١ (مقدمة فتح الباري . ابن حجر : ١٠.

)٢ (اضواء على السنة النبوية . ابو رية : ٣١٠.

والتعديل وانما يختلفان أو يتعارضان كثيراً.

ومع كل ذلك فإن ابن الصلاح يحتج بدون أي دليل أو مصداقية ويحاول جاهداً التأكيد بأن الأمّة قد تلقّت البخاري ومسلم بالقبول ، فيردّ عليه الجزائري قائلاً : فإذا أراد بالأمّة كل الأمّة ، فلا يخفى فساده لأن الكتابين إنما حُسناً في المئة الثالثة بعد عصر البخاري وأئمة المذاهب المتّبعة ، وإن أراد بعضها ، وهم من وُجد بعد الكتابين ، فهم بعض الأئمة فلا يستقيم دليله ، وإن أراد بالأمّة علماء ، فإن العلماء في هذا الأمر ، ثلاثة أقسام : على ان العلماء الذين جاءوا بعد ظهور هذه الكتابين ، في القرن الثالث الهجري ، أما من قبلهم من أهل القرون الاولى الذين جاء فيهم حديث ، رفعوه الى النبي بأنهم خير القرون ، فهم جميعاً لم يروا هذين الكتابين حتى كان يُعلم رأيهم فيهما ولا كيف لقوهما) ١.(

ويقول الامام أبو زرعة عن سُنن ابن ماجة : أظنّ إنْ وقع هذا في أيدي الناس ، تعطّلت هذه الجوامع أو أكثرها . وبالطبع تتضمن هذه الجوامع : البخاري ومسلم ، وهو في ذلك يفضّل سُنن إبن ماجة على الصحيحين) ٢.(

وعند الترجيح بين البخاري ومسلم ، يقول ابن حجر : إن الذين انفرد البخاري بالإخراج لهم دون مسلم ، أربعمائة وبضعة وثمانون رجلاً ، المُتكلّم فيهم بالضعف منهم ثمانون رجلاً) ٣ ، (وينقل الذهبي عن أبي عمر وحمدان بأنه سأل ابن عقدة : أيهما أحفظ ، البخاري أم مسلم؟ فقال : يقع للبخاري الغلط في أهل الشام ، وذلك لأنه أخذ كتبهم ونظر فيها ، فربما ذكر الرجل بكنيته ، ويذكره في موضع آخر بإسمه يظنّهما إثنين،

)١ (المصدر السابق : ٣٦٣.

)٢ (تذكرة الحفاظ ـ الذهبي ٢ : ٦٣٦.

)٣ (مقدمة فتح الباري ـ ابن حجر : ٩.

وأما مسلم فقلّما يوجد له غلط في العلل ، لأنه كتب المسانيد ولم يكتب المقاطيع والمراسيل .ومن الواضح هنا أن ابن عقدة يُفضّل مسلماً على البخاري في هذا النطاق) ١.(

إن الأحاديث التي انتقدت البخاري ومسلماً معاً بلغت ٢١٠ أحاديث ، اختص البخاري من فيها بأقل من ٨٠ ، وباقي ذلك تختص بمسلم .ويقول ابن حجر ، عن الاحاديث التي انتقدها الدارقطني : ان هذه المواضع مُتنازع في صحّتها ، فلم يحصل لها من التلقّي ما حصل لمعظم الكتاب) ٢.(

وبهذه المناسبة ، نعود للحديث عن موقف البخاري ومسلم من عكرمة ، فبالرغم من أن ابن سعد كان يؤكّد بأنه لا يحتج بحديث عكرمة ، بينما يثق الطبري به كل الثقة ويملأ تفسيره وتأريخه بأقواله والرواية عنه ، وان أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين وغيرهم من كبار المحدّثين وثقوه ، فإن مسلماً ترجّح عنده كذب عكرمة ، فلم يرو له إلا حديثاً واحداً في الحج ، ولم يعتمد فيه عليه وحده وانما ذكره تقوية لحديث سعيد بن جبير في الموضوع نفسه) ٣.(

أما البخاري فقد ترجّح عنده صدق عكرمة ، فهو يروي له في صحيحه كثيراً ، فاذا كان عكرمة كذّاباً لدى مسلم ولا يثق به أبداً ، وكذلك لدى العديد من أهل العلم ، فكيف يثق به البخاري ثقة مطلقة ويملأ له حيزاً كبيراً من صحيحه؟

ومن الذين روى لهم البخاري ومسلم في صحيحهما ، إبراهيم بن سعد وهو موسيقار من العلماء بالحديث ، كان يبيح السماع ويضرب العود ويغنّي عليه ، كما وُلي

)١ (سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ١٢ : ٥٦٥.

)٢ (مقدمة فتح الباري ـ ابن حجر : ٣٤٤.

)٣ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣٠٤.

القضاء ببغداد) ١.(

ويعلّق زين الدين العراقي في شرح ألفيته في علوم الحديث على قول محمد بن طاهر في كتاب) شروط الأئمة (بأن شرط البخاري ومسلم أن يخرجا الحديث المُجتمع على ثقة نقلته الى الصحابي المشهور : ليس ما قاله ابن طاهر بجيد لأن النسائي ضعّف جماعة أخرج لهم الشيخان أو أحدهما) ٢ ، (ويقول المقبلي في العلم الشامخ : في رجال الصحيحين كثير من الائمة مَنْ صرح بجرحهم ، وتكلّم فيهم من تكلّم بالكلام الشديد .ويقول ابن الصلاح : احتج البخاري بجماعة سبق من غيره الجرح لهم كعكرمة وكإسماعيل بن أبي أويس ، وعاصم بن علي ، وعمرو بن مرزوق وغيرهم ، واحتج مسلم بسويد بن سعيد وجماعة اشتهر الطعن فيهم وهكذا فعل أبو داود) ٣.(

بل وقد وقع في الصحيحين ، أحاديث كثيرة من رواية المدلّسين ، مع ان التدليس من أسباب الجرح) ٤.(

ويقول بن الهمام : وقد أخرج مسلم عن كثير ممن لم يسلم من غوائل الجرح ، وكذا في البخاري جماعة تكلّم فيهم) ٥.(

ويقول كمال الدين بن الهمام في شرح الهداية : وقول من قال : أصحّ الأحاديث ما في الصحيحين ثم ما انفرد به البخاري ، ثم ما انفرد به مسلم ، ثم ما اشتمل على

شرطهما ، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما ، تحكّم لا يجوز التقليد فيه ، إذ الأصحية ليست إلا لاشتمال رواتهما على الشروط التي اعتبراها ، فإن فرض وجود تلك الشروط في رواة حديث في غير الكتابين ، أفلا يكون الحكم بأصحية ما في الكتابين عين التحكّم) ١.(

وقد استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلّا بشرطيهما فيها ، ونزلت عن درجة ما إلتزماه ، وقد ألّف الإمام الحافظ الدارقطني في بيان ذلك ، كتابه المسمّى) بالاستدراكات والتتبع (استدراكاً عليهما ، وكذا لأبي علي الغساني في كتابه) تقييد المهمل ، (وما يقوله الناس ان من روى له الشيخان فقد جاوز القنطرة !هذا من التجوّز ولا يقوى) ٢.(

ويقول ابن أمير الحاج في شرح التحرير : ان أصحية البخاري ومسلم على ما سواهما تنزّلاً ، إنما تكون بالنظر الى ما بعدهما ، لا المجتهدين المتقدّمين عليهما) ٣.(

واذا قالوا : صحيح متّفق عليه ، أو على صحته ، فمُرادهم : اتفاق الشيخين ، إذ ذكر ابن الصلاح : أن ما روياه أو أحدهما ، فهو مقطوع بصحته ، والعلم القطعي حاصل فيه .لكن هذا الزعم قد خالفه فيه المحقّقون والأكثرون ، فقالوا : يفيد الظن ما لم يتواتر) ٤.(

ولا يلزم من إجماع الأمّة على العمل بما في الصحيحين ، إجماعهم على انه

)١ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣١٢ نقلاً عن كتابي توجيه النظر وشرح شروط الائمة الخمسة.

)٢ (فتح الباري ـ ابن حجر ١٣ : ٣٨٢.

)٣ (اضواء على السنة النبوية ـ ابو رية : ٣١٤.

)٤ (النكت على كتاب ابن الصلاح ـ ابن حجر : ١١١ ؛ شرح صحيح مسلم ـ النووي ١ : ٢٠.

مقطوع بأنه كلام النبي ، وقد أنكر ابن برهان الامام على من قال بما قاله الشيخ ابن الصلاح ، وبالغ في تغليطه) ١.(

وقال النووي في شرح مسلم : لأن ذلك شأن الآحاد ، ولا فرق في ذلك بين الشيخين وغيرهما) ٢.(

ويذكر أحد علماء أهل السُنّة والجماعة المعاصرين ، نقداً لمسلم على البخاري ، حيث ان الامام مسلماً يقول بأن العلماء المتقدمين اكتفوا للاتصال بإمكان اللقاء والمعاصرة وحدها ، ثم نقل في آخر المقدمة إثباتاً لدعواه ، ثلاث روايات معنعنة ، قبلها المحدّثون بنفس المعاصرة وإن لم يثبت اللقاء.

وكان الامام مسلم قد قال هذا القول تعليقاً على قول البخاري بان عدم اشتراط السماع يبقي احتمال الانقطاع ، فاذا ثبت التلاقي مرّة ، غلب على الظن الاتصال.

ويعلّق مسلم أيضاً : فإن كانت العلة في تضعيف البخاري للخبر وتركه الاحتجاج ، إمكان الإرسال وانه لا يثبت إسناداً معنعناً حتى يرى فيه السماع من أوله الى آخره ، فيقول مسلم منتقداً البخاري : وكذلك كل إسناد لحديث ليس فيه ذكر سماع بعضهم من بعض وان كان قد عُرف في الجملة ، أن كل واحد منهم قد سمع من صاحبه سماعاً كثيراً ، فجائز لكل واحد منهم أن ينزل في بعض الرواية ، فسمع من غيره عند بعض أحاديثه ثم يرحله عنه أحياناً ، فحينئذ لا يبقى عدد كبير من الأخبار صالحاً للاحتجاج.

ويردّ العلامة الموقّر على مسلم مؤنباً بأنه كيف يليق به أن يتكلم عن الاسناد بمثل

)١ (الضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٢٧٨.

)٢ (شرح صحيح مسلم ـ النووي ١ : ٢٠.

هذا الكلام ، فإنه سوء أدب ، وان تلميذي الإمام مسلم كليهما لم يسمعا منه) صحيحه (تماماً) ١.(

ففات أبا محمد القلانسي ثلاثة أجزاء من آخر الكتاب ، أولها حديث الإفك ، وكذلك فات إبراهيم بن محمد سفيان ، ثلاثة مواضع ، فيقال فيها : أخبرنا ابراهيم عن مسلم ، ولا يقال فيها : أخبرنا إبراهيم ، قال : أخبرنا مسلم ، ولا قال : حدّثنا مسلم) ٢.(

وهنا يعترض مسلم على البخاري في مسألة الاسناد والإشكالات المأخوذة عليه ، في حين ان مسلماً نفسه وقع في تلك الإشكالات لأن العنعنة في كلتا الحالتين ، تثبت المعاصرة وليس بالضرورة تعني نقل الحديث مشافهة من واحد الى الآخر.

ويروي البخاري عن إبن عمر : قال النبي يوم الأحزاب : أن لا يصلي أحد) العصر (إلا في بني قريضة.

ويعلّق ابن حجر : كذا وقع في جميع النسخ عند مسلم) الظهر (مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد باسناد واحد!!

وفي الصحيحين ما ينوف على مائتين حديث من الغرائي ، وقد ألف الحافظ الضياء المقدسي في ذلك مُؤلفاً سمّاه »غرائب الصحيحين ، «ذكر فيه ما يزيد على مائتين حديث من الغرائب والأفراد المخرجة في الصحيحين) ٣.(

ويقول النووي في حديث» الأئمة من قريش : «أخرجه الشيخان ، مع ان لفظ الصحيح» : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم إثنان «وبين اللفظين والمعنيين

)١ (الامام مسلم ـ الشيخ سليم الله خان الموقر ـ ص : ٣٩ ـ مجلة الفاروق العدد السنة ٢٠٠٥ م ـ باكستان.

)٢ (شرح صحيح مسلم ـ النووي ١٢ : ١.

)٣ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣١٣.

تفاوت عظيم) ١.(

وأما الانتقاد الموجّه الى البخاري ومسلم فيما يتعلق بالمتون من جهة مخالفتهما للكتاب أو السُنّة المتواترة ونحو ذلك فلم يتصدّوا ، لأن ذلك من متعلّقات علماء الكلام والأصول) ٢.(

وهكذا يتضح بأن المزاعم القائلة بأن ما جاء في الصحيحين لا يمكن أو يصح نقده وتجريحه لأنه مقطوع فيه ليس إلا مزاعم تفتقر الى الدليل والمنطق ، لأن علماء أهل السُنّة والجماعة على مرّ ال تأريخ قد انتقدوهما وأظهروا ما فيهما من العلل والضعْف والأخطاء.

)١ (شرح صحيح مسلم ـ النووي ١٢ : ١٩٩ ـ ٢٠٠.

)٢ (اضواء على السنة المحمدية ـ ابو رية : ٣١١.

الاختلاف .. مذموم دائما

في اعتقاد أهل السُنّة والجماعة ـ وكما قرأنا في موضوع الاختلاف ـ ان الخصومة في الدين غير الاختلاف في فروعه التي لم ينص عليها ، واذا تجاوز حدوده يتحوّل الاختلاف من ظاهرة بناء الى معاول للهدم) ١.(

ولا تتعدّى الاختلافات المقبولة ، القضايا الفقهية التي تضمحل وتزول حين يُحتكم الى النصوص التي تعلو الشبهات من كتاب وسُنّة ، فيذعن الجميع للحق في ظل أدب نبوي كريم ، لأن سبب الخلاف لا يعدو أن يكون عدم وصول سُنّة في الأمر لأحدهم ، ووصولها للآخر ، أو اختلافاً في فهم النص أو في لفظه) ٢.(

ومن فضل الله ـ حسب المفهوم السُنّي ـ أن جعل الجانب الفقهي في دائرة ما يجوز فيه الاختلاف الذي هو واقع لاشك فيه ، وقد صُنّفت تصانيف لأسباب اختلاف الأئمة في الفروع ، طبق الآية الكريمة : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) ٣.(

)١ (أدب الاختلاف ٢٧.

)٢ (أدب الاختلاف ٧٧.

)٣ (هود ١١٨.

والإختلاف بين البشر أمر لا مفرّ منه ، وهو سُنّة كونية أوجدها الباري لحكمة بالغة) ١.(

وعند الجمهور على الدوام ، ان الخلاف الفقهي ، لم يكن من أصول الشرع ، ولا من أركان العقيدة الاسلامية ، التي يُكفَّر منكرها ، كما لم يكن من نصوص الشرع القطعية في ثبوتها ودلالتها) ٢.(

وهذا الاختلاف الفقهي في مجرّد الفروع والاجتهادات الفقهية ، لا في الأصول والعقائد ، ولذلك لم يُسجَّل في تأريخ الاسلام ، ان أدّى الى صدام مسلَّح هدّد وحدة المسلمين.

والإختلاف المعتبر السائغ ، مَعْلم من معالم كمال الشريعة وصلاحها لكل زمان وإنسان ومكان ، ودليل على الحيوية الفكرية) ٣.(

وهو اختلاف تنوّع لا إختلاف تضاد ، ولا اختلاف هوى يؤدي الى الفرقة والتباغض والتحزّب والمعاداة) ٤ .(وهو اختلاف مُخلص ينمّي العلم ، أما الخصومة فتضيّعه.

وهو ظاهرة ايجابية كثيرة الفوائد ، ورياضة للأذهان وتلاقح للآراء) ٥.(

ولما كان الاختلاف في الفروع ، مشروعاً وطبيعياً جداً وهو من الدين ، فهو في نطاق المتغيرات ، ويشمل ما عدا الاصول والثوابت القطعية ، وفي غير أصول العقائد والعبادات

وأكثر ما يظهر في عالم المعاملات والاقتصاد ، وهكذا فان معظم الشريعة ، صادرة عن الاجتهاد ، ولا تفي النصوص بعشر معشارها) ١.(

وعلى العموم فإن أهل السُنّة ، جعلوا من الاختلاف علْماً ، صنّفوا فيه المصنفات ، والكل ـ على حد زعمهم ـ يستقي من أدب النبوة) ٢.(

هذا هو ـ باختصار ـ تبرير الجمهور المسلم للاختلاف الذي وقع بعد رحيل الرسول إلى بارئه الاعلى ، ونشوء المدارس والمذاهب الفقهية في التأريخ الاسلامي ، خصوصاً في القرون الثلاثة الأولى.

ونحن كالمعتاد ، قرّرنا التوغل في موضوع الاختلاف بين المسلمين ، لنتقصّى الحقيقة حول هذا الموضوع الخطير ، وهل ان النظرية السُنّية صادقة في الإدعاء بأن الاختلاف إنما حدث في الأمّة بموجب الأمر الالهي ، أو انه حدثٌ غير مشروع وليس للدين أية صلة فيه؟.

وما توصّلنا إليه من استنتاجات ، كانت كما يلي:

ليس هناك أي دليل من القرآن أو السُنّة النبوية يثبت مشروعية الاختلاف ، أيا كان نوع هذا الاختلاف ، سواء كان اختلافاً فقهياً في الفروع ، أو في العقائد والأصول ، بل على العكس ، فإن القرآن الكريم طالما ندّد بالاختلاف والفرقة والشقاق باعتبارها أموراً سلبية تؤثر على تماسك الأمّة الاسلامية كما سنرى.

ان الاختلاف والخصومات التي حدثت بين المدارس الفقهية ، بل وبين الفقهاء أو أصحاب المذاهب أنفسهم ، حتى في بداية نشوء تلك المدارس والمذاهب ، لم تكن

)١ (فقه الثوابت والمتغيرات ـ د .علي محي الدين القرداغي ـ مجلة الشريعة الأردنية ـ العدد ٤٩٠.

)٢ (أدب الاختلاف ـ ١٢٦.

اختلافات تلتزم بآداب الاختلاف في أكثرها ، وانما كانت صراعات وخصومات أدّت الى كثير من المصادمات الفكرية والعقائدية والفقهية ومن ثَم جدّت نزاعات دموية أيضاً مما أحدث شروخاً في جسد الأمّة الاسلامية لا تزال تئن منها لحد الآن.

ان السباب والتسقيط والاتهام في الدين ، والطعن في المعتقد الذي كان يدور بين الكثير من الفقهاء ، وخاصة الكبار منهم ، هو الأمر المشهور في ذلك الوقت ، وبالذات في القرنين الثاني والثالث الهجريين التي تُعتبر خير القرون حسب منطق الجمهور.

والآن ... نتناول بعض الآيات القرآنية التي نزلت بخصوص الاختلاف والفرقة والخصومة ، والموقف الالهي منها : أول هذه الآيات القرآنية التي يتمسّك بها أصحاب المذاهب ، باعتبارها تضفي مشروعية على الاختلاف بين المذاهب والطوائف والفرق ، كأمر وقع لا مفرّ منه ، ولابد أن يحصل كشيء طبيعي مقبول ... هذه الآية هي : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ١.(

ان هذه الآية المباركة تبيّن ان الله تعالى لم يشأ أن يجعل من الناس أمّة واحدة لأنه انما خلقهم للامتحان والاختبار ، وهم يختلفون دوماً عدا الذين رحمهم الله ، وإن مصير الذين اختلفوا في النهاية ، جهنم لأنهم عصوا الله ورُسُله ، ولو أطاعوهما لما اختلفوا ، وكانت الجنة ـ حتماً ـ مأواهم.

ومن المؤكد ان الآية جاءت لذم الاختلاف لا لِمَدْحه ، لأنها أوضحت عاقبة المختلفين ، ولا نفهم كيف أصبحت ذريعة لتشجيع الاختلاف والتنظير له كما يؤكد

)١ (هود ١١٨ ـ ١١٩.

الكثير من علماء الجمهور؟ كلّما في الأمر ان الله أوضح ان الاختلاف من شيمة البشر ، وهو خصلة مذمومة حتماً ، لكنه لم يمدحها أبداً ، ولم يقل إنها رحمة للناس ، وان الاختلافات في الفروع مقبولة بعكس الاختلافات العقائدية والاصولية.

أما الآية القرآنية الأخرى التي نزلت بخصوص الاختلاف والفرقة وتوضيحهما ، هي قوله تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ١ .(وهذه الآية صريحة جداً في ان الله إنما خلق الناس أمّة واحدة ـ بالفطرة ـ ، إلا انهم اختلفوا باتّباعهم للشيطان ونفوسهم الأمّارة بالسوء ، ولولا إرسال الرُسُل والكتب المقدسة ، لانقرضت الانسانية من جراء الاختلاف ، غير ان الله بلطفه ، منع العاقبة المأساوية للبشرية.

وهذه الآية هي الأخرى ، جاءت لذم الاختلاف وانه سبب هلاك الامم بالرغم من ان الله خلق البشر للتوافق والاجتماع لا للإختلاف والخصومة والتمزق.

ولا يحدد الله تعالى او يميّز بين الاختلاف الفقهي ، والاختلاف العقائدي عند ذم الاختلاف واعتباره من المآسي البشرية وسلبيات الانسان في الآيات السابقة.

أما الآيات الأخرى في هذا الشأن ، فكلها يذمّ الاختلاف الذي كان من شأن الامم السابقة التي اختلفت من بعد أن جاءتها البينات ، أي الرُسُل والكتب السماوية ، حيث كان على هذه الأمم وبالأخصّ ابناء الأمة اليهودية والمسيحية ـ أن يتّبعوا ويطيعوا رُسلهم حتى يزول الاختلاف ويضمحل ، لكنهم بغوا وتمادوا في عصيانهم ، مما أدّى الى الاختلاف والشقاق والخصومات وبروز المذاهب الدينية العديدة بد رحيل انبيائهم كما هو معروف.

)١ (يونس ١٩.

بل وصف القرآن الكريم ، التفرّق في الدين من صفات المشركين : وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا) ١ ، (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ) ٢ ، (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ٣ .(وهنا وصف الله تعالى التفرّق بعد إقامة الحجة ، بغياً بين الذين تفرّقوا واختلفوا وكانوا شيعاً ومذاهب وفِرَقاً كثيرة : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) ٤ .(

أي ان الذين أوتوا الكتاب من بني إسرائيل وغيرهم ، تفرّقوا واختلفوا ، وأنشأوا المذاهب والفرق والنحل ، انما خطوا تلك الخطوات بالرغم من دعوات أنبيائهم للوحدة والاجتماع ووحدة الكلمة؟

:كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) البقرة ٢١٣ .(

وهذه الآية الكريمة واضحة جداً في بيان الموقف الالهي من الاختلاف بين الناس

)١ (الروم ٣١ ـ ٣٢.

)٢ (الشورى ١٤.

)٣ (يونس ١٩.

)٤ (البينة ٤.

وكيفية إزالته ، فالناس كانوا أمّة واحدة بالفطرة الالهية ، فاختلفوا بفعل اتّباعهم للشيطان الرجيم الذي أغواهم وحثّهم على الاختلاف والفرقة والتناحر ، فبعث الله النبيين والرُسُل من أجل حل مشكلة الاختلاف بين الناس لكي يتحِدوا كما يريد الله تعالى لهم ذلك ، غير انهم تمادوا في اختلافهم وتفرّقهم بعدما جاءت البينات ، إلا قليلاً هداهم الله الى الحق واتحدوا تحت ظل التشريع الالهي ، لذا قالت آية أخرى : ليبين لهم الذي يختلفون فيه.

وآيات قرآنية أخرى دعتهم الى سبيل الله ليتّبعوه ، ولا يتّبعوا السُبُل الأخرى التي تفرّقهم ولا تجمعهم : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ) ١.(

وحذّر الله تعالى الذين فرّقوا دينهم ، واختلفوا وكانوا شيعاً وفرقاً ومذاهب بأن النبي صلاللهعليهوآله ليس منهم في شيء : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) ٢.(

وبيّن الله ان الذين تفرّقوا من بعدما جاءتهم رسالات السماء بأن مصيرهم جهنم والعذاب العظيم : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ٣.(

بل ان القرآن الكريم لكونه من عند الله ، وليس من صنع البشر ، فهو لم يتضمن

)١ (الأنعام ١٥٣.

)٢ (الأنعام ١٥٩.

)٣ (آل عمران ١٠٥.

أي اختلاف ، لأن الاختلاف مذموم عند الله بأي حال من الأحوال : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا النساء ٨٢.

ولعدم مقبولية الاختلاف عند الله أو الفرقة بين المؤمنين ، فقد ذمّ تأسيس المنافقين لمسجد ضرار الذي كان أحد أهدافه بثّ الفرقة والاختلاف بين المؤمنين : وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ) ١.(

وحين أمر الله تعالى المسلمين جميعاً بالتمسك بحبل الله والاعتصام به وعدم التفرّق والاختلاف الذي يؤدي الى الضعف وذهاب قوة المسلمين ومناعتهم ، علينا أن نتقصى معنى حبل الله في آيته الكريمة : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ٢ ، (يقول علماء الجمهور عن حبل الله وهو القرآن : من وظائفه العامة ، رفع طرف معين الى الاعلى ، وصون الاطراف المتفقة أو المختلفة من التفكيك والتفرّق ، وهي وظائف مثّلها القرآن العظيم أحسن تمثيل.

كما ان الهدف الذي رام تحقيقه ، أن يكون المؤمنون الصادقون ، بعيدين عن كل فرقة أو نزاع ، حريصين على تجنب كل ما يلحق بصفوفهم الشقاق وحتى الصداع ، فكم من حرب شنها على المتفرّقين ، وكم من نذير أنذره الذين هم بأوضاعهم غير معتبرين.

والحال هذه انّ القرآن الكريم في حربه ضد الاختلاف والفرقة والشقاق والنزاع بين المؤمنين ، وما يؤول اليه من تمزيق لوحدة المسلمين وتشتّتهم وضعفهم وزوال قوتهم وذهاب ريحهم ، لم يكن ليفرّق بين اختلاف واختلاف ، إذ ان كل اختلاف أو نزاع سواء

)١ (التوبة ١٠٧.

)٢ (آل عمران ١٠٣.

كان فقيهاً أو عقائدياً أو كلامياً وما إلى ذلك ، فهو اختلاف مرفوض لا يرضاه الله لعباده أبداً لأنه معروف النتائج مُسبقاً ، ولا يؤول إلا الى عواقب سيئة ووخيمة تهدّد مصير الأمّة أمام أعدائها على المستوى القريب أو البعيد.

ولما كان القرآن الكريم ، وهو الميزان الحق في سلوك المسلمين وعملهم نهجهم في الحياة ، يأبى عليهم أي اختلاف أو نزاع أو خصومة وما شاكل ذلك ، فكيف يحق لأحد ان يدّعي ان الله تعالى أباح لعلماء المسلمين أن يختلفوا وذلك لأن الاختلاف في هذا المجال ، رحمة للمسلمين وسعة وذو منافع وفوائد عديدة ، وهو ظاهرة بناء لا هدم وغير ذلك من حجج وذرائع أطلقها مؤيدو نشوء المذاهب والفرق والطوائف في التأريخ الاسلامي ، ولا يمتلكون أيّ مُسوّغ أو دليل ، سواء كان من القرآن الكريم أو السُنّة النبوية الشريفة كما سنعرف بعد قليل.

وآية أخرى صريحة بأن المؤمنين ينبغي عليهم اذا تنازعوا في شيء ، واختلفوا في أي أمر من الأمور أن يردوه الى الله ورسوله ، أي الى القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، وبذلك سيزول اختلافهم وتتحد كلمتهم وأقوالهم المختلفة ، اذا كانوا فعلاً يؤمنون بالله واليوم الآخر : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ... وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (١).

وآية أخرى أكثر صراحة في هذا المقام ، تدعو المسلمين أن يحكّموا الرسول في نزاعاتهم واختلافاتهم ، ويتقبّلوا حكمه وقضاءه ، ويسلّموا له دون أي نفور أو كراهية في أنفسهم ، وإلا فانهم ليسوا بمؤمنين : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

---

(١) النساء ٥٩.

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... تَسْلِيمًا) ١.(

والذين فرّقوا دينهم الى مذاهب وفرق واتجاهات متعدّدة ، يبرأ منهم الرسول صلىاللهعليهوآله وليس له أدنى مسؤولية عن تفرّقهم ، وأمْرهم وعاقبتهم الى الله الذي سينبؤهم يوم القيامة بما كانوا عليه من التشتّت والتمذهب والتفرّق في الدين : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) ٢.(

وآية أخرى تؤكد بأن مهمة النبي صلىاللهعليهوآله هي تبيين أسباب الاختلافات بين الناس : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ) ... ٣.(

بل والاكثر من هذا ، ان الله إنما أنزل القرآن على رسول الله لكي يبيّن للناس ، ويوضّح الاختلافات الناشئة فيما بينهم حتى تزول وتضمحل ، ويصبحوا متلاحمين ومتحدين ، لا يتناحرون فيما بينهم : وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ... يُؤْمِنُونَ) ٤.(

وهناك آية في هذا المجال ، تشدّد على ان الله يبتلي المؤمنين ويبيّن لهم يوم القيامة ما كانوا فيه من الاختلاف والتناحر : وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ... تَخْتَلِفُونَ) ٥.(

)١ (النساء ٦٥.

)٢ (الأنعام ١٥٩.

)٣ (النحل ٣٩.

)٤ (النحل ٦٤.

)٥ (النحل ٩٢.

والله حذّر المسلمين أن لا يكونوا من المشركين الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً وفرقاً متعدّدة : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ... فَرِحُونَ) ١.(

وقد حدّد الله تعالى الطريق الرحب لحل مشكلة الاختلاف بين المسلمين . فقهاء وغير فقهاء . وذلك بأن يعودوا الى الله الذي يمثّله القرآن الكريم والسُنّة النبويّة الشريفة ، وبذلك تزول الاختلافات بين المسلمين . أصولاً وفروعاً . فقهاً وعقائد : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ... أُنِيبُ) ٢.(

وأوضح الله سبحانه وتعالى موقفه من الاختلاف بصورة جلية في آية قرآنية حيث قال بأنه يوصي المسلمين كما أوصى الانبياء من قبل أي نوح وابراهيم وموسى وعيسى بأن يطبّقوا الدين على أنفسهم ولا يتفرقوا فيه إلى شيع ومذاهب وأحزاب مختلفة : شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ... مَن يُنِيبُ) ٣.(

الاستنتاج

ماذا يمكن ان نتوصل اليه من حقائق ، خلال إستقرائنا للموقف القرآني من الاختلاف والتفرّق والتمذهب الذي نشأ بين اتباع الامم المختلفة عبر الحقب المتعاقبة للرسالات السماوية حتى الرسالة الاسلامية الخاتمة؟

يمكن ان نتوصل الى ما يلي:

يؤكد القرآن الكريم أنَّ الاختلاف قد شاع بين أتباع الديانات المختلفة ، وفي

)١ (الروم ٣١ . ٣٢.

)٢ (الشورى ١٠.

)٣ (الشورى ١٣.

مقدمتها ، اتباع النبي موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله ، بسبب معصيتهم لانبيائهم وعدم تمسّكهم بالكتب المقدسة ، وأوامر أولئك الانبياء كما ينبغي ، وذلك لاختلافهم في التعاطي مع تلك الكتب وتطبيقها على مسيرتهم وحياتهم على وفق أهوائهم ومصالحهم الضيقة ، وأفضى ذلك الى انقسامهم الى مذاهب وفرق متناحرة ، وقد بيّن القرآن الكريم ان مصير هؤلاء الى النار والعذاب الأليم.

١ . أجمعت الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الاختلاف على ان الذين اختلفوا في دينهم ، انما جاء هذا الاختلاف والتفرّق والتنازع بعد نزول الحجج الالهية عبر الانبياء ، ولذلك فهم غير معذورين في تلك الاختلافات التي أثاروها بعد وضوح البينات والحجج في المناهج السماوية التي أرشدتهم الى مَواطن الوحدة والتلاحم والتوافق في ظل المسيرة الموحّدة للتعاليم الدينية التي شخصت مواطن الاختلاف والفرقة وحذّرتهم من ولوجها ، ولذا فإن اختلافاتهم ونزاعاتهم برزت بسبب عصيانهم لرُسُلهم وعدم تمسّكهم بالقيم الدينية الالهية بالصورة الصحيحة التي يرتضيها الله ورُسُله) عليهم السلام.(

وحدّد القرآن الكريم الحلّ لازالة الاختلاف ومحْوه من خلال العودة الى الله وكتبه وأنبيائه ، والتمسّك بالمبادئ السماوية بشكل كامل ، وعدم الاذعان للأهواء والمنافع والنَزَعات النفسية المريضة ، وبذلك يقبل الله من تلك الأمم أعمالها ويجزيها خير الجزاء ، ويعدها بالجنة والحياة السعيدة.

لم يشر القرآن الكريم في تطرّقه لمسألة الاختلاف والنزاع ، الى أي نوع من الاختلاف يعني ، وانما جاء التعبير بلفظ عام ، ليشمل كل الاختلافات ، سواء العقائدية ، أو الفقهية والتعبدية التي تخص فروع الدين.

٢ . ان الاختلافات الدينية بين الناس ، تنبع في الأساس ، من عصيانه وعصيان رُسُله ، وعدم اتّباع التعاليم الالهية بصورة تامة ، وقد أوضح القرآن ذلك بأفضل صورة في قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ... ١.(

وقد عطف الله تعالى النزاع بين المسلمين على أمره باطاعته وإطاعة رسوله مباشرة ، لأن عصيان الله والرسول ، يستتبع حدوث نزاع وإختلاف بين الأتباع ، لكون عصيان الأوامر الالهية يؤدي الى إتّباع الأهواء وما تُمليه النفوس من ظنون وأفكار لا تمت للدين بصلة ، ويحسبها الأتباع وكإنها هي الدين نفسه ، ويحسب كل طرف أو فرقة متنازعة مع الفرق الأخرى انها على الحق ، وهي الصواب دون الفرق والنحل الأخرى ، وبذلك يحصل النزاع والاختلاف الذي يؤدي الى صراعات مدمّرة ، تُضعف الأمّة أيما ضعف وهوان ، الى درجة يصفها القرآن الكريم ، بذهاب الريح وتكالب الاعداء عليها من كل جانب ، وانها لو أطاعت الله ورسوله كما ينبغي ، لما حصل أي نزاع أو اختلاف أو شقاق.

هذه ال رؤية القرآنية لقضية الاختلاف ، وليس هناك أي رؤية أخرى يطرحها كتاب الله في هذا المجال.

الاختلاف في حديث رسول الله

ولو توغّلنا أكثر في مفهوم الاختلاف عند أهل السُنّة والجماعة ، لوجدنا ان

)١ (الأنفال ٤٦.

الاختلاف في مدرسة الجمهور ، ليس كما يدّعي الذين ينظرون إليه وكأنه حالة ايجابية مقبولة ومشروعة في الدين ، بل هناك نهي عن الاختلاف لما يمثّل من حالة سلبية لا يرضاها الله سبحانه وتعالى ، لأنها تؤدي الى النزاع والتناحر وزعزعة تماسك الأمّة الواحدة.

ألم يروِ صحيح البخاري . وهو أصح كتاب بعد كتاب الله عند الجمهور المسلم . بأن رسول الله صلىاللهعليهوآله ، قال : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم؟) ١ ، (بل وصحيح مسلم يرويه أيضاً ، ألم يقل صلىاللهعليهوآله عندما أفْلت ذوالخويصرة من ملاحقة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، بأنه لو قُتل لما اختلف من الأمّة إثنان .وذوالخويصرة هذا هو الذي أسّس فرقة الخوارج فيما بعد ، والتي أدت الى نشوء الفرق والمذاهب في الأمّة الاسلامية بعد ذلك.

ثم أردت الرسول صلىاللهعليهوآله ، قائلاً : إن بني اسرائيل افترقوا إثنين وسبعين فرقة ، وان هذه الأمّة ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة) ٢.(

ولم يكن توقّع الرسول بأن الأمّة الاسلامية ستفترق الى هذا العدد من الفرق التي تفاوتت بين الاختلاف العقائدي أو الفقهي ، الا كوْن إختلافاتها هذه ستفضي بالأمّة الى التمزق ثم الانهيار والابتعاد عن شرعِ الله الحقيقي الذي نزل على رسول صلىاللهعليهوآله.

علماء الأمّة وذم الاختلاف

فمن علماء الجمهور) رشي رضا (يقرّ في تفسير المنار بأن من أعظم ما ابتليت به الفِرق الاسلامية ، رمي بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع ان قصد الكل الوصول الى

)١ (صحيح البخاري ٣ : ٨٩.

)٢ (مسند أحمد ٤ : ١٠٢.

الحق بما بذلوا جهدهم لتأييده والاعتقاد به والدعوة اليه ... فأين الاختلاف المبني على الاحترام المتبادل والاسلوب المهذّب في التعاطي بين المدارس الفقهية كما يدّعي البعض؟.

ويقول صاحب كتاب) رسالة الطوفي (بالحرف الواحد : فإن قيل : خلاف الأمّة في مسائل الأحكام ، رحمة وسعة ، فلا يحويه حصرهم من جهة واحدة لئلا يضيق مجال الاتساع ، قلنا : هذا الكلام ليس منصوصاً عليه من جهة الشرع حتى يُمتثل ، ولو كان ، لكان مصلحة الوفاق أرجح من مصلحة الخلاف فتقدّم.

ان الاختلاف في الواقع بدأ في عهد الصحابة ، حيث يذكر كتاب جامع العلم وفضله لابن عبد البر ، أقوال الصحابة بعضهم في بعض ، وكذلك أقوال أئمة التابعين بعضهم في بعض ، وهي أقوال يظهر انها تتضمن طعوناً واتهامات وتسقيطات تمليها اختلافات عقائدية ودينية ومذهبية.

ويبدو ان التعصّب المذهبي ، ولّد ضيق الصدر ، والزهد في الاطلاع على محاسن المذاهب الأخرى ، ودين الله في مجموعها لا في واحد منها كما يقول أحد كبار علماء السُنّة.

وهذا القول اعتراف صارخ بأن الاختلاف بين المذاهب الاسلامية الفقهية ، كان جارياً على طول التأريخ ، وليس التعصب المذهبي إلا نتيجة من نتائج الاختلاف الفقهي بين المذاهب والمدارس الفقهية التي كانت منتشرة في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

أما الادعاء بأن دين الله في مجموع المذاهب الاسلامية وليس في واحد منها ، فإنه يدلّ على ان كل مذهب على انفراد ، قاصر في تبيان الأحكام والتشريعات الاسلامية ، ولا يجسّد الدين الاسلامي تماماً ، فكيف والحال هذه يبرئ ذمة المقلّدين من المسلمين الذين يتبعون هذا المذهب أو ذاك؟

بل ان القول بأن دين الله في مجموع المذاهب الاسلامية كلها وليس في واحد منها ، هي دعوة للمسلمين بتقليد كل المذاهب الاسلامية الموجودة على مرّ العصور حتى يكونوا على الاطلاع الكامل بالأحكام الاسلامية التي يضمّها الدين الاسلامي ، وهي خطوة مستحيلة ، وبذلك يضطر المسلمون لتقليد مذهب اسلامي واحد وان كان ناقصاً ومقصّراً ومبتوراً.

مفاسد الاختلاف

أما الامام الغزالي الذي عاش في القرن الخامس الهجري فيؤمن بتفشي الاختلافات ، ليس على مستوى الاختلاف الفقهي فحسب وإنما امتد ليطال الاختلافات العقائدية التي وضع أمامها كبار علماء الجمهور خطاً أحمر ، باعتبارها غير مشروعة في الدين الاسلامي .يقول الغزالي) ت ٥٠٥ هـ : (فأكب الناس على علم الكلام ، وزعموا ان غرضهم الذبّ عن دين الله ، والنضال عن السُنّة وقمع المبتدعة ... ، لما كان قد تولّد من فتح بابه من التعصّبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المُفْضية الى إرهاق الدماء وتخريب البلاد .فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية) ١.(

فكيف يحث لصاحب كتاب) دفاع عن العقيدة والشريعة (أن يدّعي بأن خلافاً فقهياً ونظرياً نشب بين مذاهب السُنّة نفسها ، بل بين أتباع المذهب الواحد منها ، ومع ذلك فقد حال العقلاء دون تحوّل هذا الخلاف الى خصام ، بارداً كان أو ساخناً؟

أو الذي يزعم بأن كرام الائمة من السلف كانوا يلتزمون بآداب الاختلاف،

)١ (إحياء الدين ـ الغزالي ١ : ٧١.

وآداب سلفنا الصالح ، لا يمنع اختلاف الآراء من التقاء القلوب) ١ .(وكنا قد قرأنا كيف ان أصحاب المذاهب الكبار ، كانوا يكفّر أحدهم الآخر ويطعن في إيمانه وتقواه ويلعنه أمام تلامذته ، ويُخرجه من ملّة الاسلام؟ فمن حق الاتباع والمقلّدين أن يقتدوا بأئمتهم وأصحاب مذاهبهم ، ويتوسّعوا في الاختلاف الى درجة النزاع والاصطدام وإراقة الدماء.

ويقول أحد مفكري الجمهور : لقد اتفقنا على فن الاختلاف ، وافتقدنا آدابه والالتزام بأخلاقيته ، فكان أن سقطنا فريسة التآكل الداخلي ، والتنازع الذي أورثنا هذه الحياة الفاشلة ، وأدى الى ذهاب الريح) ٢ .(

ولقد حذّرنا الله تعالى من السقوط في علل الأديان السابقة ، وقصّ علينا تأريخهم للعبرة والحذر ، فقال : وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ٣ .(

واعتبر الاختلاف الذي يسبب الافتراق والتمزّق ، ابتعاداً عن أي هدي للنبوة ، أو انتساب لرسولها ، حين قال تعالى : »ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، «ذلك ان اهل الكتاب لم يُؤتوا من قلّة علم وضآلة معرفة ، وانما كان هلاكهم لأنهم وظّفوا ما عندهم من علوم ومعارف للبغي بينهم ، فهل ورثنا علل أهل الكتاب بدل أن نرث الكتاب؟ وهل ورثنا البغي بدل أن نرث العلم والمعرفة ونلتزم بأخلاقهما؟ ان الاختلاف والبغي وتفريق الدين من علل أهل الكتاب التي كانت سبباً في هلاكهم،

)١ (أدب الاختلاف ١٥٠ . ١٥١ . ١٥٢.

)٢ (أدب الاختلاف ٨ . ٩.

)٣ (المصدر السابق.

ونسخ أدياهم ، وبقاء قصصهم وسائل إيضاح للدرس والعبرة لمن ورثوا الكتاب والنبوة ، وذلك انه لا سبيل للاستبدال والنسخ في عالم المسلمين ، وهم أصحاب الرسالة الخاتمة) ١ ، (والحقيقة اننا لم نفتقد فن الاختلاف وآدابه وأخلاقياته ، لأن كل اختلاف مذهبي أو فقهي أو عقائدي ، لابد وأن ينتهي الى ما انتهى إليه أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وما حذّر منه القرآن الكريم قد وقع المسلمون فيه ، وتجزّأوا الى مذاهب وفرق ومدارس دينية متطاحنة ، انما نبحث هنا عن أسباب وعلل هذا التفرّق والاختلاف الذي بدأ فور رحيل النبي ، وأخذ في اتساع بمرور الزمن.

اسباب الاختلاف وعِلله

وقد قام العلماء بتصنيف الكثير من الكتب التي تعرّضت لمباحث أسباب الاختلاف.

ويعرّف بعضهم علم الخلاف بأنه علم يمكّن من حفظ الاشياء التي استنبطها إمام من الأئمة ، وهدم ما خالفها دون الإستناد الى دليل مخصوص ، اذ لو استند الى الدليل ، واستدل به لأصبح مجتهداً وأصولياً) ٢ .(

واذا اشتدت خصومة المتجادلين ، وآثر كل منهما الغلبة ، بدل الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب ، وتعذّر أن يقوم بينهما تفاهم أو اتفاق ، سميت تلك الحالة ب»الشقاق : «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا .فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) ٣ .(

)١ (المصدر السابق.

)٢ (أدب الاختلاف ، ص ٢٤ .

)٣ (أدب الاختلاف ، ص ٢٥ .

ويعتقد هذا البعض بأن الخلاف ربما يمليه الهوى ، بأن يكون مناقضاً لصريح الوحي من كتاب وسُنّة ، ويتصادم مع مقتضيات العقول السلمية ، وخلاف آخر في أمور فرعية تتردد أحكامها بين احتمالات متعددة ، ولا سبيل الى تحاشي الوقوع في المزالق إلا باتباع قواعد يحتكم إليها في الاختلاف حتى لا يتحوّل الى شقاق وتنازع وفشل) ١.(

ولسنا ندري ما هي هذه القواعد التي يقصدها هذا الكاتب للحيلولة دون أن يتحوّل الاختلاف الى شقاق ونزاع؟ إذ كل ما عرفناه من التأريخ بأن الفقهاء الذين برزوا في الصدر الاول للاسلام ، وبالضبط في أوائل القرن الثاني الهجري ، كانوا هم أنفسهم يختلفون ويتنازعون فيما بينهم ، ويطعن كل منهم في الآخر ، ويعدّ الاحكام الفقهية وغير الفقهية للآخر ، ليست شرعية ولا مطابقة للشرع الاسلامي ، بل كان كل فقيه يشكك بشرعية القواعد الاصولية للآخر ، بالرغم من ان أكثرهم كان يقرّ بأنه مجتهد قد يصيب او يخطئ ، ويكره أن يقلّده الآخرون ، خاصة تلامذته وأتباعه ، وطالما صرّح هذا الامام أو ذاك بأن الحديث النبوي إذا صحّ فهو دينه ، وليضربوا بفتاواه وأحكامه بعرض الجدار اذا كانت تُخالف أو تتعارض مع الحديث النبوي الصحيح ، وما أن يموت هذا الامام أو الفقيه حتى ينبري تلامذته وأتباعه على تقليده واعتبار فقهه وفتاواه وقواعده الفقهية مقدّسة لا تقبل النقاش أو التشكيك أو النقد ، ثم تتحول أحكام وفتاوى هذا الفقيه أو الامام الى مذهب ومدرسة فقهية يتبعها الكثير من المقلّدين الذين يطعنون بالمذاهب الأخرى واتباعها ، ويشوّهون سمعتهم أمام الملأ ، مما أفضى ، ليس فقط الى الاختلاف والتنازع والشقاق ، بل الى صدامات دموية ، أضعفت المجتمع الاسلامي طيلة قرون ، مع ظهور القناعات الجديدة ، وكتب الصحاح المعتمدة والمعتبرة التي صُنّفت بعد

)١ (أدب الاختلاف ٢٨ . ٢٩ . ٣٠ . ٣١.

جهود حثيثة من البحث والتنقيب والجرح والتعديل ، وظهور المئات من الأحاديث التي عدّت صحيحة والتي استدعت مراجعة وتنقيح الفقه المعتمد لدى هذا المذهب الفقهي أو ذاك ، لكن الأتباع تمادوا في تقليد تلك المذاهب وانكبّوا على تقليدها دون اعادة قراءة أو غربلة لفقه المذهب الذي كان قبلاً مجرد فقه استنبطه فقيه ، لم يثبت لديه الكثير من الأحاديث النبوية ، كما هو الحال مع المذهب الحنفي مثلاً.

أليس هذا دليلاً قاطعاً بأن المقصّر في ظهور هذه الاختلافات والنزاعات المذهبية ، هم أتباع المذاهب الاسلامية ، وبالأخص المذاهب الاربعة المعروفة التي ينتمي إليها هؤلاء الذين يرفعون لواء أدب الاختلاف وفنه وفلسفته ، وينادون بضرورة ايجاد أخلاقية تتحكم بأدب الاختلاف حتى لا يتحول الى شقاق ونزاع مرير.

ونعود فنكرّر مرّة أخرى بأن علماء الجمهور الكبار ، بل حتى الصحابة قد حذّروا من الاختلاف ، من أمثال الصحابي الكبير» عبد الله بن مسعود ، «يقول بأن الخلاف شرّ) ١ ، (وذلك لسبب بسيط جداً هو ان ما يُسمّى بأدب الاختلاف وأخلاقه وما إلى ذلك ، ليس إلا أفكاراً نظرية لا وجود لها على أرض الواقع ، وان أصل الاختلاف مرفوض لأنه شرّ وفتنة ومُقدَّمته لنزاعات متفاقمة.

وحسناً يقول الامام السبكي بأن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف ، قال تعالى : وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ) ٢ .(وكذا السنّة النبوية ، قال صلىاللهعليهوآله» : انما هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم وإختلافهم على أنبيائهم ، «والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

)١ (انظر : فتح الباري. ابن حجر ٢ : ٣٣٣.

)٢ (البقرة ٢٥٣.

ومن علماء الجمهور من يقول بأن المسلم له أن يأخذ بظاهر النص ، وله أن يستنبط من المعاني ما يحتمله النص ويمكن التدليل عليه) ١.(

ألا ترون ان بذور الاختلاف إنما تنمو من الفهم المتعدد للنص الواحد ، إذ بتعدّد المفاهيم والمعاني ، تتعدد الآراء الفقهية الى حدّ التعارض والتضاد ، ومن ثم تبرز أحكامٌ متعارضة كثيرة ، تشيع النزاع في أوساط الأمّة.

وذات يوم سمع الرسول صلىاللهعليهوآله أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج صلىاللهعليهوآله وفي وجهه الغضب ، قائلاً : انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب) ٢ ، (ويعني قول الرسول صلىاللهعليهوآله ، اختلافهم في تفسير نصوص الكتب المقدسة ، لأنه بداية تُمهّد لنشوء المدارس والمذاهب الفقهية والعقائدية وما يؤول إليه من نزاع وشقاق وفشل.

ولا ننسى قوله صلىاللهعليهوآله : ولا تختلفوا فإن من قبلكم اختلفوا فهلكوا) ٣.(

والرسول صلىاللهعليهوآله هنا لم يحدّد طبيعة الاختلاف الذي يؤدي الى الهلاك ، وإنما عمّم قوله ليشمل كل أنواع الإختلاف ، وهذه الرواية نقلها أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم على حد تأكيد الجمهور المسلم ، وهو صحيح البخاري.

ويروي صحيح النسائي حديثاً آخر للرسول صلىاللهعليهوآله في هذا الشأن ، يقول فيه : اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه فقوموا) ٤.(

ولابد من التأكيد بأن القرآن لا يتضمن آيات الاحاكم الفقهية فقط ، وانما يتضمن

)١ (أدب الاختلاف : ٣٧.

)٢ (صحيح مسلم ٨ : ٥٧ ؛ الجامع الصغير ـ السيوطي ١ : ٣٩٨.

)٣ (صحيح البخاري ٣ : ٨٨ ؛ الفتاوى الكبرى ـ ابن تيمية ٤ : ٤١٨.

)٤ (صحيح البخاري ٦ : ١١٥ ؛ السنن الكبرى ـ النسائي ٥ : ٣٣.

أسس العقائد وعلم الكلام كما هو معلوم.

والمعروف عن الأئمة والفقهاء وعلماء الصدر الأول للاسلام ، والذين أصبحت مدارسهم الفقهية والعقائدية ، مذاهب يتّبعها الملايين ، قد تناولوا العديد من الأمور المبهمة التي تخصّ الصفات الالهية وخلق الكون والقرآن ، وهي أمور عقائدية وكلامية لاشك في ذلك ، وأدّت تلك الخطوات ، الى نشوب خلافات طاحنة في التأريخ الاسلامي ، كان ينبغي أن لا تحدث أباً ، خاصة وانها ليست مهمة وجوهرية ، كالامور العقائدية الأخرى ، فضلاً عن الفقهية .ثم ألم ينه الشرع الاسلامي عن الخوض في هذه الأمور التي تؤدي الى الاختلافات والانقسامات كما يدّعي جهابذة العلماء؟ فلماذا خاض فيها هؤلاء الأئمة والعلماء ، كإبن حنبل وابي الحسن الاشعري وغيرهما؟

ولوعدنا الى الاختلافات على المستوى الفقهي أو الفروع ، والتي يعتبرها علماء الجمهور ، مقبولة شرعاً ، بل ومُحبّذة أيضاً لأنها تثري الفقه الاسلامي وهي رحمة للأمّة ، لنعرف ماذا حدث بسببها؟

يقول ربيعة الرأي ، وهو إمام مجتهد ومن أبرز شيوخ الامام مالك ، عن أهل العراق : رأيت قوماً حلالنا حرامهم ، وحرامنا حلالهم ، وتَركتُ بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هذا الدين.

وكان أهل الحجاز يرون ان حديث العراقيين أي) أهل الرأي والقياس (أو الشاميين لا يُقبل إذا لم يكن له أصل عند الحجازيين) من أتباع مالك.(

فأهل الحجاز يعتقدون انهم قد ضبطوا السُنّة ، وكان حامل السُنّة وفقه الصحابة وآثارهم في المدينة ، سعيد بن المسيب وأصحابه الذين أخذ عنهم بعد ذلك المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية وغيرهم ، وكان علماء المدينة ـ من التابعين ـ يرون ان السنن والآثار التي بين أيديهم ، كافية لتلبية الحاجة الفقهية ، وأنه لا شيء يدعوهم الى

الأخذ بالرأي بكل ضروبه) ١ ، (بمعنى ان الرأي غير مشروع في اعتقاد مدرسة المالكي ، ومن المسلّم به أنه اذا كان أتباع مدرسة فقهية ما ، لا يرون مشروعية لقواعد يتمسّك بها أتباع مدرسة أخرى ، أن يطعنوا في الاحكام الصادرة عن تلك المدرسة الى حد التسقيط أو حتى التكفير ، مادامت تلك الاحكام الفقهية مبنية على أساس تلك القواعد التي يتبناها أصحاب المدرسة نفسها لأنها مقبولة في نظرهم على الأقل.

وهذا يدل على ان الاختلاف ـ أساساً ـ لا يُعتبر رحمة أو نعمة ـ كما يدّعي البعض ـ مادام كل صاحب مدرسة فقهية أو مذهب فقهي يتّهم المدارس الأخرى بلا مشروعية بعض قواعدها الفقهية ، سواء كانت سُنّة نبوية مشكوكاً بضعفها وصحّتها ، أو القياس والرأي ، أو المصالح المرسلة أو قواعد أخرى معروفة.

الاختلاف .. نعمة أم عذاب أليم!؟

هذا الاتهام والطعن والتشكيك يفضي الى نشوء اختلافات ونزاعات بين أتباع هذه المدرسة وتلك ، أو هذا المذهب وذاك ، ثم تتحول هذه النزاعات ـ بديهياً ـ الى شقاق وصراع مذهبي مدمّر.

ولذلك فإن من أكبر الأخطاء أن يزعم بعض مفكّري الجمهور ان البعض قد حوّل الاختلاف الذي كان في نظره ، نعمة أثرت الفقه الاسلامي ، إلى عذاب أليم ، وصار عاملاً من أخطر عوامل الفرقة والتناحر بين المسلمين ، وتحوّل الى نقمة بدّدت الكثير من طاقات الأمّة فيما لا جدوى منه ، وشغلتها بأمور جانبية كان لا ينبغي أن تنشغل بها) ٢.(

)١ (أدب الاختلاف ٨١ ـ ٨٢.

)٢ (أدب الاختلاف ١٣٥ ـ ١٣٦.

ان هذا الرأي مجرّد رأي نظري يفتقر الى البعد الموضوعي من كل النواحي.

ويسارع بعض الكتّاب ليقرّ بأن الاختلاف أورث مشكلة كبيرة في حياة المسلمين وأورث الحياة التشريعية لدى المسلمين ، نوعاً من القلق الغريب ، كثيراً ما جعل الأمر الواحد من الشخص الواحد في زمن واحد ومكان واحد ، حلالاً عند هذا الفقيه ، وحراماً عند ذلك) ١.(

ويكفي انه قد أصبح لدينا أصل من الاصول الفقهية ، وباب واسع من أبواب الفقه ، عرف بباب» المخارج والحيل .« وأصبح إتّقان هذا الباب والمهارة فيه ، دليلاً على سعة فقه الفقيه ونبوغه وتفوّقه على سواه ، وكلما تقدّم الوقت وضعف سلطان الدين على أهله ، تفاقم هذا الأمر ، وتساهل الناس في أمر الشرع حتى وصل الأمر لدى بعض القائمين على الفتاوى ، انهم أخذوا يفتون بما لا دليل عليه ، ولا يعتقدون بصحته ، زعماً منهم أن في ذلك تخفيفاً على الناس أن تشديداً يضمن عدم تجاوز الحدود كأن يرخّص بعضهم لبعض الحكّام بما لا يرخّص لعموم الناس) ٢.(

وهنا إقرار واضح بأن التساهل في الافتاء كان سبباً في إصدار الكثير من الفتاوى والأحكام التي ليس لها أي سند شرعي ، وقد جاءت هذه الخطوات الى جانب الحكّام الذين كانوا في حاجة ماسّة لإسباغ الشرعية على ممارساتهم وسياساتهم وممارساتهم الظالمة ازاء الرعية ، كما استغل هؤلاء الحكام ، ففقهاء الحيل والتساهلات ، لاصدار الكثير من الفتاوى التي تشرّع لهم نهب الاموال والتلاعب بمقدرات ومصائر الشعوب ، فضلاً عن قمعهم وإسكاتهم بإسم الدين.

)١ (أدب الاختلاف ٢ ١٤ ـ ١٤٣ .

)٢ (أدب الاختلاف ٢ ١٤ ـ ١٤٣ .

وهكذا ضاعت مقاصد الشرع بضياع تقوى الله ، وأُهملت قواعده الكلية.

ولقد هان الرجال الذين يحمون بيضة الدين ، وهان على الناس دينهم حتى غدا تجاوز الحدود ، أمراً يقبل عليه الناس بحجّة التيسير ، فصار ذلك شأن بعض المفتين من الذين هدموا جدار الهيبة ، وأباحوا لأنفسهم الإفتاء بما يستجيب لهوى النفوس ، قابلهم فرق تصلّب وتشدّد ، وحاول أن يبحث عن أغلظ الأقوال وأشدّها ليفتي من يستفتيه ، ظناً منه أنه في هذا يخدم الاسلام) ١.(

وهكذا أمسى حال المسلمين مع الاسلام اليوم ، لقد تفرّقت الأمّة شراذم وفئات ، وانحسر الفكر الاسلامي ، ولم يعد هو المهيمن على حياة المسلمين وتفكيرهم ، وانفتحت عقول المسلمين وقلوبهم لكل ألوان الفكر المغاير للاسلام) ٢.(

إذن فمن الخطأ اعتبار أنَّ هناك اختلافاً مقبولاً ومشروعاً وسائغاً ، وآخر غير سائغ ومرفوض ، لأن أساس الاختلاف قائم على اختلاف مشروعية الاصول والقواعد الفقهية عند هذا الفقيه أو ذاك منذ الصدر الأول للاسلام ، ثم توسّع الاختلاف بمرور الأيام حتى أخذ المفتون يفتون من لدن أنفسهم ودون أي مسوّغ ودليل شرعي أو سند ديني.

وعليه فما هي قيمة المزاعم التي تؤكد الخلاف المُعتبر والسائغ الذي وجوده ظاهرة طبيعية بين أوساط الأمّة ، لا يوجب تناقضاً أو تحزّباً أو معاداة .أو هو مَعلم من معالم كمال الشريعة وصلاحها لكل زمان ومكان ، كما يدّعون.

والخلاف المُعتبر ـ حسب قول هؤلاء ـ هو ما تردّد بين طرفين واضحين وأصلين

)١ (أدب الاختلاف ، ١٤٤.

)٢ (أدب الاختلاف ، ١٥٧.

شرعيين ، الحق متردد بينهما ، وبه حصل الإشكال والخلاف كما يقول الشاطبي) ١.(

وهنا يبدو التناقض والتضاد بأجلى صورهما ، فإذا كان الاصلان شرعيين ، فكيف يتردّد الحق بينهما؟ فهل هذا يعني غير ان الأصل الشرعي ربما يفضي الى حكم باطل ، لأن الحق واحد وليس له وجوه متعدّدة ، واذا كان الأصل الشرعي الأول يبطن حقاً ، فإن الاصل الشرعي الثاني ـ من البديهي ـ يبطن باطلاً ، والعكس صحيح.

وهذا من المحال ان يحصل ، ولذا لابد أن يكون أحد الأصلين غير مشروع والآخر مشروعاً ، وبالتالي فإن الاختلاف في هذه الحالة ، غير معتبر وغير سائغ إطلاقاً.

مزاعم تفتقد للصدْقية والدليل

أما الشيخ ابن تيمية فيسمّي الاختلاف المقبول أو المُعتبر ، باختلاف التنوّع ، كأن يكون كل واحد من القوانين أو الفعلين مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة ، فزجرهم عن الاختلاف رسول الله صلىاللهعليهوآله وقال» : كلاهما محسن .«ومثله في صفة الأذان والإقامة والتشهد والاستفتاح) ٢.(

نعم ، اذا كان القولان أو الفعلان مشروعين ، كإختلاف القراءات التي اعتبرها الرسول صلىاللهعليهوآله مقبولة ، إلا ان الاختلاف في القراءات ليس اختلافاً عقائدياً أو فقهياً .أما الاختلاف في الأذان والإقامة والتشهّد والاستفتاح ، فهو أيضاً غير مشروع ، لأن هذه الامور تعبّدية وغير جائز أو مشروع ، الاختلاف فيها أبداً.

ومن الاصول المشروعة التي يقصد بها ابن تيمية) الحديث النبوي (أن يكون كل

)١ (الخلاف المُعتبر ـ علي بن عبد العزيز الشبل ـ الفاروق ـ السنة ٢٢ ـ العدد ٨٧.

)٢ (الخلاف المُعتبر ـ علي الشبل ـ الفاروق ـ السنة ٢٢ ـ العدد ٨٧.

من القولين في معنى القول الآخر ، لكن العبارتين مختلفتان ، غير ان الجهل أو الظلم يحمل على الثناء على أحد المقالتين ، وذم الأخرى ، فيحدث الاختلاف) ١.(

وهذا يدلّ على ان الرواية بالمعنى تؤدي الى حصول اختلافات ومنازعات بين المسلمين ، فلِمَ يا تُرى لم يُدوَّن الحديث في زمن الرسول صلىاللهعليهوآله ، حتى لا يضطر الرواة بعد مرور فترات طويلة على وفاة رسول الله ، الى تدوين الحديث بالمعنى ، وما يؤدي إليه من تعارضات في الأحكام الفقهية واحتقانات بين الفقهاء ، وبالتالي نشوب خلافات بين أتباعهم.

كما ان قول ابن تيمية بأن الجهل أو الظلم يحرّف معنى إحدى المقالتين ، بحيث يصبح المعنيان مختلفين بعد أن كانا متفقين ، فهو اعتراف ضمني بأن هذا الاختلاف غير مشروع أو سائغ أبداً ، لأن أحد القولين وهو الذي يحمل المعنى الصحيح فهو على حق ، أما القول الآخر الذي يدمعه الجهل والظلم ، فهو يتضمن المعنى الخاطئ ، وهو بالتالي يصبح قولاً سقيماً ومرفوضاً ، ثم ما هو الدليل على ان الطريقتين مشروعتان حتى يكون الذين سلكوهما مُحقّين؟ إذ لو كانت الطريقتان مشروعتين ، لما كان هذا الاختلاف والتنازع والطعن بين الذين تبنّوهما؟ إذ لابد وأن تكون إحدى الطريقتين ، مشكوكاً في أمرها ، بل ربما تكون الطريقتان في الأصل ، غير مشروعتين تماماً.

ويرى علماء من الجمهور المسلم ، بأن الخلاف قد عُرض للأئمة من عدّة أوجه ، وجميع وجوه الخلاف متولد منها ، حيث يستعرض البطليوسي هذه الوجوه التي تدلّ على ان سبب الاختلاف هو في الحقيقة يأتي أولاً من اختلاف الرؤية حول الحديث النبوي ، وهي ناجمة عن خطأ المجتهد في تشخيص الحديث النبوي وليس للارادة الالهية

)١ (الخلاف المُعتبر ـ علي الشبل ـ الفاروق ـ السنة ٢٢ ـ العدد ٨٧.

أي تدخّل في نشوء الاختلاف) ١ .(وهذا دليل صارخ على أنَّ هذا الاختلاف غير مُعتبر أو مقبول ، بل انه نابع من خطأ المجتهد ، وان الارادة الالهية لم تسمح به رحمة بالمسلمين كما يدّعي علماء الجمهور.

الاسباب الوجيهة للاختلاف

فالبطليوسي يستعرض . هنا . سبب الاختلاف الناتج عن علل الحديث ، والتي منها فساد الإسناد ، ونقل الحديث بالمعنى دون اللفظ ، وإسقاط شيء من الحديث لا يتم المعنى إلا به ، والإرسال وعدم الإتصال ، وإن بعض رواة الحديث صاحب بدعة أو متهم بالكذب وعدم الثقة ، أو مشهور ببله وغفلة ، أو يكون متعصّباً لبعض الصحابة ، منحرفاً عن بعضهم ، وإذا لم يفتعل الحديث ، بدّله وغيّر بعض حروفه ، أو حرص الناقل على الدنيا ، وتَهافتَ على الاتصال بالملوك لنيل المكانة والحظوة عندهم ، فإن كان بهذه الصفة لم يُؤمن عليه ، التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب ، حرصاً على مكسب يحصل عليه ، وقد نبّه رسول الله على نحو هذا بقوله : ان الاحاديث ستكثر بعدي كما كثرت عن الانبياء قبلي ، فما جاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه كتاب الله فهو عني.

ومن العلل ، نقل الحديث على المعنى دون اللفظ بعينه ، وهذا الباب يعظم فيه الغلط جداً ، وقد نشأت منه بين الناس شغوب شنيعة.

ومن العلل أيضاً ، التصحيف ، أي الخطأ اللغوي والإملائي في التدوين ، وهو

)١ (مقدمة كتاب الإنصاف في التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم . البطليوسي الاندلسي.

عظيم الفساد ، وربما لم يكن بين المعنيين المتضادين ، غير الحركة أو النقطة ، وهذا النوع كثير جداً ، وضع فيه الدارقطني كتاباً سمّاه» تصحيف الحفّاظ) «١ ، (وهكذا يتضح أنَّ هذه الهفوات والأخطاء والأكاذيب وغيرها هي التي تتسبب في شيوع الاختلافات بين الفقهاء حول نظرتهم للنص النبوي الذي يُعدّ بعد القرآن أهم أصل في الاستنباط الشرعي ، ثم تأتي القواعد الأخرى ، منها القياس والرأي والاستحسان والمصالح المرسلة وعمل أهل المدينة ، التي لم يضعها فقهاء المدارس الفقهية إلا مضطرين بعد الاختلاف في مدى مقدار الثقة بالسنّة النبوية ، وإحجام الكثير منهم عن اتخاذ الحديث النبوي مصدراً للاحكام الشرعية ، لعدم الاطمئنان بصحته ، ومن الطبيعي ان الاختلاف بين الفقهاء حول الثقة أو عدم الثقة في بعض الاحاديث النبوية ينجم عنه اختلاف في تبنّي هؤلاء للقواعد الفقهية الأخرى بين الايمان بمشروعيتها أو مشروعية بعضها ، أو التشكيك في بعضها الآخر ، وهذا ما حصل بالفعل ، وأدى الى هذه النزاعات والخصومات الفقهية على طول التأريخ الاسلامي ... وهي في الحقيقة ليست ظاهرة طبيعية ، وليست للارادة الالهية أيّ تدخل فيها أو في نشوئها ، وانما نشأت من عدم تدوين الحديث النبوي في عهد الرسول صلىاللهعليهوآله أو بعده مباشرة ... فلماذا يدّعي علماء الجمهور ان الله سمح بالاختلاف رحمة منه ، لاثراء العقل الانساني ، وهي من فضل الله تعالى؟

اختلافات نابعة من الهوى والرأي وانعدام الرؤية الصحيحة

وهنا لابد من طرح الملاحظات التالية:

)١ (انظر : أضواء على السنة المحمدية : ١٠١.

. يقول علماء الجمهور إن الأئمة اختلفوا في كثير من الامور الاجتهادية ، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم ، وهم جميعاً على الهدى ، مادام الاختلاف لم ينجم عن هوى او رغبة في الشقاق) ١ .(

وقد كان مجتهدو الصحابة يقولون عن اجتهادهم» : هذا رأي فإن كان صواباً فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله منه بريئان) «٢ .(

وتعليقنا على هذا هو اذا كان اجتهاد هؤلاء واختلافهم ، نابعاً عن هدىً ونية حسنة وانهم . جميعاً . على الرشاد ، الى درجة ان العلماء من بعدهم كانوا يأخذون بفتوى الصحابي أو قوله أو رأيه ، كمصدر من مصادر التشريع ، في حين ان الصحابة أنفسهم يقرّون بان بعض فتاواهم وأقوالهم انما هي خطأ ومن الشيطان ، تُرى ما هو المعيار الذي يعتمده فقهاء التابعين وتابعي التابعين للأخذ بأقوال الصحابة ، مادام الصحابة الذين هم خير الناس بعد الرسول ، هم أنفسهم لا يميّزون أو يشخّصون ذلك الخطأ ، فكيف بالذين جاءوا من بعدهم؟ وهل يا تُرى الكلّ كان على هدىً في ظل انعدام الرؤية الصحيحة ، وعدم الدراية والتشخيص الصحيح للموقف؟

والغريب هو التأكيد على ان الصحابة كانوا يختلفون حتى في أهم الفرائض وهي الصلاة ، حيث ان بعضهم كان يقرأ البسملة ، وبعضهم لا يقرأها ، ومنهم من يجهر بها ، ومنهم من يخفت ، وكان منهم من يقنت في صلاة الفجر ، ومنهم من لا يقنت فيها ، ومنهم من يتوضأ من الرعاف والقيء والحجامة ، ومنهم من لا يرى ذلك ، فأين كان هؤلاء الصحابة الذين عاش النبي بين ظهرانيهم لمدة ٢٣ عاماً ، وكان يصلّي فيهم يومياً؟

ألم يروا الرسول إنْ كان يقرأ البسملة أم لا ، أو يقنت لصلاة الصبح أم لا؟) ١ .(مع علمهم ان الصلاة عمود الدين وفريضة من أهم الفرائض؟ هل هي اللامبالاة وعدم الاهتمام والإهمال أم هو النسيان والغفلة؟ وكيف يحث الرسول صلىاللهعليهوآله المسلمين على الاقتداء بالصحابة وانهم أفضل الناس بعده؟ وهذا هو حالهم ، إذ لم يتقيّدوا ، ويضبطوا الصلاة الواجبة بتفاصيلها الدقيقة؟

وإذا كان الاختلاف بين الصحابة قد بدأ في الصلاة اليومية التي أدّوها مع الرسول صلى الله عليه وآله وفي مسجده لسنوات طويلة ، وهم ملازمون له ليلاً ونهاراً في اداء هذه الفريضة؟ فكيف يكون الاختلاف في الامور الدينية الأخرى التي هم فيها اقل لصوقاً به أو احتكاكاً سوى البعض منهم؟ لا ريب ان الاختلاف سيتخذ . حينئذ . منحى متصاعداً ويستفحل عند التابعين ومن تبعهم بعد ذلك؟

. ومن المستغرب أن يدّعي الشاطبي بان حكمة الله هي التي سمحت بأن تكون الفروع والجزئيات قابلة للاختلاف ، حيث اقتضت حكمة الله أن يترك منطقة ليست قليلة دون أن ينزل فيها نص ، وهي منطقة العفو ، حينما قال صلىاللهعليهوآله» : الحلال ما أحلّ الله في كتابه ، والحرام ما حرّم الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفى عنه «أي

سمح بالاجتهادات الفقهية الكثيرة ، حيث ان معظم الشريعة الصادرة عن الاجتهاد ، ولا تفي النصوص بعشر معشارها.

وأصبح الحديث دارجاً عن يسر الشريعة وسعتها ومرونتها) ٢ ، (ان هذه الاستنتاجات الساذجة ، تفتقر لأدنى معايير الموضوعية والمنطق ، فضلاً عن تعارضها مع

)١ (أدب الاختلاف ، ص ١١٧ ـ ١١٨.

)٢ (فقه الثوابت والمتغيرات ـ د .علي محي الدين القرداغي ـ مجلة الشريعة الأردنية ـ العدد ٤٩٠.

الأدلة القرآنية ، لأن الله تعالى يقول : مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) ١ ، (فليس هناك حكم ليس له أصل في القرآن ، من حلال وحرام ، انما السُنّة تتولى إظهاره وإبرازه وتفصيله ، طبقاً للآية الكريمة : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ٢ ، (فكيف والحال هذه لا تفي النصوص بعشر معشار الشريعة؟ وبالتالي فهي ليست محل نزاع بين المجتهدين ليحلّها أحدهم ويحرّمها الآخر حسب أهوائهما ، لتصبح هذه المنطقة المتنازع عليها ، جزءاً من الحلال والحرام ، في حين ان الرسول صلىاللهعليهوآله أوضح بأن الحلال والحرام ما أحلّه الله وحرّمه في القرآن ومحدّداً فيه دون غيره ، فكيف يحق للارادة البشرية التدخل لتحلّل هذا وتحرّم ذاك ، وتحسبه من الدين؟ وليس هو كذلك : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) النحل ١١٦.(

اختلاف نابع من تفاوت الثقة بالحديث النبوي

وقد علمنا سابقاً بأن أكثر فتاوى العلماء واختلافاتهم إنما هي ناجمة عن الاختلاف في درجة الثقة بالحديث النبوي ، أو بين وصول الحديث النبوي الى مجتهد ما ، وعدم وصوله للآخر ، أو بسبب رواية الحديث النبوي بالمعنى ، أو التلاعب في مفرداته وكلماته ، أو الحذف منه ، أو بسبب التصحيف وما إلى ذلك ، وكل هذه الاسباب والعوامل ، أدّت الى الاعتماد على الاصول والقواعد الفقهية ، كالقياس والرأي وعمل

)١ (الأنعام ٣٨.

)٢ (النحل ٤٤.

أهل المدينة والمصالح المرسلة والاستحسان وشرع من قبلنا من أهل الكتاب ، بل وحتى هذ القواعد ، فهناك اختلاف في التعاطي معها أو نبذها والطعن فيها والتشكيك بها ، وهذا يدل على أن عدم الثقة بالحديث النبوي هو السبب في تلك الاجتهادات الفقهية الكثيرة ، وما أفضت اليه من اختلافات شديدة على طول التأريخ الاسلامي ، وبالخصوص في القرون الثلاثة الاولى ، فما علاقة ذلك بما يُشاع عن منطقة العفو المزعومة؟ ثم كيف يزعم القائل بأن الجميع متّبعون وملتمسون من الرسول صلىاللهعليهوآله ويستقون من مَعينه ، مع تلك الفجوة العميقة بين المجتهدين ، وبين الحديث النبوي؟ وهذا الإدعاء يصح فقط في حالة وصول السُنّة النبوية بكاملها للفقيه أو المجتهد ، مع الايمان بصحتها ، وحينذاك يحق للمدّعي القول بأنه يتبع الرسول ويلتمس منه ، غير ان الواقع يثبت عكس ذلك ، ولكل هذه الاسباب الوجيهة ، اختلف الفقهاء تلك الاختلافات الشاسعة ، ونشأت المدارس الفقهية الكثيرة ، وتعدّدت المذاهب والفرق ، وما أفضت اليه من نزاعات وخصومات مريرة ، أضعفت الأمّة ، وأذهبت ريحها ، وشتّتتها وجعلتها مطمعاً للاعداء والمستعمرين.

تحوّل الاختلاف الى عصبيات وصراعات دموية

ونستعرض فيما يلي نماذج مما حدث في التأريخ من نزاعات وصراعات بين أتباع المدارس والمذاهب الاسلامية التي كان للحكام آنذاك دور في تأجيجها:

في عصر الاشرف ابن الملك العادل الأيوبي بدمشق الذي كان يميل الى المحدثين والحنابلة ، حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد ، وتعصب عزّ الدين بن عبد السلام الذي سمع من الحنابلة أذى كثيراً ، عليهم وجرت خبطة ، وكانت قد

فُرضت على عزّ الدين الإقامة الجبرية في داره وكان لا يستفتي أحداً من الناس ولا يجتمع بأحد منهم.

وكان المذهب الشافعي غالباً في كثير من أقاليم الشرق ، كسجستان ، ومرو ، وسرخس ، ونيسابور ، ويذكر ان بين سجستان وسرخس كانت تقع عصبيات بين الشافعية والحنبلية ، تُراق فيها الدماء ، ويتدخل بينهم السلطان) ١.(

وفي المغرب ، شاع مذهب مالك ، وان الناس كانوا يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله وموطّأ مالك ، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وإن عثروا على شيعي أن معتزلي ربما قتلوه .وكان أصحاب مالك يبغضون الشافعي ، لأنه أخذ العلم عن مالك ، ثم خالفه أي الشافعي.

. وأتباع المذاهب السَّنّية كانوا في نزاع شديد جداً الى حد الاقتتال في الشوارع .وكان الحنابلة متشددين جداً في مسألة العبادة وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم كانوا لا يكتفون بظاهر أمر الناس ، بل النفوذ الى حقيقة أمرهم ، ولم

يكن الاحناف ، أقل تفى أو محافظة على مكارم الأخلاق من الحنابلة ، ولكنهم كانوا يرون ان الاسلام لا يجيز للمسلم أن يعترض في الأمور التي هي بينه وبين نفهس .. من أجل ذلك كان الحنابلة والحنفية ، يتنازعون علناً ويقتتلون) ٢.(

وكانت الري في أوائل القرن السابع الهجري ، تدمّرها العصبية المذهبية ، يبيد الحنفية والشافعية ، الشيعة أولاً ، ثم يثني الشافعية بالحنفية ، ويبيدوهم حتى يتركوا أحياءهم خراباً.

)١ (انظر : طبقات الشافعية الكبرى . السبكي ٨ : ٢٣٨.

)٢ (تأريخ الادب العربي . عمر فروخ . ٣ / ٣٨.

أما في عهد المماليك ، فكانت هناك خلافات مذهبية ، حيث ان المالكية كان لهم في جامع دمشق ، محراب خاص بهم ، وكان نفر من رجال الدين يجسّمون هذه الخلافات بضروب من الأوهام ، وان أتباع المذاهب السُنّية أنفسهم كانوا لا يصلّي بعضهم خلف بعض) ١.(

. وفي عهد المماليك البرجية ، كان النزاع بين اتباع المذاهب الاسلامية موجوداً ، وخاصة بين الحنابلة والأشعرية والشافعية خاصة ، مما كان مألوفاً منذ قرون) ٢.(

. ولتلافي هذه الاختلافات الشديدة بين المذاهب الاسلامية ، اتخذ الموحّدون اسمهم من الرغبة في) التوحيد (بالاقتصار في أمور الدين على ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهم سلفيون لا ينتمون الى مذهب من المذاهب التي كانت قد نشأت من قبل ، وقد نهى يعقوب المنصور) ٥٨٠ . ٥٩٥ هـ (عن الإفتاء إلا بالكتاب والسُنّة دون القواعد

والأصول الفقهية الأخرى ، واباح الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروط الاجتهاد ، كما نهى عن التقليد وعن الأخذ بالامور الخلافية) ٣.(

وفي أيام المنصور الموحّدي ، تُركت دراسة فروع الفقه) لما كان فيها من الآراء المختلفة في مفردات العبادات وأوجه المعاملات (وتقدّم المنصور الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة.

ولما دخل الحافظ أبو بكر بن الجد على أبي يعقوب) موحّدي ، (وجد بين يديه

)١ (تأريخ الادب العربي ٣ / ٦٠٩.

)٢ (تأريخ الادب العربي ٣ / ٨٨٣.

)٣ (تأريخ الادب العربي ٥ / ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

كتاب ابن يونس ، فقال له : انا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أُحدثت في دين الله .. المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا؟ فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيهما يجب أن يأخذ به المقلّد؟) ١.(

هكذا إنتهت الحال بالمسلمين من جراء الاختلافات بين المجتهدين والفقهاء ، ولو اقتصرت الأمور في الفروع والفقه لهان المصاب ، وانما كانت الاختلافات تدور في الكثير من الأحوال في العقائد والأصول ، حتى ان الامام مهدي ، أوصى الناس بقراءة كتب الغزالي ، فصارت قراءتها شرعاً وديناً بعد ان كانت كفراً وزندقة) ٢.(

إلى هنا نصل الى النتائج التالية:

. لم يكن القرآن الكريم قد أشار الى مشروعية الاختلاف أبداً ، وانما وصف الاختلاف كحالة واقعة ، ثم بيّن مساوئ الاختلاف ، وان الحل يكمن في ردّ الاختلاف الى الله ورسوله حتى يضمحل ويتلاشى.

. لم يكن الله قد حكم بحكمته أن يكون هناك اختلاف مقبول أن سائغ أو مُعتبر أو حالة مشروعة ، وانما الاتلاف حَدثَ بسبب تعدّد وجهات النظر ازاء الحديث النبوي والقواعد الاصولية والفقهية المختلفة ، وكذلك لعوامل نابعة من ذات الانسان ، كالكذب والتحريف والتصحيف وإلى يغر ذلك.

. لم يكن الاختلاف قد حَدثَ في الفروعِ والفقه فقط ، وإنما امتد ليُطال الاصول والعقائد والامور الكلامية.

. ما يُسمى بأدب الاختلاف وأخلاقيته ، لم يكن إلا تبريراً يفتقر الى المصداقية ، إذ

)١ (تأريخ الادب العربي ٥ / ٣٦٧ . ٣٦٨.

)٢ (تأريخ الأدب العربي ٥ / ٣٦٩.

كان الاختلاف قد بدأ بالطعون والتسقيط بين الفقهاء وأصحاب المدارس الفقهية ، وانتهى الى صراعات دموية بين الاتباع والمقلدين.

. لو تم تدوين الحديث النبوي في وقته ، لما نشأت تلك المدارس الفقهية الكثيرة وما أدّت اليه من مشاحنات ونزاعات طول التأريخ الاسلامي.

خلاصة وختام المرحلة الثانية ونتائجها

إن ما توصّلنا إليه من نتائج وقناعات وحقائق عن المذاهب السُنّية ، تختلف عن النظرية السُنّية المطروحة على الملأ العام المسلم سواء في العصور المتقدّمة أو المتأخرة.

حقيقة مذهب أهل السُنّة والجماعة:

*إيمان الجمهور السُنّي بأن لله جسماً وأعضاء فهم» مجسّمة ، «وإن ادّعى جهابذتهم بأنهم من أهل» التنزيه «وذلك لإقرارهم بأن الله وإن لا يُرى في الدنيا ، ولكنّه يُرى في الآخرة من قبل أهل الجنة ، وذلك خلاف المنطق القرآني والعقلي.

*يعتقد الكير من أهل السُنّة والجماعة بأن القرآن الكريم تعرّض للنقص والزيادة والتحريف حسب تأكيد كتب الصحاح والسُنن والمسانيد.

*الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله في المدرسة السُنّية ، ليس معصوماً في الواقع ، فهو يخطأ ويرتكب الزلل ويمَسّه الشيطان ويُمارس أفعالاً مُشينة ومُخلّة بالأدب والأخلاق.

*يرتكب بعض الصحابة القبائح والكبائر ويعصون الرسول ويفرّون من الزحف والقتال ويُحارب بعضهم بعضاً وغير ذلك من الفعال والممارسات الممقوتة،

ولم يكونوا بالمستوى اللائق لحمل السُنّة النبوية ، وليس كما تدّعي النظرية السُنّية بعدالتهم أجمعين.

*طبق الاطروحة السُنّية ، تم تدوين الحديث النبوي بعد القرن الأول من الهجرة ، لأن السُنّة النبوية كانت في صدور الرجال ، ولم تُدوَّن إلا في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العبّاسي حيث انبرى أصحاب السُنن والمسانيد في التدوين بإشارة من الحكأم والسلاطين.

*الخلفاء الذين جاءوا بعد وفاة الرسول ، وبالأخص الأول والثاني والثالث ، لم يكونوا كما يصفهم أهل السُنّة والجماعة ، بالقمّة في العلم والأخلاق والسير وفق المنهج النبوي ، بل كانوا يفتقرون في الكثير من الاحوال للعلم والاطّلاع على الأحكام والسُنن النبوية ، بل وكانوا في بعض الأحيان يفتون حسب أذواقهم الشخصية ويمرّرون الأحكام والقوانين التي تتوافق وسياستهم في الحُكْم ، بالرغم من تصادمها مع الشريعة الاسلامية والأوامر القرآنية والنبوية ، بل وان أحكامهم وسياساتهم تتصادم فيما بينها في كثير من الأحيان.

*مذاهب أهل السُنّة والجماعة ، وخاصة المذاهب الأربعة ، لم تكن في الحقيقة مذاهب في البداية ، وانما كان اصحابها فقهاء مجتهدين ، وضعوا قواعد أصولية وفقهية ، ونصحوا تلامذتهم على الاجتهاد أيضاً والتحرّر من التبعية الفقهية ، وكان أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم ، يقرّون بخطئهم وان أحكامهم وفتاواهم قابلة للنقد ، لكن أتباعهم وتلامذتهم حوّلوا فقهم الى مدارس فقهية والى مذاهب فيما بعد ، بدفع من الحُكّام الذين نصَّبوهم قضاة وموظفين في البلاط ، ولم يكن أتباع تلك المذاهب وأنصارها على وفاق دائماً ، وانما كانوا يتصارعون ويتلاعنون ، وفي بعض الأحيان يتقاتلون وتسيل الدماء

من جراء تلك الصراعات.

*لم يكن القرآن الكريم ولا النبي الكريم صلىاللهعليهوآله قد رضيا بالاختلافات الفقهية أو في الفروع دون الاصول والاعتقادات ، وما حصل في القرون الأولى ، هو نشوب اختلافات وصراعات ليس في الجانب الفقهي فقط ، وانما طالت الشقاقات والاختلافات ، القضايا والمسائل الاعتقادية ايضاً.

*عند قراءة الصحاح والسُنن المعتبرة ، وخاصة صحيحي البخاري ومسلم اللذين يُعتبران عند أهل السُنّة والجماعة ، أفضل الصحاح . إطلاقاً . ولا يتطرق اليهما الشك والطعن ، والإدعاء بأنهما مقطوع بصحتهما ، نجد ان هذه الرؤى ما هي إلا إفتراضات تفتقر الى الدليل ، وانما يقف أبرز علماء أهل السُنّة والجماعة ، موقف النقد والتجريح بحق الصحيحين ، وهذا ما يزيل عنهما إطار القداسة التي فرضها حلولهما علماء سُنّة لكي لا يقدح فيها أحد.

بعد جولتنا المفصّلة في مدرسة الخلفاء والجمهور ، وما لقينا فيها من مفاجآت لم تكن في الحسبان ، نظراً لكون ثقافتنا السابقة ، كانت سطحية عن هذه مدرسة الجمهور حيث لم نكن موفقين للإطلاع . بعمق . على التفاصيل الدقيقة ، والحقائق الناصعة عن أصول ومباني نظرية أهل السُنّة والجماعة.

واليوم ـ بحمد الله ـ صرنا مطمئنين بأن ما نشأنا عليه من ركائز وقناعات وتصورات عن مدرسة الخلفاء ، قد تلاشت بفعل الحقائق التي اكتشفناها من خلال التوغل في هذه المدرسة بحيث تغيّرت قناعاتنا السابقة ، وأصبحنا أكثر وعياً وتصميماً على المضي في البحث عن الحقيقة الكبرى ، أو اللغز المحيّر الذي أدى إلى تمذهب الاسلام ، وتوزّع أتباعه إلى مذاهب وطوائف متناحرة ، أفضت في آخر المطاف ، إلى أن تصبح الأمّة الاسلامية ، أذل الامم وأحطّها من حيث القوة والتماسك والتقدم التقني والاقتصادي.

هذه الأمّة التي وصفها القرآن الكريم بأنها خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ١ .(وإذا بها تتردّى إلى هذا المنعطف الخطير.

)١ (آل عمران ١١٠.

البداية ... البعثة المظفرة

من الغريب أن يصرّ البعض على أن لا يصلح آخر الأمّة إلا بما صلح أولها) ... ١ (وتساؤلنا الوجيه : لو صلح أول الأمّة ، وسارت على الصلاح والاستقامة ، لما آلت أمورها إلى هذا المنعطف الخطير؟ فلابد أن نتحرّى عن العوامل

التأريخية لهذا الانحطاط ، فالاسلام كان من المفروض أن يعمّ كل أرجاء المعمورة ... فلِمَ توقّف وانحسرت شركته ، وأصبحت أمّته مطمع كل الأعداء الذين يفترسون أشلاءها من كل جهة.

ومه كل هذه الهواجس التي انتابتنا ، قرّرنا المضي في كشف كل الاوراق والسجلات الخفية مهما كانت ضخمة ويعلوها الصدأ وتغطّيها الأثرية ، لأننا ومنذ اللحظة التي قرّرنا فيها توخّي الحقيقة مهما كانت صعبة ومؤلمة ، صرنا لا يعمني كل مقدّس حتى يثبت لنا بالشواهد والأدلة الدامغة ، أنه حقاً مقدس ، لا كما تعلّمناها من الآباء والاجداد الذين ربما كانوا مخطئين في حساباتهم وقناعاتهم التي ورثوها عن أجدادهم.

قمنا بالقراءة والتحليل مجدّداً ، وتصفحنا التأريخ بإمعان ، بلا انحياز إلى هذا المذهب أو ذاك ، او الى هذه الفرقة او تلك ... فتوصلنا إلى حقائق مذهلة ورهيبة ، ونتائج باهرة ، فعزمنا على تدوينها لكي ينتفع بها المسلمون الباحثون عن الحقيقة ، وهم أحرار في الحكم على التأريخ ، لكن الحقيقة الكبرى تبقى كالشمس الساطعة ، وليس لنا ولا للآخرين أن يغطّوها بأكفهم مهما حاولوا ـ إمعاناً في تقليد الآباء والأجداد.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ

)١ (الفتاوى الكبرى ـ ابن تيمية ٣ : ٥٨.

آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) ١.(

ولكي يكون موضوع البحث ، شاملاً لسائر الجوانب والنواحي والخفايا ، ولا يَدعُ أمراً أو تساؤلاً أو مأخذاً إلا ويتناوله بحياد وموضوعية ، فإن كل أحد ـ باستثناء رسول الله ـ مُعرَّض للنقد والتحليل حتى تثبت نزاهته ومكانته وإخلاصه عبر

موقفه من صاحب الدعوة الإسلامية ، وطاعته للأوامر الالهية والنبوية والتزامه بوصاياهما من خلال القرآن الكريم والروايات المعتبرة ، ثم سيرته في عهد الرسول أو بعد رحيله صلىاللهعليهوآله.

حين هبط الوحي على النبي محمد» ص «في غار حراء ، سارع وأبلغ زوجته السيدة خديجة بنت خويلد بالخبر ، فأسلمت فوراً هي وعلي بن أبي طالب ، ابن عمه الذي لم يكن يبلغ الحلم بعد ، والذي شرع بالصلاة مع النبي دون غيره من ذوي قرباه من بني هاشم .ولم يلبث أن آمن آخرون من قريش وبني هاشم ، وأصبحوا صحابة له صلىاللهعليهوآله

وأحسّ الرسول صلىاللهعليهوآله بما يمتلك من فراسة إلهية وذكاء خارق بأن علياً ليس كغيره من الصحابة ، فقد كان ملازماً له ، ولم يفارقه أبداً ، وكان يطيعه إطاعة تامة ، فضلاً عن استيعابه لما ينزل عليه من قرآن استيعاباً عميقاً وشاملاً ، إذ لم تفته شاردة ولا واردة من الآيات والتشريعات النازلة.

هذه العناية النبوية والاحتضان الخاص لعلي دون غيره من الصحابة المقرّبين ، أوحت لرسول الله وبأمر من الله تعالى عند نزول الآية الكريمة : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ٢ (أن يدعو أقاربه من بني هاشم إلى جلسة خاصة ، ولم يكن مستعداً منهم للتجاوب مع شروطه الصعبة سوى علي الذي كان أصغر القوم سنّاً ، فردّه الرسول

)١ (البقرة ١٧٠.

)٢ (البقرة ١٧٠.

ثلاث مرات ، ولما لم يجرأ أحد من بني هاشم على قبول شروطه صلىاللهعليهوآله ، والتي كانت بمثابة إلقاء حجة على القوم ، لاثبات عجزهم عن هذه المهمة الخطيرة والمقدسة التي طرحها النبي ، فأعلن ما يُسرّه من أمره في عليّ حيث ثبّته كأخ له ووزير ووصي وخليفة دون بني هاشم أجمعين) ١.(

والحديث النبوي حول الإنذار ، واضح جداً ، وليس بحاجة إلى تفسير أو شرح أو توضيح ، ولذلك حاول بعض علماء الجمهور . جاهدين . تجاهل قضية الإنذار برمّتها ، خوفاً من وقوف الجمهور السُنّي على حقيقة ما حدث في تلك الواقعة التي جرت في العهد المكي ، لأن تناسي هذه الواقعة أفضل من إبرازها ، وخلق الأعذار الواهية أو تأويلها بغير ما تشير إليه من معنى.

وآخر استبدل هذه العبارة ، بعبارة» وكذا وكذا ، «فخفي على أغلب جمهور المسلمين المخدوعين ، تلك العبارة وما تعنيه من دلالة على الخلافة بلا أي مواربة.

والواقعة ... حدثت في العهد المكي ، أي حدثت مبكراً ، وأراد رسول الله فيها ، تثبيت عليّ خليفة له بلا منازع ، حتى لا يطمع رجل أو صحابي . بعدها . بهذا الموقع الخطير ، ولكي لا يزعم أحد بأن النبي صلىاللهعليهوآله لم يفكّر في الاستخلاف ويمهد له.

وشفع الرسول صلىاللهعليهوآله ، هذا التأكيد منه بأحاديث كثيرة جداً في حق عليّ ، وتعيين الله له بالخلافة والإمامة من بعده ، سواء بالتلميح تارة ، أو بالتصريح تارة أخرى.

وفي العهد المكي ، عاش النبي وصحابته ، محنة كبرى ، بسبب الضغوط القرشية ، إلى درجة أن هاجر الجميع إلى الحبشة للخلاص من القمع والإضطهاد ، ولذلك لم يكن هنام مفرٌّ من الهجرة إلى المدينة التي أسلم اكثرها ، خاصة بعد مبايعة وفود من زعمائها

)١ (الشعراء ٢١٤.

للنبي صلىاللهعليهوآله .فهاجر على أثرها إلى يثرب واستقبله أهلها أفضل إستقبال.

واستقرّ الرسول وصحابته المهاجرون معه في المدينة لتصبح عاصمة لدولته الفتية ، واحتضنه أهلها من الأوس والخزرج الذين أسماهم القرآن الكريم بالأنصار ، فيما أسمى الوافدين معه من مكة ، بالمهاجرين.

ومن الطبيعي أن يمدح القرآن ، الأنصار لأنهم آووا الرسول ونصروه في موقع الشدّة ، بعكس ما فعل أهل الطائف بالرسول عندما لجأ إليهم من استهزاء وضرب وتنكيل .وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) ... الانفال ٧٢.(

كما أن كتاب الله مدح المهاجرين والأنصار بصورة عامة واجمالية ، وليس بصورة استغراقية تفصيلية كما هو معتاد في اللغة العربية.

والقرآن الكريم حين أثنى على المهاجرين والأنصار ، فلأنهم آزروا الرسول ونصروه دون المشركين والكفار الذين آذوه وكانوا يحاربونه بشتى الوسائل ، وخاصة الانصار الذين فتحوا أبوابهم وبيوتهم لاستقبال النبي والمهاجرين ، ولم يجدوا في نفوسهم حاجة أو غضاضة : حِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ١.(

كان هذا الموقف القرآني قبل أن يُمتحن المهاجرون والأنصار من خلال الفتن والشدائد والبلايا ، حيث تبيّن الصابرون والثابتون والمرابطون من المتقهقرين والمتخلّفين ، واتضح أهل الطاعة لله ولرسوله من العصاة والمتمردين على أوامره

)١ (الحشر ٩.

ونواهيه ، حيث بدأت الحروب والصراعات مع أعداء الدين من المشركين والمنافقين واليهود.

ألم يفرّ من معارك شهيرة مثل أُحد وحُنين ، الآلاف من المهاجرين والأنصار ، ويتركوا الرسول وحده مع ثلّة من بني هاشم؟ ألم يعصِ الكثير من الصحابة الرسول صلىاللهعليهوآله ، ونزلت العشرات العشرات من الآيات التي تحذّر المهاجرين والأنصار من الاستمرار في العصيان وضرورة التوبة والعودة إلى طاعة الله ورسوله ، وإلا فسيكون مصيرهم جهنم مع بطلان الأعمال.

وحين نقرأ سيرة الصحابة وكبارهم بالذات مع الرسول صلىاللهعليهوآله ، يتجلّى لنا أن الكثير منهم كانوا يعصونه دوماً ، ويخاطبونه بجفاء وينادونه كما ينادي بعضهم بعضاً ، ويخالفون أوامره ، ويتخذون منه مواقف سيئة ، والقرآن الكريم يشير إلى الكثير من تلك المواقف ، وان كان لم يُفصح عن أسماء الصحابة ـ صراحة ـ وإنما يلمّح إلى سلوكهم وأعمالهم وممارساتهم ، لكن ـ والحق يُقال ـ لم تكن قلة من الصحابة ـ وعلى رأسها الصحابي علي بن أبي طالب ـ من ضمن هؤلاء الذين يوجّه القرآن الكريم إليهم نقداً لاذعاً واتهاماً شديداً ، ولم يكن علي قد ناله القرآن بأي شيء من تلك الطعون والإتهامات؟ بل بالعكس فإن الآيات التي نزلت في حقه ، تربو على الثلاثمائة آية باعتراف ابن عم النبي عبد الله بن عباس ، وبتأكيد المفسرين ، ولم ينزل في حق أحد مثل هذا ال عدد الكبير من الآيات التي تدلّ على فضل ومكانة وعلو شأن الصحابي علي بن أبي طالب.

ولم تكن الآيات القرآنية وحدها تبيّن فضل وشأن علي ، بل وجاءت السُنّة النبوية هي الأخرى لتعزيز هذه المكانة والمنزلة ، التي هي ليست كفضائل ومناقب الصحابة والخلفاء الآخرين ، وإنما لتثبيت إمامته وخلافته لرسول الله .شئنا أم أبينا ـ وكان

المسلمون في حياة الرسول صلىاللهعليهوآله يَعُون هذه الحقيقة الناصعة ، ويقرّون بأن علياً في الفضل والمكانة والسمو يأتي بعد النبي وان تعيينه كأخ ووصي ووزير وخليفة له ، أمر مفروغ منه ، ولا يحتمل التأويل أو المغالطة ، ففي حادثة

المؤآخاة المشهورة والمعروفة ، آخى الرسول بين الصحابة من المهاجرين والأنصار ، لكنه إدّخر علياً لنفسه ، وأصبح أخا الرسول في الدنيا والآخرة ، حتى لا يدّعي أحد من الصحابة ، هذه الفضيلة الكبرى التي لم تدانِها فضيلة) ١.(

وهي الأخوّة الأبدية والخاصة ، ليست من طراز» : ان المؤمنين أخوة «التي تتسع لجميع المؤمنين.

هذه الأخوّة الخاصة ، تزكية من النبي لعليّ على أنه منزّه عن الخطأ والانحراف ، وأنه سيبقى مستقيماً حتى النهاية ، لأن أخوّته الابدية للرسول ، تؤكد هذه الحقيقة.

وعموماً فإنّ واقعة الإنذار ، فضلاً عن قضية المؤاخاة التي أكدت أخوّة علي للرسول صلىاللهعليهوآله أيضاً ، تضمنت:

١ ـ التأكيد على أن علياً وصي للنبي ، كما هو حال أوصياء الانبياء على طول التأريخ ، إذ إن لكل نبي وصياً ، ووصاية علي للرسول من هذا القبيل.

٢ ـ التأكيد على وزارة علي للنبي صلىاللهعليهوآله ، والوزير هو المساعد والمدير لشؤون الحاكم ، والوزير من الموآزرة والدعم والمعاضدة ، والمشاركة في حكم الناس ... والنبي صلىاللهعليهوآله في هذا التأكيد المبكّر لوزارة علي له ، يعلن بأن لعلي شأناً خاصاً دون الصحابة الآخرين والمقرّبين له.

٣ ـ تعيين الرسول لعليّ بأنه خليفة له من بعده ، وهذا التأكيد النبوي جاء عقب

)١ (سنن الترمذي ٥ : ٣٠٠ ؛ المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٤ ؛ عمدة القاري ـ العيني ٢ : ١٤٧.

الأمر القرآني بوجوب إنذار الرسول لعشيرته الأقربين من بني هاشم ، ونستنتج من ذلك ان خلافة علي لرسول الله هي خلافة منصوبة من قبل الله تعالى ، وهي خلافة جعلية ، ليس لعليّ أن يتخلى عنها أو يتنازل عنها ـ طوعاً ـ للآخرين ، كما ان النبوة اختيار وتنصيب إلهي ليس من حق النبي التنازل عنها بأي حال من الأحوال.

والخلافة ، عموماً ـ جعلية ، فهي استخلاف من قبل جهة لجهة أخرى ، إذ يقول الله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) ١ ، (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ٢.(

ولا يحق لأحد ان يدّعي أنه خليفة لرسول الله ، وهو لم يعيّنه ولم يختره ، واذا ما اختارته جهة أخرى ونسبت الاختيار لرسول الله ، فهذه خيانة للرسول صلىاللهعليهوآله ، وإنما ينبغي أن يُقال هو خليفة لتلك الجهة وليس لرسول الله ، حسب تعريف الخلافة في اللغة العربية.

ولذا كان المسلمون في العهد النبوي ، متيقّن أن الرسول ، وفي العديد من المناسبات والمواضع ، قد أكد خلافة عليّ له ، فضلاً عن إمامته ، وإن الله هو الذي جعل علياً خليفة له صلىاللهعليهوآله.

وحسب اطلاعنا ، فإن قضية الخلافة كانت محسومة لعلي ، من خلال تصريحات الرسول في هذا الشأن ، أو تلميحاته أيضاً.

فعندما يقول رسول الله» : علي مع الحق والحق مع علي يدور مع حيث دار) «٣ .(فهو يعني فيما يعني:

)١ (يونس ١٤.

)٢ (البقرة ٣٠.

)٣ (شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ٢ : ٢٩٧.

١ . انّ علياً معصوم من ارتكاب الخطأ والخطيئة والزلل.

٢ . ان علياً مع الحق دوماً ، فهو على الحق عندما يتكلم ، أو عندما يصمت ، وهو على الحق عندما يحارب أو عندما يسالم ، وهو على الحق حين يمارس أيّ عمل أو خطوة أو يتخذ أي قرار.

٣ . والانسان المسلم حين يكون بهذا المستوى من الاستقامة ، فهو الأوْلى بالحكم من الآخرين ، مهما كانت منزلتهم من رسول الله ، لأن هذا الانسان المستقيم إذا مارس الحكم والسلطة فلا يزيغ أبداً ، ولا يظلم ، ولا يتلاعب بحقوق الناس ، ولا يعطّل حدود الله ، ولا يستغل منصبه لمآرب شخصية وذاتية ، ولا يخرج عن الحق قيد أنملة بإتجاه الباطل.

وأولوية هذا الشخص ل لخلافة ، أمر عقلي ومنطقي وشرعي أيضاً حتى يحكم بين الناس بالعدل والاحسان ، وإعطاء كل ذي حقّ حقه ، فمن الظلم . والعياذ بالله . أن يسمح الله ورسوله لسواه أن يتصدّوا لهذا الموقع الحساس والخطير ، فهم أشخاص يفتقدون للفرقان الذي يفرّق ويميّز بين الحق والباطل ، فيقترفون أخطاء وزلّات ويحكمون بالهوى وهم يتسنّمون أكبر مواقع الحكم والقوة والسلطة بعد النبوة ، ويدّعون أنهم» خلفاء لرسول الله «وبحكم مواقعهم ، سيصبح رعاياهم عُرضة لمختلف أنواع الغبن والاجحاف والظلم ومُجانبة الحق الذي بيّنته الشريعة الاسلامية كما سيتضح فيما بعد.

لأن الذي يتجسّد فيه الحق ، وينطق بالحق ، ويتحرّك على وفق الحق ، وإنه مع القرآن والقرآن معه) ١ ، (فهو يتمتع بخصائص النبوة عدا الوحي ، وبالتالي فهو لا يزيغ

)١ (المعجم الصغير . الطبراني ١ : ٢٥٥ ؛ مجمع الزوائد . الهيثمي ٩ : ١٣٤ ؛ الجامع الصغير . السيوطي ٢ : ١٧٧ حديث ٥٥٩٤ ؛كنز العمال ١١ : ٦٠٣ . حديث ٣٢٩١٢.

أبداً ولا يُزيغ الأمّة معه ، هذا ما نفهمه من هذه الاحاديث النبوية بحق الصحابي علي بن أبي طالب.

ووصايا النبي صلىاللهعليهوآله بحق عليّ ، كانت في سبيل تهيئة الأمّة وترويضها لاستيعاب هذه الحقيقة ، وهي ان علياً هو امتداد له في كل شيء باستثناء الوحي ومهمة النبوة.

فشجاعة عليّ من شجاعة رسول الله ، وعِلمُه من علمهِ ، ونهجه من نهجه ، وسياستُه من سياسته ، وكانت الأمّة تفهم هذه الحقيقة ، والبعض يستسيغها ويتقبّلها ويدعمها لأنها صادرة عن الرسول ويجب طاعته طاعة عمياء ، لأن مكانة علي العظمى والفريدة من النبي صلىاللهعليهوآله تؤهّله لأن يكون وصيه وخليفته ، والبعض الآخر وخاصة من مهاجري قريش أو قريش نفسها بعد الفتح ، لم يكونوا يستوعبون هذه التوصية النبوية ويتقبّلونها ، بل ان حقدهم على علي ، دعاهم للامتعاض والتربّص حتى وفاة الرسول ، لأنهم يكنّون حقداً مضاعفاً على علي بن أبي طالب ، يظهرونه مرّة ، ويخفونه مرّات ، خاصة وإن رسول الله لم يفوّت فرصة أو مناسبة إلا ويذكّرهم بمكانة علي واستخلافه له ، واستحقاقه المطلق للحكم من بعده ، وان خلافته أمر إلهي لا يقبل النقض أبداً ، وانه لم يتصف أحد من الصحابة بما اتصف به علي ، ولذلك فهو الوحيد المؤهّل لخلافته.

وحين قال الرسول صلىاللهعليهوآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فهو يعني بأن علياً هو الباب الوحيد لمدينة علمه ، وإلا لقال إنّ علياً أحد أبوابها) ١.(

وعندما ندقّق في هذا الحديث الصحيح ، يتّضح لنا ان النبي يوجّه الأمّة إلى حقيقة

)١ (المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٢٧ ؛ الاستيعاب ـ ابن عبد البر ٣ : ١١٠٢ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ١١ : ٥٥.

مفادها بأن علمه الذي يتشكل من سُنّته وتفسيرها ومعرفة تفاصيلها ، وعامّها وخاصها ، وناسخها ومنسوخها ، فضلاً عن استيعابه لعلوم القرآن قاطبة ، إنما يُؤخذ من عليّ وحده دون الآخرين ، وإن الكل إذا ابتغوا الوصول إلى علم الرسول ، فعليهم الرجوع إلى عليّ باعتباره عميد أهل البيت بعده.

وهذه الحقيقة ، تعكس إمامة عليّ للأمّة في زمن الرسول وبعده ، لا فرق ذلك ، وهو الخليفة من بعده حتى يقود الأمّة إلى شاطئ النجاة ، دون أن تتمزق وتتورع إلى فرق ومذاهب وطوائف وشِيَع متعدّدة ، ودون أن تزيغ عن الخط المستقيم معيّناً ومُحدّداً من قِبل الله ورسوله ، للمزايا والخصائص التي يتّسم بها ، فلا مجال هناك لأي طامع أو مُدّعٍ يحاول ركوب هذا المنصب الخطير ، وهو غير مؤهّل له ؛ فضلاً عن تزايد عدد المتنافسين لهذا الموقع ، وتصارعهم فيما بينهم مما يُضعف تماسك الأمّة المُفضي إلى فشلها وانكسارها وذِهاب ريحها واستحواذ الأعداء على مقدّراتها.

ومما يدعم موقع علي وزعامته للأمّة بعد رحيل الرسول صلىاللهعليهوآله ، ان النبي صلىاللهعليهوآله لم يكن يسمح لأحد من الصحابة أن ينتقد علياً أو يطعن فيه ، أو يمسّه ولو بكلمة سوء واحدة ، إذ كان يغضب لهذا المسلك من قبل الصحابة ، بينما كان يسمح اذا طعن أيّ صحابي بصحابي آخر أو نال منه باستثناء عدد محدود جداً.

والاحاديث النبوية بخصوص عليّ وأمانته وموقعه بين أوساط المسلمين ، تتسم بما يلي:

١ ـ ان مصدرها وموحيها هو الله تعالى ، وليس هي من لدن النبي كما يدّعي البعض ، فقد كان رسول الله يقول دوماً بأن الله هو الذي أمره أن يتحدّث عن مكانة وموقع عليّ دون الآخرين.

٢ . تجعل تلك الاحاديث النبوية ، سيرة علي ميزاناً لمواقف وممارسات الصحابة الآخرين ، أو فرقاناً لتمييز الحق من الباطل .فكل موقف يناصر علياً ويؤيده ويدعمه ، فهو موقف محق تماماً ، وكل موقف يعادي علياً ويحاربه وينال منه ، فهو موقف مبطل.

٣ . أكثر الفضائل والمناقب الواردة في حق عليّ ، لم يكن مثلها أو على شاكلتها للصحابة الآخرين ، بل ينفرد عليّ بها ، ويتميز بها دونهم أجمعين.

٤ . إن الرسول صلىاللهعليهوآله ، لم يؤمّر أحداً على علي بن أبي طالب مطلقاً وإنما كان عليّ في كل المواقف والحروب هو القائد العسكري دائماً ، ضمن مجموعته التي يبعثها للقتال او لمهامٍ اخرى.

٥ . لم يوجّه رسول الله نقداً ولو بسيطاً لعليّ ، ولم يتهمه أو يُدينه في كل المراحل التي قضاها معه ، سواء في مكة أو المدينة ، بينما لم يزكّ صلىاللهعليهوآله أحداً من الصحابة كما زكّى علياً ، فضلاً عن ادانته واتهامه لصحابة كبار.

من هم أهل البيت؟

سؤال طالما راودنا ، بالرغم مما سمعناه من الذين يتفقون على أن المراد من أهل البيت هم الذين تُحرم عليهم الصدقة ، وهم جميع بني هاشم وبي المطّلب ، وهناك من يضيف نساء النبي إليهم طبق الآية الكريمة : إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ١.(

غير اننا حين تعمّقنا في هذا الموضوع ، اكتشفنا ان هناك مؤامرة على أهل البيت

)١ (الأحزاب ٣٣.

النبوي ، سعت لتجريدهم من القداسة التي منحهم الله تعالى إياها ، حيث ان أهل البيت في المعنى الاخص الذي قصدته الآية المباركة ، هم الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين فقط ، إذ أن رسول الله جَمَع هؤلاء تحت الكساء ، وقال إنه وهؤلاء الأربعة ، هم فقط أهل البيت ، ولا أحد سواهم تنطبق عليه الآية الكريمة ، حتى ان» أم سلمة «حينما أرادت الدخول معهم ، منعها النبي صلىاللهعليهوآله ، مؤكداً أنه لا يحق لها الدخول لأن هؤلاء الخمسة فقط هم المعصومون من الخطأ والزلل ، والمطهّرون من الرجس) ١.(

ولتأكيد هذه الحقيقة ، أقدم رسول الله ولعدة أشهر على المرور على بيت عليّ وفاطمة ودعوتهم إلى صلاة الفجر ، مردّداً آية التطهير ، ليرسّخ في الأذهان ان هذه الآية تعنيهم فقط) ٢.(

وقول الرسول عند ضمّ عليّ وفاطمة والحسن والحسين في كسائه» : إن هؤلاء أهل بيتي «هو نفي قاطع لأي إنسان يزعم انه من أهل البيت بالمعنى الخاص الذي أشارت إليه آية التطهير .وهذا المعنى الخاص للآية ، هو الذي أشارت إليه الأحاديث النبوية في هذا الشأن ، كحديث الثقلين الذين ينصّ على أن القرآن وأهل البيت ، هما الثقلان اللذان لا يفترقان حتى يردا على الرسول الحوض) ٣.(

أو حديث السفينة الذي يمثّل اهل بيت النبي بسفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى) ٤.(

)١ (شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ٢ : ١١٠ ؛ سنن الترمذي ٥ : ٣٠ ـ ٣١ ؛ مسند أحمد ٦ : ٢٩٢.

)٢ (جامع البيان ـ الطبري ٢٢ : ٩.

)٣ (مسند أحمد ٣ : ١٧ ـ ١٨.

)٤ (المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٥١ ؛ الجامع الصغير ـ السيوطي ١ : ٣٧٣ ـ حديث ٢٤٤٢.

وكل الاحاديث النبوية التي تؤكد وجوب اتّباع أهل البيت باعتبارهم أئمة المسلمين وقادتهم وأوْلى بهم من أنفسهم ، وان طاعتهم واجبة على الجميع وتؤول بهم إلى الجنة ، وعصيانهم يؤدي إلى النار ، واتّباعهم يؤدي إلى الفوز والنجاة ، وعدم اتّباعهم يفضي بهم إلى الخسران المبين ، هذه الأحاديث هي في الحقيقة تركّز على مفهوم اهل البيت طبق آية التطهير وتحدّده في هؤلاء الخمسة ، أوّلهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وآخرهم الحسين ، فهم وحدة متكاملة بعضها منصهر في بعض ، والاربعة امتداد للرسول الذي هو عميدهم في حياته ، وبعد مماته تعود القيادة والعمادة إلى صهره عليّ ، حيث إن الذي هم امتداد لرسول الله والذي شملتهم آية التطهير ، لابد أن يكونوا من سِنخ النبي من حيث العصمة والسلوك والعلم وعدا الوحي.

والمفروض أن يلجأ المسلمون إلى هؤلاء لحل مشاكلهم ومعضلاتهم وأسئلتهم المستعصية ، وهذا المفهوم لا ينطبق إلا على النبي والأربعة من آله .أما آل البيت على مستوى الاستغراق ، فهم كل أقارب النبي من بني هاشم الذين تُحرم عليهم الصدقة ، وينبغي احترامهم كأقارب للرسول ، بالرغم من وجود بعض العلماء فيهم كحبر الأمّة عبد الله بن عباس وغيره.

وكل تصريح للنبي صلى الله عليه وآله حول أشخاص من غير بني هاشم يضمّهم إلى آل بيته ، كقوله عن سلمان الفارسي» : سلمان منا آل البيت) «١ ، (وتصريح غير النبي في إلحاق أحدهم بآل البيت فهو من باب سيرهم على خط أهل البيت ومتّبعين لنهجهم ومنتمين إليهم انتماء روحياً وعقائدياً لا نسبياً.

ويبقى أهل البيت الذين طالما أوصى رسول الله ، المسلمين بهم في كل مناسبة

)١ (المستدرك على الصحيحين ٣ : ٥٩٨ ؛ المعجم الكبير ـ لطبراني ٦ : ٢١٣ ؛ عمدة القاري ـ العييني ٢٠ : ١٦٧.

وواقعة ومنعطف ، خلال العهدين المكي والمدني ، هم هؤلاء الخمسة فحسب ، أي النبي وهؤلاء الأربعة الذي هم امتداد وتجسيد للنبي نفسه ، وكانوا معه تحت الكساء دون غيرهم.

أما لِمَ كان رسول الله يؤكد على هؤلاء في أكثر الأحيان ، فذلك لوجوب الرجوع إليهم بعد رحيله عن الدنيا ، لأنهم أعلم الناس وأفقههم بالقرآن والسُنّة النبوية.

هذه النتيجة توصّلنا إليها بعد بحث مرير في تأريخ الصدر الأول للإسلام ، وتقليب صفحاته الساخنة ، وبالأخص في العهد النبوي ... إذ كان رسول الله في حجّة الوداع التي سبقت وفاته ، قد عاد فأوصى بوجوب الرجوع إلى أهل بيته باعتبارهم الثقل الثاني بعد القرآن وذلك في حديث الثقلين المذكور.

الثقلان ... كتاب الله والعترة الطاهرة

ولا ندري كيف يحق للباحث الموضوعي والمنصف أن يفسِّر آية التطهير على انها نزلت في بني هاشم وزوجات الرسول كافة مع أن هؤلاء لم يكونوا بالمكانة التي تليق بأن يستووا مع الرسول بإذهاب الرجس والتطهير عنهم ، أو يكونوا ثِقلاً للقرآن وعِدلاً له؟ وكثير من بني هاشم ـ بالرغم من مكانتهم السامية ـ كانوا يفتقرون لتلك المكانة العلمية والعقائدية والدينية ، وكانوا مُعرّضين للوقوع في الخطأ وارتكاب الذنب في أي لحظة ، كما أن نساء النبي صلىاللهعليهوآله لم يكن من بني هاشم ولسْن بالمستوى المطلوب ، وقد نزلت عدة آيات قرآنية لتوبيخهن وتهديدهنّ واتهام بعضهن بالزيغ عن الحق ... فمن المحال أن تنطبق الآية الكريمة إلا على هؤلاء الخمسة ، وأولهم ـ بالطبع ـ رسول الله ، كما هو تفسير آية التطهير ، والاحاديث النبوية الواردة فيها.

تُرى هل من الممكن أن يكون جميع بني هاشم بالإضافة الى زوجات الرسول ، ثقلاً للقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وهل هؤلاء كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق وهوى؟ وغيرها من الاحاديث الواردة في أهل البيت.

ومهما يكن فإن علياً كان ضمن الذين عنتهم آية ال تطهير ، أي انه من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .وهو في الواقع كذلك ، لأنه يصبح في النتيجة ، ثقلاً وعدلاً للقرآن الكريم ، وهو تعبير آخر عن قول رسول الله : علي مع القرآن والقرآن مع علي ، أي انهما متوافقان ومتلازمان حتى النهاية ، ولا يفترق بعضهما عن بعض أبداً ، وكذلك قوله صلىاللهعليهوآله : علي مع الحق والحق مع علي ، الذي يعكس عصمة عليّ وعدم ارتكابه للخطأ والزلل ، لأنه لو ارتكب أي زلل أو ذنب أو انحراف ، فسيفارق الحق حتماً ، وسيفترق عن القرآن كذلك في أي مسألة مهما كانت بسيطة ، أو اقتراف ذنباً مهما كان صغيراً.

علىّ وقضية الولاية

قضية الولاية التي ثبّتها رسول الله في حق علي ، كما يقول الشيعة ، من أهم القضايا التي أثارت هواجسنا ودعتنا لبحث هذه القضية بعمق وشمولية ، لمعرفة الحقيقة التي ربما غابت عن الكثير من أمثالنا.

في البدء ، كنا نعتقد أن القضية برمتها لا تخرج عن كون الولاية التي عناها النبي محمد صلى الله عليه وآله بحق علي ، هي النصر له ، ليس إلا ، حيث نزلت الآية القرآنية بحقه في قضية تصدّقه بالخاتم أثناء الصلاة ، إذ قال تعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ١) (٢.(

ولكن عند بحث هذه المسألة بدقة ، وجدنا أنها تأخذ أبعاداً لم نكن نتصوّرها من قبل ، فالرسول صلىاللهعليهوآله أكّد مِراراً قضية ولاية عليّ ، وانها امتداد لولايته وولاية الله ... وكانت آخر وصية لرسول الله في هذا الصدد ، عندما قفّل راجعاً من الحجاج الكرام من مكة المكرمة في» حجة الوداع «وهي آخر حجة له في حياته ، وبالرغم من تنكّر الكثير من أبناء الجمهور لها ، كانت حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها ، لأنها ثابتة تأريخياً ، وبالمصادر الوثيقة ، إذ رواها العشرات من الصحابة ، وفي مصادر روائية كثيرة ، مما دعانا إلى التحري عن هذه الحادثة والتأكّد من صحتها وواقعيتها ، لأن الكثير من العلماء والمحققين تنكروا لها واعتبروها بمثابة اسطورة لا وجود لها.

وبعد البحث والتنقيب والتحرّي الدقيق ، توصّلنا إلى أنها حقيقة لا تقبل الشك ، فرسول الله الذي كان عائداً مع جموع الصحابة وقوافل الحجيج من مكة المكرمة ، توقّفوا في منطقة ، تُدعى) غدير خم (وهي واحة فيها أشجار ومفترق طرق لقوافل الحجيج التي تتفرّق من هناك باتجاه مناطقها وبلدانها.

تُرى لِمَ توقّف الرسول صلىاللهعليهوآله ، وأوعز إلى الحجيج بالتوقف في تلك المنطقة؟ لابد أن أمراً خطيراً قد دعاه إلى هذه المبادرة؟ ولم يكتف الرسول صلىاللهعليهوآله بذلك بل أمر الجميع في ذلك الجو اللاهف ، واليوم القائض الشديد الحرارة ، أن يستعدوا للصلاة ، وبعد

)١ (المائدة ٥٥.

)٢ (انظر : شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ١ : ٢١٧ ؛ انظر : تفسير البحر المحيط ـ أبي حيان الاندلسي ٣ : ٥٢٥.

إقامتها بامامته صلىاللهعليهوآله ، طلب من الجميع أن يستمعوا ، وقال : اني أوشك أن أُدعى فأجيب ... واني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، ثم أخذ بيد عليّ فقال : ألستم تعلمون أني أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن ، من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه) ١.(

كان خطاب الرسول هذا بعد أن سبقته تهيئة الأجواء وترتيب الموقف ، وتذكير الجماهير بأنه سيرحل قريباً إلى دار الآخرة.

ولما فرغ رسول الله من خطابه ، دعا الحاضرين لتهنئة عليّ بالولاية ، فاندفع الصحابة الكبار إلى تهنئته بحرارة ، منهم أبو بكر وعمر الذي قال لعلي : بخ بخ يا عليّ لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة؟) ٢(

وكانت قد نزلت آيتان مباركتان على رسول الله حول هذه الحادثة:

الأولى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .المائدة ٦٧.

والثانية : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .المائدة ٣.

واللافت هنا ان هاتين الآيتين ، نزل بهما الوحي على الرسول صلىاللهعليهوآله في خصوص

)١ (المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٧١ ؛ مسند أحمد ١ : ١١٩ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ٥ : ١٧١ ؛ انظر : السنن الكبرى ـ النسائي ٥ : ٤٥.

)٢ (مناقب علي ـ ابن المغازلي : ٣٧ ؛ انظر : تأريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٢٢١.

هذه الحادثة كما يؤكد معظم المفسّرين والعلماء من الجمهور المسلم) ١ .. (وفي هذا الصدد نتساءل في أنفسنا : ألم يكن رسول الله قد بلّغ رسالته وهو على وشك الرحيل من الدنيا؟ فما الذي ينبغي عليه أن يبلّغه حتى يبلغ رسالة الله؟

ثم لو كان الأمر الذي يبلّغه هو الديانة الاسلامية نفسها كما يزعم البعض ، فمن حقنا أن نشرح ونفسّر الآية الكريمة كما يلي : يا أيها الرسول بلّغ رسالة الله فإن لم تبلّغ رسالة الله فما بلّغت رسالته ... وهي عبارة تفتقر للعقلانية والمنطق السليم ، وحاشا لله أن تصدر منه هذه العبارة أو ما يوازيها ، لأنه حتى الطفل الصغير يعلم ان الرسول إذا لم يبلّغ الرسالة الاسلامية فهو لم يبلّغها حتماً ، وهي من البديهيات الأولى التي يعرفها حتى الطف الناشئ ، فلِمَ يا ترى هذا التأكيد الالهي؟ لابد إذن التبليغ هو عن أمر آخر يتعلق بالموقف الذي سيقفه رسول الله ، ويبيّنه للمسلمين المتجمّعين في تلك البقعة .وكذلك يتعلّق بقرب رحيله إلى بارئه تعالى حيث مهّد للخطاب المزمع إلقاءه على الحجيج بأنه راحل عما قريب.

وأي انسان مهما كان عادياً ، فضلاً عن ذوي المكانة الرفيعة ، سواء كانوا ملوكاً أو سلاطين أو حكاماً أو أنبياء ، لابد منهم عندما يحين أجلهم ، أو يوصوا أُسرهم ورعاياهم بأنهم على وشك الرحيل ، وعليهم أن يبلّغوهم بما ينبغي عليهم أن يفعلوا ، وإذا كانوا حكّاماً أو ملوكاً ، فيبلّغوا شعوبهم بخلفائهم الذين يأتون من بعدهم.

وهذا بالضبط ما نوى الرسول صلىاللهعليهوآله أن يفعله تنفيذاً للآية المباركة ، ولذلك ، أكملت الآية أمرها لرسول الله بأن الله سيعصمه من الناس إذا بلّغ هذا الأمر الخطير.

فلو كانت القضية التي سيبلغها النبي صلىاللهعليهوآله للناس ، الرسالة نفسها أو إصلاح ذات البين لِمَا بلغه من وجْد بعض الصحابة على علي وسخطهم عليه ، وإنه أراد أن يُفهم الناس بأنه ينبغي عليهم نصرة علي ، لأن نصرته هي نصرة للنبي صلىاللهعليهوآله ، إذا كان هذا هو هدف الرسول صلىاللهعليهوآله وغايته في كل خطواته تلك ، فلماذا هذا الاهتمام العظيم منه بهذه المسألة؟

وما الغاية من تذكير جموع المسلمين بأن يبلّغ الشاهد الغائب عن هذا الاجتماع العظيم وما سيقوله صلىاللهعليهوآله بشأن علي؟

كان بمقدور رسول الله أن يجمع بين هؤلاء الصحابة الذين كانوا في اليمن مع عليّ ويحلّها بالحسنة بعد العودة إلى المدينة ، لا أن تنزل آية تأمره بتبليغ أمر خطير ، يخشى الرسول من الافصاح عنه بما يُسخط الناس ويؤدي الى تذمّرهم ، فيجمع الحجاج المقفّلين إلى مناطقهم وأمصارهم في ذلك القيظ الشديد ، ويمهّد لحديثه بالتأكيد على وفاته قريباً ، ثم يؤكد أنه ترك الثقلين ، هما كتاب الله وأهل بيته ، ودعاهم للتمسّك بهما ، وانه ينتظر من المسلمين كيف يخلّفونه فيهما؟ أي : هل سيتمسّكون بهما كما يريد أم يدعونهما؟ ثم قال صلىاللهعليهوآله للناس : أليس هو أولى بهم من أنفسهم؟ فأجابوه بالإيجاب ، فرفع يد علي وقال لهم بأن علياً أولى بهم من انفسهم كما هو أولى بهم من انفسهم.

وأولوية رسول الله بنفوس المسلمين ، تعني حاكميته على نفوسهم وأحقيته بها منهم ، بحيث يصبح أمره على نفوسهم نافذاً وجارياً عليها ، ولا يحق لها أن تمتنع أو تتخلّف عن أوامره ، وإلا أصبحت عاصية.

وهذه الحقيقة ، تبرزها الآيتان الكريمتان:

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .الاحزاب ٦ ، مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ

وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ .التوبة ١٢٠

وحاكمية رسول الله على النفوس ، تنتقل إلى عليّ ـ بداهة ـ ليصبح هو أيضاً حاكماً على نفوس المسلمين وآمراً عليهم . وهذه الحاكمية لعليّ على النفوس ، لم تبدأ بعد وفاة الرسول صلىاللهعليهوآله وإنما في حياته أيضاً ، إذ هي امتداد

لحاكمية الرسول ، لانهما ـ أي النبي وعليّ ـ نفس واحدة ، طبقاً لقوله تعالى في آية المباهلة ، وهو يتحدث عن لسان الرسول صلىاللهعليهوآله بحق علي : حيث اتحدث نفساهما من خلال الأخوّة الابدية بينهما ، وهذه الحقيقة يؤكّدها الرسول عندما قال له أحد الصحابة في قضية معروفة بأنك لم تذكر علياً ، فقال رسول الله صلىاللهعليهوآله مستغرباً : انه يتحدث عن نفسي.

ثم أكمل النبي صلى الله طابه في حادثة الغدير ، بقوله : اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله.

والعبارات تفسّر معنى الولاية المطلقة على النفوس ، والتي تقتضي الولاء والنصرة من قبل المسلمين للنبي وعليّ ، وكذلك معاداة وخذلان من يعاديهما ويخذلهما ، لكونهما حاكمين على النفوس دائماً ، وبعد رحيل الرسول صلىاللهعليهوآله يصبح عليّ هو الحاكم والخليفة.

وعند اطلاعنا على كتب الرواية والتأريخ ، وجدنا أن بعض المؤرخين ، يتجاهل هذه الحادثة تماماً ، لأنها واضحة في تنصيب الرسول لعلي خليفة له ، ولا يمكن تأويلها بحال ، كالبخاري الذي تجاهلها في صحيحه بالمرّة ، مع أنها حادثة مهمة جداً ولا ينبغي لأمثاله تناسيها أو إغفالها ، لكنه ـ والحق يقال ـ لم يكن مستعداً لتذكير المسلمين بها خوفاً من تشكيكهم بقناعاتهم التي توارثوها عن الأجداد ، بأن رسول الله لم

يستخلف ، وانما ترك المسلمين يختارون خليفة لهم.

أما مسلم القشيري ، فاختصر الواقعة في صحيحه ، لكي يخفي بعض الحقائق الصارخة ، اعتقاداً منه ان هذه الخطوة ضرورية كي لا يلتفت القرّاء المسلمين إلى كل التفاصيل بما يثير تساؤلات حول خلافة الرسول.

غير أن الكثير من المؤرخين نقلوا بعض تفاصيل واقعة الغدير ، وفسّروها على أساس انها تعني أو تشير إلى نصرة المسلمين لعلي ليس إلا ، حسب زعمهم.

وبعد أن أكمل الرسول صلىاللهعليهوآله خطبته ، نزلت الآية الكريمة : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ١.(

وهذه الآية تعني بكل صراحة ، بأن الاسلام لم يكن مكتملاً قبل إعلان رسول الله الولاية لعليّ وتعيينه خليفة له في واقعة الغدير ، وعلى الرغم من أن الرسول عيّن علياً خليفة له من قبل ، في مجلس محدود ضم بني هاشم فحسب ، أما في واقعة الغدير فقط أقام الحجة على عشرات الالوف من المسلمين وأمرهم بأن يبلّغوا الغائبين في هذه القضية الكبرى ، حتى لا يبقى عذر لأحد من المسلمين.

فلو كانت الولاية تعني النصرة والاخوّة كما يدّعي أهل السُنّة ، لما كانت بتلك الاهمية لتصبح مكمّلة للدين إلا إذا كانت تعني الحاكمية والاحقية بالنفوس والخلافة على الدين والدنيا كما هو واضح.

ويعد انتهاء الخطبة ، أمر رسول الله الحاضرين من الصحابة وغيرهم ، بتهنئة علي على الولاية والخلافة والامامة للمسلمين ، ثم وقف الصحابي والشاعر حسان بن ثابت

وألقى قصيدة حول واقعة الغدير ، ومما قاله في حق علي» : فقال له قم يا علي فإنني ... رضيتك من بعدي إماماً وهادياً) «١ (فهل تعني هذه الكلمات النصرة فقط ، أم تعني القيادة والزعامة والإمارة؟

وقد فهم علماء من أهل السُنّة والجماعة ، من أمثال ابن حجر الهيثمي في) الصواعق المحرقة ، (والحلبي في) السيرة الحلبية ، (ان ولاية عليّ هنا بمعنى الأوْلى بالامامة ولا تنسحب على النصرة فقط ، حيث يقول : سلّمنا انه أوْلى بالامامة ـ في الغدير ـ فالمراد : المآل ـ أي في حينها ـ وإلا كان عليٌّ اماماً مع وجود النبي صلىاللهعليهوآله ، فكان المراد حين يوجد عقد البيعة له ، فلا ينافي حينئذ تقديم الائمة الثلاثة عليه ، وبهذا تُحفظ كرامة السلف الصالح) ٢ ، (غير ان ابن حجر الهيثمي وفي سبيل تبرئة التيار الذي خالف وصايا الرسول صلىاللهعليهوآله في هذا الخصوص ، وجعل الخلافة لغير عليّ ، زعم ان رسول الله حينما أوصى بالخلافة لعليّ من بعده ، إنما قصد أن يكون خليفة في حينها ، أي عندما يصبح في وقته ولياً للمسلمين ، لأنه لا يجوز أن يكون هناك وليان في وقت واحد ، أي النبي وعليّ حسب اعتقادهم.

ولام ناص من التعليق على هذا التعليل الذي يفتقر الى الموضوعية ، للأدلة التالية:

١ ـ إن خطاب الرسول في واقعة الغدير ، جاء بعد حجة الوداع ومهّد له بالتأكيد على انه سيموت بعد مدة وجيزة ، وعليه فهذا الخطاب النبوي هو بمثابة وصية منه لمن سوف يكون بعده ، مولىً للمسلمين وحاكماً عليهم ، فما الداعي للزعم بأن النبي يعني بولاية عليّ إنما ستكون في حينها ، أي بعد الخلفاء الثلاث ، وليس من بعده مباشرة صلىاللهعليهوآله؟.

)١ (نظم درر السمطين ـ الزرندي الحنفي : ١١٣ .

)٢ (الصواعق المحرقة ـ ابن حجر الهيثمي : ٤٤ .

٢ ـ إذا كان أهل السُنّة يجمعون على عدم استخلاف الرسول لأحد قبل موته ، وإنما ترك المسلمين يختارون الخليفة من بعده ، فلماذا استثنى علياً من ذلك ، وعيّنه خليفة ولكن في حينه على حد قول ابن حجر الهيثمي؟.

٣ ـ أليس من الأنسب لرسول الله ، أن يعين أبا بكر في واقعة الغدير كخليفة يأتي من بعده مباشرة ، لا أن يقفز على الخلفاء الثلاث ، ويعيّن الخليفة الرابع ، ويؤكد عليه ويهتم به ذلك الاهتمام كما يعتقد ابن حجر الهيثمي وامثاله.

٤ ـ كيف يكون الخلفاء الثلاث الاوائل أفضل من علي في ترتيب الجمهور؟ في حين لم يهتم بهم رسول الله كما اهتم بعلي ذلك الاهتمام لتهنئته بالولاية في وقت لم تكن هناك خطوة مماثلة لرسول الله في حق الخليفة الأول والثاني والثالث ، مع انهم سبقوا علياً في الحكم؟ وكان الأجدر بالرسول ـ لو كانوا أعظم درجة من عليّ ـ أن يشير إليهم وهو على وشك الرحيل إلى عالم الآخرة ، ويؤكد على الأمّة ، وجوب موالاتهم.

وهكذا يتهافت كل تفسير أو تحليل لصرف واقعة الغدير عن مدلولها الحقيقي ، وهو إعلان رسول الله لولاية علي بن أبي طالب على الأمّة الاسلامية بعده مباشرة.

بل وكل القرائن التي سبقت وصاحبت حادثة الغدير تدل على أن النبي الأكرم قد نصّب علياً خليفة وإماماً وحاكماً مطلقاً على المسلمين باعتبار ولايته وحاكميته على المسلمين كحاكميته وولايته صلىاللهعليهوآله.

علىّ والحاكمية المطلقة

ثم لو تمعنّا قليلاً في حيثيات حديث الغدير ، والاحاديث النبوية الأخرى التي تشير الى ولاية عليّ المعيّنة من قبل الله تعالى عبر رسوله الكريم صلىاللهعليهوآله ، يتضح لدينا أن المراد

من تلك الولاية هي الاحقية بالأنفس والحاكمية المطلقة على نفوس المسلمين وإمامته عليهم ولا يمكن تفسيرها بالنصرة والأخوّة والصداقة وما إلى ذلك ، لأن هذه المعاني والتأويلات لا تتفق والاشارات الواضحة لتلك الاحاديث التي تمنح ولاية عليّ ، قداسة كبرى بحيث تربطها بولاية الرسول وولاية الله سبحانه وتعالى ، وإن الذي لا يتولى علياً فليس بمؤمن قطعاً ، حيث يقول صلىاللهعليهوآله : أوصي من آمن بي وصدّقني بولاية علي بن أبي طالب ، فمن تولّاه فقد تولّاني ، ومن تولاني فقد تولّى الله تعالى) ١ ، (وعلي وليّ كل مؤمن بعدي) ٢ .(

وكان الخليفة الأول أبو بكر والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، يفتخران بولاية علي بن أبي طالب ، فهما اللذان قالا له غداة حادثة الغدير : أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة) ٣.(

وطالما قال الخليفة عمر لعليّ : يا بن أبي طالب ، أصبحت اليوم ولي كل مؤمن ومؤمنة) ٤ ، (وعلي مولاي ، ومولى كل مؤمن ، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن) ٥ ، (وقال عمر حين اختصم إليه اعرابيان ، فالتمس من علي القضاء بينهما ، فقال أحدهما : هذا يقضي بيننا ، فوثب إليه عمر وأخذ تلابيبه ، قائلاً : ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاك ومولى كل مؤمن ، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن) ٦.(

)١ (مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٩ : ١٠٨ ؛ مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن المغازلي : ١٩١.

)٢ (السنن الكبرى ـ النسائي ٥ : ١٣٢.

)٣ (تفسير الثعلبي ٤ : ٩٢ ؛ تفير الآلوسي٦ : ١٩٤.

)٤ (سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ٣٢٨ : ١٩.

)٥ (الصواعق المحرقة ـ ابن حجر الهيثمي : ١٧٩.

)٦ (ذخائر العقبى ـ الطبري : ٦٨.

تواتر حديث الغدير

كنّا ـ كما قلنا آنفاً نعتقد ، بعد أن اطّلعنا على حادثة الغدير وتفاصيلها ، أنها قضية تأريخية منسيّة لا ترقى الى حد الصحة والتواتر ، ولذلك سعى أهل السُنّة والجماعة الى تناسيها وعدم الالتفات اليها ، إلا اننا بعد أن حققنا في الحادثة

تأريخياً. توصلت إلى انها حقيقة ناصعة ، كانوا معتمدين في إستغفالها حتى لا يتساءل الجمهور عن حيثياتها وحقيقتها وما تؤدي اليه من زعزعة لقناعاتهم وعقائدهم حول الخلافة والامامة.

وأما مدى صحة هذه الواقعة على المستوى التأريخي ، فإن بحثنا أوصلنا إلى أنها حقيقة تأريخية ناصعة لا يمكن الاستخفاف بها أو إغفالها أو التنكّر لها.

فقد نقلها صاحب الفتاوى الحامدية في كتابه» : الصلوات الفاخرة في الاحاديث المتواترة «باعتبارها حديثاً متواتراً مقطوعاً به ، وكذلك كل من : السيوطي ، ابن جرير الطبري ، أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة ، الذهبي ، حيث أعلنوا تواتر حديث الغدير وتصدّوا لطرقه ، فأفرد له كل منهم كتاباً على حدة .وقد أخرجه ابن جرير في كتابه »الولاية «من مئة وخمسة طرق ، والذهبي صحّح كثيراً من طرقه.

ونقل السيوطي الحديث في أحوال عليّ عن الترمذي ، ثم قال : وأخرجه أحمد بن علي ، وأبو أيوب الانصاري ، وزيد بن أرقم ، وعمر ، وأبو يعلى عن أبي هريرة ، والطبراني عن ابن عمر ، ومالك بن الحويرث ، وحبشي بن جنادة ، وجرير ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي سعيد الخدري ، وأنس ، والبزار عن ابن عباس وعمارة وبريدة) ١.(

أما الامام أحمد بن حنبل فقد أخرج حديث الغدير عن عبد الله بن عباس

والصحابي البراء بن عازب) ١ ، (وحديث الولاية نقله الكثير من علماء الجمهور الكبار) ٢.(

خشية رسول الله من ردود الافعال

وهكذا بعد التتبع والتحقيق ، توصلنا إلى أن حادثة الغدير ، لا يرقى إليها شك ، وكان الهدف منها تعيين عليّ بن ابي طالب خليفة لرسول الله ، وحاكماً على الأمّة ، وليس تأكيد الرسول وجوب نصرته من قبل المسلمين كما يدعي البعض ، وذلك لأن كل المؤشرات والمجريات التي رافقت الواقعة منذ بدايتها وحتى نهايتها تدل على ذلك : حجة الوداع ، قرار رسول الله بالتوقف عند منطقة غدير خم التي تمثّل مفترق القوافل العائدة من الحج ، لكي تتفرّق من هناك ، أمره بالأذان والصلاة جماعة ، تنبيه الحاضرين بقرب وفاته ، كما هو نهج الأنبياء ، تذكيره بأهل بيته وضرورة اتّباعهم ، تأكيده على انه مولى المسلمين والأحق بنفوسهم ، وان ولاية علي كولايته على الأمّة بعد أن رفع علياً ليراه كل الحضور ، دعوة الناس إلى إقامة مجلس تهنئة لكي يقوم الحجّاج العائدون بتهنئة عليّ على الولاية ، اعتبار رسول الله ذلك اليوم من أكبر الاعياد ، وأن الصيام فيه يعدل صيام ٦٠ شهراً) ٣.(

وكان الرسول قد تردّد في الافصاح عن الولاية لعلي في واقعة الغدير ، خشية من

ردود أفعال الصحابة وإثارة حفيظتهم على هذا القرار ، فنزلت الآية المذكورة التي دعت رسول الله إلى تبليغ ما أنزل إليه من ربّه وان الله عاصمه وحاميه من الناس وغضبهم على قراره الحاسم في عليّ وإلا لم يبلّغ رسالته ، وبعد أن أنجز المهمة الالهية ، نزلت آية إكمال الدين وإتمام النعمة بولاية عليّ على الأمّة.

فهل من المعقول ان الله ورسوله أرادا بكل هذه الاجراءات والمراسيم والشعائر المقدسة ، تنبيه الأمّة بوجوب نصرة علي واحترامه وعدم معاداته ، بعد أن سخط عليه بعض الصحابة المرافقين له في رحلة اليمن؟

وهل هناك عاقل من ذوي النهي ، يصدّق نظرية الجمهور حول حادثة الغدير التي يُفرغونها من مضمونها الحقيقي الذي يتمثل في تعيين عليّ خليفة لرسول الله بأعذار وذرائع وحجج واهية؟

فلو كانت القضية تنحصر بنصرة علي فحسب ، فلِمَ أضفى رسول الله قداسة على يوم ١٨ذي الحجة بحيث جعل صيامه يعادل صوم ٦٠ شهراً؟ أو أمر الحاضرين بإجراء مراسيم احتفال لتهنئة علي بالولاية؟ بل ولِمَ أمر الله رسوله بتنفيذ تلك المهمة التأريخية وطمأنته بأنه سوف يعصمه من سخط الناس؟ وأخيراً لِمَ ختم الله الاسلام وأكمله بهذا الإجراء؟

ولاشك أن مجرّد دعوة الرسول المسلمين لنصرة علي بن أبي طالب وعدم معاداته وخذلانه ، لا تستوجب كل هذه الاجراءات والخطوات المتعددة من قبله صلى الله عليه وآله ، أو خشيته من رد فعل الجماهير الغاضبة؟ فالنصرة ـ بالطبع ـ غير الخلافة التي يطمع بها كل مشرئب الرأس لتولّي حكم المسلمين؟

ولإقامة الحجة على الصحابة الذين كانوا حاضرين في يوم الغدير ، ناشد عليّ بن أبي طالب عندما كان خليفة وهو في رحبة الكوفة ، كل امرئ سمع رسول الله يوم

الغدير وهو يخطب في الناس وقال ما قاله في حقه ، وكان العشرات من الصحابة حاضرين في الرحبة ، فقام بضعة عشر صحابياً فشهدوا انهم سمعوا رسول الله بعد حجة الوداع في غدير خم وهو يقول : ألست أبي أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فإن هذا مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وابغض من بغضه ، وأعن من أعانه.

وكان عليّ قد دعا على من كان حاضراً في غدير خم وكتم شهادته ، أن تصيبه البيضاء ، وبالفعل فإن دعاءه أصاب الصحابي الكبير زيد بن أرقم الذي كتم شهادته ، وقال : كنت فيمن كتم فذهب بصري وكان عليّ دعا على من كتم (١).

وهذا دليل آخر على أن الكثير من الصحابة الذين كانوا حضوراً في يوم الغدير ، لم يرق لهم الإقرار والإفصاح عما قاله رسول الله في حق علي حول ولايته وخلافته على المسلمين ، ولذلك كتموا شهادتهم حتى بعد مرور عشرات الاعوام على تلك الحادثة العظيمة.

وقد يتساءل المرء :على فرض ان رسول الله» عليه الصلاة والسلام «كان هدفه في ذلك المشهد العظيم يوم غدير خم ، هو دعوة المسلمين إلى نصرة عليّ وعدم معاداته ، فهل نفَّذ المسلمون هذا المطلب النبوي ورعوه حق رعايته؟ بالطبع ان الكثير من الصحابة والمسلمين لم يمتثلوا للأمر الالهي النبوي ، وإلا فلِمَ شن عليه طلحة والزبير وعائشة ومعهم جملة من الصحابة ، حرب الجمل في وقت كان يجب عليهم نصرته وقد بايعه جلّ المهاجرين والأنصار؟ وكذلك معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما الذين حاربوه في معركة صفين؟ فهل هذه هي النصرة والموالاة في منطق هؤلاء؟

حديث الغدير بين الوهم ... والحقيقة

كدْنا نطوي صفحة هذا الموضوع بعد أن تأكدنا من أن حادثة الغدير ، حقيقة تأريخية لا يحق لاحد الشك في وجودها أو الطعن في صحتها ، بيد ان بعض علماء الجمهور ، كشيخ الإسلام» ابن تيمية «الذي ضعّف الحديث بشطره الأول ، وحكم على شطره الثاني بالكذب) ١ ، (دفعنا إلى مضاعفة جهودنا واهتماماتنا في هذا الموضوع الخطير الذي يمسّ مصير الأمّة بكاملها ، ولذا عُدْنا نقلّب صفحات التأريخ مجدداً لكي نستجلي الحقيقة ، وننفي أي ادعاء يحاول التشكيك فيها سعياً لطمس أثر تأريخي محفور في ذاكرة الزمن ، وحاضر في ضمير الوجدان الإنساني ، لا لشيء إلا لأنه لا ينسجم وموقفه الشاذ من عليّ بن أبي طالب.

وانبهرنا مرّة أخرى عندما عرفنا أن الالباني . وهو من اكبر علماء الجمهور . أثبت في كتاب) سلسلة الاحاديث الصحيحة ، (أن حديث الغدير ، متواتر بشطره الأول ، وصحيح بشطره الثاني ، متّهماً ابن تيمية بالتسرّع في تضعيفه.

وقال الذهبي بأنه لما بلغ ابن جرير الطبري ان أبي داود تكلم في حديث غدير خم ، عمل كتاب الفضائل ، وتكلّم في تصحيح الحديث ، وقد رأى مجلّداً في طرق الحديث للطبري ، فاندهش له ولكثرة الطرق) ٢.(

ولذلك قال الذهبي صاحب» سير أعلام النبلاء «عن حديث الغدير بأنه حسن وعال جداً ومتنه متواتر) ٣.(

وحديث الغدير عند ابن حجر العسقلاني ، كثير الطرق جداً وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب منفرد ، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي والنسائي ، كما جمعه ابن جرير الطبري في مؤلف فيه اضعاف مَنْ ذكَر) ابن عبد البر (وصحّحه ، وعني بجمع طرقه أبو العباس بن عقدة فأخرجه من حديث سبعين صحابياً أو أكثر) ١.(

ويرى ابن حجر الهيثمي بأن حديث الغدير صحيح لا مرية فيه ، قد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد ، وطرقه كثيرة جداً ، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان ، ولا إلتفات لمن قدح في صحته ، ولا من ردّه ، وقول بعضهم ان زيادة» اللهم وال من والاه ... الخ «موضوعة ، مردود ، فقد ورد ذلك من طرق صحّح الذهبي كثيراً منها) ٢.(

وفي اعتقاد الحلبي : وقول بعضهم ان زيادة اللهم وال من والاه إلى آخره ، موضوعة ، مردود فقد ورط ذلك من طرق صحّح الذهبي كثيراً منها) ٣.(

وقد أدلى صاحب خصائص الامام عليّ دلوه في قضية حديث الغدير حيث صحّحه ، وأن تكذيب ابن تيمية للحديث ، مخالف للقواعد الحديثية ، وقد تبعه في ذلك محمد خليل هراس الذي قال ان الحديث غير صحيح ، ويشبه أن يكون من وضع الشيعة ، بينما قال الحافظ الذهبي : الحديث ثابت بلا ريب) ٤.(

وبخصوص آية التبليغ ، ونزولها في واقعة الغدير ، وقضية تعيين الرسول الولاية لعلي ، فقد ذكر ذلك الكثير من المؤرخين ، منهم العلامة الآمرتسري ، وعلي بن شهاب

الهمداني ، والحاكم الحسكاني ، والفخر الرازي ، وأبو نعيم الاصفهاني ، والشوكاني الذي نقل عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله : يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ان علياً مولى المؤمنين ، وان لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس) ١.(

إذاً ، حادثة الغدير ، حقيقة تأريخية مؤكدة ، لا يشكك بوجودها أو ينكر حدوثها إلا مرضى القلوب ، الذين لا يروق لهم رؤية رسول الله وهو يوصي الأمة بعليّ ووجوب موالاته ونصرته وعدم خذلانه ، ولذلك عملوا ما في وسعهم لتكذيبها بالرغم من انها كالشمس في رائعة النهار.

أما قول بعض المؤرخين بأن واقعد الغدير إنما جرت لازالة الجفوة التي حصلت بين بعض الصحابة وعلي بن أبي طالب في اليمن حيث كان يقود جيشاً من أهل المدينة ، مبعوثاً من قبل رسول الله ، فحدثت مشادة بين علي وبعض الصحابة الذين أرادوا استعمال إبل الصدقة ، ورفض علي استعمالها لأنها ملك كل المسلمين ، ما أدّى إلى غضب بعض الصحابة على عليّ وشكوه إلى رسول الله في المدينة ، فغضب عليهم الرسول ، وأنّبهم على كلامهم في عليّ ، إلى حد أن ضرب على فخذ أبي سعيد الخدري الذي قال في نفسه : ثكلتك أمك يا سعد الا تراني كنت فيما يكره علياً منذ ذلك اليوم ، وما أدري لاجرم والله لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية) ٢ ، (فإنما هي اعترافات تدلّ على مدى حرص رسول الله على تحذير الصحابة من المساس بعليّ وانتقاصه مهما كانت مواقفه منهم ، وهي : دلالة واضحة جداً على أن لعليّ مكانة عند رسول الله دون

الصحابة الآخرين الذين دائماً ما يغضب بعضهم على بعض أو يتشاتمون أو ينتقد بعضهم بعضاً ، ومع ذلك لم يدافع الرسول صلىاللهعليهوآله عن أحدهم أو يذود عنه كما ذاد ودافع عن عليّ ، بحيث ان أبا سعد الخدري قرّر عدم ذكر عليّ بسوء في سره وعلانيته ، لِما كان من تعظيم النبي لعلي بن أبي طالب؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا قامت قيامة الكثير من الصحابة بعد وفاة الرسول على النيل من عليّ والتضييق عليه ومحاربته بالقول والفعل ، وشن الحروب ضده ولعنه صباحاً ومساءً ، بالرغم من دفاع الرسول عنه في حديث الغدير وغيره ، أليس هذا دليلاً على مدى حقد وضغينة الكثير من الصحابة على الذي عينه رسول الله مولى لكل المسلمين ، سواء كان مصطلح المولى ينص على الحاكمية على النفوس أو النصرة على اقل التقادير؟ وهي خيانة صريحة لله ولرسوله قبل أن تكون خيانة لعلي بن أبي طالب!!

وفي أثناء تتبعنا لقضية الغدير ومجرياتها ، خطر في ذهننا سؤال ملحّ مفاده : إذا كان آلاف الصحابة قد شهدوا واقعة الغدير ، واستوعبوا خطاب النبي محمد صلى الله عليه وآله بخصوص ولاية عليّ للأمّة ، فلِمَ لم يرو حديث الغدير سوى عشرات ، من الصحابة ، أوصلهم بعض الباحثين إلى أكثر من مئة صحابي؟ فلماذا سكت الباقون ولم يشيروا أو يؤكدوا هذه الحقيقة ، بناء على أمر رسول الله بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، بما سمعه من وصايا بحق عليّ بن أبي طالب؟

لكننا سرعان ما استنتجنا بأن الصحابة الذين كتموا هذه الواقعة ، وتستّروا عليها ، كانوا بين حاسد لعلي وحاقد علي هلما يتمتع به من مكانة سامية لدى الله ورسوله ، وبين خائف يخشى سطوة السلطان ووسائله القمعية ، ويُنقل عن زياد بن المنذر بأنه كان عند أبي جعفر محمد بن علي وهو يحدّث الناس ، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة ، يُقال له : عثمان الأعشر . كان يروي عن الفقيه الحسن البصري . فقال له : يا ابن رسول الله

جعلني الله فِداك ، ان الحسن البصري يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل ، ولا يخبرنا مَنْ الرجل : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) ... ١ ، (فقال : لو أراد أن يخبر به لأخبر به ، ولكنه يخاف ، إن جبرئيل هبط على النبي صلى الله عليه وآله فقال له : ان الله يأمرك أن تدلّ أمّتك على صلاتهم ، فدلهم عليها ، ثم هبط على النبي صلى الله عليه وآلهليأمره أن يدلّ الأمّة على الزكاة ... ثم الصيام ... ثم الحج .. ثم هبط فقال : إن الله يأمرك أن تدلّ على وليهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجّهم ، ليلزمهم الحجة في جميع ذلك ، فقال رسول الله : يا رب ، إن قومي قريبو عهد بالجاهلية ، وفيهم تنافس وفخر ، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليّهم ، واني أخاف ، فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ) ... ٢ (فلما ضمن الله له العصمة وخوّفه ، أخذ بيد عليّ ثم قال : يا أيها الناس من كنت مولاه ... إلى وابغض من بغضه) ٣.(

وهذا النموذج وحده يكفي للتدليل على مدى الخوف من الإفصاح عن اسم عليّ في هذه الواقعة والآية التي نزلت بحقه ، إلا بعض الصحابة والتابعين الذين كانت لديهم جرأة في تبيان حقيقة واقعة الغدير وما اختصت به من ولاية عليّ

على الأمّة جمعاء .وهؤلاء الصحابة الذين أفصحوا بهذه الحقيقة الخافية ، إنما جهروا بها في عهد خلافة عليّ بن ابي طالب ، حيث لا يهابون سلطان او حاكم مستبد.

بلى ، ان علياً أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم كما ان رسول الله أولى بهم من أنفسهم ، ويتفق علماء ومفسرو القرآن من أهل السُنّة والجماعة على أن المولى معناه الأولى بكم،

وذلك في قوله تعالى : مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ) ١) (٢.(

أما قوله تعالى : النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) ٣ (فيتفقون أيضاً على أنه الأوْلى من النفس في الأمور كلها ، لأن رسول الله لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس ، فيجب على المسلمين أن يكون النبي أحب إليهم من أنفسهم ، وأمره أنفذ عليهم من أمرها ، والنبي أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، فعليهم أن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه ، وهو دليل على ان من لم يكن الرسول أولى به من نفس فليس من المؤمنين ، وهذه الاولوية تتضمن أن يكون النبي أحب إلى العبد من نفسه ، ويلزم من هذه الاولوية والمحبة ، كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم لأمره ، وايثاره على ما سواه ، وأن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً ، بل الحكم على نفسه للرسول ، فليس له في نفسه تصرف قطِ الا ما تصرّف فيه الرسول صلى الله عليه وآله الذي من حقوقها ، وأن يبذل المسلمون نفوسهم دون نفس النبي صلى الله عليه وآله إذا اعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب ، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه ، لأن كل ما دعاهم إليه ، فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين ، وما صرفه عنه لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار ، فالنفس أمّارة بالسوء ، فقد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها بعض المنافع ، ولذلك فنفس الرسول أولى بهم من كل الناس،

وأولويته صلى الله عليه وآله في جميع الأمور ويجب على المسلمين أن يطيعوا رسول الله فوق طاعتهم لأنفسهم ، ويقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم) ١.(

الرسول أحق بأن يختار ما دعا إليه من غيره ومما تدعوه إليه أنفهسم ، وان النبي أحق أن يحكم في الانسان بما لا يحكم به في نفسه لوجوب طاعته لأنها مقرونة بطاعة الله تعالى .وإذا دعاهم النبي إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء ، كانت طاعة النبي أولى ، وللرسول أن يحكم فيهم بما يشاء ، لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم والرسول يدعوه إلى ما فيه نجاتهم.

ولذا فإن النبي أوْلى من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم ، ألم يقل رسول الله : ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة؟) ٢.(

ولما كان علي مولى لكل من كان رسول الله مولاه ، فيعني أن علياً أولى بنفس كل من رسول الله أولى بنفسه وبذلك تنتقل كل صلاحيات الرسول وأولويته لنفوس المسلمين ، إلى عليّ بداهة ، فيصبح عليّ حاكماً على نفوس المسلمين بأمرهم ، وعليهم أن يطيعوه في كل الأمور ، وبذلك تتضح خلافة عليّ وإمامته للأمّة جمعاء.

ويؤكد هذا الاستنتاج ، قول سبط ابن الجوزي بأن لفظة المولى في العربية ترد على ووجوه ، ومنها المولى المطلق ، وفي الصحاح : كل من ولي أمر أحد فهو وليه ، وأهم معنى لها هو الأوْلى بكم ، وإذا ثبت هذا ل م يجزْ حمل لفظة المولى في هذا الحديث على مالك الرق ، ولا على المُعتِق ولا على المُعتق ، ولا على الناصر لأن علياً كان ينصر من ينصره رسول الله ، ويخذل من يخذله ، ولا على ابن العم لأنه كان ابن عمه ، ولا على الحليف

لأن الحلف يكون بين الغرماء للتعاضد والتناصر ، وهذا المعنى موجود فيه ، ولا على الجار ، ولا على السيد المُطاع ، لأنه كان مطيعاً له يقيه بنفسه ، ويجاهد بين يديه ، والمراد من الحديث ، الطاعة المحضة المخصوصة ، فتعيّن الوجه العاشر وهو الأولى ، ومعناه من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به ، وقد صرح بهذا المعنى ، الحافظ أبو الفرج يحيى بن السعيد الاصبهاني في كتابه المسمى بمرج البحرين ، فإنه روى هذا الحديث باسناده إلى مشايخه ، وقال فيه : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي فقال : من كنت وليه وأولى به من نفسه ، فعلي وليه ، فعلم ان جميع المعاني راجعة إلى الوجه العاشر ، ودلّ عليه أيضاً قوله : ألست أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهذا نص صريح في إثبات إمامته وقبول طاعته ، وكذا قوله صلى الله عليه وآله : وأدر الحق معه حيث دار وكيف دار ، فيه دليل على أنه ما جرى خلاف بين عليّ وأحد من الصحابة إلا والحق مع عليّ ، وهذا إجماع الأمّة ، ألا نرى أن العلماء إنما استنبطوا أحكام البغاة من وقعة الجمل وصفين.

ويقول محمد بن طلحة الشافعي : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال» : من كنت مولاه فعلي مولاه «... في حجة الوداع ، في غدير ، فسمي ذلك اليوم غدير خم ، وصار ذلك اليوم عيداً وموسماً لكونه وقتاً خصّ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله علياً بهذه المنزلة العلية ، شرّفه فيها دون الناس كلهم) ١.(

ونقل الواحدي في كتابه) أسباب النزول (عن أبي سعيد الخدري انه قال : نزلت هذه الآية : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ٢ (يوم غدير خم في علي ... فقوله صلى الله عليه وآله : من كنت مولاه

فعلي مولاه ، قد اشتمل على لفظه) مَن (وهي موضوعة للعموم ، فاقتضى ان كل إنسان كان رسول الله مولاه ، كان علي مولاه ، واشتمل على لفظة) المولى (وهي لفظة مستعملة بإزاء معان متعددة ، وقد اوردها القرآن الكريم ، فتارة تكون بمعنى) أولى» : (هي مولاكم ، «وتارة بمعنى الناصر : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ)١ ، (وتارة بمعنى الوارث : وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) ٢ ، (وتارة بمعنى العصبة : وَإِنِّي خِفْتُ

الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي) ٣ ، (وتارة بمعنى الصديق والحميم : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا) ٤ ، (وتارة بمعنى السيد المعتق.

وليعلم ان هذا الحديث هو من اسرار قوله تعالى : فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) ... ٥ ، (والمراد نفس عليّ على ما تقدم ، فإن الله لما قرن بين نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبين نفس علي ، وجمعهما بضمير مُضاف إلى رسول الله ، أثبت رسول الله لنفس علي بهذا الحديث ما هو ثابت لنفسه على المؤمنين عموماً ، فانه أولى بالمؤمنين وناصر المؤمنين ، وسيد المؤمنين ، وكل معنى أمكن إثباته معادل عليه لفظ) مولى (لرسول الله ، فقد جعله لعليّ ، وهي مرتبة سامية ، ومنزلة شاهقة ، ودرجة عالية ، ومكانة رفيعة خصّه صلى الله عليه وآلهبها دون غيره ، فلهذا صار ذلك اليوم يوم عيد وموسم سرور لأوليائه) ٦.(

معنى الشراكة والوزارة والاستخلاف في القوم

وهناك نقطة ربما خفيت على بعض رموز أهل السُنّة ، وهي ان ولاية عليّ إنما كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وآله ، اذ هي امتداد لولايته صلى الله عليه وآله ، ولا منافاة في ذلك أو تعارض بين الولايتين ، لأنهما في الحقيقة ولاية واحدة ، والدلائل على ذلك عديدة:

١ . قضية المباهلة ، ونزول الآية القرآنية : وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ) ١ ، (إذ ساوى الرسول بين نفسه وبين نفس عليّ كما يجمع المفسرون.

٢ . دلالة الآية القرآنية : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ) ٢.(

فكما لا يحق لأحد أن يُقدّم نفسه على نفس الرسول ، كذلك لا يحق لأحد أن يقدّم نفسه على نفس عليّ ، وهنا تتحقق الولاية لعليّ في عهد النبي.

٣ . تاكيد رسول الله في حديث له حول بعض صحابته ، إذ سأله عمرو بن العاص عن علي ، فقال صلى الله عليه وآله» : ان هذا يسألني عن نفسي) «٣.(

٤ . قول الرسول في علي» : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي ، «وذلك عندما خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة في غزوة تبوك) ٤.(

وحديث المنزلة هذا ، لو رُوي وحده لكان كافياً لتثبيت منزلة علي من النبي ، لأن

رسول الله قد أطلق العلاقة بينه وبين علي في حديث المنزلة ، ولا يقيده بحدود معينة ، واستثنى من المنزلة بينهما ، النبوة ، التي لم يكن لعلي فيها نصيب وإنما هي له فقط.

على ان النبوة لم تكن الميزة الوحيدة لهارون أخي موسى ، وإنما علاقتهما تمتد إلى الشراكة في الحكم والأمر وفي كل شيء.

ولو كانت النبوة هي الميزة أو الخصيصة الوحيدة لهارون والتي تنتفي من علي ، لما أكد النبي تلك المنزلة لعلي منه سوى النبوة ، ولهذا فإن منزلة علي من رسول الله لابد أن نستوحيها من منزلة هارون من موسى طبق الآيات القرآنية المشيرة لتلك العلاقة والمنزلة ، وهي : قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا) ١ ، (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) ٢ ، (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٩ هَارُونَ أَخِي ٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) ٣.(

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) ٤.(

اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي) ٥.(

فهارون كان يشدّ عضد موسى ، ولهما سلطان معاً ، وهو وزيره ، يشدّ أزره ، ويشركه في أمره ، وهو الحُكم والسلطان والقيادة ، وأخيراً فإن هارون ، خليفته في قومه.

وكان عليّ بالنسبة لرسول الله ، وزيراً له ، وولياً للمسلمين معه ، أي مشاركاً له في الأمر ، وهو الحُكم والسلطان والحاكمية على نفوس الناس ، باعتبار أن لهما نفساً واحدة حاكمة على النفوس ، وكل هذه الخصائص كانت لعليّ في عهد النبي صلى الله عليه وآله.

ولم يكن الحديث النبوي المذكور آنفاً ، وحده بخصوص المماثلة بين هارون وعلي ، وانما هناك الكثير من الاحاديث النبوية التي أدلى بها الرسول صلى الله عليه وآله في مناسبات مختلفة ، كلها تقارن بين النبي هارون وعلي بالنسبة لموقعهما من النبيين موسى ومحمد) عليهما السلام.(

مقوّمات الولاية على الناس

أما الدليل الآخر على إستمداد علي لولايته من ولاية رسول الله ، يعني أن ولايته على الناس مستمدة من ولاية الرسول صلى الله عليه وآله:

١ . ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله لم يعيّن أحداً أميراً على عليّ في كل مراحل الدعوة الإسلامية ، سواء في مكة المكرّمة أو المدينة المنورة ، وسواء في الحرب أو في السلم ، لأنه لا يحق لأحد من الصحابة أن يكون أميراً على عليّ وولياً عليه ، بل يكون الصحابة وكل المسلمين ، مأمورين له دائماً.

٢ . لم يوجّه الرسول صلى الله عليه وآله نقداً ولو صغيراً لعلي طيلة حياته ، ولم يعنّفه ولم يطعن فيه ، وكذلك لم يسمح لأي أحد مهما كانت منزلته في الصحبة ، أن يوجّه أو يتفوّه بكلمة واحدة تنال من عليّ أو تنقصه ، وإذا سمع صلى الله عليه وآله من أحدهم أنه تكلّم ضد علي أو طعن فيه أو خالفه مجرّد مخالفة ، فإنه يغضب كثيراً ويسخط عليه ، ويدعوه للاعتذار منه ، وأن لا يكرّر ذلك أبداً ، لكننا لم نقرأ التأريخ أن أوصى رسول الله علياً بعدم نقد الآخرين أو مخالفتهم والانتقاص منهم ، بينما طالما سمع النبي صلى الله عليه وآله صحابة يتكلم بعضهم في بعض أو يتلاعنون فيما بينهم ، فلم يُعر لذلك أدنى أهمية.

٣ . كل ذلك يدل على ولاية عليّ على الناس في العهد النبوي ، وهو أمر مفروغ منه ، لأنه نفس الرسول ، لا يختلف عنه في شيء ، وهو باب علمه الواسع العميق ، فكل

من يريد أن يتعلّم شيئاً من الرسول ، فعليه أن يسارع إلى عليّ ويسأله في شتى العلوم الدينية ، فيجيبه حالاً ، ولا يتلكأ أبداً.

ولم نسمع أن علياً سأل أحداً سوى رسول الله الذي كان يغذّيه بالعلوم الالهية منذ البعثة الشريفة ، إذ كان كل الصحابة بحاجة إلى عليّ ، وهو لم يكن بحاجة إليهم ، ولو في مسألة واحدة فقط.

وهذه كلها صفات الذي يمتلك حق الولاية على الناس ، ولا يمتلكون حق الولاية عليه ، وبالتالي فمن حق أي محلّل منصف أن يعتبر ولاية عليّ مستمدة من ولاية رسول الله على الناس ، ومن الطبيعي أن تستمر تلك الولاية بعد وفاته صلى الله عليه وآله ليكون هو الولي المطلق على المسلمين ، فهو الوصي والوارث للرسول صلىاللهعليهوآله ، والخليفة من بعده بنص منه صلى الله عليه وآله ، كما يصبح عليّ ، عميداً لأهل البيت ، إذ يورث العمادة منه صلى الله عليه وآله بعد أن كانت للرسول في حياته.

ونقصد بأهل البيت ، هم هؤلاء الخمسة الذين كان هو ضمنهم في حياته صلى الله عليه وآله أي هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين فقط ، والذين أسماهم الرسول) أهل الكساء (والثقل الموازي للثقل الثاني وهو القرآن الكريم ، وهم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق وهوى) ١.(

فأهل البيت ، بمثابة سفينة نوح ، من أطاعهم واتّبعهم فسينجو معهم ، أما من عصاهم وخالفهم ولم يتبعهم في كل الامور ، فسيكون من المغرقين والهالكين.

ولا يحق لأي أحد أن يفسّر حديث السفينة على هواه ، ويُقصيه عن معناه الحقيقي الواضح الذي أراده رسول الله لأهل بيته عندما مثّلهم بسفينة نوح ، فهم الفيصل الذي

إذا تجاوزه المرء يكون من المُغرقين ، بمعنى أن كل من لجأ إليهم واتبعهم وأطاعهم واستوحى الأحكام الشرعية منهم لكونهم امتداداً لرسول الله ولنهجه القديم ، فسيكون من الناجين معهم ، وبغير ذلك فسيؤول أمره إلى الخسران المبين ، وبالطبع فإن علياً عميدهم وأبرزهم بعد الرسول ومن بعده الثلاثة الآخرون.

على وشك الرحيل

ولمّا مرض رسول الله مرضه الأخير ، وأحسّ بدنو أجله ، أمر بإحضار دواة وكتف ، لكتابة وصيته الأخيرة للمسلمين . ومن حق أي إنسان إذا أحسّ بدنو الأجل ، أن يوصي أسرته وأبناءه ، ويطلب منهم قلماً وورقة ليملي عليهم بآخر وصاياه واقتراحاته .وكذلك الحكام ورؤساء الدول وذوو المسؤوليات الكبرى ، حتى يضعوا الناس أمام حقائق الفترة المقبلة في حال غيابهم عن الساحة.

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وآله بدْعاً من الآخرين ، فهو على وشك الرحيل ، ومَن هو صلى الله عليه وآله ، انه خاتم الأنبياء وآخر الرُسُل ، وحاكم الأمّة الاسلامية جمعاء ، ولابد له من قول كلمته الأخيرة مثبّتة على الورق ، لكي يُلقي الحُجّة على أمّته إلى يوم القيامة.

ولا يحق لأي أحد أن يمنعه مهما بلغ شأنه ومنزلته ، وحتى ان كان من أكابر الصحابة ، لأن عمل الرسول وقوله ، تنفيذ لأوامر الله تعالى ، فهو لا ينطق من منطلق الهوى أو الرأي ، وإنما يتحرّك بأمر الوحي ، وانها لجرأة كبيرة أن يَحول أحد دون تنفيذ قراره تحت أية حجة أو ذريعة ، لأنه ليس هو أعلم ولا أفهم من رسول الله المُسدد من السماء ، والذي هو أعلم البشرية على الاطلاق ، وهو مدينة العلم.

وهكذا عندما أمر صلى الله عليه وآله بإحضار الدواة والكتف لكي يكتب كتاباً لن تضلّ الأمّة

بعده أبداً .. وهو قول منطقي جداً وينمّ عن كامل القوى العقلية ، وينسجم مع حجم الخسارة التي ستُمنى بها الأمّة ، ومقدار الفراغ الذي سيتركه فقده صلى الله عليه وآله ، ولابد من إيضاح وتبيين السبيل الذي إذا اتّبعه المسلمون ، أَمنوا من الضلال والانحراف إلى يوم القيامة) ١.(

أنه كلام عقلاني جداً وغير عبثي او مُستهجَن ، وانه يدلّ على حرص الرسول على أمّته ومصيرها وهو على مشارف الآخرة.

غير ان الصحابي عمر بن الخطاب ، اعترض على الكتاب ومنع النبي محمداً صلى الله عليه وآله من كتابته بدعوى ان النبي يهجر ، مع أنه صلى الله عليه وآله لم يُصدِر عبارات مبهمة أو لا تليق بالمقام ، أو تُصادم المنطق الإنساني حتى يُوصَم بالهجر والهذيان ، وإنما كان كلامه مفهوماً لا لَبْس فيه ، بل ويناسب الموضع الذي كان فيه وهو على فراش الموت.

هل هجر رسول الله حقّاً؟

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله يهجر ويهذب ويُطلق كلمات غير معقولة وغير مفهومة ، فلماذا قال عمر بن الخطاب بعد ذلك مباشرة ، حسبنا كتاب الله ، أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه؟

لابد وان عُمَر بن الخطاب أدرك أنَّ رسول الله إنما كان يروم أن يكتب كتاباً حول مستقبل الأمّة ، وتعيين جهة معينة تصون الأمّة من الضلالة ، وهي تختزن وتستودع العلم النبوي الذي يفسّر ويبيّن القرآن الكريم ، وهذه ال جهة لابد أن تكون صمّام امان للأمّة من الانحراف عن الاستقامة ، وان كل أفرادها يذعنون لتلك الجهة التي سيعيّنها رسول

الله ، وبالتالي سوف لا يحق لبعضهم من التصدّي لحكم الأمّة كما يهوى ، ولذلك قال عمر بن الخطاب قولته المعروفة : »حسبنا كتاب الله.«

فلو كان القرآن الكريم وحده هو العاصم من الضلالة ، وفيه الكفاية لتعريف الحلال والحرام ، فلِمَ يا ترى أدلى رسول الله بمئات الاحاديث لشرح وتفصيل آيات القرآن الكريم ، وتفسيرها تطبيقاً لقوله تعالى : لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)١(؟ ولماذا قال» : تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسُنّتي ، «على قول الجمهور؟ ولماذا أوصى الناس في الكثير من أحاديثه الشريفة ، بسُنّته وضرورة اتّباعها؟

ثم هل يمكن استخراج أو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن وحده بخصوص الفرائض والواجبات والأوامر والنواهي ، مع ان تشريعاته في هذا النطاق ، مُقتضية ومُجملة ، وعامة ومطلقة ، وهي بحاجة إلى تقييد وتخصيص وتفسير وشرح وتفصيل حتى تتبيّن وتتضح الاحكام والتشريعات بصورة تامة لا لبْس فيها ، ولا نقص ولا تقصير؟ ثم ان رسول الله في ذلك الموقف ، كان في حال تبليغ أمر مهم جداً ، يتحدد ـ بنيانه ـ مصير الأمّة الإسلامية ، وعند الجمهور المسلم ، أن النبي معصوم في حال التبليغ ، فكيف والحال هذه ، ان يهجر في تلك اللحظة والعياذ بالله؟!

وليت عمر بن الخطاب وعى بأنه لا يحق لأحد الوقوف بوجه النبي صلى الله عليه وآله ، مهما علا شأنه وبلغت صحبته وعلاقته به ر ، لأن الرسول مُوحى إليه من قبل السماء ، وأعلم الخلق جميعاً بمصلحتهم ومصيرهم ، إلا إذا كان يعتقد أنه أعلم من رسول الله بمصير الأمّة وما ينجيها ويمنعها من الضلالة؟ فهل بقيت قداسة للنبوة ، وقيمة عليا للرسالة السماوية يا تُرى؟

ولنر رد فعل المتجمّعين حول الرسول من الصحابة والنساء ... إلخ.

لقد انقسم هؤلاء إلى فريقين ، فريق انحاز إلى عمر وتبنّى موقفه الرافض بكتابة الكتاب ، وفريق آخر طالب بكتابة الكتاب تنفيذاً لأمر الرسول الحاسم ، حين علا صوت المطالبين بتنفيذ الأمر النبوي ، وكان أكثرهم من النساء ، فنهرهن عمر بن الخطاب ، واصفاً إياهنّ بصويحبات يوسف ، غير ان ردّ فعل النبي صلىاللهعليهوآله كان قاسياً بحق عمر وجناحه ، إذ دافع عن النساء بكامل وعيه ، مؤكداً ان هؤلاء النساء ، أفضل من عمر وأصحابه المنحازين له في منع كتابة الكتاب) ١.(

المهم ، وبسب اللغط الذي رافق مجريات هذه الحادثة ، تم إلغاء الكتاب الذي يصون الأمّة من الضلالة إلى يوم القيامة.

وقد أسمى حبر الأمّة عبد الله بن عباس ، تلك الحادثة بالرزية ، لكونها فتحت الأبواب . على مصراعيها . للفتن والرزايا وضلالة الأمّة كما حدث بالفعل ، دون أي أمل لرجوعها إلى جادة الحق والهُدى.

وعلى العموم ، فإن موقف عمر بن الخطاب المُعارض لتدوين الوثيقة العاصمة للأمّة من الانحراف ، إنما جاء خوفاً من تثبيت ما أعلنه صلى الله عليه وآله في يوم الغدير ، بأن علياً خليفته وولي أمر المسلمين من بعده ، لأنه في تثبيته خليفة له ، وإمتثال الأمّة لتلك التوصية النبوية في الحقيقة ، عملية صيانة للأمّة من الضلالة والانحراف والتمزق والوقوع في الفتن والمصير المجهول ، لأن علياً هو نفس الرسول ، وامتداد له وباب علْمه ، وهو كالرسول على الحق المبين والصراط المستقيم ، كيف لا والحق يدور معه حيث دار ، وهو

مع القرآن ، والقرآن معه ، وهو من أهل البيت ، ثقل القرآن ولا يفترق عنه حتى قيام الساعة ولا ينفصل عنه أبداً ، وهو من أصحاب السفينة الذين ينجو من ركب معهم ، ويفرق ويهوى من تخلّف عنهم؟

فاذا تصدّى عليّ للحكم والخلافة بأمر الرسول صلىاللهعليهوآله ، لا يحدث صراع على هذا الموقع الحسّاس من قبل الطامعين واللاهثين لاشغال هذا ال منصب الالهي المقدّس ، ثم يقود الأمّة إلى شاطئ النجاة ، وهو على بيّنة وبصيرة من أمره ، لأنه مُسدَّد من قبل الله تعالى ، وبالتالي لن تكون هناك مدارس فقهية كثيرة ، ولا مذاهب وفرق وطوائف متعدِّدة ، تمتلك رؤى فقهية وعقائدية متضاربة ، وانما هناك مدرسة واحدة ، هي مدرسة أهل البيت ، أولها الرسول نفسه ، وثانيها عليّ ، ثم تأتي البقية ، كما حدّدها صلى الله عليه وآله ... هي مدرسة . بعد الرسول . يقودها ويتزعمها علي وأهل بيته الذين يجسّدون القرآن خير تجسيد ، باعتراف عميدهم رسول الله ، طبق آية التطهير المباركة.

وفاة خاتم الأنبياء

ورحل خاتم الأنبياء وإلى جواره بنو هاشم وزوجاته ولفيف من الصحابة وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب ، وبقي مسجّى فترة بعد أن غسّله وكفّنه ابن عمه عليّ ، وكان النبي قد جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد الذي كان يبلغ من العمر ١٧ عاماً ، وحشّد فيه كبار الصحابة ، منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما ، لغزو الروم ، ولعن من يتخلّف عنه ، ومع ذلك قفّل أكثر الجيش راجعاً إلى المدينة بذرائع واهية بالرغم من اللعن النبوي الذي كان سارياً عليهم ، وكان هؤلاء العائدون قد تذرّعوا بقلقهم على مصير الرسول الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة حين غادروا المدينة ، ولكن يبدو ان الكثير

منهم كان لديه مسعىً أو غرضاً آخر في العودة المفاجئة للمدينة بالرغم من تحذير ولعن الرسول الذي كان قد شملهم جميعاً) ١.(

هذا المسعى او الهدف المُبيّت هو لإستشفاف الاوضاع الحرجة ، ومحاولة الالتفاف على خليفة الرسول صلى الله عليه وآله قبل أن يبايعه المهاجرون والأنصار ، وبالتالي يسقط ما في أيدي هؤلاء الذين يسعون لتسنّم منصب الخلافة على حساب الخليفة المُعيّن من قبل رسول الله ، ولذلك فلم يشارك هؤلاء المتخلّفون عن بعث أسامة ، بمراسم دفن الرسول صلى الله عليه وآله وتشييعه ، بالرغم من أن تخلّفهم عن البعث إنما كان لتقصّي مصيره صلىاللهعليهوآله حسب زعمهم.

وقام بمراسم التشييع والدفن ، عليّ وبنو هاشم وقلّة من الصحابة ، فيما تخلّف عن هذه المراسم المقدّسة ، الكثير من الصحابة الذين انصرفوا إلى سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة من بينهم.

هذا الموقف اللامسؤول من قبل هؤلاء الذين فيهم كبار الصحابة تجاه الرسول وعدم احترام نعْشه ، يبعث على العجب والتساؤل ، لأن الذين قفّلوا عائدين من بعث أسامة ، كانوا من كبار الصحابة وبضمنهم عمر بن الخطاب وأبو بكر ، وابو عبيدة الجراح ، وهم قد تجاهلوا تماماً ، لعن الرسول على المتخلفين عن جيش أسامة مهما كانت عللهم وذرائعهم ، وإن كانت وجيهة ، لكن هؤلاء تعلّلوا بالقلق على مصير الرسول وهو على مشارف الموت ، غير انهم لم يأبهوا لوفاته صلى الله عليه وآله وكأن موته لا يعنيهم ، فلم يشاركوا في مراسم دفن خير البشر صلى الله عليه وآله ، وإنما اتفقوا على الذهاب فوراً إلى سقيفة بني ساعدة حيث يجتمع زعماء الانصار لتناول قضية الخلافة ، وملء الفراغ

الناشئ بسبب وفاته صلى الله عليه وآله.

ونكا قبل بحثنا الأخير ، نتساءل : لِمَ لم يستخلف رسول الله؟ لِمَ لم يختر أحد الصحابة الكبار الذين تجتمع فيهم خصال القيادة لمسك زمام الأمور من بعده ، وبالتالي لا يحصل بعده فراغ ، يستغله الذين لا يمتلكون صفات وخصائص القيادة والزعامة ، لإتمام المسيرة التي بدأها الرسول صلىاللهعليهوآله بالبعثة المظفرة ، خاصة وانه كان خاتم الأنبياء ورسالته

آخر الرسالات وخاتمتها ، وهي رسالة موجّهة إلى الناس كافة ، ومهمة الدعوة لم تنته بعد ، لأن الإسلام ، عند وفاته صلى الله عليه وآله ، لم يتخطّ عتبة الجزيرة العربية ، وما تزال هناك مراحل وخطوات شاسعة ينبغي اتخاذها حتى تؤدي الشريعة الاسلامية مهامها وأهدافها الكبرى ، ألا وهي إيصال وتبليغ الرسالة إلى شتى بقاع المعمورة ، لإقامة الحجّة البالغة على كل الناس كما يأمر القرآن الكريم؟

أليس الذي يخلف رسول الله ، يجب أن يكون امتداداً له في العلم والشجاعة والفقاهة والوعي وفي كل النواحي والخصائص القيادية عدا النبوة ، حتى يكون بمقدوره ، هداية الناس ، وجمع شملهم وتوحيدهم في ظلال الرسالة دون أن يتفرقوا ويتوزعوا إلى نِحل ومذاهب وفِرق وطوائف تتناحر فيما بينها!!؟ ... مذاهب ومدارس فقهية وعقائدية وفكرية لا يحصيها عدد؟

أليس من واجب رسول الله أن يستخلف كي لا تضيع الأمّة وتتشتت كالغنم الشاردة في الليلة المطيرة حسب تعبير بعض الصحابة في فترات مختلفة ، حرصاً منهم على مصيرها؟ ام ان اولئك اكثر وعياً ومسؤولية منه صلى الله عليه وآله؟

لماذا لم يكن النبي محمد صلى الله عليه وآله حريصاً على الأمّة المنكوبة ، كحرص الراعي على غنمه على الأقل؟ أم ان النبي صلى الله عليه وآله قد فعل كل ذلك ، لكن هناك أمراً قد دبِّر بليل؟

خاصة وانه صلى الله عليه وآله قد ربّى علياً في حجره منذ طفولته وغذّاه بعلمه وتوجيهاته ونصائحه ، وآخى بين نفسه صلى الله عليه وآله وبين ابن عمه ، وجعله وصيه ووزيره وخليفته من بعده ، وعيّنه للولاية المطلقة في غدير خم قبل وفاته بقليل ، وأوصى به وببقية أهل بيته؟

فلو كان رسول الله لم يعيّن أحداً لخلافته وترك الأمّة تختار أحداً من بينها لشغل موقع الخلافة من خلال الشورى ، فلماذا يا ترى ، بعث كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم لغزو الروم ولعن المتخلفين منهم؟ أليس هؤلاء ينبغي أن يكونوا ضمن الذين يتشاورون لاختيار الخليفة ، أم استثنى هؤلاء الصحابة الكبار وهم بالعشرات فتكون المشورة منقوصة تدور في دائرة ضيّقة لا تمثل كل الأمّة؟ ومن المفارقات العجيبة ان الذي تم اختياره لخلافة الرسول وهو أبو بكر بايعاز من عمر بن الخطاب ، هو من المبعدين لغزو الروم ضمن بعث أسامة ، يعني ان رسول الله لو كان يعتقد أنَّ الذي يخلفه سيكون من تختاره الأمّة فلابد أن يكون غير أبي بكر أو عمر بن الخطاب لأنهما كانا ضمن البعث ، ولا يحق لهما العودة بعد أن رسم خطاً أحمر حولهما بأن لعن من يتخلف منهما أو من غيرهما؟

وعلى العموم ، فإن رسول الله لو كان يؤمن بمبدأ الشورى لانتخاب الخليفة ، لما بعث الصحابة الكبار في بعث أسامة وإنما استبقاهم حتى تكون عملية الشورى محكمة؟

وفاة الرسول والتحركات المريبة

وإذا كان هذا كله صحيحاً ، يتساءل الذين يزعمون بأن رسول الله لم يوصِ ، ولم يستخلف : تُرى لِمَ أجمعت الأمّة عن وصية الرسول بحق عليّ ، وكأن شيئاً لم يكن؟ وسارعت إلى سقيفة بني ساعدة لتختار خليفة يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله؟ فأين الأمّة التي بايعت علياً في واقعة الغدير؟ هل تناست تلك الوصايا في ليلة وضحاها وسكتت على ما حدث في السقيفة؟ هل يُعقل كل هذا ، وان الصحابة خانوا نبيهم بتلك السهولة؟

نجيب على هذه التساؤلات بما يلي:

١ . النصوص الواردة من رسول الله في الوصاية والخلافة لعليّ ، متينة جداً ومتواترة ، ولا تشوبها شائبة ، ورواها العشرات من الصحابة الكرام ، ومن بعدهم الذين تبعوهم باحسان ، فليس من حق أحد أن يشطبها بجرّة قلم ، كيلا يتهم الآخرين ممن سمعوا هذه الوصايا والأوامر ووعوها ثم نبذوها وراء ظهورهم لأسباب معينة.

٢ . وماذا عن جماهير الأمّة ، وجلّ المهاجرين والأنصار؟ ماذا دهاهم؟ صمتوا أو لم يحتجوا على صرْف الخلافة عن عليّ من خلال اجتماع السقيفة؟ هكذا يؤكد علماء السُنّة ، إذا كان النبي صلى الله عليه وآله قد عيّن علياً خليفة للمسلمين؟

بلى أن هذا التساؤل ربما يكون وجيهاً ، لو سارت الأمور بعد وفاة الرسول على هذا المنوال ، غير ان التأريخ الصحيح ، يثبت بأن الأمّة لم تسكت ولم تسلك سبيل

الصمت الذي يعني بأن رسول الله ترك الأمّة تختار حاكمها دون أن يعيّنه بنفسه.

وفي الحقيقة ان كل الوقائع التي حدثت بعد وفاة الرسول مباشرة تؤكد لنا بأنه عيّن علياً خليفة له ، بيْد ان هناك أطرافاً منعت علياً من تسلّم المنصب الالهي.

ومن تلك الوقائع:

١ . التحرّك المريب الذي بدأ فور رحيل خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله إلى بارئه الاعلى ، فأكثر الجيش الذي بعثه الرسول بقيادة أسامة بن زيد ، قفّل راجعاً إلى المدينة بالرغم من لعْن الرسول كل من تقاعس عن الالتحاق بهذا الجيش ، وتكراره لهذا اللعن الذي يُبطن خطة منه صلى الله عليه وآله لإبعاد كبار الصحابة من المدينة في حال موته لئلا يكونوا حاضرين عند وفاته ، لمنع عليّ من تسلّم الحكم والخلافة طبق وصية الرسول صلى الله عليه وآله.

٢ ـ مسارعة قيادات الأنصار للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ، بدون استشارة أو حتى إخبار بني هاشم والمهاجرين وبقية الصحابة من الانصار بالاجتماع ، مع ان قضية خلافة الرسول صلى الله عليه وآله ، قضية تهمّ المسلمين جميعاً ، وبالذات الصحابة الذين هم جلّ المهاجرين والأنصار ، فضلاً عن بني هاشم وبقية المسلمين ، مادام النبي حسب قولهم ، لم يعيّن أحداً خليفة له ، فلماذا هذه العجلة ، واستغفال سائر الصحابة والمسلمين ، وعدم احترام جثمان رسول الله المسجَّى في بيته ، ولما يُدفن بعد ، وما هكذا ينبغي توديع أفضل الخلق أجمعين!؟

أما كان الاجدر بهؤلاء أن يتريثوا الى حين الإنتهاء من مراسم التشييع والدفن ، ثم يدعون كل الرموز الاسلامية وأعيان المهاجرين والأنصار من الصحابة الكرام وغيرهم ، لا أن يستغفلوا الأمّة ، ويجتمعوا لانتخاب خليفة لرسول الله وهم لا يتعدّون المئتين على أفضل تقدير ، وهم من الانصار فقط ، وأما الذين التحقوا بالسقيفة ـ فيما بعد ـ من

المهاجرين ، فهم ثلاثة ، عمر بن الخطاب وأبو بكر وأبو عبيدة الجراح ، فيما ظل جلّ المهاجرين ، فضلاً عن الانصار وغيرهم بمعزل عن ما جري في السقيفة) ١.(

وبالطبع كان عليّ هو الآخر وبنو هاشم وبعض الصحابة ، مشغولين بمراسم دفن الرسول ، ولم يكونوا يعملون بما يجري من تحركات لاختيار الخليفة ، مع ان علياً كان من أبرز أهل البيت ، وكان الاجدر بهؤلاء أن يدعوه هو وبني هاشم للتشاور ، لان أن يتجاهلوا وجودهم بالمرّة ، هذا ناهيك عن ان رسول الله أكد ـ مراراً ـ وجوب احترام أهل بيته ونصرتهم حتى آخر لحظة في حياته ، فكيف يتم حذفهم من الوجود وإهمالهم بتاتاً؟

ان هذا التجاهل المتعمَّد لعلي وبني هاشم وذوي قربى الرسول في عملية الاختيار ، لتدلّ على إجماع هؤلاء على تهميش دور البيوت المقرَّبة من رسول الله ، حتى لا تطالب بحق صاحب الرسول الاول وربيبه وخليفته الحقيقي وهو عليّ بن أبي طالب.

إجتماع السقيفة .. مدى مشروعيته!!

تُرى ماذا حدث في تجمّع سقيفة بني ساعدة؟ وهل كان مؤتمراً نموذجياً يمثّل أول مجلس شورى في الإسلام ينتخب حاكماً للأمّة بعد رسول الله؟ أم تخلّلته صراعات ومداولات ، ربما كادت تؤدي إلى سفك الدماء؟

إذ لما قُبض رسول الله ، انحاز حي من الانصار الى سعد بن عبادة في القضية ، وانحاز بقية المهاجرين الى أبي بكر ، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الاشهل) ٢.(

وفي خضم الجدل الذي كان دائراً في السقيفة ، قال الحباب بن المنذر : يا معشر

الانصار ، املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا . يقصد عمر بن الخطاب . وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الامور وأنتم أحق بهذا الأمر منهم

أما عمر بن الخطاب فقد قال في يوم السقيفة : اقتلوا سعداً . يعني سعد بن عبادة الذي رفض اقتراح عمر وصاحبيه . قتله الله

وأوشكت فتنة كبرى أن تقع ، ولو وقعت لما كان بالأمر المستغرب كثيراً ، فالفراغ الذي تتركه شخصية عظمى مثل رسول الله في أمّة كان لها النبي والقائد ، لا يمكن أن يُملأ بسهولة . حسب رأي رمز من رموز أهل السُنّة والجماعة) ٣.(

واذا كان المهاجرون القاطنون في المدينة يمكن أن يسلّموا لاخوانهم الانصار بالخلافة ، ويعرفوا لهم فضلهم ، فإن بقية العرب لن تسلّم لغير قريش ، وما لم تتوحد الكلمة فلن يكتب لرسالة الاسلام تجاوز الحدود والانتشار خارج الجزيرة ، إذن فمصلحة الدعوة تقتضي أن يكون الخليفة من قريش) ٤.(

وانتهى الخصام في السقيفة ، فبايع عمر أبا بكر ، وإنثال الناس عليه يبايعونه في العشر الأوسط من ربيع سنة احدى عشرة ، سوى ثلّة من بني هاشم ، والزبير ، وعتبة بن أبي لهب ، وخالد بن سعد بن العاص ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر ، وعمّار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبي بن كعب ، ومالوا الى عليّ بن أبي طالب) ٥.(

ورفض عليّ البيعة قائلاً : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الانصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وآله ، وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً ، ألستم زعمتم للأنصار انكم أولى بهذا الأمر منهم لمّا كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلّموا اليكم الامارة ، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حيّاً وميّتاً ، فأنصفونا ان كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون ، فقال له عمر : إنك لست متروكاً حتى تبايع.

فقال علي : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه) ١ .(فيما قال الصحابي أبو عبيدة الجراح لعلي : يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به .فأجاب علي : الله الله يا معشر المهاجرين ... ، لا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به ، لأنّا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ، ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسُنن رسول الله ، المُضطلع بأمر الرعية ، المُدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى ، فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بعداً.

وخرج عليّ يحمل فاطمة بنت رسول الله على دابة ليلاً في مجالس الأنصار ، تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو ان زوجك وابن عمك سبق الينا قبل أبي بكر ما عدلنا به.

فأجاب علي : أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فيما قالت فاطمة : ما صنع أبو الحسن إلا ماكان ينبغي له ، وهم صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم) ١.(

وعلّق ابن الأثير على حديث عمر» : ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها : «أراد بالفلتة : الفجأة ، ومثل هذه البيعة جديرة بأن تكون مهيّجة للشر والفتنة) ٢.(

ويؤكد أحد رموز الجمهور السنّي : ولو كان في أمر الخلافة نص قاطع من كتاب الله أو سُنّة رسوله صلى الله عليه وآله لانتهى الأمر بذكره والاحتكام إليه ، وارتفع الخلاف ، ولكن ليس هناك شيء من ذلك) ٣.(

مؤتمر السقيفة والضمانة المفقودة

وتعليقنا على مؤتمر السقيفة وتداعياته:

١ . لو كان رسول الله لم يستخلف أحداً قبل وفاته ، وانما ترك الأمّة تختار من تشاء كخليفة له ، بدون أية ضوابط في هذا المجال ، فأين الضمانة من عدم تفاقم المشاحنات والاختلافات بين الفرقاء من المهاجرين والانصار وقريش ، الى حد الاقتتال والصراع الدامي وتمزّق الأمّة الى فئات متقاتلة يؤدي تفاقم الفتنة بينها الى زوال الأمّة وانحسار الاسلام الناشئ الفتي وهو في المهد؟ أو على الأقل،

نشوء فتن بين أفراد الأمّة ، تؤدي الى تمزّقها في ظل الفراغ القائم برحيل رسول الله ، أو اختيار كل فئة لحاكم يمثّلها امام الفئات الأخرى واحتدام الصراع الشرس فيما بينها ، فكل احتمال كان وارداً في ظل ذلك الفراغ الكبير!!

ولو كانت الفتنة الكبرى قد وقعت فعلاً وبالطبع غير مُستغرَب من وقوعها ، فمن هو المسؤول عن وقوعها سوى رسول الله) والعياذ بالله (الذي ترك الأمّة تلعق جراحها بفقده دون أن يعيّن لها خليفة ، يحفظ وحدتها وقوتها ويمنع الاختلافات والشقاقات من الريان فيها وإضعافها ، ويصونها من التشرذم العقائدي والفقهي ، ويوصلها الى شاطئ الأمان.

فهل يُعقل ان النبي صلى الله عليه وآله كان لا أبالياً الى هذا الحد على مصير الأمّة المجهول ، ولم يعبأ بها ويخشى أن يكون مصيرها كمصير الغنم الشاردة في الليلة المطيرة على حد قول بعض الصحابة وفي مقدمتهم عائشة بنت أبي بكر؟

٢ . يقرّ الخليفة الثاني ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها ، وهي كانت جديرة باثارة الشر في الأمّة ، فمن هو المسؤول عنها في ظل عدم تعيين خليفة لرسول الله؟

٣ . ماذا يقصد الانصار حين قالوا لفاطمة بنت رسول الله ، بأنهم لا يعدلون بعلي أحداً لو سبق للبيعة قبل أبي بكر؟

٤ . ألم يكن علي محقّاً بعدم اللهاث نحو السقيفة وترك الرسول مسجّى من دون تشييع ودفن؟

٥ . هل صحيح انه لم يكن هناك نص قاطع من كتاب الله وسُنّة رسوله» عليه الصلاة والسلام «في أمر الخلافة ، يتم الاحتكام إليه ، وبذلك يرتفع الخلاف؟

أم كانت هناك نصوص مباشرة وغير مباشرة من القرآن الكريم والسنّة النبوية ، قد تجاوزها القوم لأمر مُبيّت بليل؟ من أمثال تثبيت الله لولاية عليّ على المؤمنين في آية التصدّق بالخاتم ، أو تأكيد رسول الله في حادثة الانذار ، وواقعة الغدير الشهيرة ، وغيرها العشرات من الادلة الدامغة لكن القوم قد تناسوها تنزيها للخلفاء الاوائل من تهمة ادّعاء خلافة الرسول دون مسوّغ مشروع؟

٦ . لو كان علي فاقداً للتجربة والمعرفة بالأمور كالآخرين كما يزعم ابن الجراح ، فلِمَ يا ترى اتخذه رسول الله وزيراً له وأخاً ووصياً وخليفة من بعده في حادثة» وانذر عشيرتك الأقربين «وهو لم يزل يافعاً ، ولم يلتفت صلى الله عليه وآله لصغر سنّه ، وظلّ يرعاه ويوجّهه طيلة البعثة المباركة ويوصي المسلمين به خيراً؟

من هو الشخص المعيّن لخلافة رسول الله؟

أما الادعاء بأن رسول الله لو أوصى وعيّن علياً خليفة له ، وخاصة في واقعة الغدير ، فلِمَ لمْ يسارع المسلمون .وبالذات المهاجرون والأنصار . للذود عن حق علي في الخلافة ، بل تجاهلوا ذلك تماماً ، سواء الفئة التي شاركت في السقيفة ، أم عموم المهاجرين والأنصار الذين بايعوا أبا بكر مباشرة ، ولم يحتجوا على تلك البيعة ، أو يؤكدوا بطلانها لأن علياً هو الأحق بالبيعة؟

وقبل الردّ على هذا الادعاء ، ينبغي القول بأن النص الديني إذا كان متواتراً أو صحيحاً وثابتاً ، فليس من حق أحد أن يشكّك فيه لأن الناس يتخطّونه ولا يعيرون له أهمية ، لأن المعيار هنا هو النص ومضامينه وما يومئ إليه ، لا أن نُخضع النص للأمزجة الشخصية ونفرّغه من محتواه ومضمونه ، أو نشكّك فيه بالكامل ، لأن الناس تجاوزوه أو أهملوه بالمرّة ، سوى عدد قليل منهم في بعض الأحيان.

ألم يُشر القرآن الكريم إلى حقيقة ناصعة وهي ان أكثرية البشر وعلى الدوام ، يكرهون الحق ويخالفونه : وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) ١ ، (فلِمَ نستكثر على المسلمين تجاهلهم لقضية خلافة علي لرسول الله ، وتنكّرهم لوصاياه صلى الله عليه وآله في هذا النطاق ، بعد وفاته مباشرة؟

فقيادات قد غرّتها الحياة الدنيا وعرضُها ، لم تلتفت إلى خطورة الخطوة التي قامت بها من عصيان الرسول بتخطّي النص النبوي الصريح في تعيين عليّ خليفة له ، وقرارها الاجتماع في السقيفة وانتخاب خليفة من بينها ، بعد ان أحسّت ان

قريشاً وبعض المهاجرين لم يرق لهم أن يكون عليّ خليفة للمسلمين ، وخشيت أن يكون الحاكم من المهاجرين ، ولذا سارع الأنصار إلى الاجتماع في السقيفة قبل ان يكتشف المهاجرون خطّتهم وأمرهم ، إلا ان أبا بكر وعمر بن الخطاب وأبا عبيدة الجراح وهم من كبار المهاجرين ، أحسوا بالخطة ، فانطلقوا صوب السقيفة ، وجرى ما جرى من شِجار وتطاحن وتنافس قبائلي ، أدى إلى اختيار أبي بكر ، والأنصار الذين أُستغفِلوا لم يعوا إلا وقد دوهموا من قبل أعوان الخليفة أبي بكر الذين أكرهوا الكثير من الناس على البيعة للخليفة المُنتخب) ٢ ، (وعندما أقدم بعض الأنصار على البيعة ، أُسقط في ايدي جموع المهاجرين والأنصار ، فانهالوا بالبيعة ، وقد نسوا أو تناسوا أنَّهم بايعوا علياً في غدير خم ، وغفلوا عن العشرات من أوامر الرسول ووصاياه في حق عليّ ووجوب تولّيه حكم الأمّة وإمامتها من بعده.

أما عليّ الذي كان بيت القصيد ، وهو المُعيَّن من قِبل رسول الله ، فقد كان منشغلاً

بمراسم تغسيله ودفنه صلى الله عليه وآله ، ولم يكن يتوقع أن يقفز المسلمون . مهاجرين وأنصاراً . على أوامر الرسول ووصاياه التي أدلى بها طيلة البعثة المظفَّرة ، وخاصة بعد حجّة الوداع في غدير خم بمحضر عشرات الآلاف من الصحابة وغيرهم.

وحين واجه عليّ ، الانصار وجهاً لوجه ، وعيّرهم بخذلانهم له وهو المُعيّن من قِبل الرسول صلى الله عليه وآله ، قالوا إنهم قد بايعوا أبا بكر ، ولو أتى قبل ذلك ، لم يكونوا قد قدّموا عليه أحداً ، وكان جوابه : أيدع رسول الله لم يُدفن بعد ، ويذهب ليطالب بحقه؟.

ولم يكن علي ولا فاطمة بنت رسول الله ، كاذبَين حين انطلقا إلى أحياء الأنصار لسؤالهم النصرة له ، وهو الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله إنه مع الحق والحق معه حيث دار ، ولا فاطمة التي قال عنها أبوها صلى الله عليه وآله بأنها بضعة منه ، يؤذيه ما يؤذيها ، ويرضى الله لرضاها ، ويسخط لسخطها) ١.(

كيف بادرا إلى طلب النصرة من الأنصار إذا لم يكونا على حق بيّن ، وان علياً كان مُعيّناً ومنصّباً من رسول الله ، ولذا طالب بحقه في الخلافة التي تقمّصها غيره؟

والغريب ان الذين رفضوا البيعة لأبي بكر ، كلهم من بني هاشم ، وأهل البيت الذين أوصى بهم . رسول الله . خيراً وان الأمّة يجب أن تتبعهم وتطيعهم وتأخذ أحكام الشريعة منه دون غيرهم ، لأن الله طهَّرهم من الدنس وأذهب عنهم الرجس ، وجعلهم الهداة للأمّة ، وسُفن النجاة ، وعدْل القرآن والثقل الآخر له ، ولا يفترقون عنه إلى يوم القيامة ، وبالطبع امتنع عن البيعة ، فضلاً عن بني هاشم وأهل بيته صلى الله عليه وآله ، بعض الصحابة الكبار من أمثال سلمان والزبير والمقداد وعمار وأبي ذر وغيرهم) ٢.(

لما يا تُرى رفض أهل البيت ، البيعة لأبي بكر؟ وهم الذين كانوا ملازمين للنبي صلى الله عليه وآله ليلاً ونهاراً ، يتعايشون مع همومه وتعاليمه وأوامره ونواهيه ، بل ومن أكثر المسلمين صحبة له بالمفهوم اللغوي والاصطلاحي للصحبة .ونحن هنا نعني بأهل البيت ، علي وفاطمة والحسن والحسين ، وإن كان الأخيران صغيرين إلا انهما كانا واعيين لمجريات الأمور.

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وآله قد مات ولم يعيّن أحداً خليفة له ، فلتحرّك علي وفاطمة ، واستنكرا بيعة أبي بكر ، ومعهما بنو هاشم وثلّة من الصحابة؟

ان هذا التحرّك والاستنكار ، يعكس موقفاً موحّداً يدل على ان رسول الله كان قد اتخذ قراراً بشأن من سيخلفه وقد عرفه جميع المسلمين ، إلا ان التهاون من قِبَل المهاجرين والأنصار ، والموقف الرافض لخلافة علي للرسول مِن قِبل زعامات قريش ، ومن يعاضدها من المهاجرين ، فضلاً عن الذين استهوتهم الدنيا واندفعوا لعصيان الرسول في موضوع خلافته ، ومنّتهم أنفسهم لتسنّم سدّة الخلافة والحكم بالرغم من ان رسول الله بيّنه في مواقف سابقة له ، وختم ذلك في واقعة الغدير الشهيرة ، وما رافقها من نزول آيات محكمات ، تدلّ بما لا يدع مجالاً للشك بأنها نزلت في مسألة خلافة الرسول صلى الله عليه وآله والمعني بالطبع عليّ لا غيره.

٣ . بعد أن استحوذ أبو بكر على منبر الرسول ، وبايعه أكثر المهاجرين والأنصار ، طوعاً أو كرهاً ، بقي في بيت علي وفاطمة ، جمع من الصحابة وبني هاشم ، وقد اعتصموا مع عليّ في البيت ، وأبوا البيعة لأبي بكر ، لأنه ليس الخليفة المُعيّن من قبل رسول الله ، أي ليس الخليفة الشرعي الذي يمتلك مقوّمات الحكم ، من عِلم وقوة وشجاعة وحِنكة وحكمة ، كما أكد ذلك صلى الله عليه وآله في الكثير من المناسبات في حق عليّ بن أبي طالب.

ولمّا كان عمر بن الخطاب على قناعة تامة بأن الحكم لا يستقر لأبي بكر ، إذا لم يُرغَم المعتصمون في بيت الزهراء على الاستسلام بلا قيد أو شرط ، وبالأخص عليّ ، والبيعة لأبي بكر ولو كانت البيعة مُكرهة.

نصح عمر أبا بكر بوجوب إكراه علي وصحبه على البيعة مهما كان الثمن.

وحينئذ لم يجد القوم مفرّاً من الهجوم على بيت علي وفاطمة ، وكان يعتصم فيه . إضافة إلى أهل البيت وبني هاشم . بعض الصحابة الكبار ، مثل طلحة والزبير وعمّار وابي ذر وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود التميمي وغيرهم.

إن هجوم عمر بن الخطاب ورفاقه على بيت الزهراء ، والتهديد بحرقه على من فيه ، وفيه بنت النبي وصهره علي ، وسبطاه الحسن والحسين وبنو هاشم ، يعني لم تبق قداسة لعترة النبي والمقرّبين منه حتى الزهراء ابنته ، لم يستثنِها المهاجمون من التهديد ، إذ لو لم يخرج المعتصمون من بينها ، لتم حرقه فعلاً على كل من فيه ، حتى فاطمة وزوجها علي ، وكانت نبرة عمر قوية وجادّة في التهديد إلى درجة ، انه عندما قيل له ان فاطمة فيه : قال : وإنْ) ١.(

ومنذ تلك اللحظة ، بدأت قداسة أهل البيت بالانحسار من نفوس الكثير من المسلمين تدريجياً ، وبالذات قداسة عليّ الذي كان كالنجم لا يُطاوله أحد في حياة رسول الله ، ولا يسمح صلى الله عليه وآله أن يمسّه أحد بكلمة سوء.

ومهما يكن من شيء ، فإن بيت) علي وفاطمة (الذي كان من كرام البيوت التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ، قد تعرّض من قبل المستحوذين على حكم الأمّة بعد

رسول الله ، الى الحصار والهجوم والمُفاجئ ، بدون إذن أصحابه ، والتهديد بالحرق وتوفيت فاطمة بنت رسول الله بعده بستة أشهر . غمداً . ودُفنت ليلاً دون أن تأذن للخليفة الأول وصحبه بحضور الصلاة والدفن ، ووُريت الثرى في مكان مجهول.

لماذا اضطر علي للبيعة؟

وبعد رحيل فاطمة الزهراء ، أحسّ عليّ أن قرار قتله الذي أصدره أصحاب السلطة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ، كان جارياً ومفعولاً إذا لم يبايع ، وذلك لأنه إن لم يُعلن البيعة التي هي بيعة مُكرهة في كل الاحوال . لأبي بكر ، فسيكون محطاً لكل الرافضين لبيعة الخليفة الأول وكانوا مُكرَهين عليها ، أو الذين ندموا لبيعتهم لأبي بكر ، أو الذين تذكّروا بأنهم بايعوا علياً . قبلاً . في غدير خم بأمر من رسول الله ، وانه هو الأحق والأولى بالخلافة لتأكيد الرسول عليه في مناسبات عديدة ، وبالنتيجة يصبح عليّ ملاذاً للمعارضين الذين وعوا حقيقة المجريات بعد أن أُستغفلوا من قبل التيار الذي ركب الحكم خلافاً لما أوصى به النبي المختار صلى الله عليه وآله.

أما لو بايع عليّ ، فسينفضُّ عنه اناس . حسب منطق التيار الحاكم وعلى رأسه أبو بكر وعمر بن الخطاب ..

كما ان علياً إذا لم يبايع ، فسيكون مصيره القتل في كل الأحوال من قبل الحكّام وقريش التي لا تسكت ولا ترضى باجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم ، فتعلنها حرباً شاملة على أهل المدينة بإقرار عمر الناطق باسم قريش الرافضة لحكم علي بعد النبي صلى الله عليه وآله) ١.(

ولما كانت رؤوس قريش تعتقد بأن الأنصار لن يقبلوا بأحدهم خليفة للرسول . وهم الطلقاء والمؤلفة قلوبهم ، سواء كانوا من بني أمية أو غيرهم . فسلَّموا أن يكون الخليفة من المهاجرين ومن الصحابة الكبار ، حيث سيرضى الأنصار ويسلّمون له بالخلافة كما جرى في السقيفة وما بعدها.

كل تلك الحقائق أدركها عليّ ، ولذلك بايع مُكرهاً ، ولأنه إن لم يبايع ، فسيُقتل حتماً وسيواجه أهل البيت قمعاً وتصفية من قبل قريش وأعوانها في المدينة ، ولغزت قريش المدينة واقتلعت الاسلام من الجذور ، أو بقي الدين . على أقل تقدير . شكلياً . ليس له أية صلة بالإسلام الذي جاء به البشير النذير.

إن تصفية أهل البيت . وبالذات عليّ . يعني أفول المصدّر الذي يصحّح المسيرة الاسلامية من الانحراف الكامل ، كما ان وجود أهل البيت والائمة الاثني عشر الذين بشّر بهم رسول الله ، كحجج الله على الأرض ، أمر ضروري لتثبيت شرع الله ، وهم الذين وعد بهم الرسول في العديد من الأحاديث الشريفة ، وبهم تثبت الحجة على البشرية ، وبهم تُقوَّم الأمّة من السقوط في مهاوي الانحطاط التام.

ان الارتداد عن الاسلام الذي بدأ قبيل وفاة الرسول ، واشتداده في أوائل عهد أبي بكر ، والاوضاع الحرجة التي كانت تشهدها الجزيرة العربية ، فضلاً عن تهديد الروم من جانب بلاد الشام ، والخوف من تهديد قريش الذين كانوا لا يروق لهم أن يتبوأ عليّ منصب الخلافة بعد رسول الله ، وما تؤدي إليه كل هذه التحديات من تفتيت المسلمين وتآكل دولتهم الفتية ، كل هذه الأسباب والعوامل دفعت بعلي إلى المسالمة مع الحاكم والخليفة الجديد الذي حكم الأمّة بعد الرسول صلىاللهعليهوآله ، والذي لقي دعماً من أكثر المهاجرين والأنصار ، فضلاً عن قريش بالرغم من ان الخليفة الحقيقي لرسول الله وهو عليّ لا سواه.

تخلى عليّ عن المطالبة بحقه بالخلافة كما أوصاه بذلك النبي صلى الله عليه وآله ، وأشهد الأمّة على ذلك في واقعة الغدير ، لمّا اقتنع بأن لا نجاح لمساعيه باقناع الأمّة بوجوب التخلي عن بيعة أبي بكر غير الشرعية والتي جرت على غفلة من الأمّة التي بايعت أبا بكر ، متناسية أو ناسية بأن الخليفة الشرعي للرسول هو علي لا غيره.

فماذا يفعل عليّ إذاً؟ لابد أن يُسالم الذين استحوذوا على الحكم والخلافة بدلاً منه ومن أهل بيته ، صيانة للدين الذي يواجه تحديات خطيرة من كل النواحي ، مع التذكير بحقه في الخلافة والحُكم ، كحق مفروض من قبل الله ورسوله ، وليس من حقه أن يتخلّى عنه طواعية ، كما ان ال أنبياء ليس من حقهم التخلي عن المنصب والمسؤولية التي خوّلهم الله تعالى بها ، على حد نص الآية الكريمة على لسان رسول الله : قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) يونس ١٦ .(ولهذا فحق علي في الخلافة بقي محفوظاً له ، وينتظر الظروف المناسبة لممارسته على أرض الواقع ، أما إمامته ، فمارسها ازاء الأمّة بالقدر الممكن ، بالرغم من الإقصاء الذي مورس بحقه وبحق أهل بيته ، وبعض الصحابة الذين وفّوا بعهدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وتعبّدوا بنصوصه التي تؤكد ان علياً هو الخليفة الشرعي بعده بأمر من الله تعالى ، وان أهل بيته هم القادة للأمّة على المستويين الديني والدنيوي ، فهم أئمة وهم خلفاء لرسول الله.

هؤلاء الصحابة ، ومعهم أتباع أهل البيت على مرّ الزمان ، هم الذين عناهم رسول الله في قوله تعالى» : يا علي أنت وشيعتك الفائزون يوم القيامة تأتون هداةً مهديين ويأتي أعداؤكم غضاباً مقمحين) «١.(

وذلك لأن الرسول بوحي من الله تعالى ، ولعلم الله بأن الأمّة ستغدر بخليفة النبي صلى الله عليه وآله ، أي عليّ بن أبي طالب ، فقد ذكّر صلى الله عليه وآله المسلمين بأن هؤلاء الصحابة الذين شايعوا علياً وتابعوه بعد أن خانته الأمّة ،

والذين ساروا على نهجه على مرّ الازمان هم الفائزون يوم القيامة ، أما أعداء علي وخصوم أهل بيته ، فهم الخاسرون . وإلا ما معنى استثناء الرسول لعليّ وشيعته بالفوز يوم القيامة دون جميع الصحابة والمسلمين على مرّ التأريخ؟

سالمَ علي الذين ساهموا في سلب حقه في خلافة رسول الله ، وقام بتوجيه النصائح لهم ، تصحيحاً لسلوكهم ، لكي يقلّل من مستوى الانحراف في مسيرة الأمّة بفعل تصدّي الذين كانوا غير مؤهّلين للحكم بعد رسول الله ، وعدم تعطيلها ، والإجابة عن إستفساراتهم في المسائل التي يجهلونها ، وكل هدفه في ذلك ، تضييق فجوة الاختلاف بين ما يريده الله تعالى ، وما يطبّقه ويسلكه المتصدّون لسدّة الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، في وقت يحاول أن يقيم الحجّة على الأمّة بأنه هو الخليفة الشرعي المُعيّن من قبل الله تعالى ، وذلك بأسلوب غير استفزازي حفظاً على تماسك عِقد الأمّة من الانفراط.

وحين أوشك الخليفة الأول على الموت ، وكان قد مرض مرضاً شديداً ، انتفض الكثير من الصحابة ، وطلبوا منه أن يوصي بالخليفة من بعده ، حتى لا تضيع الأمّة وتتشتت من بعده) ١ ، (وكأن هؤلاء أحرص من رسول الله على مصير الأمّة ، وأعلم منه بأن الحاكم يجب أن يعيّن خلفاً له ، حتى تبقى الأمّة موحّدة غير مشتتة ، وذلك لوجود الراعي الذي يمنع تشتتها وتمزّقها وتوزّعها وتكالب الاعداء عليها ، وكأن الرسول الذي

كان مُسدَّداً من قبل السماء ، وهو مدينة العلم ، وأعلم الانبياء إطلاقاً ، لا يبالي بمصير الأمّة من بعده ، فتركها للمقادير ، تفعل بها ما تشاء ، والرياح تهزُّها يميناً وشمالاً وربما تقلعها من الوجود ، عسى أن تجتمع الأمّة أو بعضها ، وكيفما شاءت ، لاختيار حاكم عليها ، دون أن يحدَّد النبي صلى الله عليه وآله ، شروط الاختيار ، والذين يجتمعون ، وكم هو عددهم ، الطريقة التي ينتخبون فيها أحدهم ، والشروط والخصائص المتوافرة في الحاكم أو الخليفة ، وإنما ترك كل ذلك للأمّة» ببصيرتها النافذة «و»فراستها العميقة.!!«

ولم يحدِّد رسول الله ، مَنْ المكلّف لانتخاب الخليفة؟ هل هم كل المسلمين برمتهم؟ أم وجوههم؟ أم الصحابة الكبار فقط؟ أم وجوه المهاجرين والانصار؟ ولم يُحدِّد الأسماء ولا الصفات والخصائص؟ وانما ترك ذلك كله إلى الصدَفْ والمقادير!؟.

تُرى لو حدث صراع مرير بين مختلف المتنافسين على الخلافة ، وأدى ذلك إلى اقتتال عنيف بينهم ، ومن ثم إلى حرب دموية بين المهاجرين والأنصار ، فماذا كان مصير الأمّة؟ وكل الاحتمالات كانت واردة ، ولم يكن هناك حائل دون وقوعها؟ فهل هذا يعني غير ان خاتم الأنبياء لم يكن يبالي بمصير الأمّة الخاتمة التي هي آخر الأمم ، وانه رجل لا يعمل طبق الحسابات أبداً ، رَحَل ووضَعَ مصير الأمّة في مهب الريح أو على كف عفريت والعياذ بالله!!

وفي الوقت الذي لم يلتفت الرسول إلى هذه العواقب الوخيمة التي تنتظر أمّته ، نجد صحابة من أمثال عبد الله بن عمر أو عائشة ، انتبهوا إلى تلك المخاطر المحتملة.!!

والعجيب ان أبا بكر عندما كان على فراش مرضه الأخير ، وأراد أن يوصي ، لم يقل أحد أو يعترض ، بأن أبا بكر ربما كان يهجر أو غلبه الوجع مثلاً ، ويبدو ان جميع الناس إذا مرضوا وهم على فراش الموت ، لا يهجرون أو يهذون ، ويحق لهم الإدلاء بالوصايا ما يشاءون إلا رسول الله فليس من حقه كتابة وصيته لأنه يهذي ويهجر كي لا

يكتب وصيته التي لا تنسجم وتطلعات بعض الصحابة ، في حين انه صلى الله عليه وآله أبعد الناس عن الهذيان والهجر ، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو وحي يُوحى.

ومهما يكن ، كان المفروض من أبي بكر أن يقتدي برسول الله في مسألة الخلافة كما كان يدّعي ، ويدع المسلمين يختارون أحدهم تطبيقاً لقوله تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ١ ، (فلِمَ خالفه في قضية الخلافة والحكم ، لو كان الرسول صلى الله عليه وآله لم يستخلف كما يدّعي الجمهور!؟

لابد ان الخليفة أبا بكر كان مُتَّفقاً مع عمر بن الخطاب على توليته من بعده ، جزاءً للجميل ، وطبق اتفاق مسبق ، وهذه المُفارقة لا يمكن لأهل السُنّة أن يبرّروها مهما جهدوا وتذرّعوا بالاعذار الواهية!!

ولما رأى عليّ ان الأمّة قد استسلمت لحكم عمر بن الخطاب ، ورضيت به خليفة وحاكماً عليها ، إذ لم ينحرف الخليفة الثاني عن السُنّة النبوية بالصورة التي كان عليها خليفة عثمان بن عفان ، سالم علي عمر هو الآخر ، خاصة وان الجيوش الفاتحة كانت تتوغل في أعماق آسيا وأفريقيا ، وبالتالي أخذ علي دور الناصح للحكومة وأعوانها ، يسألونه فيجيبهم ، ويحاول بكل جهده ، إجراء الحدود والأحكام الشرعية قدر الامكان ، ولكن ليس بالشكل الاستفزازي الذي يقود إلى المواجهة مع النظام الحاكم أو الصراع مع رموزه ، وذلك لأنه كان يُؤثر التعايش مع الوضع القائم ، حماية للإسلام الذي كان يواجه تحديات داخلية تتمثل في قريش والمنافقين ، وخارجية تتمثل في الروم.

عليّ ورعاية الظروف الحرجة

سالَمَ علي الخليفة عمر ، ليس تنازلاً منه عن الخلافة التي هي مسؤولية إلهية مقدسة ، لو أتيحت له الظروف المؤاتية لمارسها بعد وفاة الرسول مباشرة ، لكن قريشاً ومن آزرها من المهاجرين والأنصار ، أبوا إلا أن يمنعوها عنه ، وليس لعليّ قوة مُساندة تدعمه لعودة الأمور إلى نصابها ، من أعوان مخلصين يعيدون الكفة إلى جانبها ، إلا قلة من الصحابة الذين وقفوا إلى جانبه غير انهم لا يستطيعون تغيير موازين القوى.

إن أيَّ موقف إستفزازي من عليّ في هذا النطاق ، سيثير الفتن والبلايا ويجرّ المِحن على الأمّة ، ولذا سالَم بانتظار الفرص السانحة لعودة الأمّة إلى رشدها وأوبتها إلى الطريق الذي رسمه الله ورسوله لها ، ثم ان علياً كان مُراقبا من قبل السلطة ، فضلاً عن بيعته المكرهة للخليفة الأول والثاني ، وأي موقف يشير إلى أحقيته للخلافة ، يؤجج الأوضاع ويحرّك بعض الصحابة والجماهير باتجاه كشف الحقائق ، ويؤدي إلى التفافهم حوله مما يُحرّك السلطة لقمع هذا التحرّك المحدود وتقويضه وتصفية أفراده ، ومن بينهم عليّ نفسه ، مما يؤول بالأمور إلى ما لا يُحمد عقباه ، وتفلت الأمور باتجاه انقسامات وصراعات تقوّض الدولة الإسلامية من أساسها ، وربما تستغل الزعامات القرشية من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم والمنافقين ، لتسلّم الحكم ، وهي ـ بالطبع ـ أسوأ من الخليفة الاول والثاني بكثير ، مما يؤدي إلى محق الاسلام بالكامل وإزالته من الوجود.

كل تلك الاحتمالات كانت واردة وجدية ، وكان علي ليس مستعداً ـ وهو المُسدَّد من قبل الله ـ أن يتحرّك بما يسيء إلى مستقبل الأمّة ويعجِّل بانحرافها وسقوطها ـ تماماً ـ وتفتتها كالامم السابقة ، وانما مارس سياسة حكيمة .. بالغة الدقة للحفاظ على الامّة ولو بأقل شكل من أشكال الوحدة والتماسك حتى لا تنهار ـ فجأة ـ وهي الأمّة الخاتمة التي

ينبغي أن تبقى موحّدة ـ ولو شكلياً ـ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وفعلاً ... وفّى علي بوعده ... وانتهى حكم الخليفة الثاني بمقتله ، وقرر عمر بن الخطاب ، وهو على فراش الموت ، أن يجعلها شورى بشكل صوري ، من خلال اختيار ستة من الصحابة ـ أحدهم عليّ نفسه ـ لكن الخلافة لم تستقر إلا لعثمان بن عفان.

تُرى لِمَ اشترط عمر ، إذا تساوت الأصوات ثلاثة مقابل ثلاثة ، ان يكون الفوز إلى جانب الكفة التي فيها عبد الرحمن بن عوف؟ ثم لِمَ يُقتل هؤلاء الصحابة الكبار ، لو لم يصلوا إلى نتيجة خلال ثلاثة أيام؟ وهُم حسب قول الجمهور ، من أكابر الصحابة الذين وصّى بهم النبي ، وهم من العشرة المبشَّرة بالجنّة كما يزعمون؟) ١(

بل لِمَ اختار عمر بن الخطاب هؤلاء الستة دون غيرهم من الصحابة؟ وهم الذين وصف عيوبهم ومساوئهم إلا عليّ بن ابي طالب ، اعتبره أحق هؤلاء بالخلافة ، لأنه سيحمِّل الأمة على المحجة ، أي أنه سيكون على الحق والعدل والاستقامة في حكومته لولا ان فيه دعاية) ٢.(

إن عمر بن الخطاب أقرّ بأن علياً سيحمل الناس على الحق والصراط المستقيم ، وهو بذلك الرجل الوحيد المؤهل لأن يكون خليفة وحاكماً للمسلمين ، وسيصون الامّة من الانحراف والشطط ، فلِمَ لم يعيّنه منذ الأول ويريح الأمّة ، كما عيّنه أبو بكر ـ هو بالذات ـ خليفة له من قبل ، حتى لا تسير الأمور إلى جانب عثمان بن عفّان كوْن قريبه ابن عوف الى جانب كفته ، وحدث ما حدث من تسليط بني أمية على رقاب المسلمين كما كان يتوقع عمر؟

إن عمر كان يدرك منذ الأول أنَّ علياً هو المؤهل الوحيد للخلافة ، وانه مع الحق لا يزيغ عنه أبداً ، لكنه كان لا يرضى به خليفة لأن قريشاً لا ترضى به خليفة ، كما كان عمر نفسه لا يستسيغ أن يتبوأ بنو هاشم الخلافة مطلقاً ، كما هو تصريحه على الدوام وفي مناسبات متعددة.

وعموماً ، كانت الشروط التي طرحها عبد الرحمن بن عوف على علي للقبول له كخليفة ، والتي أبرزها السير على سُنّة الرسول ، وسنّة الخليفتين أبي بكر وعمر ، غير منطقية وتخالف الأوامر الالهية ، والتعاليم النبوية التي تؤكد إتّباع السُنّة النبوية فحسب إلا ان إبن عوف كان يعلم بأن عليّاً لا يتنازل عن مبادئه بأي حال من الأحوال ، وانه ليس على استعداد للسير على سُنّة الخليفتين القبليين التي تخالف في الكثير من مضامينها ومفرداتها ، السُنّة النبوية ، كما ان سُنّتي الخليفتين نفسهما ، متضادتان في بعض النواحي ، فعلى أيهما يسير يا تُرى؟ فضلاً عن ان عليّاً لا يخلف الوعد مطلقاً ، وليس من طبعه ان يقبل شروطاً ثم لا يفي بها عند تسلّم سدة الحكم ، وكذلك لم يقبل الشرط الآخر الذي فُرض عليه وهو أن لا يجعل أحداً من بني هاشم ، من ولاته وعماله على الأمصار ، إذ أن في بني هاشم ، رجالاً أكفّاء ونزيهين ، لا يستطيع الاستغناء عنهم في حال قبوله هذا الشرط التعجيزي أيضاً ، ولذا رفض الشرط كذلك ، أما عثمان بن عفان المتعطش للسلطة ، فقبل بتلك الشروط ، وأصبح خليفة ثالثاً ، ولم يفِ بالشروط التي كانت سبيلاً لتصدّيه لخلافة المسلمين ، فهو قد سلّط بني أمية من أقاربه وأخوته على رقاب المسلمين وعينهم ولاة له كما هو معلوم ، ثم إنّه كثيراً ما اِشتط عن السُنّة النبوية وخال سُنّة الخليفتين أبي بكر وعمر ، وكان في كثير من سياساته ، يتبع سُنّة خاصة به ، من محاباة بني أمية في أموال المسلمين ، إلى ابتداع أحكام شرعية تخالف من سبقوه ، كإتمام الصلاة في السفر وما إلى ذلك ، حتى ان عائشة قالت بأن قميص النبي لم

يُبل وقد أبلى عثمان سُنّته) ١ ، (وهو بالتالي قد أخلَّ بالشروط التي وضعتها لجنة الشورى بقيادة عبد الرحمن بن عوف حيث كان قبوله بتلك الشروط سُلماً لخلافته وحكم للمسلمين.

إشكال وجيه

وقد يعترض الجمهور ويستدل على عدم استخلاف رسول الله لعليّ بن أبي طالب ، بأن علياً نفسه كان يتهرّب من الخلافة بالرغم من اندفاع المسلمين .والجواب على هذا الإشكال ، هو ان علياً ، بعد ٢٤ عاماً على وفاة الرسول الذي عيّنه خليفة له بأمر من الله تعالى ، لم يكن يتوقع أبداً أن تعود الأمور إلى نصابها الطبيعي كالتي كانت في أواخر العهد النبوي ، إذ أن الانحرافات التي تلت وفاة الرسول والتي انتهت بالفتنة العمياء أيام الخليفة الثالث ، قد تجذّرت في جسد الأمّة الاسلامية ونخرت فيه من كل ناحية ، ناهيك عن عملية إزاحة أهل البيت عن موقعهم الأصلي الذي بوأهم الله تعالى له ، وخاصة عليّ نفسه الذي هُمِّش موقعه كثيراً ليصبح رجلاً كسَوَقة الناس ، فكيف يرضى أن يصبح خليفة وهو يتسلم تركة ثقيلة من الانحرافات والتجاوزات على الدين والأمّة المغلوب على أمرها؟ وحينما أصرّ المسلمون

بأجمعهم ـ بضمنهم سائر المهاجرين والأنصار ـ باستثناء بني أمية وقلة قليلة من الصحابة ، وأصرّوا على مبايعته طواعية دون أن يسمحوا له بالرفض والامتناع ، اقتنع علي بأن الحجة قائمة بوجود هؤلاء المبايعين ، فأذعن لأن يكون حاكماً شريطة ان يحمّلهم على المحجة والحق الصريح لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، فقبل المبايعون بشرطه ، وبايعوه إلا ثلاثة من الصحابة لم يبايعوه على

القتال ، وهم عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة ، بالرغم من اعترافهم بفضله ومنزلته الرفيعة وعدم معاداته والاصطفاف إلى جوار اعدائه ومحاربيه أبداً ، فلم يرغمهم على البيعة له وإنما تركهم أحراراً في اتخاذ القرار طالما لم يصطفّوا مع أعدائه.

عليّ والتطبيق الحر في النصوص النبوية

لقد كان عليّ في ولايته التي أرْبت على أربع سنوات ونصف ، منهمكاً في إصلاح ما فسد من أمور المسلمين في العهود السابقة ، غير انه واجه عصياناً من أطراف عديدة ، سواء من الذين بايعوه ونكثوا البيعة ، أو من معاوية وأهل الشام ، أو من المارقين الذين انقلبوا عليه خلال حرب صفين ، ولو لم يُواجَه علي بن ابي طالب من قبل كل هؤلاء ، لأصلح الاوضاع التي اختلت بعد وفاة الرسول ، وأعاد الأمور ـ نوعاً ما ـ إلى نصابها ، وهو الذي نبّه جماهير الأمّة إلى أنه إذا تسلّم الحكم فلا تطيقه الأمّة ، خاصة بعد عقود من الانحراف ، وذلك لأنه سيطبّق السُنّة النبوية حرفياً ، ولا يجعل للاجتهاد الشخصي أي موضع أمام السُنّة النبوية المطهّرة ، كما فعل الخلفاء الثلاث الذين سبقوه واجتهدوا في كثير من الأمور مقابل النصوص القرآنية والنبوية ولم يجدوا حرجاً في ذلك.

وكان عليّ قد حذّر المسلمين ، بأن تسلمه للحكم بعد تلك التغييرات والتلاعبات في الاحكام الشريعة والتعاليم الدينية بحجة إعمال الاجتهاد ورعاية المصلحة والإستئثار ببيت المال وتوزيعه بطرق غير مشروعة وغير ذلك من الإجراءات الملتوية ، والأمّة التي أذعنت لتلك الانحرافات ، ستصطدم بالتطبيق الفوري للسُنّة النبوية والعودة بها إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله ، غير ان الأمّة المنكوبة كانت تندفع بجموح ، متوقعة ان الاصلاح سيتم بكل سهولة وبدون معوقات ، غافلة ان الأحقاد كانت ما تزال تعتمل في نفوس قريش

وبني أميّة وبعض الصحابة ضد عليّ ، ولا تطيق أن تراه خليفة على الأمّة ، وإن أجمع المسلمون على بيعته ، وهذا ما حدث من قبل عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وبني أميّة وآخرين ، وأشعلوها حروباً متتابعة ضد علي وشيعته ، ولم تنته إلا بعدما خرّ عليّ صريعاً في محراب الكوفة.

وفي عهده ، تطابق الأمر الالهي مع بيعة الأمّة له بالخلافة ، وكان مثال الانسان العادل النزيه الذي لم يستغل الحكم لمآرب شخصية أو فئوية أو عائلية ، وإنما كان ينتقي العمال والولاة على أساس الكفاءة والاخلاص ، وإذا رأى تقصيراً

أو عجزاً من أحدهم ، يعزله فوراً ، إذ لا محاباة منه لأحد في هذا الخصوص ، لكن البعض وللأسف ، لم يطق تلك العدالة والنزاهة المطلقة التي كان يتمتع عليّ في كل دقائق حياته ، لأن الحقد والطمع والحسد كان ينخر في قلوبهم بحيث لم يعودوا يميِّزون بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر.

وحسب اطلاعنا ، ان الكثير من أتباع عليّ وشيعته لم يكونوا بالمستوى المطلوب من التقوى والمسؤولية والاخلاص للدين ، ولذلك كانوا ينكصون في المواقف الصعبة ، ويعصون الخليفة الرابع بين الحين والآخر ، وانا يحذرهم ويوبخهم دون ان تأخذه في الله لومة لائم ، فهو لم يجامل أحداً في حياته على حساب المبادئ والعقيدة وتعاليم الدين ، ومع ان عاصمته الكوفة ، بل وأهل العراق عموماً ، ذلك النقد اللاذع الذي ينبع من حرص ومسؤولية والتزام مُطلق بالتعاليم الالهية ، فلم يعرف معنىً للمداراة والمحاباة على حساب الشرع المقدس ، لأنه كان مُسدَّداً من قبل الله تعالى ، فهو دائماً مع الحق والقرآن الكريم ، وضد الباطل في كل مواقفه وتحرّكاته وسكناته ، كما أكد رسول الله في الكثير من الأحاديث التي أدلى بها طيلة فترة البعثة المباركة ، والتي كانت تجعل من عليّ فيصلاً ومقياساً للحق والباطل.

وإذا كان البعض أو الكثير من اتباع عليّ وشيعته ، لا يتقيدون بوصاياه وأوامره ، أو يعصونه مباشرة بالرغم من اعتقادهم الراسخ بأنه وصي الرسول وخليفته والامام من بعده ، فهذا ليس غريباً منهم ، لأن الكثير من المسلمين في عهد رسول الله ، كانوا يعصون أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وهو بين ظهرانيهم ، وكان الله تعالى يوبخهم في قرآنه الكريم ، مع انهم كانوا يؤمنون بالله وبكتابه وبرسوله.

بين تيار الخلفاء وأتباع أهل البيت النبوي

وبعد رحيل عليّ ، بدأ عهد جديد ، وتصدّى خلفاء وحكام ، يتلاعبون برعاياهم المسلمين ، ويبدّلون أحاكم الله كما يبدّلون قمصانهم والبستهم ، ولم يكن لأحد من الرعايا حق الردّ أو الاعتراض ، فالرعية وبضمنها العلماء والفقهاء ، عليها الإصغاء للخلفاء باعتبارهم أمراء للمؤمنين ، لا يحق لأحد تصحيح أو إصلاح مواقفهم وسلوكهم وممارساتهم الخرقاء ، وانما على المسلمين إطاعتهم وإن شطّوا عن تعاليم الاسلام وإبتعدوا عن القرآن والسُنّة النبوية ، فتهافت العلماء على اعتاب الحكام ، خوفاً أو طمعاً ، بينما لم نرَ أحداً من الحكام يدنو من أعتاب العلماء إلا نادراً ، وعليه أصبحت أحكام الله ، العوبة بيد أمراء المؤمنين ، يسخّرونها طبق أهوائهم ومصالحهم ومنافعهم الضيقة بما يكرّس »شرعية «حكمهم ويضفي عليه هالة من القداسة والشرعية ، تدعم استمراره وديمومته وهيمنته على رقاب المسلمين.

ويبدو أن الحكّام قد اقتدوا بفرعون الذي قال لقومه : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) ١ ، (وكانت النتيجة الحتمية : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) ٢.(

وأول الحكّام أو الخلفاء من هذه الشاكلة ، كان معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح أميراً للمؤمنين بلا منازع بعد مقتل عليّ.

وفي بداية حكم معاوية أو العهد الأموي ، لم تكن هناك مذاهب إسلامية مُحدَّدة ، ولم يكن المسلمون قد انتظموا مذهبياً ، وانما كان هناك تياران ، التيار الأول : تيار الخلفاء ، وهم الصحابة والتابعون الذين انضموا تحت راية الخلفاء الأوائل ، أي أبي بكر وعمر وعثمان ، وتأثروا بأفكارهم واجتهاداتهم وآرائهم وأقوالهم ، وإن كانت مخالفة ومتعارضة مع القرآن والسُنّة النبوية ، وهم الأكثرية.

والتيار الثاني : أتباع أهل البيت وشيعة عليّ بن أبي طالب ، حيث كانوا يرفضون اتّباع أحد غير عليّ وأهل بيته بحكم النصوص الثابتة المنقولة عن رسول الله الذي كان واضحاً في وصاياه في هذا المجال ، إذ حصر صلى الله عليه وآله أخذ الدين والسُنّة عن أهل بيته ، وهم فضلاً عنه ، أربعة في عهده : عليّ وفاطمة والحسن والحسين ، وأشار إليهم تحديداً دون غيرهم من بني هاشم ، وهم إمتداد له وخَزَنة لعلمه حيث أودع سُنّته فيهم ، بناسخها ومنسوخها وعامها وخاصها ، ومطلقها ومقيدها ، وهم عِدْل القرآن ومفسّروه والعارفون بعلومه وتنزيله ، لا يفترقون عنه إلى يوم القيامة ، وهم سفن النجاة ، من اتّبعهم نجا ومن تخلّف عنهم غرق وهوى.

ولا يحق لأحد أن يتقدمهم أو يتأخر عنهم ، لأنه بذلك يكون قد افترق عنهم ، ويكون مصيره الانحراف والخسران المبين.

ولا ريب ان الشيعة لم يكونوا طارئين أو وُجدوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله سواء من يدّعي انهم نشأوا بعد حرب الجمل ، أو بعد النهروان ، أو بعد واقعة كربلاء ، بل كان لهم وجود في عصر الرسالة ، كما بيّنا من قبل ، بناء على قوله صلى الله عليه وآله لعلي في مناسبات

عدة : يا علي أنت وشيعتك الفائزون يوم القيامة ، ولهذه التأكيدات النبوية الصريحة ، دلالة كبيرة على ان التشيع لأهل البيت ليس طارئاً ، وإنما كانت له أصول في العهد النبوي ، خاصة وإن أقوال الرسول متعاضدة على أن الذين يتبعون علياً ويتعبدون بأقواله وسيرته ويطيعونه في كل المواقف والممارسات ، هم شيعته الذين يفوزون معه يوم القيامة ، أما أعداؤه الذين يعصون أوامره ويحاربونه ، فهم الخاسرون في الآخرة.

والتيار الثاني الذي يتّبع أهل البيت وعميدهم عليّ ، فهو أقلية مقابل الأكثرية التي انزوت تحت ظل الحكّام طوال فترات التأريخ ، ونما التيار الأول . بالتدريج . إذ بدأ في عهد الخليفة الأول) أبي بكر (وأخذ يطيعه ويتقبل أقواله وآراءه واجتهاداته ، وإن كانت تبتعد عن القرآن والسُنّة النبوية ، وصار هذا التيار يتبلور بمرور الأيام في العهود اللاحقة ، وخاصة في عهد الخليفة الثاني والثالث ، وحين استحوذ معاوية بن أبي سفيان على حكم المسلمين ، بعد مقتل علي بن

أبي طالب وابنه الحسن ، انبرى لدعم التيار الأول وهو تيار الخلفاء على حساب التيار الثاني ، تيار أهل البيت وشيعتهم ، وكان معاوية يكنّ عداء صارخاً لاهل البيت ويقمعهم بكل السبل.

تبنّي معاوية لتيار الخلفاء وتكريسه في حياة الامّة

وبعد أن غدر معاوية بالحسن بن علي ، الخليفة الثاني من أهل البيت النبوي ، وضرب شروط الصلح معه بعرض الجدار ، صفا له الجو لتبني تيار الخلفاء ، وتكريسه على المستوى الفكري والعقائدي والفقهي ، وملاحقة رموز تيار أهل البيت الدينية والعلمية ، والتضييق على قواعده الشعبية المتواضعة وقمعها بشدة ، وخنق صوته ، وتشوبه سمعته على صعيد الرأي العام الإسلامي.

والحق أن بداية تكوين وتبلور ما يُسمَّى ب»أهل السُنّة والجماعة «انما كان في عهد معاوية حين دخل الكوفة ، وأعلن تمزيق وثيقة العهود التي أبرمها مع الخليفة الشرعي الحسن بن علي ، وسُمي ذلك العام بعام الجماعة) ١.(

ويبدو ان بوادر تشكيل المذاهب السُنّية ، بدأت منذ العام الذي استولى فيه معاوية على الحكم . عنوة . وأصبح معاوية في ذلك العام ، خليفة المسلمين وأمير المؤمنين . رسمياً . وحاكماً مطلقاً على الأمّة الإسلامية ، مع انه من الطلقاء ومسلمي الفتح ، الذين أسلموا مضطرين . هو وأبوه الذي كان يعلن استخفافه بالإسلام والرسول الكريم بين الحين والآخر ، ولعنه صلىاللهعليهوآله مراراً . والغريب مع وجود المئات من الصحابة الصلحاء ، وفيهم العالم والفقيه والمخلص ، كيف يصبح معاوية أميراً للمؤمنين ، ويخضع له الجميع؟ إنها من سخريات الأقدار!!

وعند التمعّن في سياسة الحكم التي اتّبعها معاوية أثناء عهده ، يتبين أنه هو الذي رسّخ المبادئ الاساسية والقواعد الأولى لأهل السُنّة والجماعة ، حيث قام:

١ . بالترويج لمظلومية الخليفة الثالث ، ودعوة المحدّثين لوضع الأحاديث على لسان النبي في مدح عثمان بن عفان وإبراز مكانته وفضائله المزعومة ، ثم توسّع معاوية ، فدعا المحدّثين والرواة من الصحابة وغيرهم لوضع أحاديث في فضائل ومناقب الخليفتين الأول والثاني كي تنطلي اللعبة على عقول المسلمين ، وأمر المحدّثين أن يضعوا أحاديث مشابهة ومطابقة للأحاديث الصحيحة التي أدلى بها رسول الله في حق أهل بيته وبالأخص في عليّ بن أبي طالب ، لكن في الخلفاء الثلاث الأوائل ، وكذلك في حق الصحابة ، وإحاطة هؤلاء بهالة من القداسة كبديل للقداسة الحقيقية لأهل البيت التي خصّهم بها رسول الله.

وكانت خطة معاوية في ذلك ، أن يستحوذ الخلفاء الثلاث الأوائل ، على دور أهل البيت وعميدهم عليّ ، من خلال تضخيم دور هؤلاء الخلفاء وتقزيم دور أهل البيت الذين واجهوا تشويهاً لسمعتهم ، وتعتيماً على مكانتهم ، وتمييعاً

لوجودهم الاجتماعي ، فعليّ الذي يُعدُّ عميد أهل البيت بعد رسول الله ، فرض معاوية سبّه على المنابر في جميع صلوات الجمعة في المدن والقصبات التابعة للحكم الاموي.

وفرض معاوية على الرواة والمحدّثين ، أن يقابلوا كل منقبة لعلي ، بمناقب موضوعة للخلفاء الثلاثة الأوائل والصحابة أيضاً.

وهنا بدأت ملامح المدرسة السُنّية تتضح شيئاً فشيئاً من خلال تعطيل دور أهل البيت ، ليصبحوا كسائر المسلمين ، فكما ان لأهل البيت فضائل ومناقب جمّة ، فإن للخلفاء الأوائل وعموم الصحابة ، فضائل ومناقب عظيمة أيضاً.

وجاء أصحاب السنن والصحاح والمسانيد ، ليضعوا أبواباً في فضائل الصحابة والخلفاء الثلاث إلى جانب فضائل أهل البيت ، وكأن الجميع سواء في الفضائل والمكانة السامية.

وعليه فإن الركائز الأولى لاهل السُنّة ، إنما وُضعت في بداية العهد الأموي ، واستمر معاوية بمنع تدوين السُنّة النبوية أسوة بالخلفاء الثلاث الأوائل ، وحين أحسّ بدنو أجله ، أرغم الأمّة على البيعة لابنه يزيد ، وخاصة الصحابة الكبار في المدينة المنورة ، مع علمه بانحراف يزيد وعدم التزامه بالفرائض الدينية ، فضلاً عن لهوه وعبثه ومجونه .واستسلم الجميع لهذا التوريث في الحكم إلا الحسين بن علي الذي رفض البيعة رغم كل الضغوط التي مارسها معاوية ازاءه.

وحالما تسلّم يزيد سدّة الحكم والخلافة ، إثر وفاة أبيه معاوية ، دعا الحسين للبيعة ، فأبى أن يبايعه ، خاصة وانه أي يزيد كان يجاهر بالفسق والفجور ، فأمر يزيد بقتله ولو

كان متعلقاً بأستار الكعبة ، فتأكد للحسين بأن القوم لن يتركوه أبداً ، في وقت بعثت نخبة من أهل الكوفة رسائل تدعوه للمجيء إلى هناك ومبايعتها له ، ويبدو ان هؤلاء من ضعاف النفوس المتذبذبين في مبادئهم ومواقفهم ، فسرعان ما انقلبوا عليه وغدروا به ، بالتنسيق مع عامل معاوية في الكوفة ، وذلك في موقع يُدعى كربلاء ، إذ ارتكب الجيش المدعوم من قبل يزيد بن معاوية وأعوانه ، أعمالاً وحشية لم يرتكبها أعتى الطغاة في التأريخ ، فتم قتل الحسين سبط رسول الله وريحانته ، وتصفية أبنائه وأهل بيته والعديد من بني هاشم وأصحابهم باسلوب بشع يفتقد لأبسط قواعد الانسانية والموازين الدينية والالهية ، فقد تم منع الماء عن الحسين وكل الذين معه من آل بيته حتى النساء والاطفال ، ثم قُتل الحسين وأبناؤه حتى طفله الرضيع والتمثيل بجثثهم وقطع رؤوسهم ومرور وسحق الخيول على أجسادهم ، وحرق خيم النساء والأطفال وسبيهم ، وضرب ظهورهم بالسياط ، وكلها أفعال لا تقرّها الشرائع الالهية والتقاليد الانسانية.

وقد جرت تلك المجزرة المروّعة ، في ظل حكومة يتصدّرها خليفة يعدّ نفسه أميراً للمؤمنين ، ومع تلك الواقعة الشنعاء التي لم يشهد لها التأريخ مثيلاً وراح ضحيتها حفيد الرسول وأهل بيته ، يأتي من يضع حديثاً عن رسول الله يزعم بأن

أفضل القرون هو قرنه ، هذا القرن الذي شهد تصفية لأهل بيته وأبنائه أشنع تصفية ، فعلى مَنْ تنطلي هذه الأحاديث الموضوعة؟) ١.(

ولم يمض سوى عام على مجزرة كربلاء حتى احتل الجيش الأموي . بأمر من يزيد . مكة المكرمة ورمى الكعبة المشرفة بالمنجنيق ثم تلاها في العام الآخر ، احتلال المدينة المنورة ، والقيام بمجازر وحشية بحق أهلها في واقعة الحرّة ، وهتك أعراضهم وقتل

أطفالهم ، واستشهاد أكثر من ٨٠٠ من الصحابة الكرام.

في أثناء ذلك ، مات يزيد . فجأة . فانتقل الحكم إلى الجناح المرواني من بني أمية ، وتولّى» أمارة المؤمنين «من يُشكّ بإيمانه بالله ، كالوليد بن يزيد الذي كان يُتّهم بالزندقة والانحراف الديني والأخلاقي حتى أن أقاربه من بني أميّة قاموا بتصفيته حتى لا يفضحهم بأعماله وممارساته الفاجرة.

ولم يكن من بني أميّة ، خليفة عادل سوى عمر بن عبد العزيز الذي كان يتصف بالعدل والانصاف ، حيث منع رعيته من سب عليّ بن أبي طالب من على منابر الجمعة ، كما أعاد لأهل البيت حقوقهم المنتزعة منهم بعد وفاة الرسول ، وخاصة وراثة فدك التي كان يتوارثها الخلفاء والحكام كابراً عن كابر ، ولم يدم حكم عمر بن عبد العزيز سوى عامين ، حيث مات فجأة وعاد الظلم والاستبداد ينشب أظافره في جسم الأمّة الإسلامية ، وخاصة بحق عترة رسول الله.

وسعى عمر بن عبد العزيز ، لتدوين السُنّة النبوية التي بقيت ما يقرب من مئة عام ممنوعة من التدوين بأمر الخلفاء المتعاقبين ، إلا من قام بالتدوين الشخصي دون علم السلطة الحاكمة ، فقرّر عمر بن عبد العزيز الشروع بتدوينها لولا موته المفاجئ ، فتم تجميد مشروع التدوين حتى زوال الحكم الأموي على يد بني العباس الذين قفزوا إلى حكم الأمّة تحت شعار الرضا من آل محمد ، إلا انهم قمعوا أهل البيت بصورة وحشية ، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي شهد عهده نشوء المذاهب السُنّية الاساسية.

تبلور المدرسة السُنّية وإتضاح معالمها

كان أبو حنيف النعمان ، الفقيه المعروف ، قد إعتمد في اصول مدرسته الفقهية على الرأي والقياس ، فسُمي أتباعه بأهل الرأي ، وحين أمره المنصور بتسلّم منصب قاضي القضاة ، رفض تنفيذ ذلك الامر لإيمانه بظلم خلفاء بني العباس ، فزجّه المنصور في السجن حتى مات فيه.

وقد شهد العهد العباسي نشوء المذاهب الاربعة المعروفة ، ومذاهب ومدارس سُنّية كثيرة ، ومئات من المجتهدين الذين لم يكونوا أصحاب مذاهب ، إذ ليس لديهم أتباع سوى قلة في بعض الأحيان.

وفي هذا العهد بالذات ، تبلورت المدرسة السُنّية ونضجت وتحدّدت أغلب معالمها حيث استوعبت كل المذاهب الفقهية المنضوية تحت ظل الخلفاء والحكّام من بني العباس وأتباعهم .وهكذا نشأ مذهب» أهل السُنّة والجماعة « وتبلورت ملامحه الاساسية في العهدين الأموي والعباسي ، بالرغم من ان جذوره بدأت منذ سقيفة بني ساعدة حيث تم تجريد اهل البيت من حقهم في الخلافة وقيادة الأمّة سياسياً ودينياً.

عاشت الأمّة وترعرعت حتى أواسط القرن الثاني الهجري ، في ظل خلفاء وحكّام مارسوا شتى الوسائل والاساليب لاخفاء الحقيقة الكبرى المتمثلة في أحقية أهل البيت للخلافة والامامة بعد رسول الله ، إذ سعوا إلى منع تداول الأحاديث النبوية على ألسنة

المسلمين ، وعدم تدوينها بذريعة الخوف من اختلاطها بالقرآن الكريم ، ولم تُدوّن بالتفصيل ، إلا في أوائل العهد العباسي بعد ان اختلطت بها أضعافها من الأحاديث التي وُضعت في العهدين الاموي والعباسي بهدف التغطية على أحاديث النبي بوجوب اتّباع أهل بيته كحَمَلة لعلمه وفقهه ، وقيادة الأمّة من بعده دون غيرهم من الصحابة والمسلمين.

)حقائق (مبعثها الاوهام والاحاديث الموضوعة

وعى أكثر المسلمين في القرن الثاني من الهجرة ، وأمامهم ركام من الاحاديث التي وضعت في العهد الاموي ، ليؤمنوا بها كحقائق لا تقبل النقاش ، منها:

١ . ان الرسول صلى الله عليه وآله لم يستخلف أحداً ، وانما مات وترك الأمّة هي التي تختار الخليفة الأصلح لها.

٢ . ان الصحابة عدولٌ بأجمعهم ، ولا يحق لأحد المساس بهم ، أو الطعن فيهم ، أو لعنهم وسبّهم ، لأن فعل ذلك يؤدي إلى سب الله ورسوله.

٣ . ان الصحابة ولكونهم عدولاً ، لا يكذّبون على رسول الله ، فهم حملة السُنّة النبوية ، وهم الذين نقلوا لنا هذه السُنّة بأمانة.

٤ . كما ينبغي الاقتداء بالصحابة ، وأخذ أقوالهم وفتاواهم وآرائهم ، على محمل الصحة ، لأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله.

٥ . ان الأمّة قد انتخبت الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ، وسُنّة الخلفاء الراشدين ينبغي الأخذ بها والعض عليها بالنواجذ.

٦ . الاختلافات الفقهية والمذهبية ، أمر طبيعي يؤكد الثراء الفقهي ، والتنوّع المذهبي الذي هو ضروري للأمّة.

٧ . الشيعة في نظر عموم أهل السُنّة والجماعة ، شواذ وقلة لا يُعْتدّ بهم ، فهم ابتدعوا مذهباً خاصاً بهم ، يغاير ما اتفق عليه الجمهور المسلم وقد تبنّوه في القرن الثاني الهجري وما بعده ، وباعتقادهم بالأئمة الاثني عشر ، لا يعود إليهم الجمهور في العقائد والاحكام الشرعية ، ولا يثق بهم السلف الصالح.

هذه الأمور عند الجمهور المسلم ، هي أمور وحقائق وقناعات ثابتة لديهم منذ القرون الاولى للاسلام ، وليس لديهم أي إستعداد للتراجع عنها أو نقدها والنقاش فيها ، لأنها حقائق مُسلَّم بها ، وراسخة ومتجذِّرة في نفوس أهل السُنّة والجماعة ولا يحق لأحد المساس بها ، أو التشكيك فيها.

لكننا لم نلتفت إلى كل هذه التحذيرات ، وواصلنا التحري الدقيق في كل المجريات التأريخية ، فتوصلنا إلى حقائق باهرة.

لقد إتّضحت لنا الحقائق بكل جلاء ، وأنّى لنا أن نخادع أنفسنا ، ونعلل لها الباطل وأزوّق لها الضلال وكأنه ذروة الحق والهداية ، وقد اطمئننا للحق الذي يبهر الأبصار والقلوب أيضاً ، وهل بعد الحق إلا الضلال يا أولي الألباب؟

بنيان بلا أساس

توصّلنا إلى ان المسلّمات والقناعات عند الجمهور ، ليست إلا أوهاماً لا أساس لها في الدين الإسلامي ، وإنما بُنيت على مزاعم غير حقيقة ، وانما ختلقت لاسباغ شرعية مزيفة على مذهب أهل السُنّة كما سنرى.

١ . بطلان عدالة الصحابة جميعاً : وقد رأينا من قبل أن هذه النظرية مجرّد إدعاء يدحضه القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، وواقع الصحابة وسيرتهم .ولقد ثبت أن العديد من الصحابة كانوا غير خليقين بالعدالة والصلاح.

٢ . لم يثبت القرآن الكريم العدالة والنزاهة للكثير من الصحابة ، فمنهم الذين كانوا يعصون الرسول على الدوام ، ويستهزئون به ويفرّون من الزحف ، وقد شملهم اللعن الإلهي..

٣ . انتقد رسول الله ، العديد من الصحابة ولعنهم ووبّخهم وهدّدهم ، بل ولم يزكّهم من بعده ، ليقينه بأنهم سيحدثون من بعده ، الكثير من البدع والأمور المُحدَثة التي ما أنزل الله بها من سلطان .٤ . سيرة وواقع العديد من الصحابة ، تقتضي عدم عدالتهم وظلم بعضهم للبعض الآخر ، بل وتكذيبهم ، والاحتراب فيما بينهم وتقاتلهم بالايدي والألسن ، واقترافهم المعاصي والموبقات والكبائر من الذنوب ، إلا ان التيار الحاكم بعد رسول الله ، وخاصة في العهد الأموي ، افتعل الاحاديث الكثيرة في فضائل ومناقب الصحابة ، وخاصة الاحاديث التي تدل على عدالتهم أو عصمتهم ، كالاحاديث التي تمنع من سبّهم ولعنهم ، وان من يسبهم فكإنما سبّ الله ورسوله ... إلخ ... فتشكلت هالة من القداسة حولهم تتعارض وواقع الكثير منهم.

الخلافة) الراشدة(

من أهم المسلّمات عند الجمهور المسلم ، والتي يعدّونها من أبرز الثوابت التي لا يتجرأ احد منهم على مناقشتها أو نقدها او اعادة قراءتها ، هي مسألة الخلافة الراشدة التي حكمت الأمّة الاسلامية بعد وفاة الرسول مباشرة ، فهم يشدِّدون على قدسية هذه الخلافة والخلفاء الذين حكموا المسلمين بعده مباشرة ، وليس من حق أحد أن ينتقد الخلفاء الراشدين أو ينالهم بسوء ، وإلا يلقى الويل والثبور ، وتواجهه الاتهامات بالفسق والانحراف والضلال وحتى الكفر.

فالخلافة الراشدة ، خط أحمر ، لا يحق لأحد تجاوزه او اختراقه بالمرّة ، لكنني لما كنت قد آليت على نفسي أن لا أستثني من النقد والاتهام إلا صاحب الدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهو الخط الأحمر الذي لا يجوز لي ولأي مسلم المساس به ، وإلا فَقَد ايمانه ودينه بالمرة ، سوى الأحاديث الموضوعية عليه والتي لا تناسب مقامه السامي ، فمن حق أي مسلم ، التشكيك في تلك الأحاديث للذبّ عنه صلى الله عليه وآله

أول ما خَطَر في ذهننا من تساؤل ، هو : من أين أتت تسمية الخلافة الاولى بالراشدة؟ وما هو أصلها؟ ولم يطل تساؤلي ، فاكتشفت ان التسمية مقتبسة من الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وآله والذي يدعو فيه إلى الاقتداء بسُنّته وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، ونص الحديث : عليكم بسُنّي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ) ١.(

وقبل البحث عن صحة إسناد الحديث من عدمه ، فإن الحديث واضح البطلان ، ولا يستحق المناقشة ، فهو موضوع لا ريب في ذلك ، والأدلة على ذلك كثيرة ومُحكمة:

١ . لم يقلْ الحديث من هم الخلفاء الراشدون؟ وكم هو عددهم؟ وهل يأتون بعد الرسول مباشرة أم بعده بفترة؟ خاصة وان تحديدهم ، أمر مهم جداً ، بل واجب لأنهم منصوص عليهم من قبل رسول الله ، وعلى المسلمين اتّباع سُنّتهم.

٢ . إذا كان الخلفاء الراشدون ، هم الخلفاء الذين جاءوا بعده صلى الله عليه وآله ، أي الاربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فانهم حسب نظرية أهل السُنّة والجماعة ، لم يعيّنهم ، وانما ترك المسلمين يختارون الخليفة حسب ذوقهم واجتهادهم ، فاختار عمر أبا بكر في السقيفة ، واختار أبو بكر وحده عمر بن الخطاب ، وانتخبت اللجنة السداسية التي عينها

عمر ، الخليفة عثمان ، وكان التعيين . بالضبط . من قبل عبد ال رحمن بن عوف ، أما الخليفة الراشد الرابع) أي علي (فقد انتخبه وبايعه سائر الصحابة والمسلمين ، ولم يكن رسول الله قد اختاره خليفة حسب النظرية السُنّية .والحال هذه كيف تكون سُنّة هؤلاء الخلفاء الراشدين نظير سُنّة الرسول ، وينبغي على المسلمين اتّباعها؟ فيما لم يكن صلى الله عليه وآله قد حدّدهم بالاسماء ، فكيف علِمَ عمر ان المقصود بالخليف الراشد الأول هو أبو بكر لا غيره؟ ولماذا لم يقل في السقيفة ان النبي صلى الله عليه وآله قد اشار إلى ان أبا بكر من الخلفاء الراشدين ، ولا أبو بكر نفسه حين عيّن

الخليفة عمر راشداً ثانياً ، بل لو كان رسول الله قد أشار إلى ان الخليفة الراشد الثالث هو عثمان بن عفان ، لما عيّن عمر اللجنة السداسية للشورى واختيار الخليفة الثالث من بينهم؟ كما ان الذين بايعوا علياً خليفة رابعاً للمسلمين ، لم يقل ولا واحد من هؤلاء المبايعين ، وهم من الصحابة الكبار الى مناقب وفضائل علي التي ذكرها الرسول ، والكثير منهم شدّد على عدالة علي وأمانته السامية ، ولم يلمّح أحد منهم إلى انّ علياً هو الخليفة الراشد الرابع.

٢ . ان أهل السُنّة والجماعة أنفسهم ، لو يكونوا على علم بعدد ما يسمونهم الخلفاء الراشدين ، فهم إلى أواسط القرن الثالث الهجري ، كانوا يحدّدون عدد الخلفاء الراشدين بثلاثة ، وهم الخلفاء الأول والثاني والثالث ، ولم يلحقوا علياً بالخلفاء الراشدين إلا بقرار من أحمد بن حنبل ، إذ أضاف علياً إلى قائمة الخلفاء الراشدين وذلك بعد انتشار حركة العداء والنصْب ضد أهل البيت في بلاد الشام والعراق في العهد العباسي وقد اعترض العديد من أهل السُنّة على هذا القرار ، لأنهم لم يكونوا يعدّون علياً من الخلفاء الراشدين ، وهناك من الجمهور السُنّي من يضيف الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز إلى قائمة الخلافة الراشدة ، ويعدّونه خليفة راشداً خامساً ، فما هي

الضوابط التي اتبعها أهل السُنّة في تحديد الخلفاء الراشدين دون غيرهم من الخلفاء الذين هم غير راشدين بالطبع؟

ليس هناك ضوابط أو قواعد وانما انتخبوا الخلفاء الثلاث الاوائل كخلفاء راشدين دون عليّ الذي عُدَّ خليفة غير راشد حتى مجيء أحمد بن حنبل ، ثم ألحق الجمهور ، الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز بالخلفاء الراشدين ، فهل يُعقل يا تُرى أن يأمر رسول الله ، المسلمين باتّباع سُنّة خلفاء لا يحدّد عددهم ولا صفاتهم ولا أسماءهم؟ ليأتي المسلمون فينتقون خلفاءهم حسب أذواقهم ، ويعدُّون سُنّتهم كسُنّة النبي صلى الله عليه وآله؟

٤ . من حقّ أي مسلم أن يسأل سؤالاً منطقياً : هل سُنّة الخلفاء الراشدين مطابقة للسُنّة النبوية أم مكمّلة لها؟ فاذا كانت مطابقة لها ، فهي إذاً كالسُنّة النبوية ومقتبسة منها ، يجسّدها هؤلاء ولا يمكن فصلها عن تلك السُنّة ، ليكونا سُنّتين ، لأن السُنّة هي الطريقة ، وان الرسول وخلفاءه يسيرون على وفق سُنّة أو طريقة واحدة ، لتكون العبارة النبوية هي كالتالي : عليكم بسُنّتي التي يسير عليها الخلفاء الراشدون ، لتكون العبارة صحيحة ومناسبة .أما الحديث المنقول فيشير إلى سُنّتين أو طريقتين لا طريقة واحدة.!

وإذا افترضنا الاحتمال الثاني ، وهو ان سُنّة الخلفاء الراشدين مكمّلة للسُنّة النبوية أو مغايرة لها ، وهنا يقتضي أن تكون السُنّة النبوية ناقصة وقاصرة عن تبيان القرآن الكريم وإيضاح الشريعة الإسلامية ، وإنها بحاجة إلى سُنّة أخرى مكمّلة تتولى مهمة التبليغ ، وهذا في الحقيقة من المحال ، لأن السُنّة النبوية كاملة تامة لم ينقصها شيء ، وقد أكمل الله الدين عند نزول الآية الكريمة في واقعة الغدير) : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (١ ، (فالدين الإسلامي كامل ، وما فرّط الله في كتابه من شيء ، والسُنّة

النبوية تامة لا يعوزها شيء ، فلِمَ نحن بحاجة إلى سُنّة إضافية تكمل السُنّة النبوية وتملأ نواقصها؟

لا غرو أن مواقف الخليفة الأول والثاني وسياستهما المخالفة للسُنّة النبوية ، وآراءهما الشرعية التي كانت تتعارض مع السُنّة النبوية ، هي التي دفعت بعبد الرحمن بن عوف في الشورى التي شكّلها عمر بن الخطاب لانتخاب خليفة للمسلمين ، أن يشترط على المرشح للخلافة أن يتّبع . إضافة إلى السُنّة النبوية . سُنّة الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب.

ومن الطبيعي أن يرفض عليّ بن أبي طالب ، هذا الشرط ، لأنه شرط غير معقول ولا مشروع ، فما يُسمَّى بسُنّة الخليفتين ، هو في الحقيقة ، مجرّد أهواء وآراء شخصية لا تمت للدين بصلة ، ولذا رفض عليّ هذا الشرط المصادم للسُنّة النبوية ، بينما قبله الآخرون ، لأنه يحقق طموحاتهم في الحكم.

رفض عليّ الشرط اللامشروع ، لأنه يؤمن بالسُنّة النبوية فقط ، ولا يتعدّاها بأي حال من الأحوال ، بينما قبل عثمان بن عفان هذا الشرط ، وأضاف إلى» سُنّة «الخليفتين الأول والثاني» ، سُنّة «ثالثة.

٥ . لو كان رسول الله حضّ . فعلاً . على اتّباع سُنّة الخلفاء الراشدين ، علاوة على سُنّته، فينبغي احتذاء» سُنّة «الخلفاء الراشدين جميعاً ، لكننا نعلم بأن» سُنّة «الخليفة الأول ، تتفاوت مع» سُنّة «الخليفة الثاني ، وهاتان السُنّتان ، تتفاوتان مع» سُنّة «الخليفة الثالث ، وكذلك هذه» السُنن «الثلاث ، تتفاوت مع سُنّة الخليفة الرابع ، في العديد من جوانبها ، كما اتضح لنا من قبل ، فلسنا ندري كيف نتبع سُنناً متعارضة في الوقت نفسه ، لأن هذا السلوك يفضي بالمسلمين إلى التخبّط في أعمالهم وممارساتهم ومواقفه ، بل وسيشعرون بالازدواجية في أعمالهم وأفعالهم ، وستصبح تصرّفاتهم متضاربة ، حسب تأسّيهم بسُنّة هذا الخليفة أو ذاك.

٦ . المأثور عن رسول الله . وبإقرار الجمهور . أنه أورد الكثير من الأحاديث التي توصي المسلمين باتباع سُنّته ، كقوله صلى الله عليه وآله» : تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسُنّتي) «... ١.(

وهنا قد قطع صلى الله عليه وآله بأن ما تركه ، فضلاً عن كتاب الله ، سُنّته فقط ، فكيف يوصي بسُنن أخرى غير سُنّته؟ كل هذه دلائل قاطعة على أن الحديث المذكور ، إنما هو حديث موضوع لاضفاء القداسة والشرعية على تصرفات ومواقف وسيرة الخلفاء الثلاث التي كانت تتنافى في الكثير من جوانبها مع السُنّة النبوية.

وبانتفاء هذا الحديث ، تنتفي ركائز ما يُسمّى بالخلافة الراشدة ، وإنها لم تكن راشدة أبداً ، مهما ادّعى المُدّعون.

وقفة أخرى مع الخلفاء الثلاث الاوائل

الخليفة الأول

لو تتبعنا سيرة الخليفة الأولى أبي بكر ، لألفيناها ليست كما يدّعي الجمهور ، حين يؤكدون بأنه أفضل شخص بعد رسول الله ، وانّه يُلقّب بالصديق ، وانفرد بمناقب لم ينفرد بها غيره ، هذه المُسلَّمة تولّدت لدى الجمهور السُنّي من خلال أحاديث عددية» مأثورة «عنه صلى الله عليه وآله ، قد وُضعت في العهد الأموي الأول للتغطية على مكانة علي بن أبي طالب وأهل بيته وعلى مناقبهم العظيمة.

ولو حللنا حياة أبي بكر وسيرته ومواقفه مع الرسول خاصة ، ومع المسلمين ، يتضح لدينا انه لم يكن بالمنزلة التي يضعه فيها أهل السُنّة والجماعة ، وذلك بدليل:

١ . لم يزكِ رسول الله ، أبا بكر في الكثير من المواقف والمناسبات ، وقال له مرّة : لا أدري ما تُحدثون بعدي) ١ ، (مما يعني أنه صلى الله عليه وآله لم يضمن سلامة مصير أبي بكر بعد وفاته صلى الله عليه وآله

٢ . كما ان أبا بكر شكك في العهد النبوي ، بنفسه وبمواقفه ، فهو عندما بعثه الرسول صلى الله عليه وآله لتبليغ سورة براءة إلى مكة ، ثم بعث علياً خلفه لأخذ السورة منه ، رجع

باكياً إلى رسول الله ، وسأله : هل نزل فيّ شيء؟ قال صلى الله عليه وآله : لا ، ولكن لا يبلّغ عني إلا أنا أو واحد من أهلي) ١ ، (وهذه الحادثة لم تَرُق لأهل السُنّة والجماعة ، فيحاولون تجاهلها ، أو التطرّق إليها لماماً وبصورة مقتضبة ، لأنها تثبت منقبة لعلي وتنفيها عن أبي بكر.

وكثيراً ما قرأنا كتابات حول تبليغ سورة براءة ، غير ان كتّابها لا يتطرقون إلى انصراف رسول الله ـ بأمر من جبرئيل ـ عن أمر تبليغ أبي بكر لسورة براءة ، وتخويل عليّ بذلك ، لأن تبليغ المقدّس لا يقوم به إلا الرسول أو رجل من اهله .وهذه الحقيقة يتجنبها الجمهور ويتجافون ذكرها ، لأن فيها منقصة لأبي بكر ومنقبة عظمى لعلي.

٣ . يلقّب جمهور المسلمين ، الخليفة الأول بالصدّيق ، وقد يتناهى للمرء ـ لأول وهلة ـ بأن لهذا اللقب أصلاً شرعياً أو دينياً ، غير ان الذي يقرأ التاريخ بشيء من التفصيل ، تتراءى له حقيقة أخرى وهي ان أهل الكتاب هم الذين لقّبوا أبا بكر بالصدّيق ، وليس لهذا اللقب أصل أبداً.

أما الرواية التي تعزو هذا اللقب للنبي صلى الله عليه وآله ، فهي موضوعة ، لأجل تأصيل هذا اللقب ليس إلا ، والواقع يثبت ان أبا بكر لو كان صدّيقاً ، لما خالف رسول الله في مواقف عديدة ، ولما وبّخه صلى الله عليه وآله لما فرّ من الزحف في معركة أحد وحُنين كسائر الصحابة والمسلمين ، ولما منعه صلى الله عليه وآله وهو في حالة الاحتضار من إمامة الجماعة ، ولما عصى أبو بكر نبيّه في بعث أسامة ، وقفّل راجعاً مع أكثر الصحابة إلى المدينة ، وقد انسحب عليه لعن رسول الله للمتخلفين.

فأبو بكر ليس خليقاً بلقب» الصدّيق «الذي هو من ألقاب الانبياء والأئمة والاولياء الصالحين.

٤ . بدّل أبو بكر العديد من السُنن النبوية ، وابتدع سُنناً من عند نفسه ، فكذّب الزهراء في قضية إرثها من النبي صلى الله عليه وآله وكذلك فدك التي نحلها لها أبوها صلى الله عليه وآله ، وكذلك خُمْس أهل البيت ، إذ جرّدهم من كل حقوقهم ، وهي قضية تأريخية معروفة) ١.(

٥ . وقد أبطل الحد عن خالد بن الوليد بالرغم من ان عمر بن الخطاب الحّ على إجراء الحد ، وغير ذلك من التجاوزات ، فكيف والحال هذه ، ينطبق عليه لقب» الصدّيق «والخليفة الراشد؟

٦ . وقبل كل شيء لم يكن أبو بكر خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأن الخلافة . وكما قلنا من قبل . هي أمر جعلي ، كما أكد القرآن ذلك ، ولذلك فكيف وصف أبو بكر نفسه بخليفة رسول الله؟ في حين أنه مُعيَّن من قبل عمر بن الخطاب وبتأييد أبي عبيدة الجرّاح ثم أصحاب السقيفة؟ أما عموم المهاجرين والانصار فقد استغفلوا بالأمر ، وبايع الكثير منهم مكرهاً) ٢.(

٧ . لو كان أبو بكر صدّيقاً ، لما شكّك في آخر حياته ، وهو على فراش الموت ، بنفسه ، وبكى بكاء شديداً ، وتمنّى لو لم يكن بشراً؟.

هذه هي حقيقة الخليفة الأول عند كل مَنْ يبحث عن الحق ، ولا يُلبس الحق بالباطل وهو يعلم ، فهل يحق بعد ذلك ان نصف أبا بكر ، بالصدّيق ، والخليفة الراشد ، وأفضل الخلق بعد رسول الله؟

الخليفة الثاني

يصف الجمهور عمر بن الخطاب بأنه الخليفة الراشد الثاني ، ويلقبونه بالفاروق

الذي يميّز ويفرّق بين الحق والباطل ، وانه الرجل الشجاع الذي بإسلامه ، تجرّأ المسلمون لاعلان الدعوة والتجاهر بها ، وفي عهده تم فتح العراق وبلاد فارس والقدس ، وهو أول من تسمّى بأمير المؤمنين ، وهو المُحدَّث في أمّة محمد صلى الله عليه وآله.

وعند التحرّي عن شخصية الخليفة الثاني ، نكتشف ان هذه ال قناعة أو المُسلّمة ، ليس لها أساس من الصحة ، للاسباب التالية:

١ . فمسألة كونه خليفة راشداً ثانياً ، ثد حسمناها من قبل ، وأكدنا أنها أُختلقت على أساس حديث موضوع يتعارض مع المنطق السليم ، إذ ليس هناك سُنّة غير السُنّة النبوية .أما تلقيبه بالفاروق ، فهو من اقتراح أهل الكتاب ، فهم

الذين لقبوه بهذا اللقب .وهو في كل الأحوال لا يستحق هذا اللقب أبداً ، فهو ليست له مقدرة على تمييز الحق من الباطل دائماً ، لأن المعروف عن الخليفة الثاني ، انه كان يعجز عن حل الكثير من القضايا والمعضلات الفقهية والشرعية والعقائدية ، فيضطر لسؤال الصحابة ومنهم عليّ حيث كان له بمثابة المنقذ من الهلاك) ١ .(

وكثيراً ما كان عمر يتلكأ في أجوبته ، حتى قال ذات يوم : أخطأ عمر وأصابت إمرأة ، وقال يوماً : كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال) ٢ ، (فكيف يا ترى يكون هو الفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل ، وهو ما عليه من الجهل والقصور والعجز العلمي ، في حين ان الفاروق هو المُحيط بكل دقائق الشرع والفقه ، حتى يستطيع التمييز بين الحق والباطل.

٢ . يجمع أهل السُنّة والجماعة بأن الخليفة عمر ، أول من تسمّى بأمير المؤمنين،

وهذا الادعاء هو محض افتراء على الواقع ، لأن الأحاديث النبوية الصحيحة ، تؤكد ان علي بن أبي طالب ، هو أول من سُمِّي بأمير المؤمنين ، وذلك في العهد النبوي ، حيث سمّاه جبرئيل أمير المؤمنين بأمر الله تعالى كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو وحده يستحق هذا اللقب المقدس ، وكل من تلقّب بأمير المؤمنين منذ عهد الخليفة الثاني وحتى يومنا هذا ، فهم لا يستحقون هذا اللقب ، ولم يلقبهم الله تعالى ولا نبيه الكريم ، وإنما هم لقبوا أنفسهم به ، حتى تقلّد هذا اللقب صبيان بني أمية وبني العباس.

٣ . ان الادّعاء بأن الخيفة الثاني كان محدَّثاً بناءً على أحاديث مروية في كتب الصحاح والسُنن ، ليس صحيحاً بتاتاً ، فعمر لم يكن بتلك المنزلة من العلم والتلقّي ، كما قلنا من قبل ، وإنما كان يتشبّث بالآخرين في الكثير من المواقف والمعضلات ، سواء كانت فقهية ، أو عقائدية ، بل ويجهل العديد من الآيات القرآنية ، ويصحّح له الصحابة ، كما كان يشكّك في بعض مواقف الرسول وأوامره ويطعن فيها ، وذلك لأنه كان يتسرّع في الحكم على تلك المواقف والخطوات قبل أن يرى النتائج كما هو تصرّفه في صلح الحديبية وتشكيكه في رسول الله ونبوته إلى حد أنه ندم بعد ذلك كثيراً لما حدثته نفسه من وساوس حول الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ونصح المسلمين باتهام الرأي ، فكيف يُعَدُّ محدَّثاً ومُلهَمَاً لحديث موضوع واضح البطلان ، كغيره من الاحاديث الكثيرة جداً التي وُضعت في العهد الأموي بأمر من معاوية وغيره لتمجيد الصحابة والخلفاء الأوائل تغطية على مناقب وفضائل أهل البيت وعميدهم علي بن أبي طالب ، كخلفاء لرسول الله وأئمة من بعده.

٤ . شكّك عمر بن الخطاب هو الآخر في مواقفه وسلوكياته السابقة وهو على أعتاب الموت ، وتمنّى أمنيات لا يتمنّاها المسلم العادي ، فضلاً عن خليفة راشد كبير يُلقب بالفاروق وأمير المؤمنين إلا إذا كانت حياته وسيرته مشكوكاً فيها منذ البداية ، لا كما يصوغها الجمهور ويزيّنها ويزوّقها لغاية في نفس يعقوب.

الخليفة الثالث

الخليفة عثمان بن عفان ، عند أهل السُنّة والجماعة ، هو الخليفة» الراشد «الثالث ، ذو النورين الذي تستحي منه الملائكة ، عطوف يجب رَحمَه ويمنحهم العطايا ، وهو الذي وحَّد المسلمين على نسخة واحدة من القرآن ، وفتح شمال إفريقيا ، ولم يتحمّل المسلمون في الأمصار ، تصرفاته الحكيمة ، فقتلوه غيلة.

وعند البحث عن سلوكه بعد تسلمه الخلافة ، نجد أنه لم يكن بالصورة التي يرسمها له جمهور المسلمين ، فهو:

١ ـ كان أحد المشرحين الستة الذين اختارهم الخليفة الثاني ، وقد خَشيَ عمر أن يحمّل بني أميّة على رقاب الناس ، ولذا فقد اشترط عليه عضو الشورى الصحابي عبد الرحمن بن عوف أن لا يحمِّل هؤلاء على رقاب المسلمين ، فقبل الشرط ثم نقضه بعد ست سنوات من حكمه ، فأخذ يقرّب أرحامه من بني أميّة ويستأثر بهم ويوليهم إمارات العراق ومصر ، ويقطع لهم الاموال الطائلة من بيت المال ، ولم يستمع إلى شكاوى الرعية حول ممارسات أقربائه المنافية للدين ، كما حاول تعطيل الحدود عنهم ، وتجاهل كل الشكاوى في حق أقاربه من بني أميّة وهم الذين كانوا من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم ، وقرّب إليه أبا سفيان والحَكَم بن العاس وابنه مروان ، وهما اللذين نفاهما رسول الله من المدينة ـ لأنهما كانا من المستهزئين به ، ويحاولان الغدر به في كل لحظة ، وهما طريدا رسول الله ، وهذا الفعل يُعدّ حرباً على الله ورسوله

، كما قام بالتنكيل بصحابة كبار كعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري الذي نفاه إلى صحراء الربذة فمات هناك وحيداً ، وأصبح عثمان طوْع إرادة صهره مروان بن الحكم» الوزغ بن الوزغ «على حد تعبير الرسول صلىاللهعليهوآله ، وأمر بقتل صحابة كبار كمحمد بن أبي بكر وغيره غدراً لولا افتضاح الخطة ، ولم يتب بعد أن أُستتيب مراراً ، إلى حد أن يئس الثوار

وكذلك أهل المدينة من المهاجرين والأنصار من إصلاحه وتغيير سياسته القائمة على إيثار بني أميّة على المسلمين.

٢ ـ فكيف تستحي الملائكة من رجل هذه هي سياسته وممارساته المخالفة للسُنّة النبوية والسلوك الاسلامي القويم؟

أما زواجه من ربيبتي رسول الله صلىاللهعليهوآله ، وتسمية أهل السُنّة له بذي النورين ، ليست دليلاً مقنعاً لاعتبار ذلك من فضائله ومناقبه ، لأن التصاهر إذا كان فضلاً ، فكان من حق معاوية أن يفتخر بزواج الرسول من أخته أم حبيبة!

٣ ـ فعمل الانسان المسلم وإخلاصه وصدقه وتقواه هو الفيصل في الحُكْم عليه ، وقد عرفنا من قبل بأن عثمان بن عفان قد سخّر بيت المال لأقاربه وذوي رحمه من بني أميّة ، واغدَق المال عليهم بلا حساب .وهذا العل مخالف لابسط قواعد الاسلام ، فلو كان المال ماله الخاص لما كان هناك عتب من المسلمين له لصلة ارحامه ، إلا أن المال كان من حق المسلمين جميعاً ، ثم لم يكن عثمان يقبل أي نقد أو نصيحة لاعماله وتصرفاته ، من لدن كبار الصحابة كعمار وأبي

ذر وابن مسعود وعلي وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة التي بعد أن يئت من صلاحه ، دعت الناس إلى قتله ، متهمة إياه بالكفر وانه أبلى سُنّة الرسول قبل أن يُبلى قميصه.

وأما عموم أهل المدينة ، فلم ينصروا الخليفة الثالث بل خذلوه لأنهم كانوا مؤمنين بأنه لم يكن عادلاً في حكمه ، وقد خالف السُنّة النبوية في كثير من ممارساته السياسية ، ولم يكن رد فعل عثمان بن عفان على محاولات المنتفضين لتغيير سياسته ، وتبديل ولاته ، إلا المزيد من التعنّت والمعاندة ، ولما طالبوه بالتنحّي عن الحكم ، ردّ بأنه لا ينزع قميصاً قمّصه الله به ، مع يقينه بأن الله لم يستخلفه على الأمّة ، وانما عيّنه عمر بن

الخطاب من خلال لجنة الشورى التي كانت تبلغ ستة أنفار هو أحدهم .وهكذا قُتل الخليفة الثالث ودُفن في مقبرة اليهود لأن أهل المدينة رفضوا دفنه في البقيع.

هذه هي حقيقة الخليفة عثمان بن عفان الذي يعدّه أهل السُنّة خليفة راشداً تستحي منه الملائكة ، وهو الذي فعل ما فعل؟

بين الإنتقاء والاهمال

حاول التيار الحاكم في العهد الأموي والعباسي من خلال المؤرخين والباحثين والمحللين التأريخيين ، صياغة الهيكلية العامة لمذهب أهل السُنّة والجماعة من خلال الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله ، التي تنسج هالة من القداسة والحُرْمة حول الصحابة والخلفاء من بعده صلىاللهعليهوآله ، لكي يصبحوا منبعاً وأساساً للمذهب السُنّي ، وتجنُّب الحديث أو تجاهل الاحاديث الصحيحة التي تبرز الصحابة والخلفاء على حقيقتهم كأشخاص لم يكونوا بتلك المكانة والقدسية التي تؤهلهم ليكونوا أوصيا أو حَمَلةً للتراث النبوي كما يزعم تيار الخلفاء ، والهدف من هذه الخطوة ، تهميش دور أهل البيت الحقيقي الذي عينهم له رسول الله ، واستبدالهم بالصحابة والخلفاء الأوائل والتعتيم على نقائصهم وعيوبهم التي تجرّدهم من مكانتهم» النفيسة «عند الجمهور.

فقدّم التيار الحاكم ، المتأخرين ، وأخَّر المتقدمين وبدلاً من إيصال الأمّة إلى ساحل الأمان والوحدة والتلاحم ، ساقها إلى حيث التمزّق والتمذهب والاختلاف والتناحر الفقهي والعقائدي وحتى الاجتماعي.

والواقع أن أكثر العلماء والمحققين والباحثين والكتّاب الذين انضووا تحت مذهب أهل السُنّة والجماعة ، خلال أحقاب من الزمن ، ساهموا في إخفاء أي نقيصة أو خلل أو

ثغرة تؤدي إلى سلب الشرعية المصطنعة للبناء الذي يقوم عليه مذهب اهل السُنّة ، وما يفضي إليه من انهدام الاساس الكامل لهذا المذهب.

وسنتطرق فيما يلي إلى بعض الامثلة على ذلك ، وإلا فإن الأمر يتعدى المئات من الحالات والقضايا والنماذج في هذا الخصوص.

١ . يحتجّ علماء أهل السُنّة والجماعة ، بالروايات الضعيفة أو الموضوعة في تدعيم مذهبهم ، والزعم بأنها روايات صحيحة وقوية ، فيما يسعون لتضعيف الروايات التي تدعم مدرسة أهل البيت ، والادعاء بأنها ضعيفة وربما موضوعة ، كما هو موقف محمد أبي زهرة ، عندما حاول تفنيد نظرية أهل البيت والدفاع عن النظرية السُنّة ، كما سنأتي على ذلك بعد قليل.

٢ . تجاهلْ الروايات والوقائع التي تثبت قصور بعض الصحابة أو الخلفاء» الراشدين «أو تقصيرهم أو جهلهم أو عصيانهم لرسول الله ، أو تخلّفهم في الحروب ، أو تشكيكهم في بعض مواقف النبي محمد صلىاللهعليهوآله ، أو طعنهم في أفعاله أو أوامره ، أو الاستهزاء به وعدم احترامه وغير ذلك ، وسعيهم جاهدين إلى عدم ذكرها بالمرّة ، وإذا اضطروا إلى ذكرها ، فيمرون عليها مرّ الكرام ، ولا يتطرقون إلى تلك الطعون والمثالب خوفاً من إلتفات أتباع السُنّة إلى نقاط الضعف التي تثير شكوكهم ازاء تلك النماذج التي يعدّونها رموزاً مقدّسة عندهم وما يؤدي إليه من زعزعة أسس المذهب السُنّي بكامله.

٣ . لجوء بعض علماء أهل السُنّة والجماعة إلى التطرّق ـ ولو إضطراراً ـ لبعض معايب أو نقائص الرموز السُنّية الكبرى ، من صحابة أو خلفاء أو أصحاب مدارس فقهية ، وتبريرها بدون حجة مقنعة ، وتحت لافتة إيثار المصلحة والضرورة والحرص على الأمّة ، والخوف عليها ، أو عدم طاقتها ، وما إلى ذلك.

٤ . التجاهلْ التام لشطحات ونقائص بعض الصحابة والخلفاء ، للعجز عن خلق

المعاذير التي تبرّر تلك الافعال أو الأقوال التي تجرّدهم من تلك المكانة الوهمية التي اصطنعها التيار الحاكم بعد رسول الله ، بالتنسيق مع المعارضين وخصوم اهل البيت.

٥ . ترسيخ التيار السُنّي ، لصورة وهمية في نفوس المسلمين عن العلاقات بين الصحابة ، تغلب عليها المثالية ، كالزعم بأنهم كانوا متصافّين ، متناصحين ، متوادين ، متراحمين ، وهم أسوة للأمّة جمعاء .هذه الصورة النموذجية ، لم تكن موجودة فعلاً بين الصحابة ، إلا في حالات نادرة ، أما سائر الصحابة ، فكانت العلاقات بينهم لم تكن بالمستوى اللائق ، كما أكدنا من قبل ، إلا ان السياسة هي التي خلقت من الصحابة أجمعين ، نماذج أخلاقية رفيعة.

٦ . ان الهالة التي أُحيط بها جميع الصحابة ، والخلفاء الثلاث الذين جاءوا بعد وفاة الرسول مباشرة ، أوحت لعلماء الجمهور حرمة نقد هؤلاء أو البحث عن مثالبهم وسيئاتهم ، مما أدى إلى تشويش التأريخ الصحيح والنقي أمام الأمّة المخدوعة التي تشرّبت تأريخاً مزوّراً ، وقناعات مهزوزة بحيث نشأت الأمّة وترعرعت على ثوابت وأُسس وهمية لا تمثل الحقيقة أبداً.

فرموز أهل السُنّة والجماعة اعتادوا ومنذ حقب طويلة ، على اسلوب الإنتقاء المُغرض في طرح المواضيع التي تتناول القضايا والحوادث والشخصيات التي لها مكانة مرموقة في أوساط الجمهور ، فهم ينتقمون إيجابيات تلك الشخصيات وإن كان سند الروايات المعنية ضعيفاً ، ويضخّمون من دور تلك الشخصيات ومكانتها و»قداستها «على أساس تلك الروايات الموضوعة ،فيما هناك روايات وأحاديث على درجة كبيرة من الصحة ، يهملونها أو يخفونها بقدر الامكان ، لانها تبرز الوجه الحقيقي لتلك الشخصيات ، سواء كانت تلك الشخصيات من الصحابة أو الخلفاء» الراشدين «أو حتى خلفاء أمويين أو عباسيين ، واصحاب مذاهب أصولية وفقهية كما قلنا قبل قليل.

وقد تنطبق هذه القاعدة السُنّية ، على الاحاديث والروايات والحوادث ، مثلما تنطبق على الشخصيات ، ونطرح مثالاً في هذا السياق ، وهو حديث الثقلين ، فمحمد أبو زهرة ، يتناول هذا الحديث ، على أساس الرواية الضعيفة أو الموضوعة التي تنص على ان الحديث هو كالآتي» : تركت فيكم ما أن تمسكتم بها لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسُنّتي ، «ويضعّف الرواية الصحيحة التي تقول» : تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي ، «ويدّعي في نقْد هذه الرواية ، متساءلاً : من هم أهل البيت؟ هل هم الائمة الستة للشيعة الاسماعيلية؟ ام الائمة الاثنا عشر للشيعة الاثني عشرية؟ متناسياً بأن القضية لا تثبت موضوعها ، وان هذا الحديث الذي أدلى به رسول الله إنما هو على سبيل الاجمال لا التفصيل ، لتأتي أحاديث أخرى تقوم بمهمة تفصيل الموضوع وشرح فحواه ومقاصده ، كالحديث الذي يبيّن من هم اهل البيت في العهد النبوي ، وهم النبي محمد صلىاللهعليهوآله نفسه وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، والحديث الذي يحدّد الأئمة من اهل البيت من بعده باثني عشر إماماً وخليفة.

ويأتي أبو زهرة ليقوّي من الحديث الذي يذكر سُنّتي بدلاً من عترتي أهل بيتي ، ويعدّه حديثاً صحيحاً مُعتَبَراً ، بالرغم من تضعيف العلماء وتوهينهم له ، بحيث ان أول من رواه هو مالك بن أنس في الموطأ مُرسلاً ، ثم بادر المؤرخون بنقله عن هذا المصدر.

ويمكن للناقد أن يتساءل : كم هو عدد رواة السُنّة النبوية حتى يتبيّن منْ هم حَمَلَتها ونَقَلَتها؟ حيث لم يذكر رسول الله حديثاً ، يتناول هذه السُنّة وعدد نَقَلَتها وصفاتهم على الأقل.

وكذلك حين يتحدّث بعضهم عن مناقب وسجايا الخلفاء الثلاث الأوائل ، يتناول الحديث ضعيفة أو موضوعة على لسان النبي صلىاللهعليهوآله ، أو روايات مشكوكاً فيها ، أو مطعوناً فيها ، تتحدث عن بطولاتهم وفضائلهم ، في حين يهملون الاحاديث الصحيحة

التي تكشف عن حقيقتهم ومواقفهم السلبية ازاء رسول الله ، كتشكيك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في الرسول صلىاللهعليهوآله في قضية صلح الحديبية ، أو فراره من الزحرف في معركة أحد وحنين ، بينما يؤكدون قول الرسول صلىاللهعليهوآله فيه بأنه الفاروق ، مع أن الحقيقة هو ان أهل الكتاب هم الذين لقّبوه بهذا اللقب وليس رسول الله.

إنها سياسة الإنتقاء والاهمال والإخفاء المغرض التي ينتهجها محققو أهل السُنّة وكتّابهم لتبييض وجوه شخصياتهم الكبرى ، وإخفاء عيوبهم وممارساتهم الحقيقية ، وعلى مستوى هذا قِسْ على ذلك ، كقول الرواة بأن عثمان حيي وانه ذو النورين الذي تستحي منه الملائكة ، وقدكان رحيماً يصل ارحامه وأقاربه وما إلى ذلك ، في حين يخفون أفعاله المرفوضة بحق الصحابة كعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود ، وتقريبه للذين نفاهم رسول الله من المدينة ، كعمّه الحكم وإبنه مروان وأبي سفيان وبني أمية عامة ، وأعماله المخالفة للسُنّة النبوية ، وأقوال عائشة وطلحة والزبير في حقه ، وما إلى ذلك من مجريات تثبت بُعْده عن الحق وتجاوزه على السُنّة النبوية إلى حد أن قامت الأمّة ضده وقُتل بعد أن تخلّى عنه أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ودُفن في مقابر اليهود .هذه المجريات يُحاول الباحثون السُنّة كتمانها أو تبريرها باسلوب غير منطقي وغير عقلاني.

أما حديث العشرة المبشرة بالجنة ، الذي طالما تبجّح به أهل السُنّة لاسباغ القداسة على هؤلاء الصحابة ، وإثبات ان مصيرهم إلى الجنة وعدم السماح لأحد بنقد أعمالهم وسلوكهم ، فهو حديث موضوع ولا ينطبق على حياة أكثر هؤلاء العشرة ، سوى علي الذي هو مع الحق والحق معه على الدوام ، ومع القرآن والقرآن معه حيث دار ، وكان من هؤلاء

العشرة مَنْ حاربه وقاتله في معركة الجمل ، وهما طلحة والزبير ، وإذا كان علي مطمئناً إلى مصيره لحظة موته ، فإن بقية التسعة من الصحابة كانوا ريب من

أمرهم ، وشكك بعضهم كأبي بكر وعمر في أعماله عند موته وتمنى لو ان الله لم يخلقه بشراً ، ولو كان الخليفتان الأول والثاني قد سمعها بهذا الحديث الشائع جداً لما جزعا عند موتهما وتمنيا أن لم يُخلقا بشراً ، فكيف يصحّ حديث العشرة المبشّرة بالجنة ، وهم ما عليه من أفعال وتشكيكات؟ ولو كان عثمان بن عفان قد بُشِّر بالجنة لما دُفن في مقابر اليهود بعد أن نبذه الجميع؟

على ان باحثي الجمهور ورموزهم كالعادة ، يحاولون التعتيم على الروايات التي تبيّن حال هؤلاء الصحابة» المبشرين « بالجنة ، ، أو يبرّرون أعمالهم وتصرّفاتهم غير الحكيمة.

ويسعى الكثير من أهل السُنّة والجماعة إلى عدم الالتفات إلى الروايات التي تقدم بالعديد من الصحابة وتكشف أمرهم ، وعدم تطابقها مع الاحاديث الموضوعة بالرغم من روايتها من قبل الصحاح المعتبرة ، إلا ان البخاري ربما كان أكثر دهاء من بقية المؤرخين وأصحاب الصحاح ، حتى من مؤلّف صحيح مسلم ، ولكونه معادياً لأهل بيت النبي صلىاللهعليهوآله ، فلم يرو عنهم إلا قليلاً ، كما لم يرو حديث الغدير الذائع الصيت ، وكذلك سعى للتغطية على

أعمال وممارسات بعض الخلفاء والصحابة ، كعثمان بن عفان حيث يذكره بعض الاحيان بعبارة» فلان «إذا كان موقفه سلبياً وذِكْر اسمه يزيل من» قداسته «عند الجمهور ، وان كانت خطوة البخاري تُعدّ خيانة للأمانة العلمية ، إلا ان الجمهور وتقديراً لخياناته ، عدّوا صحيحه من أصح الكتب بعد كتاب الله ، حتى يستسيغ المسلمون البسطاء رواياته ، ولا يلتفتوا إلى مثالبه في النقل ، والروايات العجيبة والغريبة المحشوة في صحيحه.

وملحوظة أخرى لابد من تأكيدها بنصوص الإنتقاء في الاسلوب السُنّي ، وانتخاب الاحاديث التي تروق لأتباع الجمهور ، ولا تشكّك في مواقف أكابرهم من الخلفاء

وبعض الصحابة ، فيما يخص تجاوز السُنّة النبوية وإتّباع سُنّة مُغايرة لسُنّته صلىاللهعليهوآله ، كما يسعى التيار السُنّي ، تنزيه الخلفاء الاوائل من خلال احاديث مفتعلة ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنضرب هنا أمثلة محدودة على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ يصرّ كبار أهل السُنّة والجماعة بأن تسمية الخليفة الاول بالصدّيق والثاني بالفاروق كانت من قبل رسول الله ، في حين كانت التسمية في الحقيقة من قبل أهل الكتاب ، بينما لم يشيروا إلى الاحاديث التي تشدّد على ان النبي صلىاللهعليهوآله أسمى علياً بالصديق الأكبر والفاروق الاعظم ، ويتغاضون عن مثل هذه الاحاديث تماماً.

٢ . يدّعي أهل السُنّة والجماعة بأن أول من تلقّب بأمير المؤمنين هو عمر بن الخطاب ، في حين ان أول من تلقب بأمير المؤمنين هو علي بن أبي طالب عندما أمر جبرئيل ، الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله بتلقيبه بهذا اللقب بأمر من الله تعالى ، فيما كان عمر هو الذي لقّب نفسه بأمير المؤمنين.

٣ . يزعم أهل السُنّة والجماعة بأن وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى في الصلاة ، هي بأمر من رسول الله ، في حين تذكر روايات كتب الصحاح والسنن انها كانت باجتهاد الخليفة عمر عندما جاءه مبعوثو ملك الفرس وقد وضعوا يدهم اليمنى على اليسرى احتراماً للخليفة الذي أعجب بهذا التصرف وجعله جزءاً من الصلاة ولو إستحباباً.

على أننا بعد الاطلاع على دقائق المجريات وخفاياها ، منذ نزول الرسالة الإسلامية على الرسول صلىاللهعليهوآله ، وما تلا ذلك من وقائع خلال القرون الأولى ، توصلنا إلى حقائق راسخة لا يمكن إنكارها أو القفز عليها مهما حاول الانسان التهرب والإلتفاف حولها أو اختلاق الاعذار والحجج الواهية لدحضها أو تشويهها لأنها كالشمس الساطعة في رائعة النهار.

المحنة مع قريش

نزل الوحي على النبي محمد صلىاللهعليهوآله . كما هو معروف . وهو يتعبّد في غار حراء ، وحين عرض الاسلام على زوجته خديجة الكبرى وابن عمه علي بن أبي كالب الذي كان يبلغ من العمر ٩ سنوات ، أسلما فوراً ودون تردد ،

وكان عليّ يتعقبه إلى غار حراء ، ويسمع الوحي مباشرة دون الناس ، وهو الذي صلّى خلف النبي صلىاللهعليهوآله قبل الناس بخمس سنوات ، وشرع رسول الله يلقّنه تعاليم الدين والآيات القرآنية النازلة عليه ، فيستوعبها فوراً.

ونزلت آية الانذار التي أعلن الرسول في أعقابها بأن علياً هو أخوه ووصيه ووزيره وخليفته من بعده ، فليسمعوا له ويطيعوا ، فاستصغر القوم علياً وأخذ القوم يتغامزون ويعيّرون به أبا طالب ، قائلين : لقد أمّر محمد عليك ابنك علياً لتسمع له وتطيع.

وهنا بدأت محنة النبي صلىاللهعليهوآله مع قريش في قضية الخلافة.

لقد كان الأمر إلهياً ، إذ ان رسول الله أعلن للملأ من بني هاشم بأن علياً : أخوه بالأخوَّة الخاصة ، لأن كان ابن عمه وليس أخاه في النسب ، كما جعله وصياً له ووزيراً وخليفة عليهم من بعده ، فشرعت الأحقاد تتنامى ضد علي بن أبي طالب ، حسداً من قبل بعض الصحابة ، وحقداً وحسداً مطلقاً من جلّ قريش.

وظل هذا الحقد والحسد ، خفياً تارة ، وعلنياً تارة أخرى ، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة ، وقامت معركة بدر بين المسلمين ومشركي قري ش، إذ قتل عليّ نصف المقاتلين من قريش ، وفيهم عدد من قادة بني أميّة ، حيث اشتد الحقد ضد عليّ وبقي هذا الحقد يغلي في نفوس بني أميّة وفي عدد من كبار زعماء قريش حتى بعد أن أعلنوا إسلامهم الشكلي في فتح مكة.

وهذا الرفض من قبل قريش ، والاستياء من قبل بعض المهاجرين والأنصار ازاء عليّ ، كان كامناً في ال نفوس ، ويظهر على شكل غيظ أو نفور أو شكوى ، فيغضب رسول الله ويعاقب كبار الصحابة ، ويحذّرهم من تكرار تلك المواقف السلبية حيال عليّ بن أبي طالب ، فيتراجع هؤلاء عن تلك المواقف اللامسؤولة ، ويعتذرون للنبي صلىاللهعليهوآله وعليّ ، على ما صدر منهم ضده.

وإذا كان رسول الله ينتقد كبار الصحابة من المهاجرين والانصار في مناسبات مختلفة ، فإنه لم تصدر عنه ولا عبارة واحدة ضد ابن عمه عليّ ، بل كانت كل أقواله ، ثناءً عليه ، وتهيئته للخلافة من بعده ، ثم زوَّج ابنته فاطمة منه ، بعد أن ردّ النبي صلىاللهعليهوآله سائر الصحابة الذين طلبوا يدها من أبيها ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وقال صلىاللهعليهوآله بأن تزويجها يأتي بأمر السماء ، حيث خطبها جبرئيل لعلي بأمر من الله تعالى ، وأخذ الحسد والحقد يتأصّل ضده ويغلي في النفوس ، لكن بصورة مستترة خوفاً من غضب الرسول صلىاللهعليهوآله ، فيما كان المصطفى صلىاللهعليهوآله ينتقد كبار الصحابة . علانية . ويوبّخهم ويحذّرهم من عصيانه ، ولا يأبه بتلاعنهم فيما بينهم ، لكنه لم يسمح لهم بالمساس بعلي وذكره بسوء.

وعجبنا كثيراً كيف أخَّر الجمهور علياً في المرتبة من حيث الفضل والمنزلة فجعلوه رابع الخلفاء» الراشدين «وفضّلوا عليه الخلفاء الثلاث الأوائل ، مع انهم يقرّون بان انتخاب الخلفاء إنما تم من قبل المسلمين انفسهم ، وليس لرسول الله يد في تعيينهم؟ بينما يعلم الجميع ، ان أكثر من ثلاثمائة آية قرآنية نزلت في علي وحده على حد قول حبر الأمّة عبد الله بن عباس ، ولم تنزل آية واحدة لتبيان فضل أبي بكر وعمر وعثمان ، وإذا كانت الآية الوحيد النازلة في حق أبي بكر كما يدّعي أهل السُنّة ، هي : إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) التوبة ٤٠ ، .(فهي . إن صحّ نزولها في أبي بكر . لم تتضمن أي مدح أو منقبة للخليفة الأول ، بل احتوت ذماً مبطّناً له ، لكون أبي بكر كان يرتجف وهو إلى جوار الرسول صلىاللهعليهوآله ، بينما كان الأوْلى به أن يطمئن وتغمره السكينة وهو بجنب خاتم الأنبياء الذي يحفظه الله من كل سوء ، خاصة وانه قد رأى السكينة على وجه رسول الله ، فكان ينبغي عليه أن يستلهم الطمأنينة والسكينة منه صلىاللهعليهوآله الذي قال له : لا تحزن إن الله معنا.

وبدلاً من أني تأتي الآية القرآنية لتنزل السكينة على أبي بكر وهو الخائف المرتعب ، وإذا بالسكينة تنزل على الرسول وحده دون صاحبه ، في حين ان الآيات الأخريات التي نزلت في مواقف مختلفة ذكرت السكينة النازلة على الرسول والمؤمنين حيناً ، أو على المؤمنين في حين آخر ، فلماذا يا ترى استثنت الآية القرآنية النازلة في موضوع هجرة الرسول صلىاللهعليهوآله ، أبا بكر من السكينة؟

والغريب ان علماء الجمهور ، طالما تشبثوا بهذه الآية ، لتأكيد منقبة للخليفة الأول ، وهي في الحقيقة تحمل موقفاً سلبياً منه لا فضيلة أو منقبة كما تبدعه مخيلتهم.

وهناك آيات نزلت في حق الخلفاء الاوائل ، وهي تستبطن مواقف سلبية لهم ضمن الصحابة الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي أو يجهرون له بالقول ، أو يفرّون من الزحف ، إلا علياً فلم تنزل في حقه إلا الآيات المادحة له ، والمانحة له مكانة عظمى عند الله ورسوله والمؤمنين .وانه ولي المسلمين قاطبة ، ومع ذلك يأتي هؤلاء ليضعوا مرتبته بعد الخلفاء الثلاث الأوائل الذين .كما قلنا . لم يستخلفهم رسول الله ، وإنما اختارهم أفراد قلائل ، ولقد ثبت لي من خلال التحقيق ، ما يلي:

١ . ثبوت أكذوبة عدالة الصحابة جميعاً التي يتشبث بها الجمهور للاستدلال على صحة أي حديث يرويه أي صحابي عن النبي صلىاللهعليهوآله ، لأن القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، أثبتا انحراف الكثير من الصحابة ، وارتكابهم للموبقات ، وعصيانهم لرسول الله ، فكيف والحال هذه يصحّ الحديث بعدالتهم أجمعين؟ وكيف تصح النظرية السنّية القائلة بأن الصحابة كانوا يتناقلون الحديث دون ذكر اسم الصحابي الذي يروون الحديث عنه للثقة المتبادلة بينهم؟ فيما كان هؤلاء يكذّب بعضهم بعضاً كما هو ثابت عنهم ، وانما يصحّ نقل الحديث عن الصحابة القات الذين كانوا يطيعون الرسول في حياته وبعد مماته ، ولم يُحدثوا بعده .ولا ننسى أن الكثير من الرواة الذين تعاونوا مع الخلفاء وأذنابهم ، خاصة في العهد الأموي ، وضعوا آلاف الاحاديث في حق الخلفاء الأوائل وفي حق الصحابة ، ونسبوها إلى صحابة أجلاء لكي تنطلي على بسطاء المسلمين.

٢ . ثبت ان السُنّة النبوية لم تُدوّن عند أهل السُنّة والجماعة إلا في أواسط القرن الثاني الهجري ، لأن الخلفاء الثلاث الأوائل ، ثم خلفاء العهد الأموي ، لم يسمحوا بتدوينها ، إلا ان القليل من المؤرخين ونَقَلة الحديث تمكنوا من التدوين سرّاً خوفاً من عيون السلطان وعليه كيف يطمئن المسلمون لحديث بقي ١٥٠ عاماً محفوظاً في الصدور من الخطأ والنسيان والعبث والتحريف واستغلال الوضاعين؟

٥ . لم تكن تلك الفضائل والمناقب التي أعلنها الرسول صلىاللهعليهوآله لعلي وأهل بيته ، مجرّد فضائل لمدح أهل البيت وإعلاء شأنهم وتجليلهم فقط ، كما يقول أهل السُنّة والجماعة ، وإنما كانت تنطوي على تأكيد حاسم منه صلىاللهعليهوآله بوجوب إتّباع الأمّة لهم والاقتداء بهم وموالاتهم بقدر اتّباعهم للقرآن الكريم ، لكي تنجو من الانحراف والتفرّق ، وتبقى سائرة على الصراط المستقيم ، لأن أهل البيت سفن النجاة والثقل

الآخر ، لو تمسّكت بهم الأمّة ، أمنت من الفرقة والزلل والسقوط في حبائل الشيطان ، ولو والاهم كل أفراد الأمّة ، لَمَا كان هناك سُنّة ولا شيعة ، ولما نشأت تلك المذاهب الأصولية والفقهية الكثيرة المتطاحنة فيما بينها خلال تلك العصور ، ولما اختلفت ذلك الاختلاف الذي أُزهقت بسببه النفوس وأُريقت الدماء ، وتمزّقت الأمّة شر ممزق ، وحدث ما كان يحذّر منه رسول الله باتّباع الأمّة الإسلامية نفس المسالك الذي اتبعته الأمم السابقة وما أدى إليه من انحرافها عن مبادئ وتعاليم انبيائها وتوزّعها إلى مذاهب عديدة.

ولو اتّبعت الأمّة بأجمعها ، عليّاً ومن بعده أئمة أهل البيت الآخرين ، الذين وصفهم رسول الله بأنهم أعلم الناس جميعاً ، لما نشأت المدارس الأصولية والعقائدية والفقهية ، مثل نظرية» قِدَم القرآن ، «أو» التشبيه والتجسيم ، «أو »الارجاء «أو» الجبر والتفويض «أو» القدر ، «ولما احتاج الفقهاء إلى قواعد دخيلة ، مثل» المصالح المرسلة «أو »الاستحسان «أو» عمل أهل المدينة «أو» الرأي والقياس «وما إلى ذلك ، ولما تعدّدت التفاسير وتشعبت ، ولو اتبع المسلمون أهل البيت ، لما توقف المدّ الاسلامي على تخوم أوروبا ثم انحسر إلى ما هو عليه الآن ، وأصبحت الأمّة الإسلامية من آخر الامم ، في حين كان من المفروض أن يمتد الإسلام ليشمل الأرض قاطبة ، تطبيقاً للآية الكريمة : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ١.(

وبتجريد أهل البيت من دَوْرهم القيادي كخلفاء للرسول ، استحوذ التيار الحاكم على الخلافة والحكم ، بدلاً من أهل بيت الرسول ، وسخّر كل الوسائل المتوافرة من مؤرخين وعلماء ومحققين ورواة ، لتكريس نظرية غير واقعية تقتضي سلب الموقع

)١ (سبأ ٢٨.

الريادي لأهل البيت ، واختزال دورهم الشرعي المقدس ، إلى مجرد مناقب وفضائل ومودّة سطحية لهم ، واحترام وتبجيل لفظي ليس إلا ، واختلق بديلاً لهم ، وهم الصحابة والخلفاء الثلاث الأوائل كبديل» مقدس «و»شرعي «تبوّأ مكانهم في التشريع والافتاء وقيادة الأمّة.

وأصبح جلّ الصّحابة ، موضع افتخار وتجليل أهل السُنّة والجماعة ، وكذلك الخلفاء المسبوغ عليهم لقب» الراشدين « ،يأخذون عنهم دينهم ، ولا يأخذون من أهل البيت إلا الفِتات ، ولا يوالونهم الموالاة المفروضة ، ولا يسترشدون بمخالفيهم وأعدائهم ، بل ولا يتورّعون عن احترام وتوقير قَتَلة آل البيت ومحاربيهم ، ولا يجدون ريباً في ذلك ولا عيباً؟ لأن الجميع مجتهدون مأجورون .فهم ـ أي أهل السُنّة ـ يترضّون على علي بن أبي طالب وكل الذين حاربوه في معركة الجمل من الصحابة وغيرهم ، وكذلك يترضون على معاوية بن أبي سفيان وأعوانه الذين قاتلوا علياً في صفين بالرغم من شتمهم علياً على المنابر خلال عقود من الزمن.

وهكذا تحققت نبوءة رسول الله في قوله ان ما حدث في الامم السابقة من انحرافات ، سيحدث في الأمّة الإسلامية ، والسبب بالطبع. عدم الولاء لاهل البيت وعصيان أمر الرسول في ذلك ، والنتيجة كانت افتراق الامة إلى ٧٣ فرقة ، مصيرها في النار إلى فرقة واحدة) ١ ، (ولم يرُقْ للجمهور إلا أن يُجيّروا هذا الحديث النبوي ليصبَّ في صالح مذهبهم ، فأضافوا إليه عبارة موضوعة ، يقول فيها صلىاللهعليهوآله» : عن الفرقة الناجية : ما أنا عليه وأصحابي) «٢ ، (ولم يحدّد أهل السُنّة والجماعة ، ما هي الفق الأخرى التي

)١ (المعجم الكبير. الطبراني ١٧ : ١٣ ؛ تفسير القرطبي٢ : ٩.

)٢ (سنن الترمذي ٤ : ١٣٥ ؛ عمدة القاري. العييني ١٨ : ١٣٩ ؛ المعجم الكبير. الطبراني ٨ : ١٥٣.

سيكون مصيرها إلى النار؟ مع ان أكثر الفرق الاسلامية تحترم الصحابة وتثق برواياتهم عن رسول الله؟

من هي الفرقة الناجية؟

وطبق أقوال الرسول وتحذيراته ، فإن الأمّة الإسلامية الآن موزَّعة إلى مذاهب وفرق ونحل كثيرة ، كلها تدّعي التواصل مع رسول الله ، إلا انها وللأسف ، بعيدة عنه كل البعد ، بعد أن حرّف أتباعه ، تعاليم الدين الحنيف ، منذ رحيله صلىاللهعليهوآله ، وأضافوا وأنقصوا في أحكامه ، ووضعوا سُنناً تُخالف السُنّة النبوية ، واختلفوا أحكاماً وعقائد لا تمت

للقرآن والسُنّة النبوية بصلة ، وانما تُرضي الحكام والسلاطين وتبقى فرقة واحدة هي الناجية ، ولابدّ أن تكون متواصلة مع رسول اله ، ومُطيعة له ، ومُتابعة له منذ وفاته وحتى النهاية والخاتمة ، وهذه الفرقة ليست من الفرق والمذاهب السُنّية أبداً ، لأن جميعها يقرّ بأن السُنّة النبوية تم تدوينها بعد نحو ١٥٠ عاماً على وفاة الرسول صلىاللهعليهوآله ، وكانت محفوظة في الصدور مُعرَّضة للخطأ والنسيان والتحريف ، وخاصة ان رُواتها من الصحابة ، ليس كلهم عدولاً وانما الكثير منهم قد كذّب على الرسول ووضع الأحاديث على لسانه ، خدمة لتيار الخلفاء الحاكم بعد وفاته صلىاللهعليهوآله ، ثم وُضعت أحاديث على ألسنة الصحابة في العهدين الأموي والعباسي لإسباغ الشرعية على الخلفاء المتعاقبين الذين روّجوا وتبّنوا المذاهب الفقهية والأصولية المنضوية تحت لواء أهل السُنّة والجماعة ، فتبدّلت تعاليم الدين الاسلامي ، وتلاعب أهل الدين بالأصول والفروع والاحكام ، إرضاءً للحُكّام والسلاطين ، وتماشياً مع أوامرهم وتعليماتهم بغية تفصيل الدين وأحكامه على مقاس الحُكّام والخلفاء وأمراء المؤمنين الذين حكموا بعد رسول الله مباشرة وإلى عهود مُتأخرة ، بإستثناء عليّ الذي لم يتبوأ الحُكم إلا بعد إصرار المهاجرين

والأنصار وسائر المسلمين ، ومبايعته حاكماً على الأمّة ، فضلاً عن تعيينه من قبل الله تعالى خليفة وإماماً على الأمّة جمعاء ، إلا أن تلك الأمّة قد أُستغفلت وفوجئت بمؤتمر السقيفة وما جرى من إرغام الناس على البيعة لأبي بكر حيث بايع أكثرهم دون أن يعلموا بعواقب تلك البيعة التي جرت بين الاكراه والإستغفال.

والحقيقة ان بيعة عليّ كانت الوحيدة في التأريخ التي أجمعت الأمّة عليها بعد الفتنة ، وما اضطره إلى قبول التصدّي للحكم بشرط السير على نهج القرآن والسُنّة النبويّة وحدهما.

ولما عرفنا قبلاً ـ ان النبي صلىاللهعليهوآله ـ قد أشار مراراً إلى أن عليّاً وشيعته هم الفائزون يوم القيامة ، فلابد أن يكون الشيعة هم الفرقة الناجية دون سائر الفرق الممتدة على طول التأريخ.

وشيعة عليّ الذين قصدهم رسول الله ، هم في الحقيقة أتباع أهل البيت السائرون على نهجهم ، وهم فضلاً عنه وابنته فاطمة ، الأئمة الاثنا عشر.

الصلاة المفروضة .. كيف تغيّرت؟

من المسلّمات في الاسلام ان الصلاة اليومية من أهم فرائض وواجبات الشرع المقدّس ، إذ هي عمود الدين) ١ ، (وكتاب موقوت على المؤمنين حسب التعبير القرآني ، والمستخفّ والمستهين بها ، عند أهل السُنّة والجماعة ، يواجه عقوبة إلهية شديدة) ٢، (

)١ (الجامع الصغير ـ السيوطي ٢ : ١٢١.

)٢ (الدر المختار على صدر رد المختار ـ كتاب الصلاة ١ : ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ؛ الفقه على المذاهب الاربعة ـ كتاب الحدود الكبيرة العشرون ـ ترك الصلاة متعمداً ٥ : ٤٠١.

ومع التهديد الالهي والتحذير للمتهاون بالصلاة ، فان المسلمين قد بدّلوا الصلاة باعتراف أنس بن مالك ، وهو كان خادماً للرسول لعَقْد من الزمن ، وعلى معرفة بصلاة النبي اليومية ، اذ يقول أنس عن جدّه مالك : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء للصلاة .ويذكر السيوطي عن الباجي : يريد ـ أي مالك ـ الصحابة وان الأذان باق على ما كان عليه لم يدخله تغيير ولا تبديل بخلاف الصلاة فقد أُخّرت عن أوقاتها ، وسائر الافعال دخلها التغيير ، ولكن يُعلم من رواية أخرى ذكرها في الموطأ ، ان الاذان أيضاً قد تغيّر عما كان عليه في عصر رسول الله ، وزيد في أذان الصبح ، الصلاة خير من النوم بأمر من عمر) ١.(

ويقول أنس بن مالك : ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله ، قيل : الصلاة ، قال : أليس ضيعتم ما ضيعتم فيها) ٢.(

وروى الشافعي من طريق وهب بن كيسان ، قال : رأيت ابن الزبير يبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، ثم قال : كل سُنن رسول الله قد غُيِّرت حتى الصلاة) ٣.(

ويقول الحسن البصري في هذا النطاق : لو خرج عليكم أصحاب رسول الله ما عرفوا منكم إلا قبلتكم) ٤.(

ويبدو من تصريحات كبار علماء أهل السُنّة والجماعة ، انه ليست الصلاة فقط قد تبدّلت وانما سُنن الرسول كلها . وذلك في عهد الصحابة والتابعين ، فأين كان الصحابة

)١ (تنوير الحوالك ـ السيوطي : ٩٢.

)٢ (صحيح البخاري ١ : ١٣٤.

)٣ (كتاب الام ـ الشافعي ١ : ٢٦٩ .

)٤ (جامع بيان العلم وفضله ـ ابن عبد البر ٢ : ٢٠٠ .

الملازمون لرسول الله ، صباحاً ومساءً ، وهم يصلّون معه في كل الاوقات ، ويراقبون حركاته وسكناته ويتابعون قراءته في الصلاة؟ خاصة وانه أوصى وهو يحتضر بالصلاة.

وكان التغيير في الصلاة والتبديل، قد طال كل جزء من أجزائها ، بل وحتى البسملة ، والتشهّد والتسليم!!

عليّ والتمسّك بالسُنّة النبوية

لم يكن عليّ بن أبي طالب ، يعرف إلا سُنّة واحدة ، وهي السُنّة النبوية ، التي لم يَحدْ عنها في حياته أبداً ، سواء في حياة الرسول صلىاللهعليهوآله أو بعد موته ، إذ يقول رسول الله لعليّ : أنت أخي وأبو ولدي تُقاتل عن سُنّتي) ١.(

وأومأ النبي صلىاللهعليهوآله مرّة الى عليّ وقال : إنه يقاتل على التأويل ، إذا تُركت سُنّتي ونُبذت ، وحُرف كتاب الله ، وتكلّم في الدين من ليس له ذلك ، فيُقاتلهم على إحياء دين الله.

وقال الرسول صلىاللهعليهوآله لعليّ : أنت أخي ووارثي ، قال : وما أرث منك يا رسول الله؟ قال : ما ورث الأنبياء من قبلي .قال : ما ورث الانبياء من قبلك؟ قال : كتاب ربهم وسُنّة نبيهم ، وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي وأنت أخي ورفيقي) ٢.(

وقال عليّ بعد بيعته من قبل المسلمين عقب الفتنة : لقد بايعني المهاجرون والانصار على أن أعمل فيهم بكتاب الله وسُنّة نبيه.

وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ ـ يوم خيبر : أنت تؤدي عني ديني ، وتقاتل على سُنّتي ، وأنت

)١ (كنز العمال ـ المتقي الهندي ١٣ : ١٥٩ ؛ ذخائر العقبى ـ الطبري : ٦٦.

)٢٩ الدر المنثور ـ السيوطي ٤ : ٣٧١ ؛ سير اعلام النبلاء ١ : ١٤٢ ؛ المتقي الهندي ٩ : ١٦٧.

في الآخرة أقرب الناس مني) ١.(

وفي كل مواقفه ، كان عليّ يدعو خصومه وأعداءه ، سواء في اسلم أو الحرب ، الى كتاب الله وسُنّة نبيه.

وحين بايعه المسلمون على التسليم والرضا ، شَرط عليه عليّ بن أبي طالب ، كتاب الله وسُنّة رسوله ، فجاءه رجل من خثعم ، فقال له عليّ : تبايع على كتاب وسُنّة نبيه ، قل : لا ، ولكن أبايعك على كتاب الله وسُنّة نبيه وسُنّة ابي بكر وعمر ، فقال عليّ : وما يدخل سُنّة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسُنّة نبيه؟ إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا ، وأبى عليّ أن يبايعه إلا على كتاب الله وسُنّة نبيه .ولحق الخثعمي بالخوارج.

عليّ : خاتم الوصيين

الاحاديث النبوية التي تثبت الوصاية لعليّ بن أبي طالب ، أكثر من الحصر ، وبمقدورنا هنا أن نسجّل بعضاً من تلك الاحاديث على سبيل المثال:

يقول رسول الله صلىاللهعليهوآله : ان وصيي في أمّتي ، وموضع سرّي وخير من أترك بعدي ، يُنجز عدتي ، ويقضي ديني ، عليّ بن أبي طالب) ٢.(

وعندما نزلت آية : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ٣ ، (قال الرسول صلىاللهعليهوآله في علي:

)١ (المناقب . الموفق الخوارزمي : ١٢٩.

)٢ (كنز العمال . المتقي الهندي ١١ : ٦١٠.

)٣ (الشعراء ٢١٤.

أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا) ١.(

وقال صلىاللهعليهوآله : من يؤازرني يكون وليي ووصيي من بعدي ، وذلك في حديث الدار حيث كان علي هو المعني بهذا الحديث) ٢.(

وقال رسول الله لأنس بن مالك في حق عليّ بن أبي طالب : يا أنس من يدخل عليك من هذا الباب ، أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين وقائد الغرّ المحجّلين ، وخاتم الوصيين) ع.(

وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ ذات يوم : عليّ بن أبي طالب ، أخي ومنّي وأنا من عليّ ، فهو باب علمي ووصيّي.

وقال صلىاللهعليهوآله : لكل نبي وصي ووارث ، وان علياً وصيي ووارثي) ٣.(

ويوجّه رسول الله حديثه لعليّ قائلاً : لولا اني خاتم الانبياء ، لكُنت شريكاً في النبوة ، فإن لم تكن نبياً ، فإنك وصي النبي ووارثه) ٤ ، (ولذلك قال الحسن في خطبته الغراء : وأنا ابن النبي ، وأنا إبن الوصي) ٥.(

هذا وألّف الشوكاني كتاباً أسماه» : العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين، «

)١ (الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٢ : ٦٢ ـ ٦٣ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٢ : ٤٩ ؛ انظر : جامع البيان ـ الطبري ١٩ : ١٤٨ ـ ١٤٩.

)٢ (انظر : الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ١ : ١٨٧ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ١ : ٦٤ ؛ الموضوعات ـ ابن الجوزي ١ : ٣٧٦.

)٣ (تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٢ : ٣٩٣ ؛ الموضوعات ـ ابن الجوزي ١ : ٣٧٦.

)٤ (شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ١٣ : ٢١٠.

)٥ (المستدرك على الصحيحين ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٧٢.

ومع كل هذه الحقائق الجلية عن وصاية الرسول لعليّ وانه خاتم الوصيين ، يأتي من أهل السُنّة والجماعة من يتنكر لكل هذا ، كعبد بن أبي أوفى ، الذي سأله مصرف : هل كان النبي صلىاللهعليهوآله أوصى؟ قال : لا ، فقلت : كيف كتب على الناس الوصية ثم تركها؟ قال : أوصى بكتاب الله) ١ .(فأي منطق هذا يحاول إخفاء حقيقة ناصعة كالشمس ، وذلك حقداً على عليّ بن أبي طالب الذي يشكّل شوكة في قلوب أعداء أهل البيت النبوي صلىاللهعليهوآله.

على ان الزبيدي صاحب تاج العروس يقول في مادّة الوصي : لقب عليّ) ٢ .(

)١ (صحيح البخاري ـ ٣ : ١٨٦ ؛ البداية والنهاية ـ ابن كثير ٥ ـ ٣٠٥ ؛ عمدة القاري ـ العييني ١٤ : ٣١.

)٢ (تاج العروس ـ الزبيدي ٢٠ : ٢٩٧.

الخلفاء الاثنا عشر وتخبّط علماء الجمهور

ونحن نبحث في ثنايا كتب التأريخ والرواية ، وقفنا على أحاديث نبوية كثيرة ، تشير الى مجيء اثني عشر خليفة وإماماً من بعده صلىاللهعليهوآله كلهم من قريش ، وبعد التحرّي الدقيق في هذا الموضوع ، تبيّن لنا ان النصوص على الأئمة الاثني عشر ، كثيرة ومتواترة حيث يرويها الجمهور من مئتي وثمانية وسبعين حديثاً ، حيث يقول رسول الله صلىاللهعليهوآله : لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمّة ، كلهم من قريش) ١ .(وفي تعبير آخر له صلىاللهعليهوآله ، يقول : يكون لهذه الأمّة اثنا عشر قيماً لا يضرهم من خذلهم ، كلهم من قريش) ٢ ، (وفي حديث آخر ، يقول صلىاللهعليهوآله : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم

اثنا عشر خليفة) أميراً (كلهم من قريش) ٣ .(وفي عبارة أخرى له صلىاللهعليهوآله : اثنا عشر عدّة نقباء بني اسرائيل)٤ ، (أو عدّة أصحاب موسى) ٥.(

)١ (سنن ابي داود ـ السجستاني ٢ : ٣٠٩ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ٢ : ٢٠٨ ؛ تأريخ الخلفاء ـ السيوطي : ١٢.

)٢ (المعجم الاوسط ـ الطبراني ٣ : ٢٠١ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١٢ : ٣٣.

)٣ (صحيح مسلم ٦ : ٤ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ٢ : ١٩٩ ؛ مسند احمد ٥ : ٨٩.

)٤ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٤ : ٥٠١ ؛ انساب الاشراف ـ البلاذري ١ : ٢٤٠ ؛ فيض القدير ـ المناوي ٢ : ٥٨٢.

)٥ (الجامع الصغير ـ السيوطي ١ : ٣٥٠ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ١٦ : ٢٨٦ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ٦ : ٨٩.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وأبو داود والترمذي في سننهما عنه صلىاللهعليهوآله : يكون بعدي إثنا عشر أميراً ... كلهم من قريش) ١.(

وكما قلنا من قبل ، فإن هذا الحديث متواتر ، حيث ذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة من عشرين طريقاً في ان الخلفاء بعد النبي صلىاللهعليهوآله اثنا عشر خليفة كلهم من قريش : في البخاري من ثلاثة طرق ، في مسلم من تسعة طرق ، في ابي داود من ثلاثة طرق ، في الترمذي من طريق واحد) ٢.(

وقد جمع الحافظ ابن حجر طرقه في كتاب» لذّة العيش بجمع طرق حديث الأئمة من قريش) «٣.(

وعندما تناولنا هذا الموضوع الحساس بمزيد من التفصيل ، عثرنا على حقائق أكثر عُمقاً في هذا الصدد ، حيث ينقل الجويني في كتاب) فرائد السمطين (قوله صلىاللهعليهوآله : ان خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي لَإثنا عشر ، أولّهم أخي ، وآخرهم وَلَدي.

قيل يا رسول الله ومن أخوك؟ قال : عليّ بن أبي طالب .قيل : فمن وَلَدك؟ قال : المهدي الذي يملؤها قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً.

وهنا حدّد رسول الله الأئمة الاثني عشر بين علي والمهدي الذي هو ولَده صلىاللهعليهوآله أي من أولاد فاطمة ابنته ، لأن النبي صلىاللهعليهوآله لم يكن له أولاد ذكور ، وأكد أن أولاده من

)١ (صحيح البخاري ٨ : ١٢٧ ؛ صحيح مسلم ٦ : ٣ ؛ سنن ابي داود ٢ : ٣٠٩ ؛ سنن الترمذي ٣ : ٣٤٠.

)٢ (صحيح البخاري ٨ : ١٢٧ ؛ صحيح مسلم ٦ : ٣ ـ ٤ ؛ سنن ابي داود ٢ : ٣٠٩ ؛ سنن الترمذي ٣ : ٣٤٠ ؛ مسند احمد ٥ : ٨٧ ـ ١٠٨.

)٣ (كشف الظنون ٢ : ١٥٨٤.

إبنته الزهراء ، أي الحسن والحسين ، وبالتالي فمن البديهي أن يكون الأئمة الاحد عشر . باستثناء ابن عمه عليّ . منحصرين في الحسن والحسين وابنائهما.

وفي التوراة التي بأيدي أهل الكتاب ما معناه : ان الله تعالى بشّر إبراهيم باسماعيل ، وأنه ينمّيه ويكثّره ويجعل من ذريته اثني عشر عظيماً) ١.(

إذ يقول الرب لابراهيم بالعبرية» : في لِيشماعيل بيرَختي أو توفي هفريتي أو توقي هِربيتي بِمِئود شنيم عَسار نسيئيم يوليد في نِتتيف لِكَوي كّدول ، «وشنيم عسار ، تعني : إثنا عشر .نسيئيم : أئمة ، زعماء ، رؤساء ، ومفردها ناسي : إمام ، زعيم.

وعني هذه الفقرة : وإسماعيل أباركه ، وأثمرة ، وأكثّره جداً جداً ، إثنا عشر إماماً) ٢.(

فهؤلاء الأئمة أو الخلفاء الاثنا عشر ، من ابناء اسماعيل وبالذات من أبناء عليّ وفاطمة ،كما هو واضح من الاحاديث الشريفة ، وحين يشبّههم رسول الله بنقباء بني اسرائيل أو أصحاب موسى وهم حجج الله في الارض ، فلأن هؤلاء النقباء لهم مكانة عظمى لدى الانبياء ، اذ يقول تعالى : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا)٣ ، (وهؤلاء يتصفون بالصفات التالية : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا) ٤.(

هؤلاء الأئمة بعد موسى أولهم يوشع وآخرهم داوود ، وما بينهم اشموئيل وطالوت ، وتكملة العدد من آل هارون.

)١ (البداية والنهاية . ابن كثير ٦ : ٢٨٠.

)٢ (الكتاب المقدس.) العهد القديم (. الكنيسة : ٢٥.

)٣ (المائدة ١٢.

)٤ (الأعراف ١٥٩ . ١٦٠.

وتقول آية أخرى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) ١.(

فهؤلاء الأئمة يتصفون:

. ان الله تعالى اختارهم وبعثهم.

. وهؤلاء الأئمة هداة ، فهم يهدون بالحق وبه يعدلون.

. هم يهدون بأمر الله لصبرهم ويقينهم بآيات الله.

واتضحت لي الحقيقة أكثر فأكثر ، حين ذكر الجويني ايضاً ، ان الصحابة قالوا لرسول الله في غدير خم : يا رسول الله؟ هذه الآيات : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) ... ٢ (في علي خاصة؟ قال : بلى فيه وفي أوصيائي الى يوم القيامة .قالوا : بيّنهم لنا قال : أخي ووارثي ووصيي وولي كل مؤمن بعدي ، ثم ابني الحسن ثم الحسين ثم التسعة من ولد الحسين . القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه.

فإذن هؤلاء الائمة أو الخلفاء الاثنا عشر ، هم أنفسهم أئمة اهل البيت الذين أوصى بهم في الكثير من المناسبات ، إذ يقول صلىاللهعليهوآله : فيكل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ، ينفون عن هذا الدين ، تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ألا وان أئمتكم وفدكم الى الله ، فانظروا من توفدون) ٣.(

)١ (السجدة ٢٣ . ٢٤.

)٢ (المائدة ٣.

)٣ (الصواعق المحرقة ـ احمد بن حجر : ١٥١.

ويقول رسول الله أيضاً : من أحب أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ، ويدخل الجنة التي وعدني ربي ، فليتولّ علياً وذريته من بعده ، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم من باب ضلالة) ١.(

وذهب رسول الله إلى أكثر من ذلك في تبيين حال الأئمة من بعده ، فقال صلىاللهعليهوآله : أنا وعلي والحسن والحسين ، وتسعة من ولد الحسين ، مطهّرون معصومون ، كما يؤكد صاحب كتاب) فرائد السمطين .(وينصح صلىاللهعليهوآله المسلمين بأن : لا تقدموهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم) ٢ ، (وعليه فإن للخلفاء والائمة الاثني عشر ، خصائص ومزايا تختلف عن الناس العاديين ، فهم مسدّدون من لدن الله تعالى ، وأعلم الناس على الاطلاق ، ومعصومون من الخطأ والزلل ، وهم على الهدى دوماً ، ولا ينبغي أن تخرج الأمّة عن أقوالهم ووصاياهم الى غيرهم لأن الحق منحصر فيهم ، وهؤلاء العدول من آل البيت لديهم مقدرة وموهبة خاصة لإبطال تحريف الضالين وانتحال المطلين وتأويل الجاهلين للدين.

فلا ينطبق هذا التوصيف على خلفاء ظَلَمة ومستبدين حكموا بالنار والحديد ، واستحوذوا على مقدرات المسلمين على حين غرّة من التأريخ ، وتصدّوا للحكم من خلال إكراه الرعايا على البيعة والتسليم المطلق لهم ، بالرغم من عبثهم بشرائع الاسلام وتعطيلهم لحدود الله ، بل وبعضهم يجهل أبسط أمور الدين.

ومع ذلك فقط تخبّط علماء سُنّة كبار في تطبيق عدد ومواصفات الخلفاء الاثني عشر على الحكّام الذين حكموا الأمّة وتجاوز عددهم الاثني عشر بكثير ، فأخذوا ينتقون الخلفاء والحكّام حسب أهوائهم ، فإبتعدوا عن الحق أيما إبتعاد.

)١ (كنز العمل ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١٢ ؛ مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٩ : ١٠٨ .

)٢ (المعجم الكبير ـ الطبراني ٥ : ١٦٧ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١ : ١٨٨ .

بين الحذف والاختلاق

دعائم وهمية وفضائل موضوعة

لصالح مدرسة الخلفاء

لقد إنتهينا ـ آنفاً ـ إلى حقائق جديدة ، تُثبت ان مسلّمات وثوابت أهل السُنّة والجماعة التي آمنوا بها واطمأنت إليهم نفوسهم وقلوبهم ، تفتقر الى الدليل المُقنع ، وليس لها أساس من الصحة ، وانما ابتدعتها مُخيّلة الحُكام الذين احتضنوا التيار الذي استحوذ على الخلافة دون اهل البيت ، حيث وضعوا أسساً ودعائم وهمية ، لغرس جذور وأصول لمدرسة الخلافة غير واقعية ، ولا تُمتّ للحقيقة بصلة ، وانما كانت الغاية منها ، خلق أرضية في نفوس الجمهور المسلم لكي يستسيغ النظرية السُنّية الحاكمة بكل أبعادها وخلفياتها ، وذلك على حساب مدرسة أهل البيت التي رسّخ مشروعيتها رسول الله ، وأمَر الأمّة باتّباعها ـ حصراً ـ دون سائر المدارس والاتجاهات الأخرى.

فبدأت سياسة وضع الاحاديث والروايات التي تمجّد الفئة الحاكمة للأمّة بعد الرسول» صلوات الله عليه «مباشرة في بدايات الحكم الاموي ، وبالأخص في عهد معاوية بن أبي سفيان كما أسلفنا من قبل.

واتخذت سياسة وضع الاحاديث اسلوباً ممنهجاً ، لكي تسدّ الابواب بوجه أية ثغرة تكشف حقيقة ما حدث بعد وفاة رسول الله من تهميش وإقصاء لعلي واهل البيت عن خلافته» صلوات الله عليه ، «وتصدّي أناس غير مؤهّلين للحكم وقيادة الأمّة.

ولم يجهد الرواة أنفسهم كثيراً ، فانتقوا الاحاديث النبوية الواردة في حق عليّ واهل البيت ، وحذفوا منها عبارة» أهل البيت «أو» علي «واستبدلوها بعبارة» الصحابة «أو» أبو بكر «أو» عمر بن الخطاب «أو» عثمان «أو حتى» السُنّة النبوية ... «فيما ابتدعوا واختلقوا المئات من الأحاديث في فضل ومكانة ومنزلة الصحابة والخلفاء الاوائل والخلفاء الامويين والخلفاء العباسيين ، وأصحاب المذاهب الفقهية ، كأبي حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وكل تلك الاحاديث نسبوها لرسول الله من خلال صحابة كبار لكي تنطلي اللعبة على عقول المسلمين ، وتصبح تلك الاحاديث وكأنها أحاديث صحيحة لا يرقى إليها الشك ، خاصة وان الكتب التي روتها ، كتب الصحاح والسنن والمسانيد المعتبرة.

إفتراق الأمّة

والحديث النبوي الصحيح» : ستفترق أمتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة) ١ ، (أضيفت اليه ، عبارة» : قالوا : ومن هي يا رسول الله؟ قال : ما أنا عليه واصحابي) «٢ ، (لكي تنسجم والمسلك الذي يسير عليه تيار الخلافة الغاصبة.

)١ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ١ : ١٢٨ ؛ عمدة القاري ـ العييني ١٨ : ١٣٩ ؛ مسند احمد ٤ : ١٠٢.

)٢ (سنن الترمذي ٤ : ١٣٥ ؛ مجمع الزوائد ـ الهيثمي ١ : ١٨٩ ؛ عمدة القاري ـ العيني ١٨ : ١٣٩ ؛ المعجم الصغير ـ الطبراني ١ : ٢٥٦.

الكتف واللوح

والرواية المكذوبة : ولما ثقل رسول الله ، قال لعبد الرحمن بن أبي بكر ، ائتني بكتف ولوح حتى أكتب لابي بكر ، لا يختلف عليه) ١ ، (مُقتبسة من الرواية الصحيحة ، التي تنص : إئتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً) ٢ .(

والسؤال الوجيه هنا : لو كانت الرواية الأولى صحيحة ، فلماذا لم يكتب رسول الله كتاباً لأبي بكر ، حتى لم يجر ما جرى من اجتماع للسقيفة ، وما أدّى بعد ذلك الى تداعيات خطيرة وفتنة كبرى ، خاصة وان أحداً لم يمنع رسول الله من كتابة الكتاب ، كما في الرواية الثانية كما يعلم الكل!؟

أهداف مغرضة من وضع الاحاديث

حديث خير القرون:

إذ يقول رسول الله» : خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه) «٣ .(وهذا الحديث إنما وُضع لإسباغ الخيرية على هذه القرون الثلاثة التي تلت وفاة الرسول» صلوات الله عليه ، «وهي القرون التي شهدت نشوء المذاهب الاسلامية السُنّية ، وبالذات المذاهب الاربعة التي اتفق اقطاب أهل السُنّة والجماعة على الأخذ بها ونبذ ما دونها في القرون التي تلتها.

)١ (الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣ : ١٨٠ ؛ مسند احمد ٦ : ٤٧ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١٢ : ٥١٠.

)٢ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ٤٧٧ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٥٥٠.

)٣ (الشرح الكبير ـ عبد الرحمن بن قدامة ١١ : ٣٣١ ؛ عمدة القاري ـ العيني ١٤ : ١٨٠ ؛ الاصابة ـ ابن حجر ١ : ٢١ ؛ انظر : البداية والنهاية ـ ابن كثير ٦ : ٢٨٣.

ولطالما تمسّك أهل السُنّة بهذا الحديث الموضوع للاستدلال على عدالة جميع الصحابة والتابعين ، فضلاً عن مشروعية المذاهب الفقهية والاصولية ، غير ان رواية» خير القروني قرني «شهد غير واحد من أعلام أهل السُنّة والجماعة ، بأنها غير تامة السند ، منهم صاحب) ١.(

أحاديث موضوعة لصالح الخلفاء الأربعة:

كنّا قد أثبتنا ـ سابقاً ـ ان تفضيل الخلفاء الاربعة وترتيبهم بالشكل الحالي ، ليس له اصالة تأريخية ولا حقيقة موضوعية أبداً ، وانما هي قاعدة مُخترعة ، وضعها المؤرخون التابعون للمدرس السُنّية ، وأمست» حقيقة «راسخة في نفوس أتباع التيار السُنّي بمرور الزمن مع كل الأسف ، والدليل على ذلك ، تناقض الروايات الواردة في هذا المقام ، والتضاد الصارخ فيما بينها ، بالرغم من ادّعاء أهل السُنّة ، اجماع الأمّة على أفضلية الخلفاء الاربعة الاوائل وبالترتيب المشهور.

فالاجماع المزعوم) أي تفضيل الخلفاء الاربعة وترتيبهم المعروف (لم يحصل إلا في زمن أحمد بن حنبل كما يؤكد صاحب كتاب طبقات الحنابلة.

ـ كان أهل الحديث الكوفيون يقدّمون علياً على عثمان ، بل يقدّمونه في الفضل على أبي بكر وعمر) ٢.(

ـ يقول» صلوات الله عليه : «أنا أول من تنشق عنه الارض ثم أبو بكر ثم عمر) ٣ ... (تُرى لماذا سكت رسول الله ولم يذكر بقية الخلفاء الاربعة ، أي عثمان وعلياً ، فلابد ان هذا الحديث موضوع كالأحاديث السابقة.

)١ (الكفاية في علم الدراية : ٤٧.

)٢ (عمدة القاري ـ العييني ١٦ : ٢٠٦ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ٢ : ٥٨٨.

)٣ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ٦٨ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ١٢ : ٢٣٦.

ـ ينقل البخاري رواية يؤكد فيها رسول الله بأنه بشّر أبا بكر وعمر وعثمان بالجنة) ١ ، (ولم يبشّر علياً بذلك ، ويبدو ان واضع الرواية ، لم يكن من محبي علي بن أبي طالب ، ولذا أهمل ذكره.

ـ يقول رسول الله : خلقني الله من نور ، وخلق أبا بكر من نوري ، وخلق عمر من نور أبي بكر ، وخلق عثمان من نور عمر ، وعمر سراج أهل الجنة) ٢ .(وهنا لم يشر الحديث الى الخليفة الرابع ، وبالتالي فهو) أي هذا الحديث (يخالف

حديث) أفضلية الخلفاء الأربعة وترتيبهم المعروف ، (وان واضعه استقى مضمونه من الحديث الصحيح» : خُلقت أنا وعلي بن أبي طالب نور واحد) «٣ ، (وأراد أن يختلق فضيلة للخلفاء الثلاثة الاوائل دون عليّ.

. يقول يحيى بن معين ، من قال : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وعرف لعلي سابقته وفضله ، فهو صاحب سُنّة) ٤ (،وهنا يضع هذا العالم السُنّي الكبير ومن كبار أهل الجرح والتعديل ، أفضلية لعليّ على سابقيه من الخلفاء ، وهو يُخالف بذلك) ترتيب الأفضلية المعهود.(

وقف جماعة من أئمة أهل السُنّة في علّ وعثمان ، فلم يفضِّلوا واحداً منهما على صاحبه ، منهم) مالك بن انس (و)يحيى بن سعيد القطان (في حين ان أكثر أهل السُنّة ، يقدّمون أبا بكر في الفضل على عمر ، وعمر على عثمان ، وعثمان على عليّ.

)١ (انظر : صحيح البخاري ٤ : ١٩٦.

)٢ (تفسير الثعلبي ٧ : ١١١ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ١ : ١٦٦ ؛ لسان الميزان ـ ابن حجر ١ : ٣٢٨.

)٣ (تفسير الآلوسي ٦ : ١٨٦.

)٤ (فتح الباري ـ ابن حجر ٧ : ١٤ ؛ الاستذكار ـ ابن عبد البر ٥ : ١٠٩.

وهذا الموقف من مالك وابن القطان ، يعارض مقولة إجماع الأمّة على ترتيب الأربعة المذكور.

. قال رسول الله» : ان الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمُرسلين ، واختار لي منهم أربعة : أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، فجعلهم خير أصحابي ، وفي أصحابي كلهم خير) ١.(

هذا الحديث ، موضوع أيضاً وواضح الكذب والافتراء على رسول الله) عليه الصلاة والسلام ، (لأنه حتى ولو افترضنا ان جميع الصحابة عدول كما يدّعي أهل السُنّة ، إلا ان بعض الصحابة ـ كما يشهد كتاب الله والرسول الكريم والتأريخ الصحيح أيضاً ـ كان يعصي الله رسوله ، ويقترف الآثام والموبقات ويرتكب المعاصي والكبائر كمعاقرة الخمرة وقتل النفس المحترمة وفِعْل الزنا والفِرار من الزحف ، فلا يحق لرجل عادي أن يضع الصحابة في مرتبة أدنى قليلاً من مرتبة الرُسُل ، فكيف برسول الله؟

ثم ان علماء الجمهور أنفسهم يقرّون بأن هذا الحديث موضوع ، كأبي بكر الخلال الذي يثبت عدم صحّته .وابن حزم الذي يقول عنه بأنه موضوع ومكذوب وباطل ، وكذلك أحمد بن حنبل ، والبزار الذي يعترف بأن هذا الكلام لا يصحّ عن النبي .ن

. يروي مؤرخوا الجمهور المسلم بأن رسول الله قال بأن الجنة مشتاقة الى أربعة من أمّته ، وهاب أبو بكر وعمر وعثمان أن يسألوه مَنْ هُمْ خوفاً بأن لا يكونوا منهم ، إلا عليّ فسأله ، فقال له) صلوات الله عليه : (أنك أوّلهم ، فقال عليّ : فمن الثلاثة؟ فقال له : المقداد وسليمان وأبو ذر ، وعليه فإن الجنة اشتاقت الى نفر من الصحابة دون الخلفاء الثلاث الاوائل الذين تحققت مخاوفهم في عدم شمولهم بالبشارة النبوية ، فكيف يحق لأحد أن يفضّلهم على الآخرين؟

)١ (مجمع الزوائد . الهيثمي ١٠ : ١٦ ؛ كنز العمال . المتقي الهندي ١١ : ٦٣٥.

حقيقة سُنّة الخلفاء في معيار المنطق والتأريخ

يُؤمن أهل السُنّة والجماعة بسُنّة الخلفاء) الراشدين (ويعدّونها على مستوى السُنّة النبوية من حيث مشروعيتها الدينية والفقهية ، ومصدراً للأحكام الشرعية ، وذلك طبق الحديث النبوي المزعوم : عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ) ١ .(وعلى أساس هذا الحديث النبوي المروي في مصادرهم التأريخية ، يَعدّ أهل السُنّة ، الخلفاء الأربعة بأنهم أعرف بطريق الاجتهاد من غيرهم) ٢ ، (حيث تُطلق السُنّة احياناً . على ما عمل به أصحاب رسول الله وان لم يكن في القرآن أو في المأثور عنه» صلوات الله عليه ... «ومن أبرز ما ثبت في السُنّة بهذا المعنى» سُنّة الصحابة «حدَّ الخمر وتضمين الصناع ، إحتجاجاً بقوله» صلوات الله عليه «في الحديث المذكور» : عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين.«...

وقد استساغ الحُكّام والخلفاء الذين اعقبوا الخلافة) الراشدة ، (هذه النظرية الموضوعة فأخذوا ينتقون من هؤلاء الخلفاء)الاربعة (ما يحلو لهم .فهذا الخليفة الاموي» عبد الملك بن مروان «يُصرّح بأنه ليست سُنّة احب الي من سُنّة عمر) ٣ (،فيما يعدّ الخليفة) عمر بن عبد العزيز (ما سنّة رسول الله وصاحباه) أبو بكر وعمر ، (فهو دين يأخذ به.

)١ (نيل الاوطار ـ الشوكاني ٧ : ٣١٨ ؛ جامع بيان العلم ـ ابن عبد البر ٢ : ٩٠ ؛ احكام القرآن ـ الجصاص ١ : ٥٣٠ ؛ تفسير الرازي ١ : ٢٠٩.

)٢ (الاحكام ـ الآمدي ٤ : ٢٣٧.

)٣ (الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٥ : ٢٣٢ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٣٧ : ١٣٤.

٤٩٣

أما قوله» صلوات الله عليه : «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر) ١ ، (فهو حديث لا يصدّقه إلا من فقد رشده ومنطقه السليم ، للعوامل التالية:

١ ـ لِمَ لم يُوسّع رسول الله من دعوته للاقتداء ، لتشمل الخليفة الثالث والرابع ، وهما من الخلفاء الراشدين ، وسُنّتهما كسُنّته كما يدّعي الجمهور.

٢ ـ تعارض سيرة الخليفتين الاول والثاني وسنّتهما ـ في الكثير من جوانبها ـ بعضها من بعض ، فكيف يقتدي المسلمون بسيرتين متعارضتين فضلاً عن مخالفتهما في العديد من الاحيان للسيرة النبوية؟

٣ ـ ان توصية رسول الله» صلوات الله عليه «للأمّة بالاقتداء بالذين من بعده ـ أي أبي بكر وعمر ـ تصريح منه بأن الخليفتين من بعده ، هما أبو بكر وعمر ، فلماذا لم يحتج الصحابة بعد وفاة الرسول الاكرم» صلوات الله عليه «بهذا الحديث النبوي لو كان صحيحاً ، على ان النبي) سلام الله عليه (قد نصّ صراحة ـ بأنهما الخليفتين من بعده بالتوالي؟

٤ ـ ينصّ الامام الكبير أبو حامد الغزالي ، تعليقاً على قول قوم بأن الحُجّة في قول أبي بكر وعمر خاصة لقوله »صلوات الله عليه» : «اقتدوا باللذين من بعدي : «... فان جميع هذه الأقوال باطلة .وفي معرض حديثه عن سُنّة الخلفاء ، يعلّق الغزالي على قول» : ان الحجة في قول الخلفاء الراشدين اذا اتفقوا : «بأن جميع هذه الأقوال باطلة).٢)

)١ (المعجم الاوسط ـ الطبراني ٤ : ١٤٠ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤١ : ٤٢٢ ؛ الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٢ : ٣٣٤.

)٢ (المستصفى ـ الغزالي : ١٦٨.

أحاديث متهافتة تُصادم الواقع والتأريخ الصحيح

أ ـ مثل الحديث المروي عن رسول الله ، والذي مفاده» : ان الحق ينطق على لسان عمر) «١ (. حيث يضفي هذا الحديث قدسية على الخليفة الثاني ، ويدفع بالمرء الى تجنب توجيه اي نقد اليه ـ فهو حديث مُختلق يتهافت امام المنطق الحُرّ والعقل السليم ، للاسباب التالية:

١ ـ هذا الحديث الموضوع يقتضي عصمة عمر ، وان جميع أقواله حُجّة على الأمّة ، إلا ان الكل يشهد بعدم عصمته ، وان الصحابة كانوا يوجّهون له النقد اللاذع.

٢ ـ فكيف يكون الحق ناطقاً على لسان من يتراجع في أحكامه ويعود الى أقوال الآخرين ، ويقرّ بالخطأ والاشتباه ، ويبدّل قراراته دوماً ، كما هو معروف؟

٣ ـ لم يتمسك أحد من الصحابة في حينها بهذا الحديث المُختلق في سياق دفاعه عن الخليفة الثاني ، ولم يحتج أبو بكر به عندما استخلف عمراً حين وفاته.

٤ ـ من الثابت عند اهل السُنّة والجماعة بأن أبا بكراً كان أفضل منزلة من عمر ، ومع ذلك فهو اعترف على المنبر وبالحرف والوحد بأنّ له شيطاناً يعتريه ، راجياً من الأمّة فيما إذا مال تقويمه.

ب ـ حديث آخر موضوع في هذا الصدد ، يقول فيه صلىاللهعليهوآله» : لو لم أُبعث فيكم لبعث عمر) «٢.(

هذا الحديث ـ لا شك ـ مردود ، للسببين الآتيين:

)١ (فتح الباري ـ ابن حجر ٩ : ٤٢٤.

)٢ (كنز العمال ١١ : ٥٨١.

١ ـ لقد أخذ الله ميثاق النبيين في قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ) الاحزاب ٧ ، (فكيف يصحّ أن يبدّل الله ميثاقه ويبعث عمراً عوض النبي محمد صلىاللهعليهوآله؟ هذا فضلاً عن ان الانبياء) عليهم السلام (لم يشركوا بالله أبداً ، في حين كان عمر مشركاً قبل إسلامه ، وقضى أكثر أيامه غير موحّدٍ لله تعالى.

٢ ـ يعترف خبراء الرواية كإبن عدي بأن زكريا الوكار الذي روى الحديث المذكور كذّاب يضع الاحاديث ، اما الرواية الآخر وهو ابن واقد ، متروك ، وابن عاهان لا يُحتج به.

ج ـ يروي المؤرخون من أهل السُنّة والجماعة بأن رسول الله صلىاللهعليهوآله أمر وهو في مرضه الأخير ، أم المؤمنين عائشة أن تدعو أباها أبا بكر وأخاها حتى يكتب كتاباً ، فإنه يخاف أن يتمنّ متمنّ ، يقول قائل : أنا أوْلى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) ١.(

وأردف رسول الله وصيته هذه ، بإخباره عائشة أن لأباها الخليفة من بعده ، وأمرها بأن تكتم ذلك عليه) ٢.(

ولما ثقل صلىاللهعليهوآله قال لعبد الرحمن بن أبي بكر : ائتني بكتف ولوح حتى أكتب لابي بكر ، لا يختلف عليه ، ثم قال صلىاللهعليهوآله : أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك أبا بكر) ٣.(

ولا ريب في ان هذه الاحاديث المروية عنه صلىاللهعليهوآله ، موضوعة على لسانه لاسباغ الشرعية على خلافة أبي بكر ، وليس لها أساس من الصحة بتاتاً ، للاسباب التالية:

)١ (صحيح مسلم ٧ : ١١٠ ؛ السنن الكبرى ـ البيهقي ٨ : ١٥٣.

)٢ (صحيح البخاري ٤ : ١٩٥.

)٣ (صحيح مسلم ٧ : ١١٠ ؛ السنن الكبرى ـ البيهقي ٨ : ١٥٣.

١ ـ لِمَ لمْ تستجيب عائشة لأمر الرسول بإحضار اللوح والكتف لكتابة وصيته بشأن إستخلاف أبيها ، خاصة وإنها أول الناس شوقاً أن تراه خليفة لرسول الله؟.

٢ ـ لِمَ غيّر رسول الله قراره ، وذلك بطلبه من عائشة أن تكتم هذا السر وعدم البوح به ، خاصة وان أباها هو أوْلى الناس بهذا المنصب حسب قوله السابق؟.

٣ ـ يبدو ان رسول الله كرّر طلبه بإحضار اللوح والكتف حين أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يقوم بتلك الخطوة حتى لا يختلف أحد على أبي بكر ، لكنه هو الآخر لم يستجب للأمر النبوي ، بالرغم من انه سيكون أيضاً مسروراً لإستخلاف أبيه ، أما الادعاء بأن رسول الله قال بأن الله والمؤمنون يأبون الاختلاف على أبي بكر ، فقد إتضح مدى صدْقه بالنزاع والتطاحن في سقيفة بني ساعدة.!!

٤ ـ ان هذه الاحاديث ـ على ما يبدو ـ مقتبسة من الرواية الصحيحة والمتواترة التي تفيد بطلب رسول الله بإحضار الدواة والكتف ليكتب كتاباً لن يضلوا بعده أبداً ، لولا الخليفة الثاني الذي حال وبعض الصحابة الحاضرين دون ذلك ، وقوله المشهور : ان النبي يهجر.!!

٥ ـ تُرى لِمَ لم تقل عائشة أو أخوها عبد الرحمن ، بأن النبي يهجر) والعياذ بالله (أسوة بقول عمر بن الخطاب في الرواية السابقة ، خاصة وانه صلىاللهعليهوآله كان يصارع الموت في الحالتين!؟

و ـ يروي مؤرخو الجمهور ، ان النبي محمد صلىاللهعليهوآله قال لأبي بكر وهما في الغار:

اجعل أبي بكر معي في الجنة ، فأوحي إليه قد استجاب الله لك) ١ .(أو قوله صلىاللهعليهوآله لأبي بكر : لا يدخل الجنة مبغضك ولو كان عمله عمل سبعين نبياً) ٢ .(وانه لم يكن نبي إلا وله خليل وان خليلي أبو بكر) ٣.(

هذه الاحاديث المروية على لسان رسول الله صلىاللهعليهوآله ـ بالطبع ـ واهية ، وتصادم المنطق والواقع ، ولا يمكن تصديقها من قبل ذوي الالباب ، للعوامل الآتية:

١ ـ لم يكن أبو بكر بذلك المستوى من المكانة والايمان كما تصفه هذه الاحاديث ، وإلا لو كان كذلك كما يدّعي الرواة ، لما شكك في إيمانه ومصيره في لحظة إحتضاره ، وتمنّيه لو لم يكن بشراً؟.

٢ ـ إقرار أبي بكر بأن له شيطاناً يعتريه ، راجياً من الأمّة ـ إذا زاغ ـ تقويمه) ٤ ، (مُقرّاً بأنه لا يعمل فيهم بسُنّة رسول الله) .٥)

٣ ـ لم يشهد رسول الله عليه ، مثلما شهد على قتلى أحد ، وحين احتج أبو بكر ، قائلاً : ألم يجاهد هو والآخرون كجهاد شهداء معركة أحد ، قال له الرسول : لست أدري ما تحدثون بعدي!؟ وكان الاجدر برسول الله أن لا يشكك في عاقبته وهو الذي خليله وبدرجته في الجنة ، وعمله عمل سبعين نبياً.!!

لكن هذه الشواهد الحية ، يتضح تهافت مثل هذه الروايات وكذبها.

)١ (السيرة الحلبية ٢ : ٢١١.

)٢ (تفسير الفخر الرازي ١٥ : ١١٨ ؛ المستصفى ـ الغزالي : ١٧٠.

)٣ (تأريخ مدينة دمشق ٣٠ : ٣٨١ ؛ الرياض النضرة ١ : ١٦٢.

)٤ (تأريخ مدينة دمشق ٣٠ : ٣٠٤.

)٥ (السيرة النبوية ـ ابن هشام ٢ : ٢٧٠ ؛ تفسير القرطبي ١٠ : ٢٨٥.

ج ـ من أقوال رسول الله صلىاللهعليهوآله في حق الخليفة الثاني عمر ، بأنه يُكلّم من غير أن يكون نبياً) ١ .(وكان عمر محدّثاً) ٢ ، (ولا يُستغنى عن عمر ، فهو من الدين كالسمع والبصر ، وان شياطين الجن والانس ، فرّوا من عمر ، وما من نبي إلا في أمّته مُعلَم أو مُعلّمان ، وإن يكنْ في الامّة الاسلامية أحد فهو عمر بن الخطاب) ٢ .(

هذه الروايات وغيرها الكثير ، المنقولة على لسان الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله بحق الخليفة الثاني ، موضوعة حتماً ، ولا تتطابق مع واقع الخليفة عمر بكل الاحوال ، وذلك للاسباب التالية:

١ . تشكيك عمر بنبوة رسول الله في قضية صلح الحديبية ، وطعنه بوثيقة الصلح التي وقّعها النبي محمد صلىاللهعليهوآله مع قريش ، بالرغم من نصحه من قبل الصحابة ، وتماديه في التشكيك ، وما رافق ذلك من الهواجس ، وقوله في الرسول من أشياء لم يبح بها لخطورتها وزعزعتها لإيمانه ويقينه.

٢ ـ خشية الخليفة عمر على مصيره بعد الموت ، وتمنّيه لو لم يكن بشراً.

٣ ـ إبتداعه لسنن مخالفة للسُنّة النبوية الشريفة ، بدعوى إيثار المصلحة وإقتضائها.

٤ ـ جهله بالكثير من المبادئ والمفاهيم القرآنية ، والاحكام الشرعية ، وسؤاله الصحابة عنها.

٥ ـ تأكيد الخليفة الاول حين استخلافه لعمر بن الخطاب ، بإحتمال تبديله وتغييره للسنن الالهية والنبوية) ٤ .(

)١ (مجمع الزوائد ٩ : ٦٥.

)٢ (تفسير القرطبي ٩ : ١٩٣.

)٣ (المصدر السابق.

)٤ (الامامة والسياسة ١ : ٢٤.

فكيف والحال هذه أن يكون مُكَلماً ومُحَدثاً ومُعلماً وتفرّ منه الشياطين؟.

ح ـ تنقل كتب التأريخ والرواية لدى أهل السُنّة والجماعة عن المصطفى صلىاللهعليهوآله قوله بأن عثمان حيي وتستحي منه الملائكة) ١ .(وانه صلىاللهعليهوآله ذكر فتنة ، فقال : يُقتل فيها عثمان مظلوماً .وان الله عسى أن يلبسه قميصاً ، وانهم يريدون خلعه ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه) ٢ .(

ويؤكد عبد الله بن سلام انه يجد في التوراة باليهودية : خليفتكم المظلوم الشهيد .وكان الخليفة الثالث قد قال قُبَيل مقتله : اللهم اجمع امّة محمد .ويعلق عبد الله بن سلام ، قائلاً : لو دعا) أي عثمان (الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة) ٣ .(

هذه الروايات المنقولة عن الرسول الاكرم صلىاللهعليهوآله ، وعبد الله بن سلام وغيرهما ، هي الاخرى روايات موضوعة بالتأكيد ، وليس لها أي أساس واقعي يمتّ للحقيقة بصلة ، وإنما حبكها الوضّاعون ، لاضفاء مشروعية على سلوك الخليفة الثالث ، وإبراز» مظلوميته «وما أدى ذلك إلى قتله من قبل الثوار ، وذلك لأنه:

١ ـ تسبغ أحاديث الرسول بشأن الخليفة الثالث) ، حياء (عليه يفوق حياء النبي صلىاللهعليهوآله نفسه ، بل وحياء أبي بكر وعمر .ولسنا نعلم هل ان الذي كان قمّة في الحياء والحشمة ، والذي جاء ليتمم مكارم الاخلاق ، أقل حياء من صحابي وخليفة وان كان) راشداً ، (لتستحي منه الملائكة دون خاتم الانبياء والمرسلين!؟

٢ ـ موقف رسول الله من الفتنة ، وتنبؤه بمقتل عثمان وهو) مظلوم ، (ووصيته له

)١ (الكامل في التأريخ ١ : ٢٦٤.

)٢ (تأريخ مدينة دمشق ٣٩ : ٢٨٠.

)٣ (تأريخ مدينة دمشق ٣٩ : ٤٠٢.

بعدم خلع قميص) الخلافة (الذي يريد الثوار خلعه ، ليس موقفاً صائباً ، ومن المحال أن يقف الرسول صلىاللهعليهوآله هذا الموقف ، لأن الذين ثاروا ضد الخليفة عثمان ، هم من كبار الصحابة ، وفي مقدمتهم ، أم المؤمنين عائشة وطلحة)الخير (وحواري رسول الله) الزبير بن العوام ، (كما كان موقف سائر الانصار ـ سلبياً ـ منه ، إذ خذلوه ولم ينصروه إطلاقاً ، وكان مطلب الجميع واضحاً ، وينصبّ في تغيير سياسته الممالئة لبني أميّة ، وتبديل عمّاله من أقاربه وذوي رحمه ، وعدم إيثار بني أميّة وتسليطهم على رقاب المسلمين ، ومنحهم الصلاحيات المالية والادارية والسياسية ، وضرورة العودة إلى الحق والتقيّد بالسُنّة النبوية وإلا يعتزل الحكم ليختار المسلمون خليفة غيره ، فهل هذه الاهداف والمطاليب غير مشروعة ، حتى يأمره رسول الله بعدم خلع قميص) الخلافة!(؟ وهل جُلّ المسلمين من الصحابة والمهاجرين والانصار على باطل ، وعثمان وبني أميّة ـ فقط ـ على حق!؟

١ ـ والمُستغرب في هذا المقام ، أن يأتي شخص مشكوك في إسلامه وهو عبد الله بن سلام ليزعم ان التوراة تروي قصة مقتل الخليفة الثالث ، وتنعته بالخليفة المظلوم الشهيد !!وانه لو دعا الله أن لا تجتمع أمّة محمد ، فسوف لا تجتمع إلى يوم القيامة ، ولكنه دعا الله ، قائلاً : اللهم إجمع أمّة محمد) ١.(

وتصريحات عبد الله بن سلام هذه ، تفتقد للصدْقية ، وانما أطلقها تملّقاً لبني أميّة الذين كانوا يكنّون له كل المودة ، وكان هو من المنتفعين منهم ، ويضع الاحاديث لصالحهم ، وبالذات لصالح الخليفة عثمان بن عفان.

)١ (المصدر السابق.

تُرى هل إجتمعت أمّة محمد حقاً ، بموجب دعاء الخليفة الثالث ، أم توزّعت إلى مذاهب وفرق متعددة متنازعة ، كلها في النار إلا واحدة طبق قول رسول الله صلىاللهعليهوآله!؟

انّ ما سطّرته في الصفحات القليلة الآنفة ما هي إلا نماذج وأمثلة محدودة جداً قبال مئات الاحاديث التي وُضعت على لسان رسول الله ، لتمجيد وإضفاء شرعية على» الصحابة والخلفاء الاوائل «على حساب أهل بيت رسول الله وعليّ

بن أبي طالب خليفته بالذات ، وبالتالي تحققت خطة الطليق معاوية بن ابي سفيان في إرساء أساس مبني على أحاديث نبوية مكذوبة ، ليُقام عليها بنيان ما يسمّى بمذهب» أهل السُنّة والجماعة «ولو لَلِم أتباع الجمهور ، مدى خسّة المؤامرة المُحْكمة ضد أهل البيت ، التي حيكت من لدن معاوية والرواة الذين صاغوها معه بإحكام ،لما كان هناك مذهب سُنّي يتبعه مئات الملايين من المسلمين ، وهم يعتقدون بأنهم على الحق والصواب والهدى.

وهكذا تتهافت هذه الاحاديث والروايات الموضوعة والمكذوبة واحدة تلو الأخرى؟ !!وهكذا يتبيّن المخطط الذي حُبِك بإمعان ، لجعل الصحابة والخلفاء الثلاث الأوائل بديلاً عن أهل البيت الكرام ، وهم العترة الطاهرة والحَفَظة الحقيقيون لسُنّة أبيهم رسول الله» صلوات الله عليه ، «والخلفاء الأُصَلاء له في قيادة الأمّة نحو شاطئ النجاة!!؟

ولا غرو انّ هذا المخطط تم تنفيذه . بإحكام . من خلال اقتباس واستنساخ المناقب الهاشمية والاحاديث النبوية التي أدلى بها رسول الله» صلوات الله عليه «في حق عليّ وبنيه ، ونسبتها الى الصحابة والخلفاء عبر الوضّاعين والمدلّسين ، وإسناد تلك الاحاديث المروية الى صحابة كبار ومقرّبين منه» صلوات الله عليه ، «وهم منها براء !!فيا له من مخطط محبوك جيداً ، وبعناية فائقة لاسباغ الشرعية المصطنعة على رموز المدرسة السُنّية من صحابة وخلفاء وحكّام على حساب الخلفاء الحقيقيين للبشير النذير.

٥٠٢

ثمن الاختلاف والفرقة

كل ما حذّر منه القرآن الكريم والرسول الاكرم» صلوات الله عليه «من نتائج وخيمة في حال اختلاف الأمّة وتوزّعها والى فرق وطوائف متناحرة ، قد حدث بالفعل ، حيث تمزّقت الأمّة تمزقاً مريعاً ، والسبب كان واضحاً ولا يحتاج الى مزيد من التوضيح أو البيان ، اذ يكمن في عدم التمسّك والاعتصام بأهل البيت واتخاذهم خلفاء وأئمة من بعد الرسول »سلام الله عليه ، «كي يأمنوا من الاختلاف والتفرّق ، سوى قلّة من أتباعهم وأشياعهم ومناصريهم.

ألم يقل رسول الله» صلوات الله عليه : «ان لهذه الأمّة فرقة وجماعة ، فجامعوها إذا إجمتعت ، فاذا افترقت فارقبوا أهل البيت نبيكم ، فان سالموا سالموا ، وان حاربوا فحاربوا ، فانهم مع الحق والحق معهم ، لا يفارقهم ولا يفارقونه؟.

فلِمَ لم تنفّذ الأمّة وصايا نبيها الكريم» صلوات الله عليه «بخصوص أهل بيته وضرورة الالتزام بأوامرهم في الحرب والسلم ، وفي كل الامور والمجريات ، لكي تنجو من الانقسامات والاختلافات المريرة ، كما حصل بعد رحيله» صلوات الله عليه «الى بارئه الأعلى؟

كما لم تعتصم الأمّة ـ جميعها ـ بحبل الله لكي لا يؤول مصيرها الى التفرّق والتمذهب والانقسامات الحادّة ، فقد أخرج الامام الثعلبي في معنى الآية الكريمة : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) ١ ، (عن امام الشيعة الصادق قوله : »نحن

)١ (آل عمران ١٠٣.

حبل الله الذي قال في الآية «كناية عن أئمة أهل البيت الاثني عشر ،كما عدّها ابن حجر في الآيات النازلة في أهل البيت) ١.(

وفي قول آخر لرسول الله» ص ، «أشار فيه الى ان النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق ، وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف في الدين ، فاذا خالفتها قبيلة من العرب ، اختلفوا فصاروا حزب إبليس) ٢.(

ولطالما قال» صلوات الله عليه «لعليّ : يا عليّ أنت تبين لأمّتي ما اختلفوا فيه من بعدي) ٣ .(وذات يوم قال رسول الله» صلوات الله عليه : «ان الله منع بني اسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم ، واختلافهم في دينهم ، وإنه آخذ هذه الأمّة بالسنين ، ومانعهم قطر السماء ببغضهم علي) ٤ ، (وذلك لأنه كان من المفروض على الأمّة جميعاً أن تحب علياً ، وتتبعه ـ عقيدة ومنهجاً وقيادة ـ لكي لا تختلف وتتوزّع الى مِلل ونِحل كثيرة ، في حين ان أغلب الأمّة خالفت عليّاً وأبغضته وأخّرته في المرتبة عن الآخرين ولم تقتدِ به في كل شؤونها ، مما أدى الى اختلافات شاسعة بين ابنائها ، وتشرذمها الى عشرات الفرق والطوائف المتناحرة ، مما أفضى الى إضعافها وفشلها وذهاب ريحها كما حذر القرآن الكريم ، خاصة ان النبي» صلوات الله عليه «قد همّ أن يكتب لاصحابه وأمّته كتاباً ـ وهو على فراش المرض الأخير ـ كي لا يختلفوا من بعده ، ويأمنوا من

)١ (تفسير الثعلبي ٣ : ١٦٣ ؛ الصواعق المحرقة ـ ابن حجر ١٥١ ـ ١٥٢ ؛ شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ١ : ١٦٩.

)٢١ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٤٩ ؛ الخصائص الكبرى ـ السيوطي ٢ : ٢٦٦.

)٣ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٢٢ ؛كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١٥.

)٤ (الموضوعات ـ ابن الجوزي ١ : ٣٨٧.

الاختلاف ، وانه» صلوات الله عليه «لا يهمّ إلا بحق ، وحين منعه القوم من كتابة الكتاب ، حصل الاختلاف وضلّت الأمّة ضلالاً مبيناً الى يوم القيامة) ١.(

ومن المسلّم به ان عملية الاستخلاف ، أمر ضروري لصيانة الأمّة من الاختلاف ونشوء الفتن .ألم يقل الخليفة الاول أبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب ، لما أفاق من غيبوبته ، قائلاً لعثمان : إقرأ عليّ فقرأ عليه ، فكبّر وقال بكل صراحة : أراك خفت أن يختلف الناس إن متّ في غشيتي) ٢.(

وعلى ما يبدو ـ عند الجمهور ـ ان كل الخلفاء والحُكّام وحواشيهم يخشون من اختلاف الناس اذا لم يستخلفوا ، إلا رسول الله فلم يكن يبالي حين أدركته الوفاة أن يخشى على الناس من الاختلاف والتشتّت لأنه لا يهتم بمصير أمّته والعياذ بالله.

)١ (انظر : فتح الباري ـ ابن حجر ١ : ١٨٧.

)٢ (تأريخ الطبري ٢ : ٦١٩؛ الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٢ : ٤٢٥.

النظرية الشيعية حول الخلافة والحكم مقارنة

بالنظرية السُنية

كنّا قد طرحنا ، على بساط البحث ، الاطروحة السُنّية حول الخلافة والحكم ، وقد اتضح فساد هذه الاطروحة وعدم ارتكازها على اسس حقيقية مستمدة من القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، وإنما اتكأت على قواعد مُختلقة وأسس وهمية غير مشروعة لا تمتّ إلى الدين بصلة.

أما النظرية أو الأطروحة الشيعية ، فهي تعتقد بأن أدلته تستند إلى القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، وتقتنع اقتناعاً تاماً بأن رسول الله صلىاللهعليهوآله قد هيّأ علياً وأهل بيته لتسلّم الأمور بعد وفاته حتى تستمر المسيرة الاسلامية بإستقامة ، دون انحراف أو انقسام أو صراع يؤول بالامّة إلى التجزئة والانحطاط والتخلّف عن الأمم الأخرى.

وفي اعتقاد الشيعة أن رسول الله ومنذ البداية ، انبرى لتربية عليّ واعداده وتوجيهه وتأهيله لأن يكون خليفة له ، في وقت قام صلىاللهعليهوآله في الكثير من المناسبات والحوادث ، بابراز عليّ كإمام وحاكم وأمير للمؤمنين وخليفة من بعده كما في حديث الانذار ـ حيث عيّنه ـ صراحة ـ كأخ له ووزير ووصي وخليفة على المسلمين من بعده) ١.(

ثم توالت وصايا الرسول صلىاللهعليهوآله وأوامره وتعاليمه في حق عليّ ، في هذا الشأن ، وليست هذه الوصايا والأحاديث تعكس مناقب علي وفضائله فحسب ـ كما يؤكد

)١ (كنز العمال ١٣ : ١١٤.

الشيعة ـ وإنما هي أوامر جازمة تدعو المسلمين للامتثال لعليّ وطاعته كخليفة ووصي وامتداد للرسول في كل الامور ، أي هو كالرسول صلىاللهعليهوآله ، أحق بالناس من أنفسهم ، وينبغي على المسلمين ، اطاعته وأن يكونوا طوع إرادته لأن طاعته ، طاعة لله ورسوله ، وعصيانه عصيانٌ لله ورسوله على حد سواء.

وعلى حد قول الشيعة ، أن على الأمّة ان تتعبّد بنصوص علي كتعبّدها بنصوص رسول الله ، لأنه صلىاللهعليهوآله وبأمر من الله تعالى ، أودع القرآن الكريم وسُنّته بكاملها لدى عليّ الذي هو عميد أهل بيته من بعده.

وعلماء الشيعة يستدلّون بأدلة كثيرة على هذه المُسلّمة عندهم ولا يطلقونها جُزافاً وعلى حد رأي رموز الشيعة ، فإن على الأمّة كلها أن تتخذ من عليّ وأهل بيته ، قدوة لها في الحياة إن أرادت النجاة والوصول إلى ساحل الأمان ، وتبقى على الصراط المستقيم حتى النهاية.

من هم أهل البتي ، حقيقة؟

المقصود بأهل البيت أو العترة الطاهرة ـ عند الشيعة ـ هم الذين فرض رسول الله على المسلمين طاعتهم واتّباعهم وعدم الخروج من أقوالهم إلى أقوال غيرهم ، لأنهم مستودع علمه ، وطاعتهم واتّباعهم مقرونان بطاعة واتّباع الله ورسوله .فهم خلفاء الرسول صلىاللهعليهوآله وخَزَنة علمه وحكمته وفقهه وسُنّته.

أمّا من هم أهل البيت طبق مواصفات الله ورسوله؟ فهم أهل الكساء ، أي الرسول صلىاللهعليهوآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، والأحاديث النبوية التي حصرت آية ال تطهير في هؤلاء الخمسة ، متواترة

ومُحكمة ، ثم أضافت إليهم التسعة من ذريته حسب تأكيده صلىاللهعليهوآله ، وهم المقصودون بالثِقل الثاني بعد القرآن الكريم ، وهم عدْل الكتاب ومثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى) ١.(

هؤلاء فقط تنطبق عليهم مواصفات الخلافة لرسول الله ، وهم امتداد له في كل شيء باستثناء النبوة ، وليس يحق للأمّة تجاوز أقوالهم وأوامرهم ووصاياهم الى غيرهم ، أو إقصائهم أو تهميشهم وان معصيتهم ، معصية لله ورسوله ، وهم الذين تجب الصلاة عليهم دون غيرهم من بني هاشم ، أما بقية قربى الرسول من بني هاشم من الذين تُمنع عنهم الصدقة ، فهؤلاء يجب تبجيلهم واحترامهم لكونه أقارب الرسول ولا تخصّهم آية التطهير.

والاحاديث النبوية المُحكمة الواردة في حق عليّ واهل بيته ، تدعو الأمّة لعدم التخلف عنهم ، لأنهم أعلم الناس قاطبة ، والسُنّة النبوية متجسِّدة في أقوالهم وأفعالهم ، وبالتالي ليست أقوالهم برأي ولا اجتهاد ولا سُنّة إضافية أو ما يسمّى »سُنة الخلفاء «وانما هي السُنّة النبوية بعينها مُودَعة فيهم ، وهم الخلفاء الاثنا عشر الذين أُوصى رسول الله المسلمين باتّباعهم كحُكّام عليهم وأئمة منصوص عليهم من الله تعالى.

هذا هو قول الشيعة في هؤلاء الأئمة الذين يبدأون بعليّ بن أبي طالب وينتهون بمحمد المهدي ، وهم أهل البيت الذين أشار إليهم القرآن فضلاً عن رسول الله وابنته فاطمة الزهراء ويستدل الشيعة بعشرات من الأحاديث النبوية المبثوثة في كتب الصحاح والسُنن والمسانيد والتفاسير وكتب التأريخ لأهل السُنّة والجماعة ، وهي تدلّ ـ في رأيهم

)١ (المعجم الكبير ـ الطبراني ٣ : ٤٦ ؛ مناقب علي بن أبي طالب ـ ابن الغازلي : ٣٢٤.

ـ على أن أهل البيت مفترضو الطاعة على كل المسلمين ، ومن تلك الأدلة:

فضلاً عن آية التطهير ، قوله تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ١ .(وأهل الذكر ليس إلا أئمة أهل البيت)٢ ، (لأنه ليس لدى الخلفاء والعلماء وغيرهم ، تلك الكفاءة والمَلَكة والقدرة للاجابة عن جميع الاسئلة المطروحة مهما كانت صعبة ومعقدة...

وليس في الأمّة ـ بالطبع ـ أحد له تلك المَلَكة والمقدرة العلمية الكبرى غير أئمة أهل البيت الذين لا تغيب عنهم أية مسألة مهما كانت عميقة ومُعقّدة ، فهم يحيطون بكل العلوم القرآنية والنبوية.

هذا ما يقوله علماء الشيعة وفقهاؤهم ، ويؤكدون بأنه لم يُعرف عن أئمة أهل البيت أن أجابوا بالظن أو الاحتمال أو تلكؤا في مسألة لأنهم مُسدّدون من قبلالله تعالى ، وان العلوم التي أودَعها صلىاللهعليهوآله في عليّ تناقلها الأئمة الباقون واحد عن الآخر.

نظرية الشيعة في الخلافة والإمامة

ويقول الشيعة في الدفاع عن نظريتهم في الخلافة والحُكم والمامة:

١ ـ تواتَر عن رسول الله صلىاللهعليهوآله قوله لعليّ بأنه هو شيعته هم الفائزون يوم القيامة ، ويأتي أعداؤهم غضاباً مقمحين ، وفي عبارات مختلفة) ٣ ، (فلماذا شدّد صلىاللهعليهوآله على ان

)١ (النحل ٤٣.

)٢ (انظر : شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ١ : ٤٣٤ ؛ تفسير القرطبي ١١ : ٢٧٢ ؛ تفسير الثعلبي ٦ : ٢٧٠.

)٣ (المعجم الكبير ـ الطبراني ١ : ٣٢٩ ـ حديث ٤٤٨.

الذين يتشيعون لعليّ ، سيفوزون يوم القيامة دون غيرهم من المسلمين ، إذا لم يكن منهج علي وأتْباعه هو المنهج الحق دون غيره من المناهج والطرق والاتجاهات؟ ولذلك لم يقل صلىاللهعليهوآله في أتباع غيره إنهم ناجون أيضاً ، وبذلك ميَّز أتْباع علي وشيعته عن غيرهم من المسلمين.

٢ ـ ان الاحاديث النبوية الواردة في حق عليّ وأهل بيته ، ليست فضائل ومناقب لاحترامهم وتبجيلهم وتجليلهم فحسب ، وانما تعنيهم بالخلافة والامامة دون سواهم ، خاصة الاحاديث التي تعدّ أهل البيت معياراً للحق والباطل ، فإن اتّبعهم المسلمون وأطاعوهم فسيكونون على هدى وحق ، وإن تفرّقوا عنهم وعصوهم فسيكونون على باطل.

٣ ـ حديث الثقلين المروي عن رسول الله) ١ ، (يربط أهل البيت بالقرآن الكريم ، والمفروض على المسلمين ، الالتزام بهما معاً ، إذا أرادوا النجاة والفوز ، ولا يحق لهم التمسّك بالقرآن وحده ، ولما كان القرآن حبل الله المتين ، وينبغي الاعتصام به ، وتنفيذ أوامره ونواهيه ، فكذلك على الأمّة تنفيذ أوامر الثِقَل الثاني) أهل البيت (ونواهيهم ولكونهم أيضاً عِدْل القرآن ، أي انهم ككتاب الله ، حكّام على الناس دون سواهم.

٤ . قول الرسول صلىاللهعليهوآله ، إن أهل بيته كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى ، () ماذا يعني؟ هل يعني احترام اهل البيت وتوقيرهم وتبجيلهم فحسب أم يعني اتّباعهم والتمسك بهم كسفينة نوح حيث ان من ركبها نجا مع نبي الله نوح عليهالسلام أما من تخلّف عنها وعصا نبيّه فقد غرق وهلك حتى وإن كان ابنه العاصي؟

٥ . اقتران عليّ بالحق في قوله صلىاللهعليهوآله ان علياً مع الحق ، والحق مع عليّ يدور معه

)١ (مسند احمد ٣ : ١٧ . ١٨.

حيث دار) ١ ، (أو انه مع القرآن والقرآن معه) ٢ ، (تعبير نبوي دقيق على ان علياً ملازم للحق ومتجسِّد به في كل أفعاله وأقواله ، وهو مُؤهَّل . بذلك . لقيادة الأمّة وايصالها الى شاطئ النجاة ، إذ من غير المعقول أن يكون رجل بهذه المواصفات أن يُحْرِف الامّة أو يهوي بها في منحدر الضلال ، لأن مثل هذا الرجل سيكون أميناً على الشرعِ الاسلامي ، ويمضي به . على هدى واستقامة . حتى النهاية .وعليه فإن الخليفة الذي يخلف رسول الله لابد أن يمتلك الصفات التي تصون الأمّة من الهلاك في الدنيا والآخرة.

والشخص الذي يكون مطابقاً للقرآن والحق في أقواله وأفعاله وسلوكه ، سيحفظ الأمّة من الانحراف والزيغ والتفرق إلى مذاهب وطوائف وفِرَق ونِحَل مختلفة.

من كل هذا ، يعتقد الشيعة أن الحاكم والخليفة الذي يخلف الرسول صلىاللهعليهوآله ، يجب أن يتّصف بهذه الصفات والخصائص التي توفّرت كلها في عليّ الذي . بحكم أقواله صلىاللهعليهوآله . هو الوصي والوزير والخليفة بعد الرسول ، لأن النبي الأكرم صلىاللهعليهوآله قال فيه» : خليفتي من بعدي ، «حيث استخلفه بنفسه ، ليستحق لقب» خليفة رسول الله ، «لا كغيره من الخلفاء الذين ادّعوا انهم خلفاء للرسول دون أن يستخلفهم أو يوصي بهم .وبذلك افتقدوا للشرعية ، حيث أن الإستخلاف عملية جعلية كما يقول الشيعة.

٦ . تأكيد الرسول صلىاللهعليهوآله بأنه مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد المدينة ، او فليأتِ فليدخل من الباب) ٣ (،أي هي باب واحدة فقط ، وان الأمّة إذا أرادت ، التزوّد من العلوم النبوية ، أن تتجه إلى عليّ دون سواه ، للاستيضاح منه والتفقّه على يديه بكل صغيرة وكبيرة من المفاهيم والتعاليم الاسلامية.

)١ (تأريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٤٩ ؛ تأريخ بغداد ١٤ : ٣٢٢.

)٢ (المعجم الصغير ـ الطبراني ١ : ٢٥٥ ؛ مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٩ : ١٣٤.

)٣ (المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٢٧ ؛ الاستيعاب ـ ابن عبد البر ٣ : ١١٠٢.

٧ ـ قول رسول الله لعليّ : بك يهتدي المهتدون من بعدي) ١ ، (ولابد ـ بحكم العقل ـ أن تجتمع الامامة والخلافة في رجل واحد ، حتى تكون أوامره السياسية والدينية واحدة.

٨ ـ وفي اعتقاد الشيعة ، ان رسول الله في غدير خم بعد حجة الوداع ، كان موقفه واضحاً في تعيين علي خليفة من بعده ، عندما قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله.

وكانت حجة الوداع آخر حجّة للرسول في حياته ، حيث أكد للحاضرين انه على وشك الرحيل ، ومادام هو أولى الناس بأنفسهم ، أي حاكماً عليهم ومتصرّفاً في نفوسهم ، فعليّ أيضاً هو مولى المسلمين وأولى بهم من أنفسهم ، وعليهم إطاعته واتّباعه وعدم عصيانه ، ثم أعقب قوله صلىاللهعليهوآله إن الله يوالي من والاه ، ويعادي من عاداه ، وينصر من نصره ويخذل من خذله ، أي ان علياً هو على الحق على الدوام ، فمن ينصره ، سيكون محقاً والله ناصره ، ومن يخذله سيكون مبطلاً والله خاذله ، وكان صلىاللهعليهوآله قبل قوله هذا ، قد نصح الحضور بالتمسك بالثقلين ، كتاب الله وعترته أهل بيته ، وهو ينظر كيف سيخلفونه فيهما؟ فالقضية عند الشيعة إذاً ، قضية تمسّك وإتّباع وطاعة ونصرة ، وفي مقابلها ، إهمال وعصيان وتخاذل في حق أهل بيت الرسول وعليّ بالذات ، بمعنى ان هؤلاء أوصياء له صلىاللهعليهوآله ، ومصدر الاحكام الشرعية ، وخلفاء وحكّام على الأمّة ، وأولى بها من نفسها بحيث ان طاعتهم تؤول بالأمّة إلى النجاة في الآخرة ، وعصيانهم يهوي بها إلى النار.

ويعتقد الشيعة ـ بالاستناد الى المصادر السُنّية الوثيقة ـ ان هناك آيات قرآنية نزلت قُبَيل وبعد واقعة الغدير ، لتأكيد أهمية هذه الواقعة التأريخية وتبيان مضمونها الدقيق،

)١ (انظر : تفسير الرازي ١ : ٢٠٥.

وهدفها تثبيت خلافة عليّ وإمامة العترة النبوية للأمّة ، فالآية ا لأولى نزلت قبل نطق الرسول بالأمر الالهي الهام ، وهي تأمره صلىاللهعليهوآله بتبليغ ذلك الأمر ، فإن لم يَبَح به ويعلنه ، فكأنه لم يبلّغ رسالته التي أُنزلت عليه منذ البعثة .ولما أعلن رسول الله ذلك الأمر ، نزلت آية أخرى تفصح عن إتمام الرسالة الإسلامية وإكمال الدين بعد البوحْ بذلك الأمر الذي كان إعلان ولاية عليّ على الأمة وتعيينه خليفة عليها .هذا هو الرأي الشيعي في خلافة رسول الله) ١.(

ويستغرب علماء الشيعة ، كيف يحاول أهل السُنّة والجماعة ، إفراغ هذه الواقعة التأريخية المهمة من مضمونها العظيم ، واختزالها بالادّعاء بأن رسول الله إنما أراد إفهام المسلمين بأن علياً ناصرهم وعليهم نصرته ليس إلا ، وذلك هو الهدف من كل تلك المجريات والوقائع التي تخللت حادثة الغدير ، فتناسى هؤلاء أو تجاهلوا ـ متعمّدين ـ حسب رأي الشيعة وأتباع أهل البيت ، ان النبي إنما قصد في يوم الغدير بعبارة» المولى ، «الأوْلى بالانفس او بتعبير آخر ، الحاكم على النفوس) ٢.(

مواقف الحكاك ... ماذا تعني؟

ويرى الشيعة ، انه لو تتبّعنا موقف الحكّام والخلفاء منذ وفاة رسول الله ، حيال أهل بيته وأبنائهم خاصة في العهدين الاموي والعباسي ، لوجدنا أن أساليب أولئك الخلفاء والحكّام وأعوانهم ، وممارساتهم ازاء أئمة أهل البيت وذويهم ، تنمّ عن شعور بالاثم وانهم غاصبون لحق أولئك الأئمة من أهل البيت ، ولذلك كانوا يحْصون عليهم

)١ (السنن الكبرى النسائي ٥ : ٤٥ ؛ أسباب النزول ـ الواحدي : ١١٥ ـ مطبقة الحلبي.

)٢ (تفسير البغوي ٤ : ٢٩٧ ؛ تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٧ .

أنفاسهم ، ويراقبونهم ليلاً ونهاراً ، وينكِّلون بأتباعهم خوفاً من تحلّق الناس حولهم ، ولولا معرفة أولئك الحكام والخلفاء بأحقية أهل البيت للخلافة والامامة ، وإن الرسول صلىاللهعليهوآله لم يوصِ بهم من باب تأكيد فضائلهم ومناقبهم فقط ، وإلا كان من العبث أن يتخذ الحكّام سياسة القمع والتنكيل تجاه أهل البيت وابنائهم على مرّ التأريخ ، وفي المقابل فإن علياً وأبناءه لم يكونوا على باطل أو كانوا أدعياء حينما كانوا يعتقدون باغتصاب الخلفاء الأوائل للسلطة منهم؟

هذا ما يقرّ به الشيعة ورموزهم ، لأن اعتصام عليّ وبني هاشم وبعض الصحابة في بيت الزهراء ، ورفضهم البيعة لأبي بكر) ١ ، (لم تأتِ عبثاً أو إدعاء لا أساس له ، وانما اعتصم عليّ وبنو هاشم والعديد من الصحابة الكبار مثل عمار

بن ياسر وطلحة والزبير والمقداد وسلمان وغيرهم في بيت الزهراء لإيمانهم بأن علياً كان مُوصاً به من قبل رسول الله ، لكن القوم أبوْا له تسلّم الخلافة ، وآثروا أن يقصوه عنها ، بحجّة ان قريشاً تكره اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم ، كما أقرّ الخليفة ، عمر بن الخطاب بذلك) ٢.(

ويؤمن الشيعة بأن علياً لم يبايع أبا بكر اختياراً ، وإنما بايعه مكرهاً بعد أن هدّده البلاط الحاكم بالقتل ، وعندما رأى انصراف وجوه الناس عنه لأنه الوحيد الذي لم يُبايع ، وبايع سائر المهاجرين والأنصار ، الخليفة الأول ، إما خوفاً ورهبة أو لعلمهم ان البيعة أمر لا مفرَّ منه بالرغم من اعتقادهم بأحقية عليّ للخلافة) ٣.(

)١ (الامامة والسياسة ١ : ٢٩ ـ ٣٠؛ العقد الفريد ٤ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ـ الطبعة الثانية.

)٢ (تأريخ الطبري ٣ : ٢٨٩ ؛ الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٣ : ٦٣.

)٣ (الامامة والسياسة ١ : ١٢ ـ ١٣ ـ مطبعة مصطفى الحلبي ؛ الملل والنحل ـ الشهرستاني ١ : ٥٧ ـ دار المعرفة بيروت.

ولا يخفى أن علياً بايع أبا بكر لتلافي قتله المحتوم ، وهو لمّا كان على الحق في كل تصرفاته وأعماله وأقواله ، لأنه مع الحق والحق معه ، يدور معه حيث دار ، فإن بيعته لأبي بكر كانت مُضطرَّة .. مُكرَهة ، وان الله بهذه البيعة)اللامشروعة (الواقعة تحت التهديد ، حفظه وأهل بيته من التصفية على يد التيار الحاكم .وليس عليّ فقط بايع مضطراً كونه كان مُهدّداً بالقتل ، وإنما أُرغم الكثير من كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار ، على البيعة لأبي بكر كما يهد التأريخ بذلك.

على أن الشيعة يرون ان علياً بعد انصرافه عن الخلافة والحكم ، كان يصبو إلى عودة الأمّة إلى رشدها وصوابها قبل أن يستفحل الانحراف الذي بدأ قليلاً في عهد أبي بكر ثم اشتد في عهد عمر بن الخطاب ، إلا ان الخليفة الثاني منعه من خلال الشورى التي عيّنها ، من التصدّي للخلافة ، واتخذت الانحرافات منحى شديداً في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وبدأت الفتن تتوالى كقطع الليل المظلم ، مما دفع علياً بصرف النظر عن فكرة تصدّيه للخلافة ، لكون الانحرافات والفتن والتلاعب بالسُنّة النبوية كانت من العمق ، بحيث ليس من السهل إصلاح الاوضاع المتردية والموغلة في الانحراف والبعد عن سُنّة رسول الله ، ومع أن الأمّة ـ بعد مقتل الخليفة الثالث ـ أحسَّت بالخطأ ووخز الضمير والذنب الكبير الذي ارتكبته بإهمال الوصية النبوية في واقعة الغدير ، فضلاً عن الوصايا والأوامر الأخرى التي حذّر فيها الرسول

صلىاللهعليهوآله أمّته من تجاوز اهل البيت وعميدهم عليّ ، كقادة وزعماء وحكّام عليها ، كان الكيل قد طفح ، وبلغ السيل الزبى ، ولذا شعر عليّ بفداحة الانحراف وعمقه ، بعد ٢٥ عاماً من الانحرافات والبدع الكثيرة التي أحدثها الخلفاء الثلاث الأوائل ، مما جعله لا يفكّر أبداً بالمطالبة بحقه في الخلافة أو اقتراح الأمّة عليه بقبول التصدي لهذا المنصب الخطير ، لولا إجماع المهاجرين والانصار ـ عدا

قلة ، منهم بني أميّة ـ واصرارهم على البيعة له كخليفة ، فاضطر إلى قبولها بقوله» : لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر .وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقاروا على كِظة ظالم ولا سغِب مظلوم ، لألقيت حبْلها على غاربها «).١)

وعند قبول علي لتولي الخلافة والبيعة من الأمّة ، اشترط أن يعيد الأمور إلى نصابها ، وأن يستن بسُنّة رسول الله ولا تأخذه فيها لومة لائم ، ولا يعير أهمية لسُنن الخلفاء الثلاث ، لأنها كانت في الكثير من جوانبها ، تُخالف السُنّة النبوية ، فأذعن المبايعون لشروطه ، إلا ان بعضهم نقض تلك الشروط ، وقامت عليه تلك الحروب الظالمة ، فلم يتورّع عن قتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، لكونه الخليفة الشرعي المعيّن من لدن رسول الله بأمر من الله تعالى ، علاوة على بيعة الأمّة له في حالة فريدة لم يشهد لها التأريخ نظيراً في عملية اختيار الحكّام الذين اعتادوا ان يختارهم أشخاص قلائل قبل أن تُرغم الأمّة على بيعتهم بالترغيب والترهيب والإكراه.

ولم يطل الزمن بعليّ سوى أقل من ٥ سنوات قضاها في قتال الاعداء والطامعين حتى قُتل وهو مطمئن إلى مصيره ، حيث قال» : فزت ورب الكعبة ، «بعكس الخلفاء من قبله الذين كانوا قلقين عند الموت ، خائفين من مصيرهم بعد الاستحواذ على الخلافة ، وما تخللت عهودهم من انحرافات وتجاوزات على النصوص الدينية ، هذا هو رأي الشيعة عن موقف عليّ من الحُكم.

وبعد مقتل عليّ بن أبي طالب ، تم تجريد باقي أئمة اهل البيت من الخلافة أيضاً ، وظلّوا أئمة يوجّهون شيعتهم في ظل حكّام العهدين الأموي والعباسي ، اللذين شدّدا الحصار على آل البيت وأئمتهم وذويهم ، وأقدما على إجهاض أية حركة كانت تقوم

)١ (نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح : ٤٩.

لاعادة الحق المغصوب لاهله واصحابه الحقيقيين.

وعلى حد قول شيعة اهل البيت ، ان ما كان يحذّر منه القرآن الكريم ورسول الله ، قد وقع بالفعل ، نتيجة إقصاء أئمة اهل البيت عن موقعهم الأساسي في الأمّة ، وظلوا أئمة لفئة قليلة من المسلمين وهم الشيعة ، محتفظين بالسُنّة النبوية المودعة فيهم ، بينما انضوى الاكثرون تحت مظلة التيار الحاكم بعد رسول الله ، وهؤلاء قد فرّطوا بالسُنّة النبوية وعطّلوا العديد من السُنن والحدود ، وأضافوا سُنناً أخرى من عندهم ، امتزجت في عقائد وأحكام وشرائع المسلمين ، لتصبح جزءاً من الدين الإسلامي ، من خلال أحاديث كثيرة وضعها أتباع التيار الحاكم لتكريس الشرعية للعهدين الاموي والعباسي الذين استقوا عقائدهما وتعاليمهما من سيرة الخلفاء الثلاث الأوائل الذين أُسبغوا عليهم لقب» الخلفاء الراشدين «لكي تصبح خلافتهم مقدَّسة مشروعة إستمرارً للعهد النبوي.

وهكذا توزّعت الأمّة وتجزّأت إلى مذاهب ومدارس عقائدية وكلامية وفقهية كثيرة جداً ، أدّت إلى ضياع الكثير من الجهود والأموال والقدرات ، بل وإزهاق النفوس ، وذلك وحسب قول . علماء الشيعة . بسبب إهمال أهل البيت وعدم اتخاذهم ثقلاً مع القرآن الكريم ، وإمتداداً للرسول ، وخَزَنة لسُنّته المطهَّرة ، وحكّاماً على الأمّة من بعده ، حيث بقي أئمة أهل البيت . سوى عليّ في حكمه الأمّة بعد الفتنة . أئمة لشيعتهم الذين أطاعوا رسول الله في اتخاذ الأئمة الاثني عشر ، خلفاء له صلىاللهعليهوآله ، ومصدراً لسُنّته ، وبذلك حققوا قوله صلىاللهعليهوآله في عليّ وشيعته ، حينما قال : يا علي أنت وشيعتك الفائزون في يوم القيامة ، تأتون هداة مهديين ويأتي اعداؤكم غضباً مقمحين) ١.(

)١ (المعجم الكبير . الطبراني ١ : ٣١٩ . حديث ٤٤٨ .

ويؤكد علماء الشيعة ، بأن ما يُسمّى بالمذهب الشيعي ، أو المذهب الجعفري ، أو المذهب الامامي ، أو المذهب الاثنا عشري ، ليس إلا الاسلام المحمدي الأصيل الذي نادى به صلىاللهعليهوآله في وصاياه للأمّة باتّباع أهل بيته وفي مقدمتهم . بالطبع . عليّ بن أبي طالب ، لأنهم الامتداد الحقيقي له ، فأصبح أتباع اهل البيت» : شيعة ، «ومنهج العترة النبوية» : تشيعاً ، «إلا ان نشوء المذاهب السُنّية العديدة في أواسط القرن الهجري الثاني ، والتي تزعم كلها الانتساب للرسول) ص (وإنها الخليفة الشرعي له ، والتي انضوت تحت اسم» أهل السُنّة والجماعة ، «دفعت بأتباع أهل البيت إلى تسمية منهجهم بالمذهب الشيعي ، كي لا يضيع الشيعة في غمرة ذلك العدد الكبير من المذاهب والمدارس السُنّية التي تعتبر نفسها الامتداد الصحيح للمنهج النبوي ، والممثلة له ، وإلا فالاسلام الأصيل ، ليس فيه مذاهب ولا فِرَق

ولا نِحل ولا طوائف ، وكما يؤكد رسول الله ، ان النجاة لفرقة واحدة فقط ، حيث يقول الشيعة : هذه الفرقة هي التشيّع لاهل البيت واتّباع منهجهم فحسب ، وهي الفرقة الوحيدة الناجية في رأيهم دون الفرق الأخرى) ١.(

دفاع الشيعة عن مدرسة اهل البيت

!. إن الدين الإسلامي الذي نزل على رسول الله صلىاللهعليهوآله ، مبعثه الخالق عزّ وجل الذي يعلم بحث يجعل رسالته ، ولأنه يعلم ان للنبي محمد صلىاللهعليهوآله ، استعدادات ذاتية لتقبّل الرسالة الإسلامية ، فقام بتسديده وعصمته وإنزال الوحي على قلبه ، فتلقّى القرآن ال كريم ومِثله معه من الحديث الشريف الذي هو شرح وتفصيل للآيات القرآنية.

)١ (تفسير القرطبي ٢ : ٩.

ومثل هذا الدين الإلهي العظيم ، يجب أن تحتضنه عقول وصدور أمينة حتى لا يتعرّض لعبث العابثين ، وجهل الجاهلين ، وأهواء المبتدعين ، خاصة إذا عرفنا ان الإسلام آخر الرسالات السماوية.

٢ . كان للرُسُل السابقين ، أوصياء وأئمة ، حيث أودع هؤلاء الانبياء في أوصيائهم ، شرائعهم وتعاليمهم ليفسّروها ويشرحوها لأتباعهم ، فلماذا خُص الانبياء والرسل الذين كانت رسالاتهم مؤقتة ومحدودة بتلك الخصيصة وهي الوصية لأنبياء أو أئمة من أبنائهم وذويهم ، ويُحرم منها رسول الله محمد صلى الله علهي وآله صاحب الرسالة الخاتمة؟ فينقل الجمهور السُنّي ، حديثاً ملفقاً عن رسول الله حين سُئل وهو على فراش الموت ، بماذا توصي؟ فقال» : أوصيكم بكتاب الله) !!« ١.(

٣ . مسألة التوارث في قضية أئمة أهل البيت ، مسألة الهية ، مادام الله تعالى هو الذي خصّهم بالامامة من خلال الوحي إلى رسوله صلىاللهعليهوآله عبر جبرئيل عليهالسلام ، والقرآن الكريم قد أشار إلى العديد من الأنبياء الذين توارثوا النبوّة بأمر الله تعالى ، ولم يقل أحد ان هذا الأمر ، يمثّل دكتاتورية أو يتعارض مع حرية الاختيار أو مُخالف للحرية الانسانية ، مادام الله تعالى هو الذي اختارهم وعيّنهم ، حيث ورث النبي سليمان داود ، وكذلك النبي يوسف يعقوب ، واسماعيل إبراهيم .. . وهناك سلسلة من الأنبياء توارثوا النبوة ، أباً عن جد ، بتسديد وتخصيص من الله تعالى ، فما المانع من تعيين أئمة من آل البيت من قبله تعالى بالتوارث عبر وصايا وأوامر منه ـ عزّ وجل ـ لكونه يمتلكون استعدادات ومَلكَات يفتقدها غيرهم ، لكونهم مسدَّدين من قبله تعالى دون الناس.

)١ (الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ٣ : ٣٣٦ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٤ : ٤٤٠ ؛ تهذيب الكمال ـ المزي ٥ : ١٧٥.

وبالنظر إلى ان القرآن الكريم قد أشار إلى أهل البيت بصورة إجمالية وقضى بأنهم مطهّرون من الرجس ، إلا ان الاحاديث النبوية الشريفة جاءت لتبيّن من هم أهل البيت الذين تجب على الأمّة موالاتهم واتّباعهم والاستمداد منهم دون سواهم من الصحابة والمسلمين ، وحدّدهم رسول الله بأشخاصهم وأسمائهم ، وهم خمسة في عهده صلىاللهعليهوآله ، محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أشار صلىاللهعليهوآله إلى تسعة آخرين يأتون من بعده ، ليصبح الأئمة اثني عشر من أهل البيت ، فضلاً عنه صلىاللهعليهوآله وابنته الزهراء ، وهؤلاء هم المطهّرون من الرجس ، وأعلم الأمّة إطلاقاً ، وعلى الأمّة الاسلامية جميعها ، موالاتهم وإتباعهم ومشايعتهم وإطاعتهم وأخذ العلوم الدينية والشرعية عنهم.

وهم خلفاؤه والأئمة من بعده على الناس إلى يوم القيامة ، فما داموا عدْلاً للقرآن الكريم والثقل الآخر له ، فلا يأتيهم الباطل ، لا من بين أيديهم ، ولا من خلفهم ، كما القرآن الكريم : لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ١ ، (ومادام القرآن الكريم ، موضع هداية للمسلمين ، ويصونهم من الضلال : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) ٢ ، (كذلك التمسّك بأهل البيت ، موضع هداية ، وأمان لهم من الضلالة والانحراف» : ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً) «٣.(

ويضيف الشيعة ، دليلاً آخر على خلافة أهل البيت ، وهم الأئمة الاثنا عشر،

)١ (فصلت ٤٢.

)٢ (الإسراء ٩.

)٣ (المعجم الاوسط ـ الطبراني ٤ : ٣٣ ؛ كنز العمال ١ : ١٨٦ حديث ٩٤٥.

للرسول وأوصيائه . فضلاً عن الأدلة القوية المأخوذة من أقواله صلىاللهعليهوآله ، والتي يؤكد فيها ان خلفاءه اثنا عشر خليفة كلهم من قريش) ١.(

فهؤلاء الأئمة ماداموا يصونون الأمّة من الضلال والغواية اذا تمسّكت بهم ، فهم . بالتالي . ينبغي أن يكونوا حكّاماً على الأمّة من دون الناس ، حتى لا تنحرف وتضل وتختلف وتنشق إلى فرق وطوائف وشيع كثيرة متناحرة.

وهذا الأمر . في رأي الشيعة . واضح لا يكتنفه الغموض أبداً ، ومع ذلك فإن لصحابة الرسول صلىاللهعليهوآله الذين أطاعوه ولم يعصوه . سواء في حياته أو من بعد مماته . فضلهم واحترامهم ، وتُؤخذ الأحاديث التي رووها عنه ، موضع الصحة والقبول والوثاقة ، إلا أنه لم تثبت عدالة الصحابة جميعاً ، ففيهم المشككون بالدين ورسوله صلىاللهعليهوآله ، والعصاة والطلقاء والمؤلفة قلوبهم والمتذبذبون والمنافقون ، ثم ليس هناك أدلة على عدالة الصحابة كلهم ، أو الاعتصام بهم وبآرائهم وفتاواهم وأقوالهم ، خاصة وإن القرآن الكريم ، صريح في نقد الكثير منهم ونعتهم بمختلف الاوصاف والنعوت السيئة ، بل وحتى اتهامهم بالكذب.

وفي اعتقاد الشيعة بأن الأئمة الاثني عشر . عدا عليّ في فترة محدّدة . حتى وإن لم يمارسوا الخلافة والحكم ، إلا انهم ظلوا أئمة ، يرجع إليهم شيعته في التماس العلم والفقه والاحكام الشرعية منهم ، تطبيقاً لقول رسول الله فيهم : لا تتقدموهم فتهلكوا ولا تتخلفوا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم) ٢.(

)١ (انظر : مسند أحمد ٥ : ١٠٧.

)٢ (انظر : الطبقات الكبرى . ابن سعد ٢ : ١٩٤ ط دار صادر . بيروت ؛ نهاية الارب . النويري ١٨ : ٣٧٧ ط وزارة الثقافة . مصر.

٤ . ان الائمة الاثني عشر ، بالنظر لكونهم حَفَظة للسُنّة النبوية ، وشارحين لها ، وعارفين بمدلولها الفقهي ، فضلاً عن علمهم بالقرآن الكريم وتأويله ، فهم أكدوا . على الدوام . منذ عهد عليّ الذي هو أولهم وفي طليعتهم وحتى آخرهم ، بأنهم يسيرون على وفق السُنّة النبوية الخالصة ، ولا يؤمنون أو يعيرون أهمية لسُنن الآخرين ، كسُنّة الخلفاء الثلاث ، أو سُنّة الصحابة والتابعين وأقوالهم وآرائهم التي تعارض . صراحة . القرآن الكريم والسُنّة النبوية.

٥ . وبناء عليه فإن أبناء الأمّة الاسلامية ، لو أطاعوا الرسول في أهل بيته ، واتخذوهم خلفاء له ، وحاكمين على أنفسهم ، وأئمة هداة دون غيرهم ، خصوصاً في المئة الاولى للهجرة وما بعدها من قرون ، لما تجزّأت الأمّة إلى مذاهب

ونِحَل وفِرَق كثيرة ، ولا انقسمت إلى شيع متطاحنة ، إنْ في الاصول أو في الفروع ، ولا تفرّعت إلى مدارس اصولية وعقائدية وفقهية وفكرية متعدّدة.

٦ . لو أطاعت الأمّة بأجمعها ، رسول الله في أهل بيته ولم تتخذ سواهم خلفاء له ، لما طمع الكل حتى الطُلقاء واراذل الأمّة في التسلّط على رقاب المسلمين والتحكّم في مصائرهم ، والتلاعب بمقدراتهم ، وبذر الخلاف في أوساطهم ، إلى درجة أن طمع الكفار والمستكبرون في أرضهم ، فأحكموا قبضتهم عليهم ، وتفوقوا عليهم في كل شيء ، وأصبح المسلمون تَبعاً لهم وفي الدرجة الأخيرة من حيث الرقي العلمي والتكنولوجي والاقتصادي ، وحتى الاجتماعي.

٧ . ان ما حذّر منه رسول الله من معصيته وعدم مولاة واتِّباع أهل بيته ، قد حصل بالفعل ، وما هذا التقهقر والنزاع والضعف الذي أصاب جسد الأمّة من أقصاها إلى أقصاها ، إلا نتيجة تولّي معظم أبناء الأمّة لخلفاء من غير اهل البيت الذين أوصى بهم رسول الله طيلة فترة نزول الوحي في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

٨ . من نتائج عزوف الأمّة أو معظمها ، عن الولاء لاهل البيت ، انحسار الفتح الاسلامي وانكفاء المسلمين ، ولم يبلغ الإسلام إلا أجزاء من آسيا وافريقيا واوروبا ، في حين كان ينبغي أن يصل الإسلام إلى أرجاء المعمورة كافة ، تطبيقاً لقوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ١.(

٩ . السنّة النبوية حين كانت مُودَعة في الأئمة الاثني عشر ، الخلفاء لرسول الله من أهل البيت ، وهي تضمّ ثروة فقهية وفكرية وعقائدية هائلة ، امتدت إلى نحو أربعة قرون ، ولذلك لم يحتج فقهاء الشيعة من المتمسكين بمنهج أهل البيت ، إلى قواعد دخيلة مثل الاستحسان والمصالح المرسلة وعمل أهل المدينة وشرع ما قبلنا ... إلى آخره ، ولا الاعتماد على الرأي والقياس وأقوال الصحابة وآرائهم وفتاواهم ، وهو ما كان يتخذه أصحاب المذاهب السُنّية لسدّ النقص الحاصل لديهم بسبب قلة الأحاديث النبوية الصحيحة في مسائل الاحكام والفقه ، ولكون السُنّة النبوية لم تدوَّن إلا في أواسط القرن الثاني الهجري ، ونتج عن ذلك ، إقرار أصحاب المذاهب السُنّية بجهلهم في الكثير من لأحكام الشرعية ، وتضارب أقوالهم في هذا المضمار ، وان أقوالهم مجرّد اجتهادات ظنية قابلة للخطأ ، فيما كان أئمة أهل البيت يتحدثون بثقة تامة ، واقوالهم كأقوال رسول الله ، حُجة مطلقة ، لا يتسلل إليها الظن أو الشك أو التردد ، ولا الإقرار بالعجز كما هو ديدن أصحاب المدارس السُنّية.

١٠ . وأخيراً ، يعتقد أصحاب المدرسة الشيعية ، بأن المقصود من المذهب الشيعي . بشكل عام . هو المذهب الجعفري ، نسبة إلى إمامهم السادس جعفر الصادق ، وهذا المذهب المعمول به حالياً في عالم التشيع لاهل البيت ، وهو يتّبع الأئمة الاثني عشر

)١ (سبأ ٢٨.

الذين أمر رسول الله أمّته بموالاتهم وإتّباعهم وطاعتهم وعدم معصيتهم ، أو التقدّم أو التأخّر عنهم.

أما الفِرَق والمذاهب الشيعية الأخرى التي تدّعي الانضواء تحت لواء أهل البيت النبوي ، والتي تؤمن ببعض أئمة العترة الطاهرة دون البعض الآخر ، فإنها لم تلبِّ وصية النبي محمد صلىاللهعليهوآله في أهل بيته حق التلبية ، وانما تتراوح بين الاقتراب من تعاليم اهل البيت والابتعاد عنها بصورة متفاوتة ، كالمذهب الزيدي أو الاسماعيلي ، وهناك مذاهب منحرفة مُغالية قد تبرأ منها أئمة أهل البيت ، لأنها تضم مفاهيم وأفكاراً ضالة لا تمت للإسلام بصلة ، وانْ حاول أعداء الشيعة ، احتسابها منهم ، كيداً لهم وتشويهاً لعقائد أهل البيت التي هي امتداد للإسلام المحمدي الأصيل كما يقول الشيعة.

إستنتاج مهم

وإليكم ما إستنتجناه ، بعد التمعّن في الظروف التي أسست للكيان السُنّي على مدّ التأريخ ، منذ وفاة رسول الله ، وحتى نشوء وقيام المذاهب المختلفة.

١ . أول ما لفت نظرنا عند البدء بالتفكير في قضية الاسلام وما آل إليه المسلمون من تمزّق وتشتت في مختلف المجالات ، سواء كانت العقائدية أو الفقهية أو الفكرية أو حتى الاجتماعية ، هل أن الإسلام كان قاصراً أم ان المسلمين أنفسهم لم يستوعبوا هذا الدين بصورة تامة لأسباب كامنة في عقولهم ونفوسهم؟ والحقيقة ان الجواب واضح وبديهي ، لأننا لو تصوّرنا ان الإسلام قاصر ، فيعني ذلك الطعن في القدرة الالهية وعلم الله تعالى والعياذ بالله ، في حين يقول عزّ وجل : قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ١.(

)١ (الحجرات ١٦.

ويقول تعالى في آية أخرى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ١.(

على ان التقصير جاء من المسلمين أنفسهم لأنهم لم يستجيبوا لداعي الله كما ينبغي ، ولم يؤدوا الأمانة التي حُمِّلوها حق الاداء ، ولابد في البحث عن الاسباب والعوامل والعلل ، لمعرفة مواضع الداء مهما كانت النتائج قاسية وتُطال هذا الفريق أو ذاك ، ومهما كانت قداسته في نفوسنا ، أو نفوس بعضنا على الأقل.

إذ ربما كانت هذه القداسة من ابتداع السياسة الحاكمة لأمر في نفوس يعقوب ، فاتخذتها الأمّة بمرور الزمن ، حقيقة لا يرقى إليها الشك ، في حين هي أسطورة تأريخية لا أصل لها مطلقاً.

٢ . لماذا خلق الله البشرية؟ هذا التساؤل الوجيه ، يجيب الله تعالى عليه في آية محكمة واحدة : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ٢.(

وإذا كان هذا هو ال هدف من الخلقة ، فلابد أن تكون عبادة الله التي لا تقتصر على الفرائض والواجبات ، وإنما عموم الأوامر والتعاليم الالهية ، طبق ما يمليه الوحي على الأنبياء ، لا أن تكون العبادة ، على وفق الأهواء الإنسانية القاصرة ، بالرغم من ان الانسان مفطور على عبادة الله تعالى والإلتجاء إليه ، إلا انه يجهل الطريق الذي يوصله إلى الله ، والوسيلة الصحيحة لاداء تلك العبادة ، ولقد رأينا كيف أن المشركين والوثنيين يعبدون الأصنام والأوثان لتقرّبهم إلى الله زلفى مع ان هذه ال وسائل باطلة.

فليس من حق العباد أن يبتدعوا الوسائل والوسائط والطُرق لعبادة الله تعالى ، ولا يتلاعبوا بمنهجه العبادي على الأقل ، لأن هذه الأمور من مهام الأنبياء عبر الوحي

)١ (الأنعام ١٢٤.

)٢ (الذاريات ٥٦.

الالهي ، وليست خاضعة للأهواء الانسانية والارادة البشرية ، كما حصل في الأديان السابقة ، حيث حرّف أتْباعها ـ خاصة الرئيسية منها كالديانة اليهودية والمسيحية ـ مبادئها وتعاليمها بحسب أهوائهم .فاليهود أطاعوا السامري وقاموا بعبادة العجل مع الله .والنصارى ابتدعوا مذاهب متعدّدة ، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، بل وحرّفوا كتبهم المقدّسة طبق أهوائهم ومصالحهم.

وحين إصطفى الله نبيه محمداً صلىاللهعليهوآله للرسالة الاسلامية ، حذّر المسلمين من أن يصبحوا كأتْباع الديانات السابقة ، الذين عصوا أنبياءهم ، وحرّفوا كتبهم ، فآلوا إلى التمزق والاختلاف والانحراف عن تعاليم رسالاتهم ، وكيف لا يحذِّر الله ونبيه صلىاللهعليهوآله ، الأمّة الإسلامية من مصير الأمم السابقة والإسلام آخر الأديان السماوية جميعاً ، ورسوله ، خاتم الأنبياء والمرسلين؟ وهو الديانة الخاتمة الباقية إلى يوم الدين ، فلابد من تحذير أتْباع الدين الجديد الخاتم لئلا يكون مصيرهم كمصير اليهود والنصارى وغيرهم ، من الانحراف والتشرذم والابتعاد عن الحق ، سيّما وانهم أحقّ من غيرهم في هذا المجال ، لأنه ليس هناك ، بعد الاسلام ، دين آخر يقوم بتصحيح انحرافات الأمّة الاسلامية.

وبالفعل فلابد أن يفكّر رسول الله في مصير أُمّته قبل أن يدركه الموت ، حيث ان الإسلام قد اكتمل فعلاً ، وتطبيقه على الأمّة بحاجة إلى أيد عليمة أمينة لا يغرب عنها شيء من القرآن وأحكامه وتشريعاته ، وكذلك السُنّة النبوية ومعانيها وتفسيرها ، حتى لا تزيغ الأمّة وتنحرف وتتوزع إلى مذاهب وفرق شتى.

وإذا كان أبسط الصحابة قد فكّر بذلك إثر رحيله صلىاللهعليهوآله ، فكيف خفي عليه صلىاللهعليهوآله وهو خاتم الأنبياء وأعلم الأمّة ، ذلك الأمر الخطير وهو الفراغ الذي سيخلفه بوفاته ، وترْك الأمّة بلا راعٍ حتى قيام الساعة.

٥٢٦

وقد يجيب أهل السُنّة والجماعة : وما الإشكال في ذلك ، فقد ترك النبي صلىاللهعليهوآله صحابته ليختاروا خليفة له ، كحاكم للمسلمين ، يطبّق عليهم شرع الله ، وهم أجادوا إذ إختاروا الخليفة الأول والثاني والثالث والرابع ، أي الخلفاء الراشدين ، ثم انحرفت الخلافة لتصبح ملكاً عضوضاً في العهد الأموي والعباسي والعثماني ، ومع ذلك فهي خلافة مقبولة حفظت حصون المسلمين أمام الأعداء ، وقامت بالفتوحات في آسيا وافريقيا وأوروبا وما الضير في ذلك؟ فقد انتشر الاسلام في القارات الثلاث بفعل الفتوحات أو الدعاة ... هذا هو رأي أهل السُنّة والجماعة.

لكن عاقبة الامّة المُتقهقرة تثبت ، فضلاً عن الإنحراف عن القرآن والسُنّة النبوية والتمذهب والتفرّق والتمزّق والتشرذم ، كم كان أسلافها مُخطئين في تنحية أهل ال بيت عن دورهم الحقيقي الذي بوأهم الله تعالى به ، واستبدلوا بهم أفراداً كانوا قاصرين عن قيادة السفينة الى شاطئ النجاة.

مع الشيعة في عقائدهم

ولإكمال ما بدأْناه حول أتْباع اهل البيت من الشيعة المعروفين بالامامية أو الاثني عشرية أو الجعفرية ، قُمنا بتحرّي أقوال أئمتهم وعلمائهم حول قواعدهم الاصولية والفقهية.

وأول ما يلفت نظرنا في هذا الموضوع ، ان أئمة أهل البيت يؤمنون بحقيقتين:

. ليس هناك سُنّة أخرى غير السُنّة النبوية ، فهم تناقلوها ، أباً عن جد ، حتى تصل الى رسول الله صلىاللهعليهوآله.

. لم يكن هناك مانع أو حائل دون تدوين الحديث النبوي ، ولذلك كانت السُنّة النبوي تُدوّن لديهم منذ عهده صلىاللهعليهوآله حتى آخر إمام لديهم.

فالامام الاول للشيعة وهو عليّ بن أبي طالب ، كان قد كتب مُصحفاً فيه جملة من علوم القرآن الكريم ، مثل : المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ، وتفسير الآيات وتأويلها.

والمُصحف هنا هو : الجامع للصحيفة والصحف بين الدفتين ، ولا يتبادر للأذهان إنّ كل مصحف هو كتاب الله ، اي القرآن الكريم.

وكان التابعي ابن سيرين قد تمنّى لو أصاب ذلك الكتاب حيث كان فيه علم.

وكان مولى لرسول الله يُدعى أبو رافع ، قد أصبح صاحب بيت مال عليّ بن أبي طالب عندما كان خليفة على المسلمين ، وهو من شيعة عليّ ، ألّف كتاب السُنن ، والأحكام والقضايا من حديث عليّ خاصة.

أما عليّ بن أبي رافع ، الذي سمّاه النبي بعليّ ، فله كتاب في فنون الفقه على مذهب أهل البيت ، وكانت أئمة اهل البيت يزكّون هذا الكتاب ويُرجعون شيعته إليه.

أما شقيقه عبيد الله بن أبي رافع ، فكان كاتب عليّ ووليه ، وكان قد سمع من رسول الله وروى عنه وروى الاصبغ بن نباتة عن عليّ بن أبي طالب ، عهده الى عامله مالك الاشتر ، وكذلك وصيته الى ابنه محمد بن الحنفية.

ويقول ابن شهرآشوب : أول من صنّف في الاسلام عليّ بن أبي طالب ، ثم سلمان الفارسي ، ثم أبو ذر.

ومن أتباع أهل البيت) سُليم بن قيس الهلالي ، (له كتاب في الامامة ، وهو من الأصول التي ترجع الشيعة إليها ، وكذلك ربيعة بن سميع ، له كتاب في زكاة النعم.

وهناك كتب عديدة من مؤلفات أتْباع اهل البيت وشيعتهم ، منها : كتاب الفهرست للنجاشي ، وكتاب منتهى المقال في أحوال الرجال ، وكتاب منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال.

ويُعدّ حَمَلة العلم من الشيعة بآلاف الرجال ، ومصنفاتهم عشرة آلاف كتاب ، حيث روى أبان بن تغلب عن جعفر الصادق خاصة ، ثلاثين ألف حديث ، فيما أخذ ثابت بن دينار المعروف بـ)أبي حمزة الثمالي ، (عن الصادق والباقر والسجاد ، وروى رسالة الحقوق عن السجّاد خاصة.

ومن الذين رووا عن أئمة اهل البيت : بريد بن معاوية العجلي ، ليث بن مراد البختري ، زرارة بن أعين ، ومحمد بن مسلم بن رباح الكوفي.

والمعروف ان اربعمئة مؤلّف شيعي ، صنّفوا أربعمئة كتاب من فتاوى الصادق ، فيما روى التابعي كميل بن زياد النخعي ، أحاديث عن عليّ بن أبي طالب) ١.(

ويذكر المؤرخون أن من روّاد التشيع الأوائل : أبو ذر الغفاري ، عمار بن ياسر ، سلمان الفارسي ، المقداد بن عمرو الكندي ، حذيفة بن اليمان ، خزيمة بن ثابت الأنصاري، أبو الهيثم بن التيهان الانصاري ، جابر بن عبد الله ، محمد بن أبي بكر ، مالك الأشتر ، براء بن عازب ، أبي بن كعب ، عبادة بن الصامت ، أبو الأسود الدؤلي ، أو دجانة الانصاري ، سهيل بن عمرو ، سهل بن حنيف ، أبو رافع ، زيد بن ارقم ، الأصبغ بن نباتة ، يزيد الأسلمي ، حكيم بن جبلة العبدي ، بديل بن ورقاء الخزاعي ، أبو الطفيل) عامر بن واثلة ، (عدي بن حاتم الطائي ، أويس القرني ، أبان بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس.

أما صحيفة رسول الله التي أملاها على عليّ ، فيبلغ طولها سبعين ذراعاً ، وكتبها عليّ بخطه ، وهي» أول كتاب جُمع فيه العلم «على عهد رسول الله ، وانّ الائمة الاثني

)١ (تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ٦ : ٣٧٦ ؛ الامالي ـ الشيخ المفيد : ٢٤٧ الحديث ٣ : خصائص الائمة : ١٠٥.

عشر من ذريته ، توارثوا ذلك الكتاب أو الصحيفة ، وقد وصفوها بكونها : كتاباً مدروجاً عظيماً) ١.(

وكان لامام الشيعة) علي بن الحسين (المعروف بالسجاد ، كتاب أدعية بأسم» الصحيفة السجادية «وكذلك رسالة حقوق ، وصحيفة في الزهد ، والجامع في الفقه ، وكتاب حديث ، نقلها عنه ، جمع من العلماء والرواة والمؤرخين الشيعة.

وسأل جابر الجعفي إمام الشيعة) محمد الباقر) (ت ١١٤ هج : (أقيّد الحديث اذا سمعت؟

فقال الباقر : إذا سمعت حديثاً من فقيه خير مما في الأرض من ذهب وفضه) ٢.(

والباقر نفسه قد قال : عرْض الكتاب ، والحديث سواء) ٣ ، (وقال الصادق) ١٤٨ هـ (للمفضل بن عمر الجعفي : اكتب ، وبثّ علمك في إخوانك ، فإن متّ ، فأورث كتبك بنيك) ٤ ، (ودخل عليّ أناسٌ من أهل البصرة ، فسألوني عن أحاديث ، فكتبوها ، فما يمنعكم من الكتاب؟ أما انكم لم تحفظوا حتى تكتبوا) ٥ .(والقلب يتّكل على الكتاب).٦)

واحتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها) ٧ ، (ولولا الكتابة ، لدُرسَت العلوم ، وضاعت الآداب ، وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم ومعاملاته ، وما

)١ (رجال النجاشي : ٣٦٠ الحديث ٩٦٦ ؛ وسائل الشيعة ١ : ٦٢.

)٢ (أدب الاملاء ـ السمعاني : ٥٥.

)٣ (سنن الدارمي ١ : ١٥٢ ؛ الكفاية في علم الرواية : ٣٠٠.

)٤ (اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٥٢ الحديث ١١ ؛ بحار الانوار ـ المجلسي ٢ : ١٥٠ الحديث ٢٧.

)٥ (اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٥٢ الحديث ٩ ؛ وسائل الشيعة ٢٧ : ٨١ الحديث ٣٣٢٦١.

)٦ (اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٥٢ الحديث ٨ ؛ بحار الانوار ـ المجلسي ٢ : ١٥٢ الحديث ٣٩.

)٧ (اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٥٢ الحديث ١٠ ؛ بحار الانوار ـ المجلسي ٢ : ١٥٢ الحديث ٤٠.

يحتاجون الى النظر فيه من أمر دينهم ، وما روي لهم مما لا يسعهم جهلة) ١.(

وكان عند جعفر الصادق ، رسائل وأحاديث ونُسخ) ٢ ، (في حين يقرّ أبو حنيفة بأن الامام الصادق كان) صُحُفياً ، (أي يأخذ علمه من الكُتب ، وكان جواب الصادق : أما في قوله» أنا رجل صُحُفي ، «فقد صدق ، قرأت صُحف آبائي وابراهيم وموسى) ٣.(

كما ان) كتاب التوحيد (أملاه جعفر الصادق على المفضّل بن عمر الجعفي الكوفي ، وهو يحتوي على بيان عقيدة التوحيد) ٤.(

ورسالة) الاهليجة (في التوحيد ، كتبها الامام الصادق ، ردّاً على الملحدين المنكرين للربوبية ، احتجاجاً عليهم) ٥.(

وكان للامام الصادق ، تلامذة كثيرون ، ألفوا الكتب ، ودوّنوا الحديث في المصنفات والمسانيد) ٦ ، (وان الرواة هم ممن ألّف حديث الامام الصادق على شكل» المسند .«فجُمع فيه ما رواه الصادق ، مسنداً مرفوعاً عن آبائه عن رسول الله) ٧.(

أما) الجعفريات (فهي مجموعة من أحاديث الاحكام ، مرتّبة على أبواب الفقه ، رواها عن الامام الصادق ، ابنه الامام الكاظم ، مسندة عن آبائه ، مرفوعة الى الرسول صلىاللهعليهوآله) ٨.(

)١ (مستدرك الوسائل ١٣ : ٢٥٩ الحديث ١٥٢٩٤ ؛ بحار الانوار ـ المجلسي ٣ : ٨٢.

)٢ (تهذيب التهذيب ٢ : ٨٨ الحديث ١٥٦ ؛ الكامل ـ ابن عدي ٢ : ١٣٤ الحديث ٣٣٤.

)٣ (علل الشرائع ١ : ٨٩ الحديث ٥ ؛ بحار الانوار ٢ : ٢٩٢ الحديث ١١.

)٤ (رجال النجاشي : ٤١٦ الحديث ١١١٢ ؛ معجم رجال الحديث ١٩ : ٣١٧ الحديث ١٢٦١٥.

)٥ (تدوين السنة الشريفة : ١٦٥ ؛ بحار الانوار ١ : ٣٢.

)٦ (تدوين السنة الشريفة : ١٧٢.

)٧ (المصدر السابق.

)٨ (المصدر السابق : ١٦٦.

وللامام الصادق ، كتاب الحج ، وكتاب في الحلال والحرام ، وكذلك له وصية النبي صلىاللهعليهوآله ذكرها كتاب الفهرسة) ١.(

ونستنتج مما مضى ، بأن أئمة الشيعة ، كانوا يتناقلون الاحاديث النبوية بينهم مدوّنة منذ عهد رسول الله وإلى آخر إمام منهم ، وكانوا يسمحون لتلامذتهم بتدوين تلك الاحاديث وكذلك الفتاوى والاحكام الشرعية الصادرة عنهم في مصنفات وكتب ومؤلفات ، مما يدل على إن حركة التدوين عند الشيعة لم تتوقف منذ عهد رسول الله والى يومنا هاذ ، دون التذرّع بالخوف من اختلاط الحديث النبوي بالقرآن الكريم ، كما هو عند أهل السُنّة والجماعة في المئة ال اولى للهجرة ، حيث منعوا التدوين أو التحدّث بالسُنّة النبوية حتى أواسط القرن الثاني.

القرآن الكريم في الرؤية الشيعة

ما هو موقف أئمة الشيعة من القرآن الكريم وصيانته من التحريف؟ وما هو موقع القرآن عندهم نسبة للحديث النبوي؟ وهل يؤمنون بأن كتاب الله هو الفيصل والميزان أم الحديث الشريف؟

قبل كل شيء ، يعتقد أئمة الشيعة ، بأن لم يوافق كتاب الله فهو زخرف) ٢ ، (إذ يقول الصادق بأن رسول الله صلىاللهعليهوآله خطب بمنى ، فقال : أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته ، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله) ٣ ، (وفي تعبير آخر ، قال

)١ (المصدر السابق : ١٦٧ ـ ١٦٨.

)٢ (اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٦٩ الحديث ٣ ؛ وسائل الشيعة ٢٧ : ١١١ الحديث ٣٣٣٤٧.

)٣ (كتاب الام ـ الشافعي ٧ : ٣٥٨ ؛ اصول الكافي ـ الكليني ١ : ٦٩ الحديث ٥.

الصادق نقلاً عن رسول الله صلىاللهعليهوآله : فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه) ١.(

وأما تحريف كتاب الله ، فينفيه علماء الشيعة وكبارهم ، فهذا الشيخ الطوسي المتوفى عام ٤٣٦ ، يقول» : واذا كان الموجود بيننا مُجمعاً على صحته ، فينبغي أن نتشاغل بتفسيره ، وبيان معانيه ، نترك ما سواه) «٢.(

أما الطبرسي وهو من أكابر علماء الشيعة ، فيؤكد» : لأن القرآن معجزة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته ، الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من أغرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً أو منقوحاً مع العناية الصادقة ، والضبط الشديد) «٣.(

وينفي الفيض الكاشاني خبر التحريف ، قائلاً : انه مُخالف لكتاب الله ، مكذّب له ، فيجب ردّه ، والحكم بفساده) ٤ (،فيما يصرّ الشيخ المفيد : بميله الى سلامة القرآن ، والى عدم زيادة الكلمة والكلمتين ، والحرف والحرفين .«فيما أكد الشريفة المرتضى ، بأن» : القرآن كان على عهد رسول الله صلىاللهعليهوآله مجموعاً مؤلّفاً على ما هو عليه الآن ، فإن القرآن كان يُحفظ ، ويُدرس جميعه في ذلك الزمان ، حتى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له ، وأنه كان يُعرَض على النبي صلىاللهعليهوآله ، ويُتلى عليه ، وأن جماعة

)١ (المصنف . الصنعاني ٦ : ١١٢ الحديث ١٠١٦٣ ؛ الدر المنثور . السيوطي ٥ : ١٤٧ ؛ اصول الكافي . الكليني ١ : ٦٩ الحديث ١ ؛ وسائل الشيعة ٢٧ : ١١٨ الحديث ٣٣٣٦٢.

)٢ (تفسير التبيان ١ : ٤.

)٣ (مجمع البيان ١ : ٤٣.

)٤ (التفسير الصافي ١ : ٥١.

من الصحابة مثل : عبد الله بن مسعود ، وأُبي بن كعب وغيرهما ، ختموا القرآن على النبي صلىاللهعليهوآله ، عدّة ختمات ، وكل ذلك يدلّ . بأدنى تأمل . على أنه كان مجموعاً مرتّباً غير منثور ولا مبثوث) «١ ، (ويعتقد الشيخ الصدوق ، المتوفي عام ٣٨١ هـ بأن : اعتقادنا إن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلىاللهعليهوآله هو ما بين الدفّتين ، وهو ما في أيدي الناس ، ليس بأكثر من ذلك ، وعدد سوره على المعروف ١١٤ سورة .ومن نسب إلينا أنّا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كذّاب) ٢ .(ويوضح عالم شيعي آخر وهو الحرّ العاملي بأن القرآن قد بلغ أعلى درجات التواتر ، وأن آلاف الصحابة كانوا يحفظونه ويتلونه وأنه كان على عهد رسول الله مجموعاً مؤلّفاً) ٣ ، (وهذا ما يقرّه العلامة المجلسي الذي يقول» : غير ان الخبر قد صح عن أئمتنا ، أنهم أمروا بقراءة ما بين الدفتين ، وأن لا نتعدّاه بلا زيادة فيه ولا نقصان منه) «٤ .(وعلى هذا المنوال يقول بهاء الدين العاملي المتوفي في عام ١٠٣٠ هـ» : الصحيح ان القرآن العظيم محفوظ عن ذلك) «٥.(

ويتساءل الفيض الكاشاني انه» : لو تطرّق التحريف والتغيير في ألفاظ القرآن ، لم يبق لنا اعتماد على شيء منه ، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن تكون محرّفة ومغيّرة ، وتكون على خلاف ما أنزله الله ، فلا يكون القرآن حجة لنا ، وتنتفي فائدته وفائدة الأمر باتّباعه والوصية به ، وعرض الأخبار المتعارضة عليه .وقال في تفسير قوله تعالى:

)١ (مجمع البيان ١ : ٤٣ ؛ تفسير الصافي ١ : ٥٣.

)٢ (الاعتقادات في دين الامامية : ٨٤.

)٣ (الفصول المهمة في تأليف الامة : ١٦٦.

)٤ (بحار الانوار ـ المجلسي ٨٩ : ٧٤ ؛ المسائل السروية ـ الشيخ المفيد : ٨١.

)٥ (آلاء الرحمن ١ : ٢٥ ـ ٢٦.

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ١ : (من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان) ٢.(

ولتصحيح بعض المعلومات الخاطئة عن الشيعة ، يقول الشيخ المفيد المتوفي عام ٤١٣ هـ : وقد قال جماعة من أهل الامامة ، انه لم ينقص منه كلمة ، ولا من آية ، ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين من تأويله ، وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله ، وذلك كان ثابتاً منزلاً وان لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز .. وإليه أميل والله أسأل توفيقه للصواب) «٣.(

أما من الذين قالوا بتنزيه القرآن من المعاصرين ، فمنهم ، الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفي عام ١٢٢٨ هـ ، الذي يقول : ان القرآن محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديان ، كما دلّ عليه صريح الفرق ، وإجماع العلماء في جميع الأزمان ، ثم كيف يكون ذلك ، وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه؟) ٤ ، (وهذا ما يؤكده العالم الشيعي الكبير الخوئي المتوفي في عام ١٤١٣ هـ ، اذ يقول» : ان حديث تحريف القرآن ، حديث خرافة وخيال ، لا يقول به إلّا من ضعف عقله .. وأما العاقل المُنصف المتدبر فلا يشك في بطلانه وخرافته) «٥.(

ويواصل الخوئي دفاعه عن صيانة القرآن من التحريف ، فيقول» : علماء الشيعة الامامية الذين ألّفوا في فقه القرآن ، ينكرون التحريف ، وكذلك علماء التفسير.

)١ (الوافي ٢ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

)٢ (يوسف ١٢.

)٣ (أوائل المقالات : ٨١.

)٤ (كشف الغطاء) الطبعة القديمة (٢ : ٢٩٩.

)٥ (البيان في تفسير القرآن : ٢٥٩.

ففقهاء الشيعة ومؤلفو آيات الأحكام ، يحتجون بالقرآن ، وصيانته من التحريف ، وكذلك علماء الكلام ، وان العلماء يستدلون على الامامة والخلافة بآيات من القرآن الكريم.«

وأخيراً يوضّح العالم الشيعي نورالله التستري نقلاً عن القاضي الشهيد المتوفي ١٠١٩ هـ» : ما نُسب الى الشيعة الامامية من القول بوقوع التغيير في القرآن ، ليس مما قال به جمهور الامامية ، إنما قال به شرذمة قليلة منهم ، لا اعتداء بهم فيما بينهم) «١.(

من هم الشيعة؟

مَنْ هم الشيعة ، أو) الرافضة (كما يسمّيهم البعض من أهل السُنّة والجماعة؟ هل هم فئة طارئة منشقة عن الدين ، أو متمرّدة أو خارجة على تعاليمه؟ وهل هم أهل بدعة وضلالة؟ أم هم أصل الدين وأساس الملّة دون الآخرين من فئات الأمّة؟

أول ما يلفت إنتباهنا ان رسول الله هو أول من ذكر كلمة) شيعة (وخصّ بها ، أتباع علي ومناصريه ، اذ قال ان الآية الكريمة : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) ٢ (نزلت في آل البيت وشيعته) ٣ ، (وفي رواية أخرى قال صلىاللهعليهوآله : ان علياً وشيعته هم خير البرية ، و»ان هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة) «٤.(

)١ (الفصول المهمة في تليف الامة : ١٧٧ ؛ انظر : تفسير شبر : ١٧.

)٢ (البينة ٧.

)٣ (شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ٢ : ٤٥٩ الحديث ١١٢٥ ؛ الدر المنثور ٦ : ٣٧٩ ؛ تفسير الآلوسي ٣٠ : ٢٠٧ ؛ نظم درر السمطين : ٩٢.

)٤ (شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ٢ : ٤٦٧ الحديث ١١٣٩ ؛ الدر المنثور ٦ : ٣٧٩ ؛ فتح القدير ٥ : ٤٧٧ ؛ تأريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٣٣٣.

وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ في يوم فتح خيبر ، وذلك عند حديثه عن الحوض في يوم القيامة : وان شيعتك على منابر من نور ، رواء مرويون ، مبيضة وجوههم حولي ، أشفع لهم ، فيكونون غداً في الجنة جيراني ، وان عدوّك غداً ظماء مظمئون ، مسوّدة وجوههم مقمحون) ١ ، (وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ أيضاً : إني وأنت والحسن والحسين وفاطمة وعقيل وجعفر في الجنة ، إخوان على سرر متقابلين ، أنت معي وشيعتك في الجنة) ٢» .(وكان أصحاب النبي إذا أقبل عليّ ، قالوا : قد جاء خير البرية) ٣ ، (وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ : أنت وشيعتك ، وموعدكم الحوض ، إذا جثيت الأمم للحساب ، تُدعون غرّاً محجّلين) ٤ ، (وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ : انك ستقدم على الله وشيعتك راضون مرضيون) ٥ ، (وقال صلىاللهعليهوآله : يا عليّ أنت وأصحابك في الجنة ، أنت وشيعتك في الجنة ، ألا انه من يزعم أنه ممن يحبّك أقوام يصغّرون الاسلام ، ثم يلفظونه ، يقرؤنّ القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يرقون منه كما يمرق السهم من الرمية) ١ ، (كما قال صلىاللهعليهوآله لعلي : تزفّ أنت وشيعتك مع محمد وحزبه الى الجنّة زفاً زفاً ، قد أفلح من تولاك ، وخاب وخسر من عاداك ، محبّو محمد محبّوك،

)١ (المعجم الكبير ـ الطبراني ١ : ٣١٩ الحديث ٤٤٨.

)٢ (المعجم الاوسط ـ الطبراني ٧ : ٣٤٣ ؛ مجمع الزوائد ٩ : ١٧٣.

)٣ (الدر المنثور ٦ : ٣٧٩ ؛ فتح القدير ٥ : ٤٧٧.

)٤ (شواهد التنزيل ٢ : ٤٦٠ الحديث ١١٢٥ ؛ الدر المنثور ٦ : ٣٧٩ ؛ مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ٣٤٧ الحديث ١٠٨.

)٥ (المعجم الاوسط ـ الطبراني ٤ : ١٨٧ ؛ مجمع الزوائد ٩ : ١٣١ ؛ النهاية في غريب الحديث ٤ : ١٠٦ ؛ مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ١٨٧ الحديث ٢٥٥.

)٦ (تأريخ بغداد ١٢ : ٣٥٣ ؛ المعجم الاوسط ـ الطبراني ٦ : ٣٥٤.

ومبغضوك لن تنالهم شفاعة محمد) ١ ، (وقال صلىاللهعليهوآله لعليّ أيضا : أول من يدخل الجنّة أنا وأنت ، والحسن والحسين ، وذرارينا خلفنا ، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا) ٢.(

ويقرّ العالم السُنّي الكبير» ابن خلدون «بأنه : كان جماعة من الصحابة يتشيعون لعليّ ويرون استحقاقه على غيره ، ولما عُدل به الى سواه ، تأففوا من ذلك ، وأسفوا له ، إلا أنّ القوم لرسوخ قدمهم في الدين ، وحرصهم على الألفة ، لم يزيدوا في ذلك على النجوى بالتأنف والأسف) ٣.(

ونستدل من ما مضى:

ان التشيّع لاهل البيت لم يكن طارئاً أو وُجد بعد وفاة رسول الله بفترة قصيرة أو طويلة كما يزعم البعض ، وانما كان موجوداً في عهده صلىاللهعليهوآله ، ومتجسّداً في عليّ وأتباعه وشيعته.

ان شيعة عليّ وأتباعه المطيعين له هم خير البرية والفائزون يوم القيامة ويُحشرون مع رسول الله ، واعداءه من الخائبين والخاسرين.

هذا ويرتأي بعض علماء أهل السُنّة والجماعة بوجود صحابة متشيعين لعلي في زمن رسول الله صلىاللهعليهوآله.

)١ (مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ٦٣ الحديث ٣٢ ؛ المناقب ـ الخوارزمي : ٣٢٣ الحديث ٣٢٩ ؛ كشف الغمة ١ : ٣٥٠.

)٢ (تفسير الثعلبي ٨ : ٣١١ ؛ مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ١٨٧ الحديث ٢٥٤ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ٣ : ٦٣٥ الحديث ٧٩٠٤.

)٣ (تأريخ ابن خلدون ٣ : ١٧١.

معالم الاجتهاد لدى الشيعة

يعتمد علماء الشيعة الامامية في الاستنباط الشرعي على نصوص القرآن الكريم والسُنّة النبوية التي هي مُودعة لدى الائمة الاثني عشر من قبل رسول الله ، والذين لديهم مَلَكة وقدرة على معرفة الأبعاد الفقهية والاحكام الشرعية التي

تتضمنها الآيات الكريمة والاحاديث النبوية بحكم تسديدهم من قبل الله تعالى ، فضلاً عن تزكيتهم من لدن رسول الله ، كما انهم المُطهّرون من الرجس والكذب والخطأ على وفق آية التطهير.

ولذلك فعلماء وفقهاء الشيعة ، يتعبّدون بأقوال أئمة اهل البيت ، كما يتعبّدون بأقوال الرسول صلىاللهعليهوآله ، ولا يعدّونها إجتهاداً قابلاً للخطأ ، ولمّا كانت أقوال الأئمة الاثني عشر خلال ما يقارب على ثلاثمئة عام ، هي بمثابة السُنّة النبوية ، فأصبح للشيعة خزين وافر من السُنّة النبوية المتجسّدة بأقوال رسول الله وعليّ بن أبي طالب وبقية الأئمة الآخرين ، وهي كلها مُدوّنة من قبل تلامذتهم في كتب ومؤلفات كثيرة ، وعليه فإن حاجة العلماء للقواعد الاصولية محدودة جداً ، ولا تتضمن قواعد ليست لها صلة بالنصوص الشرعية ، التي تعتبر أهواء دخيلة على الشرع المقدّس ، كالرأي والقياس والمصالح المرسلة والاستحسان وشرع ما قبلنا وعمل أهل المدينة ، أما الاجماع والعقل ، فهما مصدران يرجعان الى النصوص) الكتاب والسُنّة.(

ومن هنا فإن الشيعة يرفضون أية قاعدة لا ترجع الى النص ، لانها ستصبح من الأهواء والظنون التي لا تغني من الحق شيئاً ، وكما قال إمامهم جعفر الصادق عن القياس ، بأنه قاعدة غير شرعية ، وإن أول من قاس هو إبليس) ١.(

)١ (جامع المقاصد ـ المحقق الكركي ١ : ٢١.

أفضلية عليّ وولايته للأمر من خلال مناقبه الجمّة

قال رسول الله صلىاللهعليهوآله : اللهم من آمن بي وصدّقني ، فليتولّ عليّ بن أبي طالب ، فإنّ ولايته ولايتي ، وولايتي ولاية الله تعالى) ١.(

ومن اقتدى في دينه بعليّ فقد اهتدى) ٢ ، (وإن علياً مني وأنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدي) ٣ ، (وهو أخي وصاحبي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، ووليكم من بعدي) ٤ ، (وهو أخي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي) ٥ ، (وأنت وليي في الدنيا والآخرة) ٦ ، (وأوحي إلي في عليّ أنه أمير المؤمنين وسيّد المسلمين ، وقائد

)١ (كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١١ ـ الحديث ٣٢٩٥٨.

)٢ (تفسير الرازي ١ : ٢٠٥.

)٣ (خصائص امير المؤمنين ـ النسائي : ٩٨ ؛ عمدة القاري ـ العييني ١٦ : ٢١٤ ؛ مسند احمد ٤ : ٤٣٨ .

)٤ (تأريخ الطبري ٢ : ٦٣ ؛ تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٢ : ٤٩ ؛ الكامل في التأريخ ـ ابن الاثير ٢ : ٦٣ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١٣ : ١١٤ .

)٥ (شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد المعتزلي ١٣ : ٢٤٥ .

)٦ (المستدرك على الصحيحين ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٣٣ ؛ مجمع الزوائد ـ الهيثمي ١٠ : ١١٣ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ١٢ : ٧٧ ؛ مسند احمد ١ : ٣٣١.

الغرّ المحجّلين) ١ .(ولا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي) ٢ ، (وأنت تبيّن لأمّتي ما اختلفوا فيه من بعدي) ٣ ، (وان حبي من بعدي حب عليّ ، وطاعته طاعتي ، ومخالفته مخالفتي) ٤ ، (وهذا عليّ مع القرآن ، والقرآن مع عليّ ، لا يفترقان حتى يردا على الحوض) ٥ ، (وأنا وعليّ ، حجة على أمّتي يوم القيامة) ٦ ، (وعنوان صحيفة المؤمن حب عليّ بن أبي طالب) ٧ ، (وهو راية الهدى ومنار الايمان ، إمام أوليائي ، ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين)٨ ، (وأوصى الله الى ابراهيم : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ٩ ، (فقال ابراهيم : يا رب ومن ذريتي أئمة مثلي ، قال الله : لا أعطينك لظالم من ذريتك .قال ابراهيم : وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا

)١ (المعجم الصغير ـ الطبراني ٢ : ٨٨ ؛كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١٩.

)٢ (سنن النسائي ٨ : ١١٦ ؛ سنن الترمذي ٥ : ٣٠٦ ؛ مسند احمد ١ : ٩٥.

)٣ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٢٢ ؛كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١٥.

)٤ (مجمع ال زوائد ـ الهيثمي ١٠ : ٣٤٦ ؛ المجم الاوسط ـ الطبراني ٢ : ٣٤٨.

)٥ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٢٤ ؛ المعجم الاوسط ـ الطبراني ٥ : ١٣٥ ؛ الجامع الصغير ـ السيوطي ٢ : ١٧٧ ـ الحديث ٥٥٩٤ ؛كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦٠٣ ـ الحديث ٣٢٩١٢.

)٦ (تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٢ : ٣٠٩ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ٤ : ١٢٧ ؛كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦٢٠ ـ الحديث ٣٣٠١٣.

)٧ (الجامع الصغير ـ السيوطي ٢ : ١٨٢ ـ الحديث ٥٦٣٣ ؛ لسان الميزان ـ ابن حجر ٤ : ٤٧١ .

كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦٠١ الحديث ٣٢٩٠٠ .

)٨ (تأريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ١٤ : ١٠٢ ؛ نظم درر السمطين ـ الزرندي الحنفي : ١١٤ ؛ ميزان الاعتدال ـ الذهبي ٤ : ٣٦٥ .

)٩ (البقرة ١٢٤ .

مِنَ النَّاسِ) ١ ، (قال النبي : فانتهت الدعوة إلي وإلي عليّ ، لم يسجد أحد منّا لصنم قط ، فاتخذني الله نبياً ، واتّخذ علياً وصياً) ٢ ، (وعليّ امام البررة ، وقاتل الفجَرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله) ٣ ، (وعليّ هو الصدّيق الأكبر ، وفاروق هذه الأمّة) ٤ ، (ومن ناصب علياً الخلافة بعدي فهو كافر ، وقد حارب الله ورسوله ، وعليّ بن أبي طالب خير من أخلف بعدي) ٥ ، (وانت خير أمّتي في الدنيا والآخرة) ٦ ، (وهو مبيّن لأمّتي ما أُرست به من بعدي)٧ ، (ومن سرّه أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليتولّ علياً من بعدي ، وليوال وليه ، وليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فإنهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهمي وعلمي ، فويل للمكذبين بفضلهم من أمّتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي ، ومن اراد ان يحيا حياتي ويموت ميتتي ، فليتول عليّ بن أبي طالب، فانه لن يخرجكم من هدى ، ولن يدخلكم باب ضلالة) ٨، (

)١ (إبراهيم ٣٥ ـ ٣٦ .

)٢ (شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ١ : ٤١٢ .

)٣ (الجامع الصغير ـ السيوطي ٢ : ١٧٧ ـ الحديث ٥٥٩١ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦٠٢ الحديث ٣٢٩٠٩ .

)٤ (مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٩ : ١٠٢ ؛ الاستيعاب ـ ابن عبد البر ٤ : ١٧٤٤ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ٦ : ٢٦٩ .

)٥ (شواهد التنزيل ـ الحاكم الحسكاني ١ : ٩٩ ؛ نظم درر السمطين ـ الزرندي الحنفي : ٩٨ ؛ مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ١٠٢ .

)٦ (مناقب علي بن ابي طالب ـ ابن مردويه : ١١١ .

)٧ (كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١٤ ـ الحديث ٣٢٩٨١ .

)٨ (المستدرك ـ الحاكم النيسابوري ٣ : ١٢٨ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ٥ : ١٩٤ ؛ كنز العمال ـ المتقي الهندي ١١ : ٦١١ .

وعليّ مع الحق والحق مع علي ، اللهم أدر الحق مع عليّ حيث دار) ١ ، (وقال رسول الله في مرضه : ادعوا لي أخي ، فجاء أبو بكر فأعرض عنه ، ثم قال : ادعوا لي أخي ، فجاء عثمان ، فأعرض عنه ، ثم دعي عليّ ، فسترد بثوبه وأكبّ عليه ، فلما خرج من عنده ، قيل له : ما قال لك؟ قال : علّمني ألف باب ، كل باب يفتح له ألف باب) ٢ .(

تساؤل وجيه وإجابة مقنعة

يتساءل أهل السُنّة والجماعة ، بإن فضائل عليّ ومناقبه التي تدلّ على عصمته وإنه الفيصل بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والهدى والضلال ، والايمان والنفاق ، ووجوب طاعته وعدم عصيانه ، ووجوب محبته وعدم بغضه ، ولا يحق لأحد بغضه لأن من أبغضه فإنما يبغض الله ورسوله ، وما إلى ذلك من الفضائل والمناقب ، هذه الفضائل والمناقب ، يوجد مثلها في حق الصحابة والخلفاء الأوائل ، وليس هو ينفرد بها دون الآخرين؟ فكما لأهل البيت وعليّ بالخصوص ، تلك المناقب الكبرى ، فإن للصحابة والخلفاء ، مناقب وفضائل على غرارها ، فلماذا هذا التأكيد من أتباع أهل البيت على عليّ دون سواه من الخلفاء والصحابة الآخرين؟

والجواب عن هذا التساؤل ، دعانا للتحرّي في هذه الاشكالية المطروحة ، والتوصّل الى النتيجة التالية:

لم يكن في عهد الخلفاء الاربعة المُسمى بالراشدين ، سوى أحاديث نبوية كثيرة في

)١ (المستصفى ـ الغزالي : ١٧٠ .

)٢ (تأريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ٤٢ : ٣٨٥ ؛ سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ٨ : ٢٤ ؛ البداية والنهاية ـ ابن كثير ٧ : ٣٩٦ .

إبراز مناقب وفضائل أهل البيت على المستوى العام ، وفي عليّ بن أبي طالب على المستوى الخاص ، مع أحاديث في فضائل بعض الصحابة كعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وابي ذر الغفاري وغيرهم.

ولما مضى عهد الخلافة المسماة بالراشدة ، وجاء العهد الاموي باستيلاء معاوية بن أبي سفيان على سدّة الحكم ، وخلو الجو من منافسين ، نظر) اي معاوية (فلم يجد هناك أحاديث نبوية في مدح الخلفاء الثلاثة الاوائل ولا في الصحابة بوجه عام ، غير تلك الاحاديث الهائلة في إظهار قداسة ومكانة أهل البيت وعليّ بالذات.

ومعاوية يعدّ نفسه وريث الخلفاء الاوائل وتيار الخلافة التي أفرزتها السقيفة على حساب اهل البيت ، فلابد من تجذير لهذا التيار الغاصب للخلافة الحقيقية ، وبالمقابل تغييب دور اهل البيت الحقيقي والتشويش عليه ، من خلال إسباغ أدوار ومناقب مشابهة ومماثلة لأدوار ومناقب ومكانة أهل البيت على الصحابة والخلفاء الاوائل ، ليصبح الصحابة بدلاً عن اهل البيت وفي مكانتهم ، والخلفاء الثلاث الاوائل بدلاً عن علي وفي مكانته أو أعلى شأناً منه.

وهذه الخطوة في الحقيقة تُضفي» شرعية «وهمية على التيار الذي استحوذ على موقع أهل البيت ، دون ان تكون له مقوّمات الخلافة وليس له مكانة أهل البيت ومواقعهم الدينية والعلمية والاجتماعية ، وليس له منزلة كمنزلتهم التي بوأهم لها رسول الله.

فأكثر الاحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة ، أُفتعلت في أيام بني أمية تقرّباً ، بما يظنون انهم يرغمون به أنوف بني هاشم) ١ ، (وكانوا يقومون بمعارضة فضائل عليّ

)١ (شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ١١ : ٤٦ .

ونسبتها الى غيره.

ويروي التأريخ الصحيح ، ان معاوية بن أبي سفيان أمر الرواة الذين كانوا تحت أمره ، من أمثال أبي هريرة وسمرة بن جندب وعبد الله بن سلام وغيرهم ، بوضع الاحاديث على لسان النبي ، في مدح بني أميّة والخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولما تفشّت تلك الاحاديث وكثرت ، أمر معاوية بوضع أحاديث كثيرة أخرى في مدح وإختلاق فضائل للخليفة الاول والثاني ، بل وفي حق الصحابة جميعهم.

وطلب معاوية من الرواة معارضة كل الاحاديث النبوية الواردة في مكانة عليّ وأهل البيت ، باحاديث تسبغ تلك المكانة والمنزلة على الصحابة والخلفاء الثلاث الاوائل.

يقول المدائني في كتاب» الأحداث : «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن» : برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته «فقامت الخطباء في كل كورة ، وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويبرأون نمه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته.

وكتب معاوية الى عماله في جميع الآفاق : أن لا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة .وكتب إليهم : أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم وإكتبوا إليّ بكل ما يروي رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى أكثرو في فضائل عثمان ومناقبه ، لِما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطايع ، فليس يجيء أحد من الناس عاملاً من عمال معاوية ، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه ، فلبثوا حيناً.

:ثم كتب إلى عمّاله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية .فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس الى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء

الأولين ، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة ، فإن هذا أحبّ إليّ واقرّ لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشدّ عليه من مناقب عثمان وفضله.

:فقُرئت كتبه على الناس فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وأُلقي على معلمي الكتاتيب ، فعلّموا صبيانهم وغلمانه من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلّمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم ، وخدمهم ، حشمه.«

:ثم كتب الى عماله نسخة الى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهل بيته ، فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره .فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ، ولا سيما بالكوفة ، حتى أن الرجل من شيعة عليّ ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته ، فيلقي إليه سرّه ويخالف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتمن عليهم ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاء والقضاة والولاة .وكان أعظم الناس في ذلك بليّة ، القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقدّروا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث الى أيدي

الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها ، وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها) ١.(

)١ (شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ١١ : ٤٦.

أئمة أهل البيت عند كبار أهل السُنّة

تُرى ما هي نظرة علماء أهل السُنّة الكبار في أئمة أهل البيت الاثني عشر؟ وكذلك موقف أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية من أولئك الأئمة الذين ذكرهم رسول الله ـ مراراً ـ في أحاديثه ووصاياه؟

يقول الجاحظ ، تعليقاً على قول عليّ : بأنّا أهل بيت لا يُقاس بنا أحد : صدق عليّ ، كيف يُقاس بقوم منهم رسول الله والأطيبان علي وفاطمة ، والسبطان الحسن والحسين ، والشهيدان أسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر ، وسيّد الوادي عبد المطلب ، وساقي الحجيج العبّاس ، وحكيم البطحاء والنجدة أبو طالب ، والخير فيهم ، والانصار أنصارهم ، والمهاجرين من هاجر اليهم ومعهم ، والصدّيق من صدّقهم ، والفاروق من فرّق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا فيهم ولهم ومنهم ومعهم.

وذكر رسول الله أهل بيته بقوله : إني تارك فيكم الخليفتين ، أحدهم أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، نبأني اللطيف الخبير ، انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، ولو كانوا كغيرهم ، لما قال عمر لما طلب مصاهرة علي» عليهاالسلام «إني سمعت رسول الله صلىاللهعليهوآله يقول : كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي) ١.(

)١ (مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٤ : ٢٧١ ـ ٢٧٢ ؛ السنن الكبرى ـ البيهقي ٧ : ٦٤ ؛ المعجم الكبير ـ الطبراني ١١ : ١٩٤.

وهنا يخطأ الجاحظ ، إذ يخلط بين مفهوم أهل البيت الذين عناهم الحديث النبوي المذكور ، وهم أهل البيت بالمعنى الاخص ، أي خمسة أهل الكساء) رسول الله ، علي ، فاطمة ، الحسن والحسين (ويُلحق بهم الأئمة التسعة الآخرون

كما أكّد رسول الله ، وبين آل البيت بالمعنى العام .ولاشك ان آية التطهير وحديث الخليفتين أو الثقلين إنما يعنيان أهل البيت بالمفهوم الخاص كما هو معلوم بداهة.

أما الذهبي ، فيقول : خاتمة الاثني عشر سيداً ، الذين تدّعي الامامية عصمتهم ، ومحمد هذا هو الذين يزعمون انه الخلف الحجّة ، وانه صاحب الزمان ، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض ، عدلاً وقسطاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً .فوددنا ذلك ، والله ... فمولانا عليّ : من الخلفاء الراشدين ... وإبناء الحسن والحسين ، فسبطا رسول الله سيدا شباب أهل الجنة ، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين : كبير القدر ، ومن سادة العلماء العاملين ، يصلح للامامة ، وكذلك إبنه الباقر : سيد إمام فقيه ، يصلح للخلافة .وكذا ولده جعفر الصادق ، كبير الشأن ، من أئمة العلم ، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى كبير القدر ، جيد العلم ، وأولى بالخلافة من هارون.

وإبنه علي بن موسى الرضا : كبير الشأن ، له علم وبيان ، ووقْع في النفوس ، صيّره المأمون ولي عهده لجلالته .وإبنه محمد الجواد : من سادة قومه ، وكذلك ولده الملقب بالهادي : شريف جليل ، وكذلك إبنه الحسن بن علي العسكري رحمهم الله تعالى) ١.(

)١ (سير اعلام النبلاء ـ الذهبي ١٣ : ١٢١.

الامام السجاد عليهالسلام

وينقل الفقيه السُنّي الكبير) سفيان بن عيينة (عن الزهري قوله : ما رأيت هاشمياً أفضل من عليّ بن الحسين) السجاد ( )١ ، (فيما قال مالك بن أنس : لم يك في أهل البيت مثل عليّ بن الحسين) ٢ ، (ومثل ذلك قال أبو زرعة : ما رأيت أحداً كان أفقه منه) ٣ .(أما التابعي والفقيه الكبير سعيد بن المسيب ، فيقول : ما رأيت أورع من) السجاد) (٤.(

ويصفه ابن عساكر الشافعي ، قائلاً : كان عليّ بن الحسين ، ثقة مأموناً ، كثير الحديث ، عالياً رفيعاً ورعاً) ٥ ، (فيما ينعته ابن حجر الهيثمي في) الصواعق المحرقة ، (بالقول : وزين العابدين هذا هو الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة ، وقال ابن حجر العسقلاني فيه : علي بن الحسين فقيه فاضل مشهور) ٦ .(وللذهبي قول سامٍ في السجاد ، اذ يصفه : كانت له جلالة عجيب وحق له ولله ذلك ، فقد كان أهلاً للامامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتألهه وكمال عقله

)٧ ، (وقال النووي في كتاب) تهذيب الاسماء واللغات (حول السجاد : وأجمعوا على جلالته في كل شيء ويصرّح المناوي في) الكواكب الدرية ، (قائلاً : زين العابدين إمام سَند اشتهرت أياديه ومكارمه ، كان

)١ (مطالب السؤول . ابن طلحة الشافعي : ٤٤٧.

)٢ (تهذيب الكمال . المزي ٢٠ : ٣٨٧ ؛ البداية والنهاية . ابن كثير ٩ . ١٢٢.

)٣ (تأريخ مدينة دمشق . ابن عساكر ٤١ : ٣٧١.

)٤ (تذكرة الحفاظ . الذهبي ١ : ٧٥ ؛ تهذيب التهذيب . ابن حجر ٧ : ٢٦٩ ؛ البداية والنهاية . ابن كثير ٩ : ١٣٤.

)٥ (الطبقات الكبرى . ابن سعد ٥ : ٢٢٢ ؛ تأريخ مدينة دمشق . ابن عساكر ٤١ : ٣٦٢.

)٦ (تقريب التهذيب . ابن حجر ١ : ٦٩١.

)٧ (سير اعلام النبلاء . الذهبي ٤ : ٣٩٨.

عظيم القدر ، رأساً لجسد الرئاسة ، مؤهلاً للايالة والسياسة .ويفصح محمد بن طلحة الشافعي في) مطالب السؤول (عن موقفه من إمام الشيعة عليّ بن الحسين بقوله : هذا زين العابدين وسيد المتقين وإمام المؤمنين .. وله من الخوارق والكرامات ما شوهدت بالأعين الباصرة ، وثبتت بالآثار المتواترة ، انه من ملوك الآخرة ويؤكد الشافعي صاحب المذهب المشهور : ان الامام عليّ بن الحسين أفقه أهل المدينة) ١ ، (ويقر العالم السُنّي ابن حجر الهيثمي بأن زين العابدين هو الذي خلف اباه علماً زهداً وعبادة) ٢ .(

محمد بن سعد ، صاحب الطبقات : كان زين العابدين ثقة مأموناً كثير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله .ولم يكن من أهل البيت مثله) ٣ .(

الامام الباقر عليهالسلام

سأل سائل عبد الله بن عمر في مسجد الرسول ، فأشار إلى حيث يجلس الباقر ، وقال» : اذهب إلى هذا الغلام وسله واعلمني عما يجيبك «فلما عاد إليه بالجواب ، قال) : إنهم أهل بيت مُفهمون) (٤ .(

أما ابن العماد الحنبلي ، فيقول : محمد الباقر كان من فقهاء المدينة ، وقيل له الباقر لأنه بقر العلم ، اي شقّه ، وعرف اصله ، وتوسع فيه) ٥.(

بينما يؤكد ابن كثير ، قائلاً : ابو جعفر الباقر ، تابعي جليل كبير القدر ، احد اعلام هذه الأمّة علماً وعملاً ، وسيادة وشرفاً ، وسمي الباقر لبقره العلوم ، واستنباطه الحكم ، كان ذاكراً خاشعاً صابراً ، وكان من سلالة النبوة) ١(؟

وفي هذا المقام ، يشدّد محمد بن طلحة الشافعي ، بأن : محمد بن علي الباقر ، هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ، ورافعه ، ومتفوق درّه وراضعه ، ومنمّق درره وراصعه ، صفا قلبه وزكا عمله) ٢.(

على ان محمد بن المنكدر . شيخ مالك بن انس . يقول في الامام الباقر : ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقاربه في الفضل حتى رأيت ابنه محمد الباقر) ٣.(

بُيد ان الحسن البصري أكثر صراحة ، حيث يقول : ذلك الذي يشبه كلامه كلام الانبياء) ٤.(

الامام الصادق عليهالسلام

يصف الامام أبو حنيفة النعمان ، إمام الشيعة جعفر الصادق ، قائلاً» : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور ، بعث الي ، فقال : يا أبا حنيفة ان الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد ، فهيء له من المسائل الشداد ، فهيأت له أربعين مسألة ثم بعث إلي أبو جعفر وهو بالحيرة ، فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما

أبصرت به ، دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر ، فسلّمت عليه وأومأ إلي فجلست ثم التفت إليه ، فقال : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة ، فقال : نعم.

ثم التفت إلي المنصور ، فقال : يا أبا حنيفة الق على أبي عبد الله من مسائلك ، فجعلت القي عليه فيجيبني ، فيقول : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا ، فربما تابعنا وربما تابعهم ، وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على الاربعين مسألة ثم قال أبو حنيفة : ألسنا روينا أن أعلم الناس ، أعلمهم بإختلاف الناس) ١.(

أما السيد ميرعلي في كتاب) تأريخ العرب ، (فيقول عن الصادق : ان الذي تزعّم الحركة العلمية في تلك الفترة التي كان فيها الصراع العقائدي على أشدّه ، هو حفيد الامام عليّ ، جعفر الصادق ، وهو رجل رحب افق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، مُلمّ كل الإلمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع ، أول من أسّس المدارس الفلسفية المشهور في الاسلام ، ولم يكن يحضر حركته العلمية اولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلّاب الفلسفة والمتفلسفون من جميع أنحاء العالم.

وسُئل ابن ابي ليلى : أكنت تاركاً قولاً أو قضاء لرأي أحد؟ أجاب : لا .إلا لرجل واحد ، هو جعفر بن محمد الصادق)٢.(

ومرّة سمع الحسن بن زياد اللؤلؤي أبا حنيفة وقد سئل من أفقه الناس ممن رأيت ، فقال : جعفر بن محمد) ٣.(

الامام الكاظم عليهالسلام

يشير محمد بن أحمد الذهبي الى امام الشيعة) موسى الكاظم ، (فيقول عنه : كان من اجود الحكماء ، ومن العباد الاتقياء) ١ ، (فيما يصفه كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي ، قائلاً : هو الامام الكبير القدر ، العظيم الشأن ، الكبير المجتهد الجاد في الاجتهاد) ٢.(

الامام الرضا عليهالسلام

اما الامام علي بن موسى الرضا فيقول عنه الواقدي : كان ثقة ، وكان يفتي في مسجد رسول الله صلىاللهعليهوآله وهو ابن نيف وعشرين سنة) ٣.(

الامام الهادي عليهالسلام

يتحدث ابن الصباغ المالكي عن الامام الهادي ، قائلاً : واما مناقبه فقال الشيخ كمال الدين بن طلحة : وشهد لابي الحسن ان نفسه موصوفة بنفائس اوصافها ، وانه نازل في الدوحة النبوية في دار أشرافها) ٤.(

فيما يصفه ابن العماد الحنبلي ، بالقول : أبو الحسن علي بن محمد بن الرضا بن الكاظم ، موسى بن جعفر الصادق ، العلوي الحسيني ، المعروف الهادي ، كان فقيهاً إمامياً متعبداً) ١.(

الامام العسكري عليهالسلام

أما ابن الصباغ المالكي فحين يذكر الامام الحسن بن علي العسكري ، يقول عنه : فلا يشك في امامته احد ولا يمتري ، واحد زمانه من غير مدافع ، ونسيج وحده من غير منازع ، وسيد أهل عصره ، وإمام اهل دهره ، اقواله سديدة ، وافعاله حميدة) ٢.(

هذه الشهادات والانطباعات الصادرة عن نخبة من فقهاء وعلماء الجمهور السُنّي حول أئمة أهل البيت ، ما هي إلا نماذج محدودة من ارشيف ضخم نَقَشه التاريخ في ذاكرة الزمن على غفلة من سطوة الحكام الذين كانوا بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه الادلاء بحديث ولو مقتضب عن مناقب أئمة أهل البيت ودورهم الحقيقي الذي أوكلهم الله به في

توجيه سفينة الامّة وصيانتها من الانحرافات العقائدية والفقهية لولا خيانة التيار الحاكم الذي حجمهم وسلبهم دورهم القيادي والديني ، وموقعهم الريادي في صفوف الامّة.

وهذه الاقوال التي ذكرناها آنفاً لبعض رموز أهل السُنّة والجماعة ، تفيد بأن أئمة أهل البيت النبوي:

١ . أهلٌ للاستخلاف والرئاسة والامامة العظمى ، لا يشك في امامتهم أحد.

٢ . أولى بالخلافة من حكّام عصرهم من امثال المنصور والرشيد.

٣ . علماء وفقهاء كبار وذوو شأن عظيم ، لهم علم وبيان ووقع في النفوس.

٤ . سادة قومهم ، وأهل عصرهم ، وأئمة أهل دهرهم ، أقوالهم سديدة ، وأفعالهم حميدة ، بل لا يرى أصحاب المذاهب أفقه ولا أعلم في الناس منهم.

٥ . مأمومون ، ثقا ، عبّاد ، أتقياء.

ويعلّق أحد المفكرين المعاصرين ، على هذه المواقف المنصفة ، والآراء الحاذقة ، الصادرة عن معاصري أئمة أهل البيت ، خاصة في حق الامام السادس) جعفر الصادق ، (إذ يشهد بامامته للفقهاء بلا إستثناء) ١ ، (وان أبا حنيفة إنقطع إلى مجالس الامام طوال عامين قضاها بالمدينة ، وفيهما يقول) : لولا العامان لهلك النعمان ، (وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله» : جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله.«

والصادق عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء ، أي بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة ، وهو يروي عشرات الآلاف من الأحاديث) ٢ .(

ولما استفتي أبو حنيفة في رجل أوصى» للامام ، «باطلاق الوصف ، قال : انها لجعفر بن محمد .فهذا اعلان لتفرّده بالامامة في عصره.

ان التلمذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الاربعة لأهل المدينة.

أما الإمام الصادق فجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان .فالإمام مبلّغ للناس كافة ، علم جدّه عليهالسلام .والإمامة مرتبته ، وتلمذة أئمة السُنّة له ، تشرّف منهم لمُقاربة صاحب المرتبة) ٣ .(

انه الإمام الذي يوثقه أئمة المسلمين جميعاً ، ويستوي في ذلك من أهل السُنّة ، أئمة الرأي فهم تلاميذه ، وأئمة الحديث فهو في القمّة منهم ، وروايته للحديث يوثّقها واضع الاساس العلمي لقبول الحديث» الشافعي ، «وعلماء الجرح والتعديل كيحيى بن معين وابي حاتم والذهبي وابن حنبل والآخرين) ١.(

وإذا لاحظنا توثيق الشافعي ومالك وأبي حنيفة ويحيى بن معين وأبي حاتم والذهبي للإمام الصادق. وهم واضعو شروط المحدثين وقواعد قبول الرواية وصحة سند. فمن الحق التقرير بأن حسبنا أن نقتصر على التفتيش عن رواة السُنّة عن الإمام الصادق) ٢.(

والشافعي ويحيى بن معين متفقان على توثيقه) أي الصادق ، (وهو شيخ مالك .وليس بعد هؤلاء أدلّة على جواز طريقة الإمام جعفر مع علمه الضخم في كل باب) ٣.(

وعن قول الزهري» : ما رأيت أفقه من زين العابدين ، «يعلّق عبد الحليم الجندي ، قائلاً : وهذه الشهادة بالفقه من شيخ مالك بن أنس تعلن رأي جيل التابعين ، بل ان الزهري يعلن مكانة زين العابدين بين كل الاحياء بقوله) : ما رأيت قرشياً افضل منه.(

والشافعي الذي يقول في ابن شهاب الزهري) : لولا الزهري لذهبت السُنن من المدينة (يضع زين العابدين في أعلى مكان ، فيعدّه أعلم أهل المدينة) ٤.(

ويبوح الاستاذ الجندي بحقيقة ينأى غيره عن البوح بها ، وهي انه» : لا مرية كان

منهج عليّ ومن تابعه في التدوين خيراً كبيراً للمسلمين ، مَنَع المساوئ المنسوبة إلى بعض الروايات ، وأقف الباب دون إفتراء الزنادقة والوضاعين ، فالسبق في التدوين فضيلة الشيعة) «١.(

وهكذا تتضح معالم المؤامرة المحبوكة ضد أهل بيت النبوّة ، حيث تم تجريدهم من دورهم السياسي الممنوح لهم من قبل الله تعالى لقيادة سفينة الامّة ، وتحصينها ضد الانحراف والتشتت ، وهم الأوْلى من الحكام جميعاً في هذا المجال ، كما تم تطويق مهامهم الدينية وعدم السماح لهم بممارسة دورهم الحقيقي المقدس كأئمة معصومين يُعدّون طليعة الامّة وروّادها في العلم والفقه والعقيدة ، ليس أئمة مجتهدين كِواهم من العلماء والفقهاء الموجودين في الساحة ، كما يتوهّم علماء الجمهور ورموزهم ، وإلا إذا كان هؤلاء الأئمة الاثنا عشر أعلم الأئمة وأفقههم وأزكاهم وموضع ثقتهم ، فضلاً عن حاجة الكل إليهم ، فلِمَ اتجه الفقهاء المنضوون تحت لواء مدرسة الخلفاء ، إلى تشكيل مذاهب فقهية وعقائدية تخالف في توجهاتها ، الكثير من تعاليم أهل البيت ووصاياهم التي تمسّك بها الشيعة دون سائر أتباع المذاهب السُنّية؟

لقد آن الاوان لأبناء السُنّة للعودة إلى جادة الحق ، وإنتزاع التأثيرات التأريخية المنقوشة في أذهانهم ونفوسهم ، بفعل سياسات العهدين ، الاموي والعباسي ، اللذين كان لهما السهم الاوفر في تشكيل معالم المدرسة العقائدية والفقهية لأهل السُنّة والجماعة ، ومدّها بكل أسباب الدعم والبقاء والديمومة والانتشار ، على حساب مدرسة أهل البيت التي جوبهت بقمع وتحجيم شديدين من لدن الحكومات المتعاقبة.

لماذا التشيع تهمة؟

بعد أن قام رسول الله بتعريف عليّ وشيعته ، وبيّن عاقبتهم الحسنة يوم القيامة في العديد من المناسبات ، لكي يتخذ المسلمون من عليّ وشيعته ، سنداً ومثلاً لهم في الحياة بعد تزكية النبي صلىاللهعليهوآله لهم ووصفهم بأنهم خير الخلق أجمعين ، بادر تيار الخلفاء ورموز اهل السُنّة بخيانة الرسول صلىاللهعليهوآله في هذا المقام ، اذ أخذوا يُكيلون التهم والأكاذيب ـ جُزافاً ـ ضد الشيعة والتشيع ويصفونهم بمختلف الاوصاف المقيتة ، بُغية تنفير المسلمين منهم ، وبث الكراهية في نفوس الجمهور ازاءهم.

اصبح التشيع تهمة شنيعة ، ومُرادفاً للبدعة والفساد والكذب وعدم الثقة ، بل وغيّروا اسم التشيع ليصبح) الرفض ، (والشيعة) ، الرافضة والروافض (حتى يخدعوا أبناء الجمهور ويغرّروا بهم.

فينقل الجمهور ـ مثلاً ـ ان الشافعي أُبتلي ، كما أُبتلي من قبله ، فأُتهم بالتشيع ، فأشخص الى العراق ، وكادت تكون المحنة ثم ثبتت براءته) ١ ، (ويقول الذهبي عن الحسن بن حي الهمداني : فيه بدعة تشيع ، ويرى الخروج على الولاة الظلمة ، واذا كان الشخص من شيعة اهل البيت ، يقولون عنه» : سيء الرأي «ومن» غلاة الشيعة ورؤوس البدع ، « وإذا أثّر شخص على آخر بالتشيّع ، يقال» أفسده ... «ويتركون حديث الشيعي حتى وإن كان ثقة لتشيعه ، ونقل أبو إسحاق الهمداني الكوفي ، عن رسول الله صلىاللهعليهوآله قوله : عليّ كشجرة ، أنا أصلها وعلي فرعها والحسن والحسين ثمرها ، والشيعة ورقها.

ولذا يعتبره الذهبي انّه من قوم لا يحمد الناس مذاهبهم) ١ .(

ويرى آخرون ان التشيّع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية ومجوسية وهندية.

وإن كثيرين من أعداء الاسلام ومُعتنقي المذاهب والأديان المختلفة ، وبخاصة اليهود دخلوا الشيعة وانتسبوا الى اهل بيت النبي صلىاللهعليهوآله بقصد الكيد للاسلام ، وأدخلوا على مذهب الشيعة ألواناً من الضلالات والانحرافات)٢ .(ويقولون عن ابان بن تغلب ، شيعي جلد ، لكنّه صدوق ، فلنا صدقه ، وعليه بدعته ، والأزدي الكوفي : صدوق لكنه رافضي) ٣ ، (وكان محمد بن فضيل ثقة صدوقاً كثير الحديث متشيعاً وبعضهم لا يحتج به) ٤ ، (وكان

عبد الله بن عامر مكرماً لأبي الاسود ثم جفاه لما كان عليه من التشيع) ٥ ، (وقال ابن حجر عن الطبري : انه الامام الجليل المفسّر ، ثقة صادق ، فيه تشيّع يسير وموالاة لا تضرّ) ٦.(

وكان الصحابي الكبير) أبو الطفيل (قد صحب علياً في مشاهده كلها ، قدم يوماً على معاوية ، فقال له معاوية : كيف وجدك على خليلك أبي الحسن؟ قال : كوجد أم

موسى على موسى ، وأشكو الى الله التقصير ، ولهذا السبب عدَّه العالم والمؤرخ السُنّي الكبير) ابن قتيبة (في كتاب المعارف : في أول الغالية من الرافضة) ١.(

أما» ابن تيمية «فيذمّ في كتابه» منهاج السُنّة «الرافضة ، وينسب اليهم أموراً كثيرة من الدين ويشبههم باليهود ، ويصفه بالحمق .ويقول في» الرافضة «أضعاف ما ذكر .ويعدّ هذا الكلام معروفاً بالدليل الذي لا يحتاج فيه الى نقل وإسناد.

ويذهب الحقد على الشيعة عند» ابن تيمية «الى أقصى مداه ، حين يقول : ذهب من ذهب من الفقهاء الى ترك بعض المستحبات ، اذا صارت شعاراً للرافضة ، ليتميز السُنّي من الرافضي ، ومصلحة التمييز أعظم وأه من هذا المستحب.

ويقول ابن حجر في شأن» ابن تيمية «وكتابه» منهاج السُنّة : «ان ابن تيمية ردّ الكثير من الأحاديث الجياد ، وكم من مبالغة لتوهين كلام الرافضي ، أدّته أحياناً الى تنقيص عليّ) ٢.(

ويقول ابن حجر ـ مستغرباً ـ : وقد كنت أستشكل توثيقهم الناصبي غالباً ، وتوهينهم الشيعة مطلقاً ، ولاسيما ان علياً ورد في حقه : لا يحبه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق) ٣.(

فكيف لا يكفّر الغلاة من أهل السُنّة والجماعة الشيعة وينتقصونهم وهم قد ورثوا هذا الحقد التأريخي المتأصل عند نفوس أتباع الخلفاء الظَلَمة على طول التأريخ ، وصاغوا فكرة وقناعة تسبغ على الشيعة كل صفات الانحراف والضلالة والدجل ، بحيث

تتقزز جلودهم من ذكر الشيعة والتشيع ، وينفرون من ذكرهم نفورهم من الوحوش الضارية.

ولكن قيّض الله للشيعة من يدافع عنهم ويبرئهم من الفساد والانحراف ، من أهل السُنّة أنفسهم ، فهذا العالم السُنّي المعاصر الكبير الشيخ) محمد الغزالي (يقول في كتابه) دفاع عن العقيدة والشريعة : (ومن هؤلاء الأفاكين من روّج أن الشيعة أتباع عليّ ، وأن السُنّيين أتباع محمد ، وأن الشيعة يرون علياً أحق بالرسالة ، أو أنها أخطأته الى غيره!

وهذا لغو قبيح وتزوير شائن ، ولكن تصديق هذا اللغو كان الباعث على تلك المجزرة المخزية التي وقعت في أبناء الاسلام من سُنّة وشيعة ، فجعلتهم ـ وهم الأخوة في الدين ـ يأكل بعضهم بعضاً على هذا النحو المهين.

ان الشيعة يؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وآله ، ويرون شرف عليّ في انتمائه الى هذا الرسول في استمساكه بسُنّته ، وهم كسائر المسلمين ، لا يرون بشراً في الاولين والآخرين ، أعظم من الصادق الأمين ، ولا أحق منه بالاتّباع ، فكيف يُنسب لهم هذا الهذر؟!

أنوار من مشكاة واحدة

حين يتمعّن المرء في أقوال وأحاديث أئمة أهل البيت ، يخلص إلى حقيقة ناصعة مفادّها ان منبع علوم أهل البيت واحد ألا وهو رسول الله حيث أودع فيهم القرآن الكريم وسُنّته الشريفة ، بكل ما يتعلّق بهما من تفسير وتأويل وشرح وتفصيل ، بحيث يكون حديثهم وأقوالهم حجّة على الأمّة كأقوال الرسول صلى الله عليه وآله ، وهذا يعني انهم ليسوا مجتهدين كأئمة المذاهب السُنّية التي كانت تكتض بهم الساحة في القرون الثلاثة الاولى ، ولو إتّبعتهم الأمّة ، لَما كانت هناك مذاهب ولا إختلافات ولا حروب ولا نزاعات ، ولا مدارس عقائدية واصولية وفقهية كثيرة ، ولكان الاسلام عمّ جميع المعمورة ، وقبل كل شيء لكان أئمة أهل البيت ، يرقدون الى جوار جدّهم رسول الله في المسجد النبوي الشريف بدلاً من توزّعهم في أقطار نائية ، ويرقد الى جواره صلى الله عليه وآله أناس أخذوا مكانهم عنوة.

كل من يبغي الحقيقة عليه الالتحاق بأهل البيت النبوي وهم مطمئني الضمير وعن إقتناع تام بأنهم على الحق المبين والصراط المستقيم دون سواهم من الذين تسلّقوا سُلّم السلطة والحكم والخلافة والإمامة وه عاجزين عن هداية أبناء الأمّة ، لأنهم همْ بحاجة الى من يهديهم ويرشدهم الى طريق الحق والهدى والرشاد : أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ١.(

معالم المخطط التأريخي المغرض

آن الأوان للجمهور السُنّي المسلم أن يستبدل ثوابته ومُسلّماته القديمة ، بثوابت ومُسلّمات جديدة تستند الى أسس حقيقية أصيلة نابعة من القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة والحقائق التأريخية النزيهة غير المشحونة بالأكاذيب والمعلومات الخاطئة والمُحرّفة التي إختلطت فيها الاوراق وانقلبت الصورة ، ليصبح المتبوع والهادي ، تابعاً ـ في نظرهم ـ ، والتابع الذي هو بحاجة الى الهداية والارشاد ، متبوعاً .وتغيّرت المعادلات والموازين والمقاييس ، ليُمسي الانسان المغمور قائداً ، والقائد الحقيقي ، مُبعداً مغموراً .وبذلك تشكّلت مدرسة تُعرف بمدرسة أهل السُنّة والجماعة ، على أسس ودعائم وهمية لا تمتّ الى الواقع بصلة ، حيث إختلقها التيار الحاكم والذين ساروا في ركابه من رواة ومؤرخين وقضاة وفقهاء وأصحاب مذاهب عقائدية وفقهية ، بحيث بات من الصعوبة بمكان ، إنْ لم يكن من المحال ، أن يُصدّق

أحد من أهل السُنّة ، خاصة الافراد العاديين والعامة من الناس ، ان المذهب الذي يتّبعونه ، إنما يتشكّل من أصول غير صحيحة بتاتاً ، ولا واقعية ، بل افتعلتها مُخيّلة الحُكّام الذين تصدّوا لسدّة الخلافة والحُكم ، بدلاً من العترة النبوية ، ولكي يعود الحق الى نصابه ، والصورة المشوّهة الى حقيقتها الناصعة ، على أتْباع المدرسة السُنّية واقطابها أن يقوموا بالخطوات التالية:

١ ـ رفع هالة التقديس من حول الخلفاء الثلاث الأوائل ، واعتبارهم خلفاء لم

يستخلفهم رسول الله» صلوات الله عليه ، «وانما تصدّوا ـ بالاتفاق مع قريش بعض الصحابة ـ للحكم ، وليست لموقعهم خليفة شرعية.

ثم ان أقوال هؤلاء الخلفاء ، ليست سُنّة مفروضة ، بل أقوال ربما يمليها الهوى والرأي البحث في بعض الاحيان.

٢ ـ لم تكن للصحابة تلك المكانة التي يعتقدها الجمهور ، بحيث تنطبق عليهم القاعدة الموضوعة» عدالة الصحابة أجمعين ، «اذ قد يكذّب بعض الصحابة على رسول الله ، ويضعون الأحاديث بإسمه ، فيما يتصف البعض الآخر منهم بالنزاهة والصِدْقية والمكانة الرفيعة.

٣ ـ ان القرآن الكريم والحديث النبوي قد ذكرا حقيقة الصحابة ، جملة وتفصيلاً ، والنظرية السُنّية تتجاوز هذه الحقيقة ، حتى لا تمسّ الرموز التي تقدّسها بسوء يفضي الى انهدام المدرسة التي يتبعونها وتزول شرعيتها المصطنعة.

فإذا توصّل أبناء السُنّة الى هذه الحقيقة التي كانت خفيّة عليهم ، أحقاباً مديدة من الزمن ، تتجلى لهم ـ حينئذ ـ معالم المخطط التأريخي الذي أزاح أهل البيت عن موقعهم الريادي الذي خصّهم الله تعالى به عبر نبيّه الكريم» صلوات الله عليه ، «وهمّشهم كقادة وخلفاء وأئمة للأمّة من خلال اثني عشر خليفة وإماماً ، أولهم علي بن أبي طالب ، ثم ابنائه من بعده ، وعلى الأمّة ـ جميعاً ـ إطاعتهم والسير على نهجهم منذ وفاة رسول الله» صلوات الله عليه ، «وحتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

وتتضح لهم ـ أيضاً ـ حقائق دامغة من خلال البحث التأريخي ، منها:

١ ـ ان رسول الله لم يكن بذلك الاهمال واللاأبالاة ـ والعياذ بالله ـ بحيث كان لا يفكّر بمصير أمّته ، ويرحل عن الحياة الدنيا دون أن يعيّن خليفة له ، بل حدّده

بالاسم في الكثير من المناسبات طيلة البعثة المظفّرة ، سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنوّرة ، ثم ختم توصياته تلك بواقعة الغدير الشهيرة حيث نصّب علياً خليفة له على الأمّة جمعاء.

٢ ـ ان أهل البيت الذين عناهم» صلوات الله عليه «بأنهم مُطهّرون من الرجس ، وأوصى الأمّة باتّباعهم ، هم فضلاً عنه» سلام الله عليه «عليّ وفاطمة والحسن والحسين ، لا بني هاشم ـ مطلقاً ـ كما يزعمون.

٣ ـ ان خلفاء الرسول الاثني عشر ، علاوة على عليّ والحسن والحسين ، تسعة آخرون من أبناء الحسين ، خاتمهم محمد المهدي وهو المصلح المنتظر كما تشير الروايات الصحيحة المؤكدة ، لا كما يتخبّط رموز من أهل السُنّة ويتوهمون بأن هؤلاء الائمة الاثني عشر هم الخلفاء الاربع الاوائل ، اضافة الى خلفاء منتقين من بني أمية وبني العباس ، بالرغم من إقرار العديد من أصحاب المذاهب الاسلامية بظلمهم وانحرافهم عن الدين.

٤ ـ ان تعدّد المذاهب الاسلامية ، العقائدية منها والفقهية ، وما أدى إليه من صراع مرير فيما بينها على مرّ التأريخ ، ثم ضعف وإنحطاط الأمّة ، انما كان بسبب عدم تولّي اهل البيت النبوي لحُكْم الأمّة وإمامتهم المطلقة لها ، وهم الذين لو تبوأوا موقعهم الحقيقي للأمّة ، لقادوا شعوب العالم قاطبة نحو إقامة حكم الله وإشاعة السلام فيما بينها.

٥ ـ نحن لو أردنا تحقيق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، علينا الالتفاف حول اهل البيت ، والتمسّك بهم وأخذ معالم الدين والشرع المقدّس عنهم دون سواهم ، وبذلك نكون قد أطعنا الله ورسوله حقاً ، لا إتّباع المدارس والاتجاهات الأخرى المخالفة لأوامرهما ، والتي ما أنزل الله بها من سلطان.

ما ينبغي على الأخوَة في الدين

١ ـ ينبغي على أبناء السُنّة عدم اتخاذ الصِحاح والمسانيد والسنن وكُتُب الرواية والحديث والتأريخ ، مصادراً لا تخلو من الدسّ والخطأ والتدنيس من قِبل الوضّاع وأعوان السلطة الحاكمة الذين ما فتأوا يتلاعبون بها ، سواء بالاضافة أو الحذف أو التغيير لصالح مدرسة الخلفاء والحُكّام والسلاطين ووعاظهم وسدَنَتهم الذين لم يخشوا الله أبداً في الكذب والتزوير والافتراء ، لكي ينحاز التأريخ في معظمه ، الى جانب المذهب السُنّي الذي يمثّل الوجه الشرعي والديني للطبقة الحاكمة على إمتداد التأريخ الاسلامي ، وذلك على حساب أهل البيت الذين لاقوا التشويه والتهميش والإقصاء والملاحقة على يد أعوان الحكّام فيا لماضي والحاضر.

٢ ـ على أتباع المدرسة السُنّية ، التمييز الدقيق بين الحق والباطل ، وعدم الخَلْط بينهما ، كما هو طَبْعُ أقطابهم وديدنهم خلال العهود المنصرمة ، وذلك من خلال التحليل العقلي والمنطقي للحوادث والامور ، بحيث لا يسمحوا لأنفسهم تسطيح نظرته للمجريات التأريخية الى حدّ المساواة بين المُحق والمُبطل ، وبين الهادي والذي هو بحاجة الى الهداية ، وبين المُطيع لرسول الله والعاصي لأوامره ووصاياه ، وبين الفاضل والمفضول ، وبين العالم والجاهل ، وبين المُعتدي والمُعتَدى عليه ، وبين القاتل على حق والمقتول على باطل وبالعكس ، وبين الشجاع والجبان ، وبين الذي يثبت في الحروب والذي يفرّ من الزحف.

وبالتالي اذا لم يحدّدوا موقفهم الفاصل والدقيق ، لاستخلاص الحق المحض ، من بين القضايا المتداخلة والمُجريات التي يختلط فيها الحق والباطل ، الى حد الالتباس على العقول الساذجة ، وما يؤدي إليه من غشاوة وفقدان للبصيرة ، بالرغم من تحذيره

سبحانه وتعالى من الولوج في هذا الطريق الملتوي : الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) ١.(

هذا المِراء سيُبقي أبناء السُنّة والجماعة على تخبّطهم المعهود ، بحيث يخالون انهم على الحق المبين والصراط المستقيم ، فيما هم ينحدرون في طريق مظلم متعرّج لا يؤول بهم الى شاطئ النجاة ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً.

وكلّ من له قناعة تامة ، وهو على يقين من أمره ، وانه يسير على نهج الحق والاستقامة ، لا يخشى من نبش التأريخ واستخراج مفرداته ، وتقليب صفحاته ليزداد يقيناً في توجّهه المذهبي ويتحصّن به في إنتقاد وإفحام شبهات المعارضين والمخالفين.

تُرى لِمَ يسعى رموز المدرسة السُنّية لإخفاء الحقائق التأريخية وكتمانها . دوماً . على أبناء الأمّة ، وعدم السماح لهم بتفكيك التأريخ الاسلامي وتفحّصه بدقة لمعرفة الحقائق الغامضة والنقاط المُبهمة والاشكالات والشبهات التي يطرحها الخصوم ضد الاسلام ، وذلك بدعوى الخوف من المساس بشخصيات محترمة لديهم او تسقيطها . تأريخياً . فيما هم يجلّونها كل الإجلال!!!؟.

ان خطوة إخفاء الحقائق التأريخية تنمّ عن الخوف من إطّلاع الجمهور على الخفايا والحقائق المحجور عليها منذ ما يربو على اربعة عشر قرن !!وما يعوز أبناء جمهورنا المسلم ، هو الجرأة والإقدام كما فعلت أنا وإكتشفت الخطأ التأريخي الذي وقع فيه قومي خوفاً من مس السلف» الصالح ، «وإتهامهم بالزيغ والانحراف عن وصايا القرآن والرسول الأكرم »سلام الله عليه.«

فالمفروض على أبناء السُنّة والجماعة ، التحرّي الدقيق في ثنايا التأريخ الاسلامي بموضوعية ودون حُكْ مسبق على الامور ، أو إستباق للنتائج ، وانما الولوج والبحث في طيّات التأريخ منذ ال بعثة الشريفة وحتى اليوم ، بهمّة الباحث عن الحق ، والحائر المُستفسر عن الحقيقة ، وعندها ستتضح لهم حقائق كبرى ، وستتغير قناعاتهم السابقة التي تشكّلت بطريقة مغلوطة وبفعل إتّباع الآباء والأجداد والمنهج السُنّي الذي يؤطر حياتهم منذ الصغر.

الخيار الصائب

كل من يقوم بسبْر أغوار التأريخ الاسلامي وكشْف جوانبه الخفية ، خاصة فيما يتعلق ببدايات البعثة النبوية وما رافقها من وقائع ومجريات متلاحقة ، ثم رحيل رسول الله الى بارئه الاعلى ، وما طرأت من حوادث عصيبة أدّت الى نشوء

المذاهب الاسلامية المتعدّدة ، لابد أن يصل الى مفترق طريقين أو خيارين لا ثالث لهما : فإما ان يتبنى تيار الخلفاء والمنهج الذي ينتهجه أصحاب المدرسة السُنّية والذي يؤمن بالمسلّمات التالية:

١ . عدم إستخلاف رسول الله لأحد من بعده ، وانما ترك الأمّة تختار لقيادتها الخليفة والحاكم المناسب ، ليشكّل امتداداً شرعياً للقيادة النبوية في كل وظائفها السياسية والدينية.

٢ . قيام الرسول الهادي» صلوات الله عليه «بتربية جيل واعٍ من الصحابة ذوي المستوى الرفيع من الايمان والتقوى والكفاءة والاستعداد العلمي ، يمكّنه من إدامة المسيرة الاسلامية حتى نهاية المطاف.

٣ . انقسام الخلافة التي اعقبت وفاة رسول الله» صلوات الله عليه «الى مرحلتين:

المرحلة الاولى : مرحلة الخلافة الراشدة التي تمثّل نموذجاً فذاً من الحكم العادل السائر على الهدي النبوي ، متجسّداً في الخلفاء الاربع الاوائل.

المرحلة الثانية : تصدّي حكومات وراثية جائرة ، انحرفت بالمسيرة الاسلامية عن المنهج النبوي الذي مثّلته الخلافة الراشدة ، ونهي بتلك الحكومات ، خلفاء العهدين الاموي والعبّاسي ، حيث نشأت في ظلّهما المذاهب والفرق السُنّية ، سيما المذاهب الاربعة المعروفة التي استوعبت المدارس والاتجاهات العقائدية والفقهية للجمهور السُنّي المسلم.

الطريق أو الخيار الثاني : وهو الذي يطرح روّاده ، النظرية التي تؤكد بأن الخيار الاول يفتقد الى الصدْقية التأريخية ، ويتجاوز الحقائق الناصعة التي تثبت بأن القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، لم يكونا قد منحا الأمّة حق خلافة الرسول »عليه الصلاة والسلام «لأن الأمّة غير قادرة على حمل أمانة استخلاف الدين بعد رحيل خاتم الانبياء ، بل وليس في قدرتها إنتخاب خلفاء لرسول الله والأئمة من بعده ، وانما يكون الاختيار من قبل الله تعالى ، لأنه هو القادر الوحيد على تعيين الأئمة والاوصياء للرسل : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الاحزاب ٣٦ ، (أو قوله : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) ١ ، (وذلك لأنّ الإمامة هي امتداد لوظائف النبوة باستثناء الوحي والكتاب ، على ان الشورى التي تقصدها الآية الكريمة : وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) ٢ ، (لا تعني الخلافة والامامة ، وانما تعني الشؤون العامة التي تخصّ المسلمين ، كما ان الأمّة التي كان الصحابة يشكّلون معظمها في ذلك الوقت ، قاصرة عن تشخيص الصحابي الافضل لحمل الأمانة بإعتراف القرآن الكريم والرسول الأكرم »صلوات الله عليه «والصحابة انفسهم ، ولذلك لم يكن الخلفاء الثلاث

الأوائل في مستوى وكفاءة عليّ بن أبي طالب الذي فاقهم في العلم والقدرة والفقاهة والشجاعة بإقرار الجميع الذين كانوا بحاجة إليه وهو غني عنهم ، خاصة وان الله تعالى قد أمر رسوله» صلوات الله عليه «باعلان ولاية عليّ المطلقة على المسلمين ، ونصّ على انه الخليفة من بعده ، طيلة مسيرته المظفرة ، وبالذات في واقعة الغدير الشهيرة التي سبقت

وفاته» صلوات الله عليه «بقليل ، فضلاً عن تذكيره بأهل بيته ، الثقل الآخر للقرآن ، وسفينة نوح ، الذين لا يحيدون عن سنّته ابداً ، ويتمسّكون بها ـ حرفياً ـ دون السنن الأخرى المخالفة لها ، وان الأئمة والخلفاء من بعده ، اثنا عشر خليفة وإماماً الذين تتبعهم الشيعة وتسير على نهجهم في الحياة ، هذا ناهيك عن تأكيده بأن علياً وشيعته هم الفائزون يوم القيامة ، وبذلك قد حدّد) صلوات الله عليه (الفرقة الناجية دون الفرق الاخرى الهالكة.

وأي مسلم واعٍ حين يتمعّن في هذين الخيارين ، ويوازن بينهما بدون أية خلفية مُسبقة ، سيتضح لديه الحق المحض ، والطريق الأسلم والخيار الأنجى في الآخرة ، أي الخيار الثاني الذي يتمثّل بإتّباع أهل البيت النبوي بأمر من الله تعالى عبر نبيّه الكريم» صلوات الله عليه «وإتخاذهم قادة وأئمة في الدين ، لا ينبغي تجاوزهم الى الآخرين الذين لم يشر إليهم رسول الله من قريب أو بعيد ، وبذلك يقف المرء عند ثوابت الدين وحقائق القرآن والتأريخ دون اللهاث خلف شخصيات وإتجاهات ومذاهب وفِرَق ما أنزل الله بها من سلطان ، كما ثبت في البحث الآنف الذكر.

وأشرقت شمس الحقيقة

وهكذا زالت الغشاوة عن الأعين ، وانجلى الظلام الذي صبغ كل شيء أمام الأبصار باللون الأسود القاتم ، حيث كان الجمهور المسلم يتخبط ويسير في طريق وعرة ، لم تزد مسيره إلا ابتعاداً وافتراقاً عن الحق الذي كان كالشمس الساطعة في وسط النهار ، وكان الفرد المسلم كالأعمى لا يشعر بوجودها بالرغم من انها تغمر كل الاشياء بالبياض الناصع.

لقد آن الاوان لتُعد إلى الجمهور بصيرته ، ويشخص طريقه الذي كان يلتوى في منعرجاته دون هدى.

كم كان هؤلاء سذجاً؟ وكم كان رموزهم ولا يزالون سُذَّجاً حين اتّبعوا آباءهم بدون تفكير ولا تدبّر ولا روية ... متى يقرّ اتباع السنّة بأنهم كانوا يمشون مكبّين على وجههم ـ دون علمهم ـ معتقدين بأنهم على صراط مستقيم ، جاهلين بأنهم يسيرون على نقيض الحق ، وفي طريق متعرّجة ، تكاد تهوي بهم في وادٍ سحيق ، لولا توفيق الله ورحمته ولطفه الذي سيشملهم ، فيخرجهم من العمى والضلالة إلى نور الهداية.

كان آباؤه وأجدادهم والرموز الدينية التي كانوا يقدّسوها بدون وعي ، قد أدخلوا في روعهم وعقولهم وقلوبهم بأن مذهب أهل السُنّة والجماعة هو أصوب المذاهب الاصولية والفقهية وأحقها وأقربها للقرآن والسُنّة النبوية ، وانه وحده ينجيهم

في الآخرة ، دون سائر المذاهب الأخرى ، وخاصة المذهب الشيعي الذي كان يُوصَف لهم بأنه مذهب الرافضة ، وأتباعه أهل البدع والضلالات) هكذا (وانهم إدّعوا في أئمتهم ما ليس فيهم من القدرات الدينية والعلمية والفقهية ، بينما هم إمتداد لرسول الله ، ويتعبّدون بأقوالهم كما لو انها أقوال الرسول صلىاللهعليهوآله ، فيما وصف آخرون

الشيعة بأنهم كَفرة ليس لهم صلة بالاسلام ، فهم يسبّون الصحابة والخلفاء ، ومذهبهم كله بدع وأباطيل ، وفقههم شاذ عن المذاهب الأخرى.

وبعد التدبّر في حجج واستدلالات كلا الفريقين ، السُنّي والشيعي ، المُستقاة من كتب الجمهور المعتبرة ، إتّضح الحق وحصحص ، إذ كانت هناك مؤامرة واسعة ضد أهل بيت الرسول صلىاللهعليهوآله لتحجيم دورهم القيادي والديني ، ليصبحوا كسائر المسلمين ، عدا بعض الفضائل والمناقب التي مجدّتهم بها كتب الرواية ، ولا تخرج عن الورق إلى حيز الواقع ، والصحابة لهم أيضاً مناقب وفضائل» جليلة .«وكذلك الخلفاء الذين جاؤوا بعد الرسول صلىاللهعليهوآله ، ووصفوهم بالراشدين ، ليقدّسوا ممارساتهم وأقوالهم وأحكامهم التي كانت في الكثير منها ، تخالف السُنّة النبوية ، وبذلك كسوْها رداء الشرعية من خلال منحها» قَداسة «وإنها سُنّة تُضاف إلى السُنّة النبوية الشريفة.

تفتّحت كل الأبواب التي كانت موصدة أمام الاعيان والقلوب والضمائر ، ولم يُعدْ يخفى شيء أمامها ، بعدما كانت تمتلأ رَيناً بفعل معلومات مغلوطة ومزيّفة ، كانت تحسبها ، حقائق دامغة لا تقبل الشك أو النقاش ، وردت إلى أبناء الامّة ممن يسمّونهم بـ»السلف الصالح.«

لم يكن أحد يفكّر يوماً ما أن تكون الأسس . التي قام عليها بنيان المذهب السُنّي . أسساً وهمية مصطنعة ، ليس لها وجود على أرض الواقع ، وإنما افتعلها أتباع التيار

الحاكم ، خصوصاً في العهد الأموي ، وجعلوا منها البديل لأهل البيت النبوي الذين أوصى بهم رسول الله كخلفاء وأئمة من بعده.

فإذا هذه الأسس والأعمدة المصطنعة ، تتهاوى أمام الناظرين ، واحدة تلو الأخرى ، لينهار البناء دفعة واحدة ، ويصبح هباءً منثوراً.

أهم مصادر الكتاب

١ . صحيح البخاري . أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . دار الفكر . بيروت.

٢ . صحيح مسلم . مسلم بن الحجاج . دار الفكر . بيروت.

٣ . فتح الباري . ابن حجر . دار المعرفة الطباعة والنشر . لبنان.

٤ . كشف الظنون . حاجي خليفة . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٥ . سير أعلام النبلاء . الذهبي . مؤسسة الرسالة . بيروت . ١٩٩٣ م.

٦ . تأريخ مدينة دمشق . ابن عساكر الدمشقي . دار الفكر.

٧ . البداية والنهاية . أبو الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٨ . تأريخ بغداد . أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٩ . تهذيب الكمال في أسماء الرجال . أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المِزّي . جامعة بغداد . مؤسسة الرسالة.

١٠ . التأريخ الصغير . أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . دار المعرفة . بيروت.

١١ . تأريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام . أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . دار الكتاب العربي . بيروت.

١٢ . تذكرة الحفاظ . أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

١٣ . سنن الترمذي . أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . دار الفكر . بيروت.

١٤ . الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير . جلال الدين السيوطي . دار الفكر . بيروت.

١٥ . الفتاوى الكبرى . ابن تيمية . دار الكتب العلمية . بيروت.

١٦ . مجموعة الفتاوى . ابن تيمية . طبعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

١٧ . المعجم الكبير . الطبراني . الطبعة الثانية.

١٨ . تفسير الجامع لاحكام القرآن . القرطبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

١٩ . نهاية الأرب في فنون الادب . النويري . المؤسسة المصرية العامة للتالف والطباعة والنشر . القاهرة.

٢٠ . الدر المنثور في التفسير بالمأثور . جلال الدين السيوطي . دار الفكر . بيروت.

٢١ . فتح القدير . الشوكاني . عالم الكتب.

٢٢ . نواسخ القرآن . ابن الجوزي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٢٣ . المجموع . النووي . دار الفكر . بيروت.

٢٤ . سنن الدارمي . مطبعة الاعتدال . دمشق . ١٣٤٩ هجرية.

٢٥ . مسند ابي داود الطيالسي . سليمان بن داود بن الجارود البصري . دار المعرفة . بيروت.

٢٦ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٢٧ . السنن الكبرى . أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي . دار الفكر . بيروت.

٢٨ . زاد المسير . ابن الجوزي . دار الفكر . بيروت.

٢٩ . سنن النسائي . أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي . دار الفكر . بيروت.

٣٠ . كنز العمال في سنن الاقوال والافعال . علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي . مؤسسة الرسالة . بيروت.

٣١ . المعجم الاوسط . الطبراني . دار الحرمين.

٣٢ . الموطأ . الامام مالك بن أنس . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٣٣ . الاصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني . دار الكتب العلمية . بيروت.

٣٤ . تأويل مختلف الحديث . أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . دار الكتب العلمية . بيروت.

٣٥ . طبقات الحنابلة . محمد بن ابي يعلى . دار المعرفة . بيروت.

٣٦ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال أصحاب الشريعة . البيهقي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٣٧ . سنن ابن ماجة . أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني . دار الفكر . بيروت.

٣٨ . مسند أحمد . الامام أحمد بن حنبل . دار صادر . بيروت.

٣٩ . المحلى . ابن حزم . دار الفكر . بيروت.

٤٠ . ميزان الاعتدال في نقد الرجال . ابن عثمان الذهبي . دار المعرفة . بيروت.

٤١ . تفسير الثعالبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٤٢ . الطبقات الكبرى . محمد بن سعد كاتب الواقدي . دار صادر . بيروت.

٤٣ . نيل الاوطار . الشوكاني . دار الجيل . بيروت.

٤٤ . الأدب المفرد . البخاري . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت.

٤٥ . تأريخ الامم والملوك ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . طبعة مصورة عن نسخة مطبعة» بريل «بمدينة ليدن . سنة ١٨٧٩ م.

٤٦ . الاستيعاب في أسماء الاصحاب . أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي . دار الجيل . بيروت.

٤٧ . لسان الميزان . ابن حجر العسقلاني . مؤسسة الاعلمي للمطبوعات . بيروت.

٤٨ . ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى . محب الدين الطبري . مكتبة القدسي . مصر.

٤٩ . سنن الدارقطني . دار الكتب العلمية . بيروت.

٥٠ . المصنف . أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني . منشورات المجلس الاعلى.

٥١ . تمهيد الاوائل الباقلاني . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت.

٥٢ . المصنف في الاحاديث والآثار . ابن أبي شيبة الكوفي . دار الفكر . بيروت.

٥٣ . مسند أبي يعلى الموصلي . دار المأمون للتراث . دمشق.

٥٤ . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري . مطبعة مصطفى الحلبي . مصر.

٥٥ . إمتاع الأسماع . المقريزي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٥٦ . أسباب النزول . ابو الحسن الواحدي النيسابوري . مؤسسة الحلبي . دار الاتحاد العربي للطباعة . القاهرة.

٥٧ . تذكرة الحفاظ . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٥٨ . تأريخ القرآن الكريم . محمد طاهر الكردي . مطبعة الفتح . جدة . السعودية.

٥٩ . المغني . عبد الله بن قدامة . دار الكتاب العربي.

٦٠ . الفجر الصادق . الزهاوي . مطبعة الواعظ . مصر.

٦١ . جامع البيان في تفسير القرآن . ابن جرير الطبري . دار الفكر . بيروت.

٦٢ . تأريخ المختصر في أخبار البشر . أبو الفداء . دار المعرفة . بيروت.

٦٣ . السيرة النبوية . ابن هشام . مكتبة محمد علي صبيح . مصر.

٦٤ . الاحكام . الآمدي . مؤسسة النور . المكتب الاسلامي . الطبعة الثالثة . بيروت.

٦٥ . تقييد العلم . دار إحياء السُنّة النبوية.

٦٦ . العواصم من القواصم . ابو بكر بن العربي . الدار السعودية للنشر . جدة.

٦٧ . أنساب الأشراف . أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري . دار المعارف . القاهرة.

٦٨ . تأريخ اليعقوبي . أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي . دار صادر . بيروت.

٦٩ . الامامة والسياسة . أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . تحقيق الدكتور طه الزيني . مؤسسة ابن الحلبي وشركاه . مصر.

٧٠ . أحكام القرآن . الجصاص . دار الكتب العلمية . بيروت.

٧١ . البرهان . الزركشي . دار إحياء الكتب العربية.

٧٢ . تأريخ الخلفاء . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . دار التعاون . مكة المكرمة.

٧٣ . تأريخ ابن خلدون . أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٧٤ . اللمع في أسباب ورود الحديث . السيوطي . دار الفكر.

٧٥ . الثقات . ابن حبان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدرآباد . الهند.

٧٦ . التذكرة الحمدونية . ابن حمدون . دار صادر . بيروت.

٧٧ . المنتظم في تأريخ الملوك والأمم . ابن الجوزي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٧٨ . كتاب الاوائل . الطبراني . دار الفرقان . مؤسسة الرسالة . بيروت.

٧٩ . مروج الذهب ومعادن الجوهر . دار الكتب اللبنانية . بيروت.

٨٠ . ضعفاء العقلي . العقيلي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٨١ . التأريخ الكبير . أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري . طبع تحت إشراف الدكتور محمد عبد المعيد خان.

٨٢ . الاحكام . ابن حزم . مطبعة العاصمة . القاهرة.

٨٣ . نصب الراية . الزيلعي . طبع دار الحديث . القاهرة.

٨٤ . طبقات الشافعية الكبرى . تاج الدين السبكي . دار إحياء الكتب العربية.

٨٥ . مفتو المزني . اسماعيل المزني . دار الطباعة . بيروت.

٨٦ . شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب . ابن العماد الحنبلي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٨٧ . العبر في خبر من غبر . الذهبي . دار الكتب المصرية . الكويت.

٨٨ . الكامل في ضعفاء الرجال . أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني المعروف بابن عدي . دار الكفر . بيروت.

٨٩ . الذيل على طبقات الحنابلة . عبد الرحمن بن احمد الحنبلي . دار المعرفة . بيروت.

٩٠ . فيض القدير . المناوي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٩١ . الشرح الكبير . عبد الرحمن بن قدامة . دار الكتاب العربي.

٩٢ . تنوير الحوالك . السيوطي . دار الكتب العلمية . بيروت.

٩٣ . النكت على كتاب ابن الصلاح . ابن حجر . دار الكتب العلمية . بيروت.

٩٤ . شرح معاني الآثار . الطحاوي . دار الكتب العلمية.

٩٥ . الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة . أحمد بن حجر الهيتمي المكي . مكتبة القاهرة . القاهرة.

٩٦ . تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلاني . دار الفكر . بيروت.

٩٧ . تفسير البيضاوي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٩٨ . فتاوى السبكي . دار المعرفة . بيروت.

٩٩ . المبسوط . السرخسي . دار المعرفة بيروت.

١٠٠ . مسند ابن راهويه . مكتبة الايمان . المدينة المنورة.

١٠١ . إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . دار الكتاب العربي . بيروت.

١٠٢ . مسند الشاميين . الطبري . مؤسسة الرسالة . بيروت.

١٠٣ . دعائم الاسلام . القاضي النعمان . دار المعارف . القاهرة.

١٠٤ . الفرْق بين الفِرَق . عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفراييني . دار المعرفة . بيروت.

١٠٥ . زاد المسير في علم التفسير . ابن الجوزي . دار الفكر . بيروت.

١٠٦ . تفسير ابن كثير . أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي . دار المعرفة . بيروت.

١٠٧ . علل الدارقطني . الدارقطني . دار طيبة . الرياض.

١٠٨ . تفسير ابن أبي حاتم . دار الفكر . بيروت.

١٠٩ . كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب . أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد الكنجي الشافعي . دار الكتاب العربي.

١١٠ . تاج العروس من جواهر القاموس . محمد مرتضى الزبيدي . دار الفكر.

١١١ . فضائل الصحابة . النسائي . دار الكتب العلمية . بيروت.

١١٢ . صحيح ابن خزيمة . المكتب الاسلامي.

١١٣ . الكتاب المقدس . العهد القديم . دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

١١٤ . كشف المشكل . ابن الجوزي . دار الوطن للنشر . الرياض.

١١٥ . تقريب التهذيب . ابن حجر العسقلاني . دار المكتبة العلمية . بيروت.

١١٦ . مسند ابي يعلى . دار المأمون للتراث . دمشق.

١١٧ . المستصفى . أبو حامد الغزالي . دار الكتب العلمية . بيروت.

١١٨ . هوية التشيع . دار الصفوة . بيروت.

١١٩ . أدب الاملاء . السمعاني . دار ومكتبة الهلال . بيروت.

١٢٠ . الكفاية في علم الرواية . دار الكتاب العربي . بيروت.

١٢١ . بحار الانوار . المجلسي . مؤسسة الوفاء . بيروت.

١٢٢ . تفسير التبيان . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

١٢٣ . مجمع البيان . مؤسسة الاعلمي للمطبوعات . بيروت.

١٢٤ . آلاء الرحمن . مطبعة العرفان . صيدا.

١٢٥ . أوائل المقالات في المذاهب والمختارات . الشيخ المفيد . دار المفيد . بيروت.

١٢٦ . البيان في تفسير القرآن . دار الزهراء . بيروت.

١٢٧ . المعارف . ابن قتيبة الدينوري . دار المعارف . القاهرة.

١٢٨ . نهج البلاغة . دار المعرفة . بيروت.

١٢٩ . عيون أخبار الرضا . الشيخ الصدوق . مؤسسة الاعلمي للمطبوعات . بيروت.

١٣٠ . الارشاد . الشيخ المفيد . دار المفيد . بيروت.

١٣١ . الانتصار . العاملي . دار السيرة . بيروت.

١٣٢ . أعيان الشيعة . دار التعارف . بيروت.

١٣٣ . الفتوح . ابن الاعثم . دار الاضواء . بيروت.

١٣٤ . تأريخ الأدب العربي . الدكتور عمر فروخ . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الرابعة ١٩٨٤ م.

١٣٥ . أدب الاختلاف في الاسلام . الدكتور طه جابر العلواني . الطبعة الثانية . المحاكم الشرعية والشؤون الدينية . قطر ١٤٠٦ م.

١٣٦ . المذاهب الفقهية . الدكتور محمد فوزي فيض الله . منشورات مكتبة البيت . الكويت ١٩٨٥ م.

١٣٧ . الامام جعفر الصادق . عبد الحليم الجندي . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية . القاهرة . ١٩٧٧ م.

١٣٨ . الدر المختار على صدر المحتار . مطبعة شركة ايج ايم سعيد . كراتشي.

١٣٩ . الفقه على المذاهب الاربعة . دار الكتب العلمية . بيروت.

١٤٠ . أعلام الموقعين عن رب العالمين . ابن قيم الجوزية . دار الجبل . لبنان.

فهرس المحتويات